العنف
في كل مكان من حولنا

جون سيفتون

نقله إلى العربية

داود سليمان القرنة

تيسير نظمي خليل

العبيكان
Obeikan

Original Title
Violence All Around

Author:
John Sifton
Copyright © 2015 by John Sifton

ISBN-13: 978-0674057692
All rights reserved. Authorized translation from the English language edition
Published by Harvard University Press Arrangement with DARCHERLIN AGENCY 1275 N. USA
حقوق الطبعة العربية محفوظة للعبيكان بالتعاقد مع مطابع جامعة هارفرد، الولايات المتحدة.
© العبيكان Obeikan 2015 _ 1436

ح
شركة العبيكان للتعليم، 1437هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
جون سيفتون
العنف في كل مكان من حولنا / جون سيفتون؛ تيسير نظمي ـ الرياض 1437 هـ
312 ص؛ 16.5×24 سم
ردمك: 7 ـ 066 ـ 509 ـ 603 ـ 978
1ـ طالبات (حركة اسلامية) ، 2ـالحروب تاريخ أ. نظمي، تيسير (مترجم) ب. العنوان
ديوي: 958,104 رقم الإيداع: 3970 / 1438

الطبعة العربية الأولى 1438هـ ـ 2017م

الناشر العبيكان Obeikan للنشر

المملكة العربية السعودية ـ الرياض ـ المحمدية ـ طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: 4808654 فاكس: 4808095 ص.ب: 67622 الرياض 11517

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpublishing.com

كتبنا على جوجل Google play
https://t.co/8r2O53H3B3

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية ـ الرياض ـ المحمدية ـ طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: 4808654 ـ فاكس: 4889023 ص. ب: 62807 الرياض 11595

جميع الحقوق محفوظة للناشر. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

المحتويات

مقدمة 5

الجزء الأول الأفعال 11

الفصل الأول: صحراء الواقع 13

الفصل الثاني: الحملات العسكرية ونتائجها 33

الفصل الثالث: العنف عن بعد 65

الفصل الرابع: حدود العنف البعيد 89

الجزء الثاني الأقوال 129

الفصل الخامس: مسرح القوة 131

الفصل السادس: تعريف العنف 155

الفصل السابع: التعذيب 179

الفصل الثامن: عنف اللاعنف 213

الفصل التاسع: الغضب 255

الفصل العاشر: الإرهاب بصفة العدالة 273

الفصل الحادي عشر: التغيير 291

مقدمة

تعود فكرة هذا الكتاب زمنيًّا ومكانيًّا إلى الأيام الأخيرة لطالبان في أفغانستان.

وتحديدًا إلى ربيع وصيف عام 2001م، عندما بدأت لأول مرة أفكر في موضوعات هذا الكتاب وقضاياه، وشرعت أكتب ما يظهر هنا بين دفتيه. كنت قد سافرت إلى كوسوفو عام 1999م، وعملت في الأماكن المضطربة الأخرى في العقد ما بعد 2001م مثل الباكستان، والهند، ومصر، وجنوب الفلبين، وفي الغالب كنت أعمل مع منظمة حقوق الإنسان (هيومان رايتس ووتش) غير أن الحقائق في واقع أفغانستان تحت حكم طالبان كانت فريدة من نوعها، وكانت التجربة، بكلمة واحدة، مستفزة. وقد كان ذلك الاستفزاز هو الجنين الذي انبثقت عنه ولادة هذا الكتاب.

في ذلك الوقت، كانت أفغانستان وشعبها في حالة من الخراب، ومثل أسلافهم في القرون الغابرة، معظم الأسر الريفية كانت تعيش في ظروف فقر مدقع، بالكاد يجاهدون من أجل العيش من الأرض والقطيع. التقيت عائلات مثقلة بالديون من الحرب التي عانتها البلاد خلال عقود من الزمن، وهذه الديون أصبحت سارية المفعول على الأقنان المعاصرين اليوم، وملزمة لملاك الأراضي جماعيًّا ولأصحاب المشروعات الاستغلالية. والوضع الاجتماعي والاقتصادي في البلاد ينطوي على مفارقة تاريخية، فالكثير من سكان المدن أصبحوا يعيشون في المنفى؛ هربًا من أصولية طالبان التي لم يسبق لها مثيل. ونتيجة لذلك، عانت البلاد شعورًا بالهلاك، فالناس، خاصة سكان المدن والنساء على وجه الخصوص، يتسللون إلى أعمالهم تسللًا؛ خوفًا من التعسف والعقوبات القاسية

للنظام. كل شاب في مقتبل العمر أصبح ملتحيًا، وكل امرأة ترتدي الشادور، حتى في كابول – خصوصًا في وسطها – المكان الذي في وقت سابق وقبل عقود من الزمن كان يعجّ بالسيارات التي تمخر الشوارع المعبدة، وتحمل نساء يرتدين التنانير ورجالًا حليقي الذقون يرتدون سترات نظيفة.

المشهد في عهد طالبان بات صورة متنافرة؛ فرجال الخدمة المدنية الماركسيون أعيد صنعهم ليكونوا رجال دين، والشباب بالكاد يعرفون القراءة والكتابة، والملتحون الطالبان في العشرينيات من العمر، يخدمون حكامًا للمقاطعات، ويقودون الشاحنات الجديدة بزجاج معتم، وفروع الأشجار التي كانت مثقلة بأميال من أشرطة الفيديو أو الكاسيت التي كانت ترفرف صودرت من قِبَل طالبان، أو جرى مسحها، ومسار الحضارة إلى الأمام جرى تعطيله، كأن قادة طالبان حاولوا وقف الزمن وإعادته إلى الوراء، لكنهم فشلوا، وكان الجهد ينتج قوة شد، مثل الشريط المطاطي الممغوط فوق طاقته، وكلما سار الوقت الحقيقي أصبح التناقض بين ما يريده طالبان وبين الحقيقة الأساسية لا يمكن إصلاحه، وقد كتبت مقالًا عن تلك المرحلة لصحيفة نيويورك تايمز ماغازين عام 2001م بعنوان (الدوار الزمني Temporal Vertigo).

لم تكن وحشية حكم طالبان مرئية في جميع الأوقات، فالمارّة لا يرون بشكل روتيني النساء، وهن يُضربن علنًا؛ لكشفهن عن الكاحلين، ولا الجواسيس الذين تتدلى أعناقهم من أعمدة الإنارة، لكن مثل هذه الأشياء شوهدت ذات مرة، وكان ذلك مشاهدًا بما فيه الكفاية، فطالبان عندما يختارون، يبدون قادرين على أي شكل من أشكال التفاهة، فقد أمروا، على سبيل المثال، بتدمير جميع الصور والأعمال الفنية التي تصور الحيوانات أو البشر، وليس فقط منع التصوير، ولكن إيفاد الشرطة لتدمير تسجيلات الفيديو وتحطيم التماثيل، وقطع الوجوه عن الأعمال الفنية في المتاحف، وأصدرت القيادة قوائم بالمواد المحظورة بما في ذلك طلاء الأظافر، وجراد البحر والكركند، وكاتالوجات الخياطة،

والأشياء المصنوعة من الشعر البشري. هذا المزيج من التقلب والقدرة على الوحشية لا يضاهي أي شيء على ما يبدو، فيمكن أن يحدث في أي وقت.

كان ملهمًا، مع ذلك، أن ترى الأفغان العاديين يتدبرون أمور عيشهم في ظل نظام قمعي، وأن ترى عمال الإغاثة المحليين يخاطرون بحياتهم في التنقل عبر اكفهرار طالبان لعلهم يتمكنون من استعادة الشعور باحترام الإنسانية الأساسية. معظم ما يلي في هذا الكتاب يركز على الأحداث التي شهدتها بنفسي عام 2001م، وما تعلمته من دوري بصفتي واحدًا من موظفي منظمة هيومان رايتس ووتش في الدرب الطويل والرهيب والمستمر الذي قطعته في أعقاب هجمات 11 سبتمبر/ أيلول. واحد من الأشياء التي تعلمتها هو أن الأصوليين الدينيين ضعيفي التعليم لا يحتكرون عدم الكفاءة أو السذاجة. لقد رأيت مباشرة كيف أنه حتى على أعلى المستويات الحكومية في العالم لمعظم الدول القوية، وبين الناس المتعلمين تعليمًا عاليًا والمتفانين في عملهم، وفي القضايا المهمة المتعلقة بالعنف وصنع القرار وفي - الأمن القومي والحرب والإرهاب، ومناهضة الإرهاب - يمكن أن يوجد وبشكل ملحوظ من هم قصار النظر.

لكن هذا ليس كتابًا عن كيف تعلمت أن الجيوش مثيرة للسخرية، أو أن الحروب جهنمية، وأن السياسيين مخادعون، وكل ذلك. وأنا لا أريد الندب واللوم. هذا كتاب حول كيف بدأت لأول مرة أنظر عن كثب في - العنف - بوصفه ظاهرة بشرية تقع في الغالب قريبًا من قلب كل شيء شهدته بعد 11 سبتمبر/ أيلول. في عملي في السنوات التي أعقبت 2001م، وفي التحقيق في جرائم الحرب وجرائم ضد الإنسانية، وفي الإرهاب، وفي التعذيب وفي التفجيرات، وفي فوضى الانفلات الأمني، كان الموضوع الموحد هو العنف، وفي نهاية المطاف، وجدت نفسي أفكر في العنف نفسه: ما هو؟، ما الذي يفعله؟، وكيف نفكر، ونتكلم عنه؟

تحتوي فصول الكتاب الأحد عشر هنا على الملاحظات المستمدة من عملي في هيومان رايتس ووتش، إلى جانب التعليقات، والتاريخ العسكري، والخبرة الشخصية. ورواياتي تبدأ من أيام طالبان خلال عملي في التحقيقات مع الجماعات الإرهابية ومكافحة الإرهاب والانتهاكات على أيدي أجهزة المخابرات، مثل وكالة المخابرات المركزية CIA، وتنتهي مع الاضطراب السياسي والاجتماعي واسع النطاق الذي بدأ عام 2011م في تونس ومصر، ليبيا وسوريا، ليظل موضوع العنف تحت المجهر طوال الوقت، حيث ألجأ إليه بطريقة أو بأخرى في كل فصل تقريبًا، مناقشًا، على سبيل المثال، تاريخ الحملات العسكرية، وسيكولوجية القتل واللغويات في الحرب، وتاريخ القوة الجوية العسكرية ونظريات اللاعنف، ومختلف المسائل الأخرى التي تثيرها هذه الموضوعات. لماذا يقوم البشر جميعًا بالعنف؟ لماذا يجد الناس صعوبة في قتل الآخرين؟ ما الإرهاب؟ لماذا نحن مفتونون بالحرب؟ ولماذا إثارة الكثير من الفائض؟ ليس فقط في المذبحة، ولكن في الحيلة المسرحية التي تلازمها، وفي الخطابة المجهدة لها، وفي التقاليد الأدبية، أو في العناد الشرس لكل من المدنيين والمقاتلين الذين، مثل الطيور العصبية التي تدفن رؤوسها في الرمال، نقمع الفكر الحقيقي أو الذاكرة من كل ذلك؟

لست فيلسوفًا ولا دارسًا للتاريخ العسكري، ولكنني يمكن أن أقول: أنت تتعلم شيئًا عن العنف من خلال مقابلة الضحايا والجناة على حد سواء، وسوف تتغير إلى الأبد من خلال مراقبتك لآثاره الجسدية والنفسية القريبة منك، وإذا كان تأليف كتاب هو، في التحليل النهائي، عمل من أعمال الاستئثار، فإن المأثرة في هذا الكتاب هي ما تعلمته من البحث والتأمل في العنف، التي ستكون مثيرة لاهتمام الآخرين. وعلى أي حال، إن العنف مثير للاهتمام.

التاريخ البشري، والأدب، وعلم النفس، والثقافة الشعبية في كل المناطق تقريبًا والتقاليد، تمتد مع العنف في نموذج واحد أو آخر. الملاحم الشهيرة - ماهابهاراتا، الإلياذة، بيوولف - كلها قصص من الحرب، والأدب في جميع العصور يصور ملامح

العنف، وساحات القتال، والمعارك بالسيوف. الإشارات للعنف من حولنا نجدها، في الرموز الدينية وفي الشعارات الوطنية، وفي العلامات اليومية البريئة: الصليب المسيحي، و في كومة السهام في مخلب النسر، وفي الأوتاد البيضاء المدببة على سور الجيران، فالعنف ينتشر حتى في أساطير الخلق لدينا. قابيل، الابن الأول للإنسان، يذبح شقيقه الأصغر هابيل. (الإله) المصري أوزوريس مقتول من قِبل شقيقه، والإله الهندوسي شيفا يقتل ياما (رب) العدالة والآخرة. و(الإله) اليوناني زيوس يلتهم رفيقته ميتس، وهي حامل بابنته أثينا، التي تنفجر خارجة من رأس زيوس ناضجة تمامًا، مسلحة بسيف.

إن التاريخ المدون تهيمن عليه الحروب وجرائم القتل؛ لأن تلك الحروب وجرائم القتل لها عواقبها: ليس فقط الناس من يموتون فيها، ولكن لأن الحكومات تنهار، والحدود تتغير، ويُجبر الناجون منها على اعتناق الأديان أو الأيديولوجيات الجديدة. فالعنف يجعل الأشياء تحدث. والدافع وراء المثل العليا لحقوق الإنسان والحريات الذي يسوقها إلى الأمام هو أعمال العنف، فالملك جون وقع صك إرساء الحرية -الماغنا كارتا- عام 1215م ليس لأنه ورعاياه مستنيرون، ولكن لأن البارونية الإنجليزية كانت في ثورة عنيفة تزحف نحو لندن وعلى وشك الإطاحة به. والأمم المتحدة لم تخلق ذاتها بذاتها، لكن أعضاؤها أعلنوا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان؛ لكون العالم مزق نفسه إربًا إربًا بشكل غير مسبوق بحمام دم من الصراع والإبادة الجماعية.

لكننا عندما ندرس العنف، فإننا نميل إلى رؤيته في الغالب من حيث السبب والنتيجة. ونادرًا ما ننظر مباشرة في العنف نفسه. لماذا يحدث هذا؟ جون كيغان يطرح سؤالًا مماثلًا في سياق التاريخ العسكري، ويفكر لماذا كثيرًا ما يتردد المؤرخون العسكريون في دراسة الحرب نفسها. في كثير من الأعمال، أشار كيغان إلى أن كثيرين من زملائه قد يكتبون في موضوعات عسكرية متنوعة، عن الإستراتيجية، والتضاريس، وعن مفاتيح لشخصيات وجنرالات في كل شيء، على ما يبدو، ولكن ليس عن العنف نفسه. هذه النقطة تبرز للعيان خصوصًا في نقد كيغان لكارل فون كلاوزفيتز ولمقولته

المشهورة عن الحرب بصفتها «استمرارًا للسياسة بوسائل أخرى»، أو باعتماد ترجمة أكثر دقة، استمرارًا للسياسة «مع اختلاط في الوسائل الأخرى». من وجهة نظر كيغان، مقولة كلاوزفيتز المأثورة تخفي الطبيعة الحقيقية للحرب الكامنة في العمل الذي في متناول اليد، ألا وهو العنف. فالعنف ليس مجرد وسيلة أخرى تخلط في كيس أدوات واضعي السياسات، كما يعتقد كيغان، ولكنها شيء أكثر من ذلك بكثير: ديناميةالإنسان التي تؤثر في المجتمعات، ولديه القدرة لتولي السياسات. كلاوزفيتز والعسكريون من زمنه، وبعبارة كيغان، يتأثرون بالقرن التاسع عشر وتحيزاته وبفكرة العنف المنظم جيدًا الذي يقوم به الجنود على يد سلطات سيادية. وعلى هذا النحو، لم يكونوا قادرين على «التأمل أكثر قدمًا، والأكثر قتامة في الجوانب الأساسية لمهنتهم».

العنف في كل مكان حولنا، ليس في ويلات الحرب والإرهاب فحسب، ولكنه في الهياكل الاجتماعية الأساسية من الشرطة والمحاكم، وحراس الأمن. وعلى الرغم من كل هذا الانتشار، فإنه في كثير من الأحيان غير معترف به. النقطة الأساسية في هذا الكتاب هي أن العنف شيء أكبر من الحدث في الوقت المناسب، شيء له أكثر من سبب أو أثر، شيء أكثر من مجرد مجموعة من الأحداث المادية. العنف في جميع أبعاده يكشف الحقائق الأعمق من تاريخ البشرية والعالم المادي، وما يدور حول السبب والنتيجة نفسها. حتى يمكن البدء في التعامل مع هذه الحقائق، مع ذلك، فنحن في حاجة إلى أن ننظر في العنف نفسه عن كثب، كما يحدث في الحياة الفعلية؛ ويجب علينا تشريح العنف والنظر في عناصره الفردية، وهذا ما حاولت القيام به هنا.

* * *

الجزء الأول
الأفعال

يقولون: «في البدء كانت الكلمة».

توقفت تمامًا عند العبارة أعلاه. هذا هراء لا معنى له. الكلمة لا تستحق أسمى الجوائز، فيجب عليّ أن أترجمها خلاف ذلك- غوته، من مسرحية (فاوست).

الفصل الأول

صحراء الواقع

في وقت متأخر من بعد الظهر في وسط مدينة قندهار، مارس/ آذار 2002م، بعد ستة أشهر من هجمات 11 سبتمبر/ أيلول، كنت أقود سيارتي في الشوارع مع ثلاثة من زملائي من هيومان رايتس ووتش: بيل أركين، وروبن بريجيتي، وبوني دوهرتي، وثلاثتهم باحثون في قسم الأسلحة، الذي يركز على القضايا القانونية والتكنولوجية المتصلة بالأسلحة. كنا نعمل على تقرير عن سقوط ضحايا من المدنيين في أثناء قيادة الولايات المتحدة للعمليات الجوية في أفغانستان في أواخر عام 2001م، وعلى تحليل سلوك كل من القوات العسكرية الأمريكية وحركة طالبان في زمن الحرب، وتقييم العواقب الإنسانية الأوسع للحرب. كنت في قندهار منذ أسبوع، وكان زملائي قد وصلوا توًّا، كنت أبيّن لهم القصف لأهداف رئيسة في الأشهر التي مضت وغيرها من المواقع المختلفة على طول الطريق، لافتًا نظرهم إلى تخطيط المدينة، ونحن نرتطم بالحفر أكثر فأكثر:

هو ذا بريد چوك -ا شاهدان؛ أي الساحة المركزية. وهناك المسجد الأحمر، وهنا مكتب المحافظ، وهناك بعض الشبان قد يكونون من طالبان. شرذمة من الميليشيات الأفغانية تتولى حراسة التقاطعات الرئيسة، في حين جلس شرطي مرور نظامي مرتديًا قفازات بيضاء على كرسي من البلاستيك على الدوار، يشرب الشاي، ملوحًا بين الفينة والأخرى لتوجيه الشاحنات المارة، وبين حين وآخر تمر قافلة صغيرة من الجنود

الأمريكيين في شاحنات تشيفي المظلمة، ورجال مفتولو العضلات ملتحون بثياب القوات شبه العسكرية، وبنظارات شمسية مختلطة للتمويه بلمسات من الأزياء المحلية: بوشاح بني أو بقبعة من الصوف، وحمير تجر عربات من الكزبرة والطماطم إلى السوق ما بين العربات وسيارات الأجرة الصفراء والبيضاء اللون. الشاحنات والحافلات تتوغل خلال كابول أو كويتا تجاه إيران أو تركمانستان، مزينة ومجهزة على نمط جنوب آسيا: برسم اليد وبألوان مشرقة مع جداريات وتصاميم نابضة بالحياة، وآليات التشغيل مزدانة بهامش من السلاسل الصلبة والحلي التي تصلصل مع حركة المركبات، وأبواق سيارات الأجرة التي تقرع كالطبول.

شرعنا نفكر بعد ذلك في الأعمال العدائية بصيغة الفعل الماضي: (الحرب) وقعت في العام السابق. في ذلك الوقت، وبعد شهور من سقوط طالبان، قلة هم من اعتقدوا أن أتباع جماعة طالبان سوف يعيدون تنظيم أنفسهم. وإلى حد ما، قادة طالبان أنفسهم لم يكونوا يعتقدون أن ذلك ممكن. على الرغم من أن التهديد من استمرارية أنشطة المتمردين كان حقيقيًّا، فالعمليات كانت لا تزال تحدث قرب كرديز في جنوب شرق البلاد، لكنها لم تكن تشكل مصدر قلق كبير، فقد كانت أفغانستان تعيش مرحلة ما بعد الصراع، ووقف المجتمع الدولي مستعدًّا لمساعدة البلاد على إعادة البناء. كانت منطقة رمادية مضطربة من السلام والفوضى الجزئية، وكنت قد وصلت إلى قندهار مبكرًا عن زملاء العمل؛ لرصد مواقع القصف، والمباني والبنى التحتية التي تضررت في الحرب واستطلاعها. وفي اليوم الثاني، كنت قد غادرت إلى قرى جنوب المدينة وغربها، حيث كانت الضربات الجوية الموجهة لمجموعات كاملة من المباني قد خلفت حفرًا ضخمة في الأرض، وكان سياق الضربات غامضًا، مع ورود تقارير متضاربة عن وجود قوات طالبان.

قابلت مدنيين في قرى مثل بانجواي وحاجي شير قالات – التي أصبحت في وقت لاحق ثكنة متمردة سيئة السمعة – ودونت الإحداثيات الجغرافية لنقاط الاتصال كما

حدّدها هاتفي الذي يعمل بالأقمار الصناعية، وقفت في الشمس الحارقة على الطرق الترابية أستمع إلى أفراد أسرة يروون أسماء أقاربهم الموتى وأعمارهم «كريم 48 عامًا، وسمين جول 44 عامًا، وفاطمة 12 عامًا، وسامي 4 أعوام ويحصون الثروة الحيوانية التي فقدت «بقرة واحدة وست دجاجات، وجارتنا فقدت أربعة خراف». تجولت في البساتين والمزارع والكروم، حيث دُمّرت أكواخ تستخدم في تجفيف العنب إلى زبيب بواسطة قذائف الطائرات الحربية. رأيت قنبلة عنقودية غير منفجرة بين أشجار الفاكهة. مظلات مثل المناديل الصغيرة حملت القنابل المتفجرة، ولكنها علقت في هذه الأرضية الزراعية في الفروع الكثيفة لأشجار الرمان، وقد تُركت تتأرجح في الهواء، وهي جاهزة للانفجار ما إن تسقط على الأرض. زرت مجمعًا شرق قندهار، حيث الأمم المتحدة وكثير من المنظمات الإنسانية التي خزنت السيارات والشاحنات والمواد الغذائية كما كانت الصورة عليه في الأيام التي أعقبت 11 سبتمبر/ أيلول، قبل إخلائهم إلى باكستان أو توجههم إلى القرى الآمنة خارج المناطق السكانية الرئيسة.

كانت القوات الأمريكية قد قصفت مجمع الأمم المتحدة في غارة جوية في أوائل أكتوبر/ تشرين أول 2001م، وكل ما بقي كان ركامًا من المنازل وصفوفًا من الشاحنات المدمرة، الممزقة والقطع الملتوية من المعدن والمطاط المنصهر، والبلاستيك، فأسطول من السيارات المقدمة من أجل الإغاثة الإنسانية تحولت إلى خردة، ويقدّر مجموع الخسائر بملايين الدولارات. «اتضح أن الضربات لها كانت مقصودة، فقد صرح مسؤولون في البنتاغون لزملائي في وقت لاحق أنهم قرروا أن قوات طالبان خططت للاستيلاء على المركبات واستخدامها لأغراض عسكرية» وقد أعربت الأمم المتحدة عن انزعاجها لأسباب مفهومة، حيث ستمضي أسابيع قبل أن تتمكن من الحصول على الشاحنات الجديدة، التي كانت تعاني شحًّا في أعقاب الحرب. في الواقع، كان لديّ مشكلتي الخاصة في الحصول على وسيلة نقل، فقد وجدت نفسي أتنقل مع زملائي في لاند كروزر معدّل من الدرجة الثانية اقترضته من مجموعة إنسانية محلية، وهي سيارة

بالية بيضاء بمقاعد مهترئة تعبق برائحة وقود الديزل. وكانت مفاوضات سابقة مع تاجر شرس في سوق قندهار قد أخفقت بعد أن فشلت في تحقيق حتى نوع مبهم من الاتفاق، عندما انتهينا فقط إلى مناقشة عدد الأصفار في السعر النهائي للمركبة.

اصطحبت زملائي أولًا لمعرفة المقر السابق لوزارة طالبان لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ أي شرطة الأخلاق التي اعتدنا على تسميتها (الرذيلة والفضيلة) أيام طالبان. وكانت في وسط المدينة، المكان الجيد لبدء بحوثنا منه. وصلنا إلى الموقع، تاركين سيارتنا في الشارع، وقفنا على جانب الطريق محدقين في الموقع تحت شمس الظهيرة اللاهبة. تريثنا لحظة واحدة، واضعين النظارات الشمسية على عيوننا، معدلين سراويلنا لنبدو أمريكيين. بعض الشباب، ولربما كانوا من مقاتلي طالبان السابقين، رمونا بنظرات خليط من الكراهية والقلق، والبراقع الزرق تجول من حولنا مثل الأشباح، فعقدت حاجبي، وأنا أحس بقليل من الذعر، متسائلًا بيني وبين نفسي إن كان هذا آمنًا؟ كانت هذه قندهار، وليست كابول، والأطفال الذين رصدونا سرعان ما تفرقوا راكضين، وبدأت بعبور الشارع يتبعني الزملاء.

احتشد الأفغان الفضوليون من حولنا، صارخين: مرحبًا! أهلًا! وأيادي الصغار تمتد لمصافحتي، وتكاد تعصر أصابعي، وتسحب حقيبتي. سألني طفل صغير بلغة إنجليزية تشبه لغة الروبوت، مرارًا وتكرارًا: كيف حالك؟ كيف حالك؟ ردت فتاة نيابة عني: أنا بخير وأنت؟ وهتف الأولاد الآخرون: مرحبًا! كيف حالك؟ تحدّثت بلهجة (الداري) المكسّرة للفتاة الصغيرة قائلًا لها: أنتِ تتحدثين الإنجليزية بشكل جيد. اتسعت عينا الفتاة الكبيرتان المستديرتان السوداوان المكحلتان، ابتسمت وضحكت. ضحكت كثيرًا، كانت حقيبتي مملوءة بالحلويات، بما يكفي للجميع، فاختفت حفنات من الحلوى خلال ثوانٍ معدودة. أهلًا! أهلًا! بقي الأطفال يرددون، ثم رأيت في ظل المبنى المجاور بعض كبار السن من الرجال جالسين، وبأيديهم مسابح من الخرز يسبّحون بها. سوف يعرفون

كل شيء، قلت لنفسي: عندما أعود إليهم في وقت لاحق. حررت نفسي من جموع الأطفال، وصعدت على الرصيف، ووقفنا أمام وجهتنا المقبلة.

(الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) أو ما تبقى منها، كانت وزارة أنقاض، أو وعاءً مقعرًا من التراب، هو كل ما تبقى بعد الضربات الجوية منذ أكتوبر/ تشرين أول عام 2001م. التقطت صورة مثلما يفعل السائح. «من هنا» قلت لزملائي، صاعدًا الأرض المحطمة، وبدأت بتسلق جانب من إحدى الفوهات البركانية، حيث كانت الوزارة. يتبعني زملائي، والأطفال أيضًا. ونحن نتسلق حتى عشر أقدام، ثم العشرين قدمًا، إلى أن تسلقنا أكثر من ثلاثين قدمًا إلى حافة الحفرة. وقفنا لنحدق في الحفرة، فبدا الأطفال ينظرون لنا تارة، وينظرون إلى أسفل داخل الحفرة، وكأنهم يتساءلون: ما الذي تبحثون عنه؟ «لم يبقَ الكثير لننظر إليه» قلتُ. ثم أخذت صورة أخرى، فنحن في حاجة للصور، صور لتمثيل هذا المشهد.

كان هذا هو الدمار الذي خلفته الحرب، ولكن كان من الصعب تصويره ليكون تذكارًا، حيث لم يتبقَّ شيء ليكون تذكارًا أصلًا، فلا جدران بقيت بلا سقوف، ولا أنصاف أقواس بقيت، ولا حتى قضبانًا ملتوية. إنه فقط مجرد ركام، وقد تلاشى هيكل المبنى تمامًا، فالانفجار كان قد دمر شكل المبنى وأجزاءه: الجدران، وإطارات الأبواب، والحزم، والأثاث. حتى الطوب غدا نتفًا وقطعًا متناثرة، فلم نكن نقف على أطلال، بل على اندثار. بدأ زملائي ينتشرون حول الموقع، الجميع منهمك في العمل الذي يخصه، فقد شرعوا يأخذون إحداثيات المكان على هواتفهم التي تعمل بالأقمار الاصطناعية، بوصفها جزءًا من محاولة رسم خريطة للضربات التي شُنَّت خلال الحرب، جنبًا إلى جنب مع المعلومات المتاحة عن عدد القتلى والجرحى.

وكنت قد بدأت العمل في هيومن رايتس ووتش في أكتوبر/ تشرين أول 2001م، وذلك قبل ستة أشهر، وكنت لم أصبح باحثًا بعد، وكنت أعمل مستشارًا، ميسرًا للخدمات

اللوجستية، وفي الحصول على السيارات والمترجمين الفوريين، والخرائط، وترتيب رحلات الطائرات الصغيرة للأمم المتحدة، وإجراء بعض المقابلات. وعندما بدأ عمل الفريق في الموقع، وقفت مرة أخرى مع الأطفال في حالة ذهول قلقًا وطافيًا على حواف عالية لحفرة تحت الأنقاض. أشعلت سيجارة، وشربت بعض الماء، وعبثت بهاتفي الذي يعمل بالأقمار الاصطناعية. كنت قلقًا بشأن الأمن، فعناصر طالبان يتجولون باحثين عن هدف، وقد رأيت شابًّا مندفعًا بعيدًا عنا عندما وصلنا، وقد حدجنا بنظرة غاضبة، فإن واحدة من زملاء العمل لم تكن ترتدي أي غطاء على رأسها، وهذا ما شكل لي إزعاجًا، فقد كانت بمنزلة الخطر الذي لا داعي له، وهي ميزة أخرى للفت الانتباه إلينا.

كان القلق شيئًا شخصيًّا ومبالغًا فيه، فربما كانت حركة طالبان أيضًا خائفة مثلنا، فقد كانت البلاد غير مستقرة: بعد أسبوع فقط، وفي بلدة صغيرة في أقصى الشمال من قندهار، كان عليّ أنا وروبن بريجيتي أن نركض مثل الغزلان بعد إصابتنا بالذعر بسبب اندلاع مفاجئ ومتقطع لنيران الأسلحة الآلية وانفجار، غصنا داخل شاحنتنا، وانطلقنا، ومرت رحلة العودة الطويلة إلى قندهار التي استغرقت ساعات من القلق والخوف. (وحتى يومنا هذا ليست لديّ فكرة عما تسبب في تلك الحادثة) بعد سنوات، كان من المستحيل بالنسبة إلى الأجانب المغامرة في قندهار، مثلما كنا في ذلك الشهر. ومع ذلك، في هذه المرحلة كانت البلاد هادئة إلى حد كبير، لكنني لم أكن أعرف في ذلك الحين، فإنما كنت أخشى الأسوأ.

أرى ذلك عبر الشارع، دمارًا آخر، فوهة أصغر تدل على مبنى تجاري مدمر، وعدد من المنازل المجاورة المنهارة. كان السكان قد بدؤوا بتنظيف الحطام وإزالة الطوب. الرجل العجوز هناك، كان لا يزال يحملق في وجهي. انتهيت من سيجارتي، وهرولت إلى أسفل بجانب حافة الأنقاض شاقًّا طريقي عبر الشارع مع أحد المترجمين من فريقنا. اقتربنا من الرجال كبار السن، وقدمنا أنفسنا. كنا من (مجموعة حقوق الإنسان) التي أرسلت لتفقد الأضرار خلال الحرب الجوية. «كان من المستحيل تقريبًا ترجمة هيومان

رايتس ووتش إلى لغة الباشتو أو الداري - فكلمة - ووتش (حراسة أو مراقبة) تبدو لا معنى لها، والمترجمون الأقل خبرة في بعض الأحيان يترجمونها خطأ باسم (ساعة)» قلنا لهم: إننا نريد أن نعرف ما حدث، وإذا ما كان هناك مدنيون قد لقوا حتفهم في الحرب.

فوجئ الرجال المسنون، فقد كانوا يعتقدون أننا من موظفي حكومة الولايات المتحدة، وربما جواسيس، فأصبحوا أكثر حيوية وحركة، وقالوا لنا: إن عددًا من المدنيين لقوا حتفهم في الموقع عبر الشارع، وتحدث أحدهم بلغة الباشتو، مشيرًا صراحة، وبشرح واضح ومعبر: سقطت القنابل (هنا) و(هنا)، وفُجِّرت المباني إلى نتف. «لم يكن أحد في المحل الذي أصيب» قيل لنا، ولكن الأب وبعض أطفاله في البناء المقابل دفنوا تحت الأنقاض، واختنقوا أو سُحقوا حتى الموت، وأضاف أن اثنين من الرجال كانا في المكان ليلة الضربات الجوية، وأوضح أن مباني طالبان كانت فارغة عندما أصيبت، وأن مقاتلي طالبان أخلوا المكاتب، وفي الوقت الذي بدأت فيه القنابل تسقط لم يكونوا حتى في المدينة، وعبرت الشارع مرة أخرى للانضمام إلى زملائي لنقول ما سمعناه للمحقق الرئيس، بيل أركين. كان أركين وزميل آخر يتفحصان شظايا القنابل التي رفعوها من أسفل الحفرة الرئيسة، ومن الأنقاض التي عثروا عليها قطعة مربعة من المعدن، وإطار لنوع من الأجهزة الميكانيكية تضرر بشدة، وكان أركين يتفحصها، ويقلبها من كل جانب في يديه، وكان زملائي الآخرون مستغرقين في التقاط الصور. ترددت؛ ذلك أنني لم أرد مقاطعتهم.

كان أركين أكبر من أن يكون قائدًا لفريقنا، فهو ضابط سابق في استخبارات الجيش، كان قد عُيّن مستشارًا لرئاسة بعثة هيومان رايتس ووتش في أفغانستان بسبب خبرته في تحديد الذخائر وتحديد كيفية استخدامها، وقد أجرى تحقيقًا مماثلًا في صربيا وكوسوفو قبل عامين. كان أجش الصوت، وساخرًا، وعاصفًا أحيانًا، بدافع على ما يبدو من الاشمئزاز الشديد من عدم الكفاءة العسكرية. وكان ذكيًّا للغاية ومتشككًا من

المؤسسات العسكرية، وكان يعرف الكثير عن الذخائر. وكان يبحث عن الأدلة المادية، ويسجل المعلومات، وتوصل إلى استنتاجات صلبة أو فرضيات جيدة على الأرض. كانت تلك المهارة ضرورية للمهمة التي نحن بصددها. لم نكن لنحقق أي شيء من خلال انتقاد الجيش الأمريكي لسقوط ضحايا من المدنيين لو لم نستطع أن نشير إلى أسباب الأخطاء التي ارتكبت، وتقديم توصيات معقولة بشأن كيفية تفاديها في المستقبل.

عبر الشارع بعض الصبية الأفغان جرّوا قطعة أخرى كبيرة ملتوية من غلاف قذيفة مع الأرقام التي رسمت على جانبها، فتحدثت مع أركين عن كل ما قاله لنا الرجال المسنون. أركين ألقى نظرة طويلة على المعادن، وأوضح أن الدمار في الموقع كان نتيجة لقذيفتين من ذخائر الهجوم المباشر المشترك الذي يستخدمه الجيش الأمريكي، فمن المحتمل أن تكون أسقطتها القوات الجوية الأمريكية أو الطائرات البحرية. قال أركين: إن مثل هذه القنابل لها زعانف في الذيل مع دفات مسيطر عليها من آليات إلكترونية مرتبطة بنظم توجيه فضائية، إذ وجهت القنابل إلى نقطة الاصطدام: سطح مبنى الوزارة. «كانت قطعة من المعدن الملتوي التي وجدناها جزءًا من جهاز التوجيه» الطائرة الحربية أطلقت القنبلة في المنطقة العامة للضربة، حيث سيطرت الزعانف الإلكترونية على مسار القنبلة، ووجهتها إلى الهدف المحدد. كان عتاد الهجوم المباشر المشترك في العادة دقيقًا، ولكن ليس دائمًا، ومن ثم جرى تدمير الجانب الآخر من الشارع، ومما لا شك فيه، فإن الهدف نفسه كان جيدًا بحسب دقة مصدر المعلومات الاستخباراتية الذي أعطى الإحداثيات. إن القنبلة يمكن أن تسقط بدقة على الهدف، ولكن هذا لا يعني أن الهدف قد حُدّد بصورة صحيحة في المقام الأول.

في وقت لاحق، فكرت وأنا أقف على حافة الحفرة الرئيسة، كيف يكون الأمر، وأنت ترى قنبلة تهبط عليك، وتنفجر؟ كان الظلام يلف المكان، بحسب تقديري، وكانت معظم التفجيرات تقع في الليل، وسقطت الكتل المعدنية من السماء على رؤوسها، بزعانفها الخلفية مثل ريش السهم، مبقية رؤوسها المدببة مصوبة نحو الأرض. ومن المحتمل

أنها خلال هبوطها إلى أسفل أصدرت أزيزًا صافرًا، بسرعة مئات عدة من الأميال في الساعة، ثم اخترقت سقف المبنى. من المحتمل أنها اخترقت السقف قبل أن تنفجر، فاشتعل الصاعق الموجود في رأس القنبلة عند الارتطام بالسقف، ونشط المحول بفعل قوة الاحتكاك الأول بالمبنى، فأحدثت الشرارة الكهربائية شحنة ناسفة صغيرة داخل الصاعق، القنبلة داخل القنبلة، فأشعلت الشحنة الصغيرة المتفجرات الرئيسة داخل القنبلة. استغرق كل هذا بضعة أعشار من الثانية، بينما استمرت القنابل في اختراق المبنى. أوضح زملائي هذا لي. ويمكن ضبط التفجير وتأخيره مئات الأجزاء من الثانية، من أجل تحديد مدى العمق الذي ينبغي اختراقه قبل أن تنفجر: على السطح أو في الطابق السفلي. قيل لي خلال التدريب: «إنها مثل المصعد». ويمكن أن يقرروا ما إذا كانوا يريدون القنبلة أن تنفجر في الطابق السابع أو في الطابق الثالث.

فإذا كانوا يريدون إسقاط المبنى وقتل أكبر عدد ممكن من الناس، فإنهم قد يضبطون المفجر لوقفه عُشْرين من الثانية وتفجير الطابقين السفليين، أو إذا كانوا يريدون تجنب سقوط ضحايا من (خارج المبنى) وقفه مدة أطول، مثلًا، ستة أعشار من الثانية، ويكون ذلك التفجير في الطابق السفلي، الذي يؤدي إلى انهيار البناء على نفسه، ولكن التطور التكنولوجي له حدود، فمهما عُدّل الصاعق، سوف توضع كمية كبيرة من المتفجرات مع كل ما يصاحبها من النتائج، فالكتلة المتحركة والطاقة تلتقيان مع كتلة ثانية مستقرة، وتحركها أو تزيلها، وهو مشهد مألوف لكل من يشاهد التلفاز أو الأفلام، لكن تجريبه أقل شيوعًا من الحدث الحقيقي. المتفجرات دمرت المبنى، ودفعت كتلته المادية إلى الخارج وإلى أعلى في الهواء، لتقوم الجاذبية مرة أخرى باستردادها، فتستقر على شكل أكوام من الأنقاض. فأي شخص سيئ الطالع تصادف وجوده في المبني أو بالقرب منه، عندما وقع الانفجار كان سيلقى حتفه المحتوم، أو إذا لم يمت، يصاب بجروح خطيرة.

في وقت لاحق من اليوم نفسه، ذهبنا إلى بعض الأهداف الأخرى في المدينة وحولها، بما في ذلك مجمع زعيم طالبان، الملا عمر، شمال قندهار، وعلى الرغم من طمس معظم الموقع، ظل هناك نحت غريب لمنظر غابة سليم في ساحته، مثل مسرح من معجون ورقي أُعِد لعرض **عمل عبثي** ملفوف داخل الحقيقة والواقع. سرنا حول المجمع، والتقطنا صورًا للمباني المنهارة - الهياكل المادية التي كانت تمثل مركز السلطة السيادية في طالبان أفغانستان. بوني وروبن استكشفا بعض المباني الرئيسة في المركز.

عندما حاولنا قيادة سيارتنا لبعض المباني المتبقية على مقربة من المكان، أوقفنا الحراس الأفغان، وعلى مسافة بضع مئات من الأقدام أمامنا شاهدنا بعض الأمريكيين، رجالًا يرتدون ملابس مدنية بأسلحتهم المدلاة على جوانبهم، ويحيطون بسيارة، ويتحدثون مع بعضهم. يبدو أن القوات الأمريكية قد أحكمت السيطرة على ما تبقى من منازل الملا عمر لتُستخدَم بوصفها قواعد عمليات لهم. «مزارع تارناك، بؤرة تنظيم القاعدة بالقرب من مطار قندهار - الموقع الذي كان بن لادن قد زاره عام 2000م، عندما رصدته طائرة استطلاع وكالة المخابرات المركزية كانت كلها قد جرى دمغها من قِبل قوات الولايات المتحدة» التقطنا المزيد من الصور، مثل السياح، ثم تحدث الأمريكيون لبعض الحراس الأفغان الذين بدؤوا في الاتجاه ركضًا نحونا، وهم يهتفون: «ممنوع التصوير!» فقال أركين: وكالة المخابرات المركزية، وابتسم، محركًا عينيه قليلًا، ثم متجهًا وهو يتحدث معهم. بطريقة أو بأخرى أقنع الحراس الأفغان بالسماح له بالمضي قدمًا، لكنه سرعان ما عاد، فالأمريكيون لم يكونوا في حالة مزاج تسمح بالتحدث معهم.

اتجهنا إلى أماكن أخرى حول المدينة، باحثين عن مواقع الانفجارات، التي ضربت المساكن، عن قصد أو عن غير قصد. كان لدى أركين مجموعة من البيانات عن المواقع المستهدفة مستمدة من نظام GPS لتحديد المواقع. نزلنا في اتجاه أحد المجمعات،

ثم صعدنا إلى آخر - «اتجهوا يسارًا»، كان أركين يقول لنا «حافظوا على السير بخط مستقيم. حول الزاوية»، ثم فجأة، وإذا بنا أمام مجموعة من المباني بالأرض تمامًا، أكوام من الحديد الملتوي والخرسانة. أخبرنا الجيران ومن خلال المترجم «عاش العرب هنا». ثم تحولوا للحديث معي، مستخدمين كلمات لا يمكن أن أفهمها: «تنظيم القاعدة»؟ «هل كانوا في المنزل؟» سألتهم. «هل قُتلوا؟» «لا، لا، لا» في الباشتو، كلمات بسيطة كافية لتمكنني أن أفهم. المترجم كان مصغيًا، ثم أوضح: «الرجال غادروا، وبقيت بعض زوجاتهم وأولادهم هنا، بعضهم توفي، وبعضهم نجا، وغادروا إلى الباكستان». سمعنا عن وقوع إصابات في المباني المجاورة كذلك: عتاد الهجوم المباشر المشترك هو الذي قتل المدنيين، وبكى الرجال وهم يخبروننا عن الأطفال، عن أبناء العمومة والأخوال وبناتهم و الأقارب الذين قضوا. وقفت النساء عند مداخل بيوتهن، وهن يمسكن الشادور أمام وجوههن، ويصرخن علينا بلغة الباشتو، يطلبن منا إجابة عن سبب قتل أحبائهن: «لماذا؟، لماذا؟، لماذا؟»، قالوا: إن أمريكا تخوض معركة مع العرب، لكن الذين قُتلوا هم الأفغان عوضًا عن ذلك: طلبنا أسماء، وأحصيت الأرقام. كان أسبوعًا حزينًا، وبعد بضعة أيام سافرنا إلى قاعدة عسكرية أفغانية قديمة في ضواحي المدينة، التي أظهرت بيانات أركين أنها تعرضت للهجمات مرارًا وتكرارًا في أكتوبر/ تشرين أول عام 2001م، وقد قيل لنا: إن القاعدة سُوّيت بالأرض، وهذا ما حصل فعلًا.

قال لنا الحراس: إن قيادة السيارة داخل القاعدة تشكل خطورة، ولذلك يجب علينا تركها خارج البوابة؛ لأن القاعدة مليئة بالذخائر المتناثرة هنا وهناك، فغادرناها، وتركناها عند البوابة. كان المشهد مروعًا، فالخراب لا يوصف تقريبًا.. فـ «هذا هو ما تعنيه الأرض المحروقة» كتبت في دفتر ملاحظاتي. كل قطعة من المواد مُزّقت في كل اتجاه. لم يكن القصف هو القصة كلها، فقد أصابت الغارات الجوية مستودع ذخائر طالبان، ما أدى إلى اشتعالات كارثية، فحول حفرة ضخمة في الأرض يمكنك أن تجد أن كل شيء بات محروقًا، لدرجة أن الأشجار على بعد مئات الأمتار نالها الدمار، وتمزقت.

وكل ما حولنا ذخائر غير منفجرة وقنابل ورصاص، وأغطية فوهات صواعق، وحتى قذائف مدفعية، وقطع ميكانيكية لتكنولوجيا العنف المنتشرة في كل اتجاه مثل الصخور والحصى. قذائف هاون متناثرة بالعشرات في جميع الأنحاء، والصناديق المكسورة نثرت ذخائر المدفعية السوداء، وعليها كتابة صفراء. قنابل يدوية سوفييتية قديمة ملقاة بين الأحزمة الملتوية لقذائف مدفع رشاش. كانت القاعدة أشبه بفخ للموت، والسماء من فوقنا - باردة ورمادية ومملة - عززت الكآبة في النفوس. كان مشهدًا مروعًا، فحتى أركين الذي كان ثابت الجنان أصيب بالصدمة بعض الشيء، وقال: «هذه فوضى حقيقية»، وتحدثنا مع أفراد الميليشيات الأفغانية، الذين وصفوا لنا الاستيلاء على القاعدة في نوفمبر/ تشرين الثاني بعد أن أخلتها حركة طالبان متوجهة إلى الباكستان، فربما لم يكن أي مقاتل من طالبان حاضرًا ليلة الهجوم، إلا أن الانفجارات كانت مذهلة.

ظل المستودع يحترق مدة يوم كامل، مع انفجارات بين الحين والآخر، ولم يقترب منه أحد مدة أسبوع. فكرت كيف يمكن لمثل هذا الانفجار أن يبدو وكأنه كرة من اللهب، ثم الانفجارات الثانوية المتتالية، وهي تشق جنح الليل، وكيف للطاقة الكامنة في الذخائر أن تغدو حقيقية. ربما كان المشهد مرئيًا من الفضاء. وهكذا هو مشهد إسقاط طالبان كما كان. فكرت في مستودعات الأسلحة، وهي تنفجر، تاركة جثث بعض النساء العربيات الميتة وراءها. لقد ركلت الولايات المتحدة عش النمل، ناثرة النمل في الأرجاء، مثلما نثرت هذه المواد المتفجرة، وقد جلب المشهد إلى الذهن كثيرًا مما قاله الناس عن هجمات 11 سبتمبر/ أيلول، بأنها كانت (سينمائية). وهذا وصف غريب، إذ كان عامل إغاثة بريطاني أعرفه قد وجد التوصيف مسليًا. «أنتم الأمريكان» كما قال لي بحزن في بيشاور في أكتوبر/ تشرين أول 2001م، كما لو كان يتحدث عن أحمق القرية،«كل ما رأيتموه انفجارات في الأفلام فقط، ثم عندما شاهدتموها حقيقية قلتم: إنها تبدو سينمائية، إيه؟ حسنًا»، وخفض صوته ليبدو وكأنه لورانس فيشبورن يتحدث مع جان بودريار على شاشة التلفزة: «**مرحبًا بكم في صحراء الواقع**».

هذا ما كان، فإنها صدمة الحقيقة معززة بصور، كانت مألوفة بالنسبة إلى الأمريكيين إلى حد ما: الواقع يحاكي الآن روتين عالمهم المصطنع، وحلقات البرامج التلفازية والأفلام. ولكن هل كان الأمريكيون يشعرون بالأسى لأن أوهام عالمهم السينمائي المليء بالعنف، قد تسللت إلى الواقع؟ أم كانوا منزعجين دون وعي على مستوى أعمق لأن الصور عن الهجمات، المألوفة جدًّا، قد كشفت لهم شيئًا شريرًا عن أنفسهم: إنهم «حلموا» بـ 11 سبتمبر/ أيلول، إذا جاز التعبير، قبل ذلك اليوم فعلًا؟ «اقترحت الفكرة في وقت لاحق من قبل الفيلسوف السلوفيني سلافوي زايزك، الذي ألف كتابًا بعد 11 سبتمبر/ أيلول، سمّاه (**صحراء الحقيقة**)». وإذا كان صحيحًا أننا قد حلمنا بالهجمات، فماذا يعني هذا؟

كنت في نيويورك في 11 سبتمبر/ أيلول 2001م، بعد أن عدت توًّا من أفغانستان. كنت أحلق ذقني عندما اصطدمت الطائرة الأولى بالبرج الشمالي، وكنت أستحم عندما ضربت الطائرة الثانية البرج الجنوبي، وسمعت انفجارات على حد سواء من خلال كوّة في الحمام في شقتي في بروكلين، عبر نهر إيست، وأقل من ميل واحد بعيدًا عن الموقع. اعتقدت أنها كانت أصوات نوع من صخور البناء جرى تفجيرها أو شيئًا من هذا القبيل. غير اعتيادية، نعم، لكنني واصلت ارتداء ملابسي، غير مدرك لما يجري، ثم بدأت أتلقى المكالمات الهاتفية من الأصدقاء والأقارب. في غضون دقائق كنت قد تسلقت سطح المنزل، وأتذكر لحظة خروجي من كوة السلم، محملقًا في المباني، وكرهًا أهتف: «وو، وو، وو»، ورأيت الأبراج وهي تشتعل، وقطعًا من الورق تتطاير منها إلى الهواء وعبر النهر، وتتناثر فوقي الآن.

كانت الأبراج لا تزال قائمة، ونحو الساعة 09:10، نزلت إلى الطابق السفلي، وتوجهت إلى الخارج، في اتجاه جسر بروكلين، وأردت عبور النهر لرؤية ما كان يحدث، وتوثيقه في تكنولوجيا المعلومات، وهذا ما فعله العاملون في مجال حقوق الإنسان. «هذا هو التاريخ» قلت لنفسي. انتقلت بسرعة عبر الشوارع وإلى أسفل في اتجاه جسر بروكلين.

كان الناس يركضون في كل اتجاه، وكثير منهم في صمت تام، وانطلقت صفارات الإنذار، أُغلق الجسر، والتفتّ إلى الوراء، حيث مبنى المحكمة الاتحادية القريب، الذي كان والدي يعمل فيه قاضيًا، وقد أُخلِي؛ لذلك قطعت الشارع لأعرف من الحراس ما إذا كان والدي هناك. قالوا لي: إن والدي في واشنطن في مؤتمر قضائي، وقد أُخلِي أيضًا، وكان على متن حافلة مع قضاة آخرين، متوجهين إلى نيويورك، وفي طريقي نحو العودة إلى المنزل، قالوا: إن جسر مانهاتن قد يكون مفتوحًا، ولكنني كنت أرتدي بذلة، وكنت في حاجة إلى تغيير ملابسي بأخرى يمكنها تحمل الأوساخ، وكنت في حاجة إلى كاميرتي، فحتى اليوم يمكنني تذكر شعوري بالارتباك، فلقد كنت فقط في كابول والآن أنا هنا، وخطر لي أن أخي توبي، وهو طالب في كلية الطب في ذلك الوقت، قال قبل بضعة أيام: إنه يريد أن يصطحب صديقًا إلى سطح المراقبة فوق مركز التجارة العالمي، وتجهمت وأنا أستعيد المشهد، **فأول طائرة ضربت في وقت مبكر جدًا، فلا يمكن أن يكون قد ذهب في وقت مبكر جدًا، ولكن**... ثم بقيت أمشي، مراقبًا ومشاهدًا أصواتًا أخرى من ذلك اليوم، وبينما كنت أواصل السير، وأنا أُقلّب هذه الفكرة في ذهني، انهار البرج الأول.

سرعان ما انهار البرج الثاني كذلك، فتوقفت عن التفكير في أخي في ذلك الحين، أو أنني قمعت أفكاري. على أي حال، لم أفكر في مصيره مرة أخرى إلا بعد ساعات قليلة، عندما اكتشفت أنه على ما يرام، وأنه أرجأ الزيارة. مرة أخرى عدت إلى شقتي قبل ظهر ذلك اليوم، وحاولت التفكير بشكل عملي، وخلعت البذلة وربطة العنق، وانتزعت الكاميرا ولفّات أفلام. أكلت بعض الخبز، وملأت زجاجة بالماء، وقطعت مزيدًا من الخبز، ومسحته بالزبد، ووضعته في كيس، ثم خرجت.

أوقفتني الشرطة مرة أخرى عند جسر بروكلين، فتحولت تجاه جسر مانهاتن الأبعد إلى الشمال الشرقي، فقد كنت أنهب الطريق نهبًا مخترقًا السيارات المتوقفة وسكان نيويورك المصدومين، الذين كانوا يمشون في ذهول. على الطريق أتذكر أني

مررت برجل يجلس على دكة أمام المنزل، ورأسه بين يديه، ينتحب: «كل هؤلاء الناس موتى!» وفي شارع تيلاري، وقف رجل من الطائفة الحسيدية اليهودية في باب حافلة صغيرة، مثل عامل بناء شجاع وقوي البنية. «هذه هي غلطتكم اللعينة» صرخ الرجل، الذي كان أصدقاؤه يحاولون تهدئته، في وجه اليهودي. «جماعتكم، خطؤكم الحقير». كرر هذا السطر الأخير أكثر وأكثر، في حين عقد الحسيدي يديه، محاولاً أن يقول شيئًا، بينما اقترب ضابط شرطة. كان الناس يحدقون، متجمدين، فواصلت السير، وعبرت الجسر بعكس طابور طويل من السيارات، والناس يتحركون بتصميم بعيدًا عن مانهاتن، واستغرق الأمر وقتًا طويلًا للعبور.

على جانب مانهاتن، كانت كل الفوضى، فالأرض مغطاة ببوصات عدة من الغبار والورق، وكان الهواء رماديًا. وقفت الشرطة كالأحجار بالقرب من قاعة المدينة، لمنع أي شخص من التحرك في اتجاه مركز التجارة العالمي، وانضممت مع مصور صحفي أوروبي التقيته عندما كان كل واحد منا يحاول التحرك جنوبًا نحو حواجز الشرطة، اتجهنا نحو الشرق، وبعد ذلك إلى الحي المالي الفارغ عبر منطقة جنوب شارع الميناء، خطواتي كانت كما لو أنها لشاب دون العشرين من عمره، عندما كنت أعمل بوظيفة مساعد قبطان على متن القوارب واليخوت السياحية. كانت الشوارع فارغة تمامًا، فلم نَرَ أي كائن من حولنا. انتهى بنا المطاف قريبًا من موقع مركز التجارة العالمي من شارع فولتون والشوارع الجانبية له، ها هم يتجمعون فوق الحطام، ويتنقلون خلال الرماد، في بعض النقاط كانت سيقاننا تنغمر بركام الورق والرماد حتى بطأت أرجلنا أو حتى الركب، التقطنا الصور، وغيّرنا لفّات أفلام الكاميرا، ومررنا بالمطاعم حيث الأطباق لا تزال ماثلة على الطاولات مع نصف الطعام الذي قد تم تناوله، وقد غدت مغلفة الآن برقائق بيضاء من الغبار، وقصاصات من الورق تتطاير مع الغبار، وتطفو في الهواء، وتدور، وتتراقص في الأنحاء.

كان كما لو كنا، نعم، في حلم، قلنا لا شيء تقريبًا، وكانت لي تأملات مجزأة: أفكار حول ما فعله الإرهابيون حالًا، عن الجرأة الهائلة في الهجوم و- حماقة النظرة الإستراتيجية له - العدمية منه. بعد أشهر، نشرت صحيفة نيويورك للشاعر فريدريك سيدل قصيدة (ديسمبر)، التي عبّرت بشكل أدبي عن عقلية إرهابية كما فهمتها أنا بعد ظهر 11 سبتمبر/ أيلول. القصيدة، التي يُفترض أن تكون بصوت أسامة بن لادن، توصل هوس الإرهابي مع العالم الغربي الفاسد، غالبًا في صورة رغبة. مطلعها: «أنا لا أومن بأي شيء/ أنا أومن بك». الأغنية تحدثت مباشرة إلى ذكرياتي في ذلك اليوم، وأنا أسير في وسط المدينة من خلال الرماد. وكان الهدف من القصيدة الصدمة، مثل الإرهاب نفسه:

أحبُّ لون الرائحة، أحبُّ رائحة اللحوم الفاسدة.

أحب كيف تحوّل الغرغرينا اللحم الصلب الدافئ إلى

صقيع فاسد.

عندما تَسْوَدُّ الزرقة، و يبترونها، أطير.

أنا أُحَلِّق بكونكورد الركاب الحديثة للغرغرينا

في السماء.

أنا المتجه محلقًا لأطعنكم بالكونكورد،

لأدسّ سيفًا في الغرغرينا.

هذه قصيدة عن سيف من الكيروسين.

هذا هو القرن الـ 21 في الجحيم.

أطعن السيف في الرائحة.

أنا سيف من شروق الشمس يحلق

لأسلخ الناس في المباني، والمباني،

في الندى.

أوقفنا رجال الإطفاء قرب برودواي، وقفنا، ننظر غربًا إلى الدخان والغبار. من وجهة نظرنا رأينا اللا شيء في مكان البرجين، إلا بناء مشتعلًا بالنار على البعد. هذا كان مركز التجارة العالمية السابع، وهو المبنى الصغير الذي انهار في وقت لاحق بعد ظهر ذلك اليوم، أطلقنا عنان كاميراتنا لتصور النار من مسافة بعيدة، تريثنا. فلم يعد هناك شيء آخر لنراه، وليس هناك ما هو أكثر لنفعله. كان هذا هو الشيء الغريب عن 11 سبتمبر/ أيلول: حدث ما حدث، وبعد ذلك قضي الأمر، فكان هناك عدد قليل من الناجين، لذلك لم يبقَ هناك إلا القليل من التجربة. يمكننا أن نقف فقط، وننظر. كم كان غريبًا أن تكون في نيويورك مستشعرًا الملل، ومستشعرًا صدمة خفيفة على غرار ما كنت قد شعرت به في أماكن مثل أفغانستان. كان كما لو كنت قد أحضرت بعض الفوضى في العودة معي.

في الأيام التي أعقبت الهجمات، شاهدت نشرات الأخبار، واستمعت إلى الراديو، وأذكر القلق الذي شعرت به من مدى استجابة الرئيس بوش، وكلامه للمرة الأولى عن (الحرب ضد الإرهاب) وهو مصطلح يستخدم في آن واحد وعلى حد سواء حرفيًّا ومجازيًّا. لقد دهشت من تهور كلماته، أتذكر خاصة بيانه إلى الكونغرس يوم 20 سبتمبر/ أيلول، الذي تلفظ بالكلمات الشهيرة: «كل أمة، في كل منطقة، عليها الآن أن تتخذ قرارها. إما أن تكون معنا أو تكون مع الإرهابيين»(2) هل يمكن لرئيس الولايات المتحدة في الحقيقة أن يقول ذلك؟ وفي الوقت نفسه، مبعوثو طالبان في الباكستان قاموا بالمثل

بتصريحات مثيرة للسخرية، زاعمين عدم معرفة مكان وجود أسامة بن لادن، مشيرين إلى أنه لم يكن مسؤولًا عن الهجمات.

كنت منزعجًا بشكل خاص من كيف أن الجميع أصبحوا خطرين إلى حد القتل، وكيف أنهم متشددون؟ وكان من الصعب أن نصدق أن هذا كله قد حدث. هذه ليست حربًا حقيقية، كنت أعتقد أنه سوء فهم كبير. تنظيم القاعدة، ما كنت أعرفه عنه في ذلك الحين، وما ظهر بعد ذلك، أنه ليس أكثر من بضع مئات من الرجال، وشيء ما عن المعركة، وعن الاستياء الساذج لتنظيم القاعدة والردود الساذجة من أمريكا، بدت معتوهة. لم يكن هناك أي عمق فيها، وقضايا اليوم بدت صبيانية، خطة وضعها أطفال، أطفال خطيرون جدًّا بالتأكيد، ولكنهم أطفال مع ذلك، وأي من الطرفين لا يوجه ضربات صاعقة للآخر، فلا أحد من الطرفين كان يفكر تفكيرًا إستراتيجيًّا. كان ذلك هرجًا ومرجًا في ملعب على نطاق عالمي، وسيكون الصراع رهيبًا وتافهًا، وسوف يستمر مدة طويلة.

عدت بعد ذلك إلى أفغانستان، في قندهار، أتجول في مجمع الملا عمر المقصوف ومخابئ تنظيم القاعدة المحترقة، ومستودع الذخائر المتفجر بحديده المدمر والمعوج، ضائعًا بين القطبين، وجهان لمعركة جديدة غريبة جارية على قدم وساق الآن، وشعرت بغربة منفصلًا عن كل شيء. في قندهار كما هو الحال في نيويورك، شعرت كما لو أنني لم أكن حاضرًا حقًّا، فلم أكن حتى موجودًا.

في مستودع الأسلحة، من دون سبب على وجه الخصوص، ضغطت أزرار هاتفي المرتبط بالأقمار الصناعية؛ لمعرفة الإحداثيات الجغرافية، ثم انتظرت الرد، رافعًا الهاتف إلى الغيوم الزاهية، مثل كاهن قديم رافعًا قربانًا، بحثت في السماء، فرأيت شمسًا باردة كما القمر، ثم سمعت قعقعة بعيدة من وسيلة عنف أخرى ترسم خطأ في العلو. أدهشتني المسافة، بين هنا وهناك، بين هاتفي والأقمار الاصطناعية، وبين

الأرض الصلبة والسماء. كيف هو مدهش التفكير في السفر عبر هذه المسافات – من الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق – آتيًا وذاهبًا عبر البحار والقارات، في مهمة للأذى، في مهمة للتدمير.

* * *

الفصل الثاني

الحملات العسكرية ونتائجها

في أول لقاء، مدينة بلخ الأفغانية القديمة لا تثير الإعجاب. الأقواس المتداعية في وسط المدينة القديم، بضع كتل من المتاجر، البطيخ المكدس في أكشاك البقالة، أكياس الخيش، الفاصوليا الحمراء والفستق الأخضر، واللوز. الهواء يحمل رائحة بول الخيول، والجلود، والكمون، والمر، والسماق، ودخان الحطب. الحمير تتجول في الأنحاء، وتمضغ العشب، ويبدو عليها الكسل. المكان يبدو من زمن آخر، محطة كاسدة على طريق الحرير القديم.

لكن استرخاء المدينة يمكن أن يخدعك، فبلخ ليست بركة راكدة منسية. إنها واحدة من أقدم المدن في العالم، أكثر قدمًا حتى من أثينا وروما والقسطنطينية، أو بغداد. كانت من قبل كبيرة جدًّا، وفي أوقات معينة في تاريخ البشرية كانت الدولة المدينة الأقوى والأغنى في أوراسيا، واحدة من أكثر المدن نفوذًا وتأثيرًا في العالم.

أول من سكن بلخ لأول مرة قبل نحو 4000 سنة هم الهنود- الأوروبيون، أسلاف الفرس. وكانت تعرف في العصور القديمة، باسم Bactra، مركز باكتريا، وهي موطن زرادشت، أول نبي موحد (بحسب اعتقاد المؤلف) بشّر بتصورات أخروية للجنة والنار، وكانت أيضًا موطن روكسانا، عروس الحرب لدى الإسكندر الأكبر. لقد كانت في أحد العصور عاصمة الإمبراطورية البوذية الواسعة، التي تمتد من إيران اليوم إلى الهند،

ولعل أشهر ما عرفت به باكتريا هذه الأيام أشبه بحكاية خرافية عن ذهب باكتريا، الذي لا يقدر بثمن، والذي يقدر عمره بألفي سنة من القطع النقدية القديمة والجواهر الثمينة التي اكتشفها علماء الآثار السوفيت في السبعينيات من القرن الماضي، ثم (فقدت) في فوضى الحرب الأهلية في أفغانستان وحكم طالبان. «في الواقع، القيمون الحكماء أخفوا الذهب في قبو سري وراء جدار وهمي في الطابق السفلي من القصر الرئاسي في كابول، وقد أُستُرِد، بمساعدة القيّمين الدوليين، عام 2003م».

رأيت بلخ أول مرة بعد ظهر يوم حار في يونيه/ حزيران 2001م، عندما كانت طالبان لا تزال في السلطة، ثم اشتغلت بالعمل الإنساني، وكنت واحدًا من عدد قليل من الأمريكيين الذين أعطتهم طالبان تأشيرات دخول، وكنت قد أتيت إليها من كابول بالسيارة، من خلال نقاط تفتيش طالبان وممر سالانغ، ومن ثم إلى قندوز، وتوقفت بضعة أيام في مزار شريف، ومررنا بقرى مهجورة وطرق مُشّطت من المركبات المقصوفة، والدبابات المعطوبة، والشاحنات المدرعة الملتهمة، وبقية العالم بدا نائيًا جدًّا، وكان ذلك قبل انتشار خطوط الهاتف، والهواتف المحمولة، أو الهواتف التي تحمل باليد، وتعمل بالأقمار الاصطناعية، وكانت وسيلة الاتصال بين مكاتبنا هي جهاز لاسلكي مشوش للإرسال والاستقبال، وكانت هناك محطة ثابتة واحدة في كابول لهاتف يعمل بالأقمار الاصطناعية بطبق لاقط يجب تعييره نحو الهدف للقمر الاصطناعي الموجود في مكان ما فوق المحيط الهندي، فحقًّا المرء يحس هنا بالمسافة.

كانت بلخ حارة، ومتربة، وجافة، وعلى مقربة من الخط الأمامي للجبهة المشتعلة بين طالبان والقوات المتحالفة مع أحمد شاه مسعود الذي يقع على مسافة بضع مئات من الأميال إلى الشرق، وما تبقى من طالبان لممارسة الحكم في بلخ هو القليل من المجندين وعدد قليل من صانعي السجاد المميز المرسلون من قندهار، مركز قوة طالبان في أقصى الجنوب، ولم تكن هناك حاجة للمزيد من الجنود، فالمدينة، مثل الكثير من المدن والقرى الأفغانية، التي وضعت تحت نير طالبان كانت تئن مثل بغل

عجوز أعياه التعب، فمسكينة أنتِ يا بلخ! فاسمها يوحي بالفشل، وهي بالفعل كذلك، فحتى تاريخ المدينة، منذ آلاف السنين يروي قصة الهزيمة والضحية، ليس في الحرب فقط، ولكن في كل شكل معروف من العنف المنظم، فقد اُخترِقت المدينة في القرون المختلفة، ومورست التجاوزات بحقها، من سلب، ونهب، وذبح لسكانها، واغتصبوا، وبيعوا عبيدًا، أو أخضعوا من قِبل القادة الجدد، فقد حملت بصمات الغزاة من مختلف أنحاء آسيا، الإسكندر الأكبر، والهون، وإمبراطورية تانغ، وجنكيز خان وفرسانه المغول المهاجمون، وتحملت كل تلك الاعتداءات من مختلف الملوك الإقليميين، ومن الجيش السوفييتي، وطالبان (أعضاؤها، من جنوب قندهار، وينظر لهم في بلخ على أنهم أجانب من قِبل السكان المحليين)، وفي القرن الحادي والعشرين، جيش الولايات المتحدة، كما لو أن بلخ في كثير من المباريات الرائعة في تاريخ العالم، كثيرًا ما لعبت مع الفريق الخاسر أو ما هو أسوأ من ذلك، كانت هي نفسها ساحة اللعبة، التي يجري انتهاكها من اللعبة واللاعبين.

وليس من قبيل المصادفة أن شهدت بلخ الكثير من سفك الدماء، فالمدينة تقع في وسط السهوب الآسيوية، شمالي وسط أفغانستان، وتمتد من سور الصين العظيم على طول الطريق إلى حدود أوروبا، وفي منتصف المسافة بين باريس وشنغهاي، بين روسيا العظمى من الشمال وشبه القارة الهندية الغنية في الجنوب، في قلب المنطقة المأهولة من أوراسيا، أكبر قارة في العالم، وفي وادٍ يُعدُّ عنق زجاجة. الموقع يلفت انتباه الجيوش، سواء التي تستهدف المدينة أو التي تمر بها إلى الأراضي الغنية، وقد وصفتها الصحفية آنا بادخن بأنها «صندوق عظام الموتى الألفي». حيث «يعجن الدم والعظام من اثنتي عشرة حضارة في هذه التربة الرسوبية»[1] هكذا كانت، منذ عهد الإسكندر.

في يونيه/ حزيران 2001م، بلغ الجفاف الشديد ذروته، وتفاقمت آثاره في ظل حكم طالبان البائس، ما دفع بالآلاف من العائلات في شمال أفغانستان، بما في ذلك بلخ إلى الفرار لمعسكرات في باكستان أو إيران، أو إلى الخيام التي نصبت في مدينة مزار

شريف القريبة والمجهزة بالمساجد ومنظمات الإغاثة الإنسانية، فالآبار تجف، وميسورو الحال كانوا يشترون المياه من مناطق في الشمال، وتُشحَن في حاويات من البلاستيك على ظهور الحمير، كان وقتًا سيئًا، وكنت أنا وزملائي قد ذهبنا إلى مزار شريف لمعرفة إن كانت بعض الأسر التي بقيت في حاجة للمساعدة في بلخ. كنا نبحث عن الفقراء فقرًا مدقعًا، أو الهالكين من الضعف، والذين يصعب عليهم التحرك، وقد شاهدنا في جميع أنحاء الشمال بلدات وقرى مهجورة بالكامل، وحيوانات نافقة، وحفر قبور حديثة الحفر في المقابر الصغيرة وقبورًا صغيرة للأطفال الصغار، فكان الأمر كما لو أن البلد كله أصابه الجفاف، وتوقف عن الحياة.

طالبان كانت تتداعى، لم تكن هناك دلائل مباشرة على أن الجماعة كانت تضعف، ولكن كان هناك شعور بأن الوضع الراهن لا يمكن أن يستمر. شاهدنا اليأس في وجوه القوات القتالية لطالبان، على سبيل المثال. كنا قد واجهنا موكبًا كبيرًا منهم في الطريق إلى مزار شريف قبل أسابيع، على طريق قندوز التي تتجه شمالًا نحو خط المواجهة، على امتداد واسع من الوادي شمال ممر سالانغ، نقطة العبور الرئيسة للهندو كوش. أول ما رأيناه هو الغبار المتطاير من القافلة، والعواصف على طول السهل، والجبال العالية عن بعد، ثم جاؤوا إلينا، بدبابات وشاحنات معظمها قديمة.

انزوينا إلى جانب الطريق؛ كي نسمح للقطار الحربي بالمرور. (الطلاب) كما يطلق عليهم زملائي الأفغان، تراكموا في المركبات والدبابات، رعاع بالجلابيب البنية الداكنة وعمائم الحرير السوداء ربطت بجنون على رؤوسهم، منفوخة ببروز، وبذيول طويلة سوداء. كانت القافلة مدججة بالبنادق، والأسلحة التي تضم قذائف صاروخية، ورايات خضراء وبيضاء لجيش الإمارة الإسلامية وحركة طالبان. وكانت عيون المكحلة فارغة. كان أولئك البشتون الجنوبيون الغلاظ، المعادون لمعظم الشعوب شمالي أفغانستان: أوزبكستان والتركمان والهزارة، والطاجيك، والجماعات العرقية الأخرى في أفغانستان،

أقرب إلى البوذية في ماضي البلاد الزرادشتي منهم لجيرانهم الهنود والأوروبيين في الجنوب.

كان هناك قدر كبير من سفك الدماء، عندما استولت طالبان على بلخ ومزار شريف عام 1997م، وكانت قلة من أمراء الحرب الأوزبكيين المرتدين قد مكّنت قوات طالبان من السيطرة على الطريق المؤدي إلى مزار شريف وبلخ، فاجتاحت قواتهم الطريق، لكنها سرعان ما وُوجهت بمقاومة مزدوجة من قِبل ميليشيات أخرى استطاعت طردها خارج تلك المنطقة في واحدة من أول هزيمتين كبيرتين لطالبان. وقد زعمت الميليشيات الأوزبكية أنها أسرت المئات من طالبان في ذلك الوقت، ووضعت الشبان منهم في حاويات شحن، ثم تركتهم في الصحراء ليموتوا اختناقًا. وفي العام المقبل، عادت طالبان بقوة أكبر، وأخذت المنطقة نهائيًّا، ومارست فورة قتل أيامًا عدة وإطلاق النار على أي شخص يظنون أنه أوزبكي، أو تركماني أو هزاري أو طاجيك، سواء كان مقاتلًا أو مدنيًّا. كان لطالبان مع الهزارة خاصة عداوة عميقة، وواصلت استهداف الهزارة سنوات، بارتكاب فظائع في المحافظات المجاورة في عامي 2000 و2001م، بما في ذلك محافظة بيت الهزارة، باميان، وعندما فجرت طالبان في وقت لاحق تمثالي بوذا في باميان الشهيرة، اللذين يرجعان إلى القرن السادس، وينظر إليهما على نطاق واسع بوصفهما مثالين بارزين للفن البوذي، وكان تدميرهما بمنزلة اختراق قلب تراث الهزارة أكثر منه تدميرًا لتمثالي بوذا. فتماثيل بوذا الأخرى في محافظات أخرى ظلت بمنأى عن حركة طالبان، ولم تمسسها.

شاهدنا في ذلك اليوم مقاتلي طالبان وهم يمرون على الطريق، وظهرت طائرات الميغ السوفييتية في السماء، طائرات مقاتلة تحلق موشكة الانقضاض فوق خط القافلة مع هدير يصم الآذان، وفي لحظة خشيت من كونها غارة جوية، فهل اشترى مسعود طائرات مقاتلة؟ كانت القوات غير مبالية، ويبدو أنهم شاهدوا هذه الطائرات من قبل، ونظرت إلى السماء الزرقاء فإذا واحدة من الطائرات تجنح فوقنا، وترتفع، فلم

تكن هناك أي ذخائر تحت أجنحتها، وأوضح زملائي أن طالبان تمتلك طائرات قليلة مع أنظمة تسليح محدودة، وكانت حكومة طالبان السوفييتية قد دفعت أجور تدريب الكثير من طياريها في الأيام الخوالي مقابل طلعات جوية لهم من وقت لآخر، وعادت على خط الجبهة، في عملية استعراض للقوة، وكنت أتساءل عما يعتقده الطيارون في تلقي الأوامر من حركة طالبان، فالمفترض أنهم على الأرجح مهذبون ومهنيون؛ أم كان عليهم أن يطلقوا لحاهم الطويلة مثل أي شخص آخر؟ وكيف لهذه اللحى أن تناسب أقنعة الأكسجين؟ بعد سنوات علمت أن وكالة المخابرات المركزية كانت تحلق بطائرات استطلاع من دون طيار فوق أفغانستان منذ عام 2000م، وأنه في إحدى المرات أرسلت طالبان طائرات الميغ لاعتراض واحدة منها، وخلال صيف عام 2001م دارت مناقشة ساخنة بين مسؤولين في البيت الأبيض حول تسليح طائرات من دون طيار في وكالة المخابرات المركزية بالصواريخ في محاولة لقتل أسامة بن لادن.

وفي مايو/ آيار 2001م، كان من الواضح أن لا أحد منا لديه أي فكرة عما يخبئه المستقبل، وكانت القافلة طويلة؛ لذلك قررنا التباطؤ في السير، حيث كان من الصعب تحمُّل العوادم السوداء الساخنة المنبعثة من جوانب الدبابات المارة من مسافة قريبة منا، وتوغلت القافلة الماضية في سبيلها ربما نحو عشرين دقيقة، ثم غابت أخيرًا بعيدًا إلى الشمال الشرقي، تاركة لنا هذا الهدوء مرة أخرى، بين الجبال القديمة، مع أصوات تتلاشى من الطائرات التي يتردد صداها عبر الوادي، وقد تركنا القوة العسكرية تمخر أنحاء القارة، وواصلنا المسير إلى بلخ.

أتذكر كيف بدت بلخ في اليوم الأول: بائسة، وسيطر عليّ التشاؤم كلما سرنا في الساحة الرئيسة، وسط مدينة قديمة مهزومة تمامًا، وهسوان تسانغ، هو راهب بوذي ومؤرخ، مر ببلخ قبل أكثر من ألف سنة، وأشار إلى تماثيل بوذا المرصعة بالجواهر[2] وماركو بولو كان هنا، واصفًا إياها بأنها «المدينة الرائعة كبيرة الحجم»[3] ولا شيء

من ذلك الآن، وهنا كان لا يُحتفى بالتاريخ، بل يُنسى أيضًا، وكانت المدينة مجرد تراب ورمل.

وبعد سنوات عدة علمت أن وليام دوغلاس، قاضي المحكمة العليا في الولايات المتحدة، زار بلخ في يونيه/ حزيران 1957م خلال رحلة صيفية على الطريق من باكستان إلى إيران مع زوجته وصديق، وكانت ردة فعله مماثلة لردة فعلي. في ذلك الوقت، كانت آسيا الوسطى تعيش بسلام، وتعج بكثير من المسافرين السياح المغامرين والبوهيميين من أوروبا والولايات المتحدة يجوبون بشكل روتيني المنطقة الخشنة للمغامرين (درب الهبيين)، ومن المرجح أن رخص أسعار الحشيش عالي الجودة في أفغانستان والأفيون زادها شعبية. والقاضي دوغلاس، وهو رجل الفقه والمغامرة، كتب كتابًا عن رحلاته بعنوان (**غرب نهر الإندس**). ووصف بلخ، بأنها المدينة التي «ذات مرة نافست بابل ونينوى»، لكنها حاليًّا لا تضم سوى «سوق أكلته العثة»:

«إن المدينة التي عرفها الإسكندر الأكبر، والتي كانت لا تزال مزدهرة في القرن السابع الميلادي قد بادت، واختفت، واليوم هناك بقع من العشب بين أكوام من الأنقاض، حيث الفتيات الصغيرات يرعين قطيعًا من الماشية بنية اللون»[4]. وكاتب الرحلات البريطاني روبرت بايرون قدم صورة مماثلة عام 1934م. «الأشكال البيضاء – الرمادية البالية للمعمار الماضي، التلال، المجعدة والمغسولة من المطر والشمس، واهنة أكثر من أي عمل آدمي رأيته في أي وقت مضى»، وكتب[5] دوغلاس:

«بالنسبة إلى عالم الآثار هذه الأنقاض ستكون بلا شك ملهمة، أما بالنسبة إلي فقد سببت لي الاكتئاب فقط» أتذكر الرياح الساخنة عندما خرجت من سيارتنا في اليوم الأول، وكانت الشمس مسببة للعمى، والساحة ملفعة بالغبار، وكان ذلك أكثر من الاكتئاب، وكان ساحقًا.

وكنا مجبرين على العثور على طالبان وتسجيل وصولنا لديهم، لكن رفقاء السفر والمهندسين والعاملين في المجال الإنساني الأفغان، اقترحوا بناءً على حالة الطقس الانتظار ريثما تخف حرارة الشمس قليلًا، في ظل بيت الشاي المجاور، فلا أحد يمكنه أن يعمل عملًا مجديًا في هذه الحرارة اللاهبة، وقد وجدنا أنفسنا جميعًا لا نفعل شيئًا غير أن نتراكض إلى هناك، مغطين أفواهنا بالمناديل؛ لعلها تقينا من الغبار، فما إن وجدنا أنفسنا في الظل حتى سارعنا بشرب الشاي الأخضر وأكل البرتقال الناضج أكثر مما يجب، وجلسنا على وسائد متربة، وقد تلاشى لونها الأحمر القاني، وصُفّت حول حصيرة من القش، ومر علينا الوقت في الحديث، وأعجبت بالمشغولات الخشبية للجدران ونوافذ بيت الشاي التي كانت تتكون من شرابيّات موضوعة بشكل مرتب مع تصاميم منحوتة مع خشب غير مطلي، متكسر ومتلاشٍ. شربت الماء من قدح قصدير، وأرحت عيني المحروقة من الشمس، وأحد زملائي الأفغان، المهندس محمد، تجاذب أطراف الحديث باللغة الدارية مع مواطنه زميلي سهيل، ويبدو أنهما سمعا تقريرًا إخباريًّا في الإذاعة، فشرعا يناقشانه، وكانت حركة طالبان حاضرة في نشرات الأخبار في كثير من الأحيان تلك الأيام، وعلى الرغم من انتهاكات حقوق الإنسان، كانت الأمم المتحدة قد اعترفت بجهود طالبان الناجحة الرامية إلى القضاء على زراعة الخشخاش، ثم قامت طالبان بنسف تماثيل بوذا القديمة في باميان، وهو الحدث الذي غطته وسائل الإعلام في أنحاء العالم، وسهيل كان يشرح شيئًا عن التماثيل لمحمد، فلا أستطيع أن أفهم لغة الداري، ولكني سمعت كلمة **البوذية**. قال المهندس محمد شيئًا عن الدالاي لاما **وجانغ** كلمة تعني الحرب، وسهيل كان يضحك، ويرد عليه في المقابل، ويهز رأسه.

كانت مشاهدتهما ممتعة، وكان الرجلان متباينين جدًّا، والمهندس محمد طويل القامة قوي البنية، وله صوت عميق ولحية بنية اللون كبيرة وصلت إلى ما يقرب من بطنه، وكان مهذبًا للغاية بشكل استثنائي، وجادًّا، وحساسًا، وعملاقًا لطيفًا، وكان يرتدي اللباس التقليدي المكون من سروال وقميص وسترة بنية اللون. أما سهيل فكان صغير

البنية، ومؤذيًا، وساخرًا، ويلبس نظارات بلحية رمادية وقصيرًا وبدينًا قليلًا، وعالي الصوت، ويرتدي دومًا اللون الأبيض، وقد سجلت في بعض الأحيان مناقشاتهما الغريبة والأحاديث التي دارت بينهما في دفتر ملاحظاتي.

وكان سهيل غالبًا ما يروي النكات عن العدد الكبير الملاحظ من الأطفال الذين ولدوا في مخيمات اللاجئين الجديدة، ولدوا في خضم الأزمة.

«يجب على هؤلاء الناس أن يكفوا عن صنع الأطفال» وكان يقول وهو يبتسم بمكر، ويضيف: «لا يفعلون شيئًا غير البقاء في خيامهم، وإنجاب الأطفال». أما المهندس محمد فكان يهز رأسه أسفًا، سواء على سهيل أو على محنة اللاجئين.

«عن ماذا كنتم تتحدثون يا شباب؟» سألت. أجاب سهيل: «نحن نتحدث عن بوذا»، وأضاف: «البي بي سي أجرت مقابلة مع زعيم البوذيين، الدالاي لاما. سألوه عن رأيه في تمثالي بوذا في باميان اللذين نُسِفا» وكان قد مضى بضعة أشهر فقط منذ وقوع الحادثة.

«ماذا يقول الدالاي لاما؟» سألت سهيل. «الصحفي سأله إذا كان غاضبًا؟» قال سهيل. فقال: إنه لم يكن غاضبًا. قال شيئًا مثل: «ما وقع، قد وقع» «ثم تحدثت بي بي سي عن كيفية تعليم الدالاي لاما للبوذيين في التبت، ولا يكون غاضبًا من الصينيين لسيطرتهم على بلادهم» ويمكنني أن أتصور بقية الحديث، فنحن نتعلم الرحمة من أعدائنا، والكل يعاني، توقنا لوجود تماثيل، فذاك مسعى غير مجدٍ، فبوذا موجود بغض النظر عن التماثيل، وقد دُمِّرت التماثيل بالفعل في فراغ الخلود.

المهندس محمد سألني إن كنت أعرف الكثير عن البوذية؟ قلت له: ما بوسعي، نسخة مختصرة وغير معقدة، وسهيل قاطعه مرات عدة نيابة عني، وترجم إلى اللغة الفارسية، مناقشًا أكثر بعض الشيء مع محمد، ويضحك.

أوضح سهيل: «قال المهندس محمد: الأمر ينطوي على شيء من الغرابة، فهذا زعيم البوذيين نسفت له طالبان بوذا».

ويقول المهندس محمد: إن عليه أن يغضب. وكنت أقول له:

«هذا هو دينهم، وإنهم لا يهتمون بأشياء مثل التماثيل»، فيسألني – وسهيل يضحك مرة أخرى – قال: إنه كان يسأل: «ومن ثم لماذا بُنِيت التماثيل أساسًا، إذا كانوا لا يهتمون بالتماثيل؟» ضحكت قائلًا: «أنا لا أعرف! إنه أمر ليس له أي معنى!» ضحكنا كلنا، حتى المهندس محمد التفت إلي، وكانت لغته الإنجليزية متقطعة، وأضاف: لكن هذا الدالاي لاما، تفكيره جيد. بالتأكيد، قلت: إنه يمكن أن يتعلم منه الأفغان الكثير. إنه لأمر سيئ ألا يكون مسلمًا، قال المهندس محمد، وأضاف: إنه تقي جدًّا.

سهيل خفض صوته كما لو كان يتحدث معي فقط، على الرغم من أن المهندس محمد يمكنه بسهولة أن يسمع، وهذا هو ما أقوله: **إنه لأمر غاية في السوء أننا لسنا بوذيين**، ولكزني في الصدر. ذات يوم كنتم كلكم بوذيين، على ما أعتقد.

انتهينا من الشاي، وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب، وحان الوقت للعمل، فكنا نجر أقدامنا بتثاقل، فقد سقنا حتى مسافات طويلة، وكنا مرهقين، والآن وجب علينا إبلاغ زعماء المدينة لتجنب اعتقالهم لنا.

هدأت الرياح، وانقشع الضباب المغبر عن سماء زرقاء، ومشينا إلى ساحة البلدة الحزينة، فرمقنا رجل بملامح وجه مليء بالتجاعيد بنظرة من عينيه من عربته التي يجرها حمار ومحملة بلفات الغَزْل من مختلف الألوان: الأحمر الداكن، والأخضر، والأصفر. وفجأة صدمني النقاش في بيت الشاي: تلك التماثيل وقفت أكثر من 1000 عام، ثم دُمِّرت قبل أسابيع، وأستطيع أن أتذكر ما فكرت فيه لنفسي: لقد عاش ألف جيل هنا حرفيًّا، ثلاثة آلاف سنة أو أكثر، والشمس تلقي بظلال طويلة الآن، وعلق الغبار في الهواء، وهزتني العراقة الهائلة للمكان، فباب بيت الشاي صُفق صفقًا مغلقًا وراءنا بعد

مغادرتنا، ما سبب ذعرًا للحمام في الساحة، فطار محلقًا في السماء، والجبال تربض بعيدًا، غير مبالية بمرور الزمن، وصدى صفقة الباب أثار فيّ أبياتًا من الشعر:

لا موجات تتحطم

فكل ما كان في حاجة إلى نهاية قد انتهى منذ زمن طويل

والموج البارد يرتفع إلى الأعلى والأسفل بدل الداخل والخارج

لأن لا خشب مجروفًا هناك ولا شاطئ[6]

هززت نفسي، وتهيأت، فوصلنا إلى سيارتنا، وانطلقنا.

في أماكن مثل بلخ تشعر حقًّا أنك في السهوب، فقارة أوراسيا تمتد أمامك ومن خلفك، ويمكنك أن تشعر بالاتساع الهائل، سهلًا بعد سهل، ومدى بعد مدى، والوادي بعد الوادي، من البرتغال إلى المحيط الهادي. مفكرًا فيها بوصفها أرض الله الواسعة – سواء عبرتها بالسيارة أم على الأقدام – فأنت تدرك كم هي شاسعة، وتبدأ برؤية كيف أن الأرض نفسها، هذه القارة التي لا تنتهي، قد أغرت قبيلة صينية أو مقدونية قديمة، بأن تناوش، وتغزو جيرانها المماثلين لها كثيرًا. **دعونا نخرج**، ربما قالوا، **لمعرفة ما يكمن وراء الأفق وراء ذلك المدى البعيد.**

الغزو، بالتأكيد، ليس ظاهرة حديثة، فقد انشغل البشر بأشكال مختلفة من العنف المنظم عشرات الآلاف من السنين، والتعاون مع بعضهم بعضًا لممارسة العنف ضد خصوم مشتركين: للبحث عن الحيوانات، على سبيل المثال، أو لمعالجة الخلافات مع عصابات أخرى من الصيادين. والإنثروبولوجيون خلصوا معًا إلى مثل هذا السياق من العنف التعاوني، والقيام بالعنف معًا ضد البشر أو الحيوانات أو للدفاع ضد العنف من الناس الآخرين[7]. ولكن كم عمر **الحملة** والسفر آلاف الأميال لممارسة العنف؟ ما أصولها؟ فالقرائن قد تكمن في جدران المدن القديمة مثل جدران بلخ.

على مشارف بلخ الحديثة كثير من الجدران والقلاع القديمة، بما في ذلك القلعة القديمة الهائلة إلى الجنوب الشرقي المعروفة باسم قلعة جانغي - دار الحرب - موقع جُدِّد في القرن التاسع عشر، ولكنه أقدم من ذلك بكثير(8) فالجدران الطويلة حول بلخ، وعلى الأرجح أبراج المراقبة في قلعة جانغي أيضًا، قد بُنيت، وأُعيد بناؤها منذ عهد الإسكندر، وعندما تمر بها، ترى شيئًا ما رآه شخص آخر من قبلك قبل 3000 عام.

جدران بلخ وأسوارها، بطبيعة الحال، ردود على عالم العنف، فقد بُنيت لمواجهة التهديد بالغزو، وفي بلاد ما بين النهرين، على النيل، وفي أماكن أخرى في إفريقيا وآسيا، بُنيت المدن الأكثر قدمًا من بلخ بلا جدران ترابية أو صخرية، على الرغم من أن بعضها كان له دفاعات بدائية من الخشب، ومع ذلك، ربما كانت المدن الأقدم دون دفاعات مادية حقيقية، فقط الرجال والنساء يراقبون على الدوام، ويدافعون عن منازلهم بالسلاح وباليد، كما فعلت بعض القبائل النائية في إفريقيا وأمريكا الجنوبية حتى وقت قريب، وربما كان في زمن ما هناك - فلاسفة وعلماء أنثروبولوجيا يتجادلون حول التفاصيل - عندما كان البشر غير عنيفين ضد بعضهم بشكل جماعي، ولم تكن هناك أي أسلحة أو جدران على الإطلاق، ولكن عند نقطة بعيدة موغلة في الزمن، انتهت عصور ما قبل التاريخ، وبدأ العنف الحقيقي، ثم جاءت نقطة أخرى عندما بدأ رجال مسلحون جيدًا في السفر مسافات طويلة في مجموعات لممارسة العنف. في نحو ذلك الوقت بدأ الناس في بناء الجدران الكبيرة مثل تلك التي في بلخ.

التغيير الذي سمح للرجال المسلحين بالتحرك في مجموعات كبيرة هو ترويض الخيول، فلم يكن ممكنًا من دونها شن أي حملة في أوراسيا، بل كان ذلك مستحيلًا، فالسهوب، وهي بحر شاسع من الأراضي، يصعب اجتيازها سيرًا على الأقدام، ناهيك عن الإمدادات، وقد ظهرت الخيول المستأنسة أول مرة في آسيا الوسطى على الأرجح منذ أكثر من 4000 سنة(9). فالخيول الصغيرة في السهوب سُرِّبت إلى الشرق الأوسط نحو 1700 قبل الميلاد، وكانت تُستخدم لسحب العربات، ثم ظهرت خيول الحرب الأطول

للركوب في السهوب بعد بضع مئات من السنين، ومن يقف على أي ارتفاع من الأرض حول بلخ اليوم، وينظر شرقًا أو غربًا عبر الفسحة القارية، يمكنه أن يتخيل الرعب الذي سببه ركوب الغزاة للخيل: حيوانات غريبة ترعد رعدًا إلى الأمام مخلفة وراءها سحبًا من الغبار، وتقترب بأسلحة مشحوذة، وربما حتى بالسهام. وكلٌّ من السرعة والقوة الحركية كانت صادمة بلا شك، فيجب أن يكون أحد الذين نجوا من الإرهاب بالتأكيد قد فكر: **يجب أن نفعل شيئًا لمنع ذلك من الحدوث مرة أخرى. نحن في حاجة إلى بناء نوع من الحواجز**، وهكذا بدأ بناء الأسوار والقلاع.

من السهل أن ننسى اليوم في عالم الطائرات والمدفعية الثقيلة أهمية الجدران التاريخية بوصفها دفاعات، فبعض المجتمعات تحرص على فكرة إحياء ذكرى الجدران القديمة غالبًا بوصفها نوعًا من الفضول، ورمزًا للتقدم، وكأنها تقول: **هذا هو الجدار القديم، ولكننا لسنا في حاجة للجدران بعد الآن**. هذا هو الحال مع سور الصين العظيم، وأجزاء من خط ماجينو، حتى بقاياه في برلين. مركز العالم المالي، وول ستريت، سُمّي بهذا الاسم لأنه كان ذات مرة في موقع جدار بناه المستوطنون الهولنديون للدفاع ضد هجمات الهنود الحمر. لقد تقدمنا **كثيرًا**، ولكن سيكون من الضرب في الخيال الاعتقاد أن الجنس البشري قد انعتق من الدينامية القديمة للإرهاب التي أدت إلى أول الحواجز الدفاعية، والجدران لا تزال إلى حد كبير جزءًا من الحياة المعاصرة - في إسرائيل، وفي المنطقة الخضراء من بغداد، وعلى الحدود المكسيكية مع الولايات المتحدة، حتى في وول ستريت نفسها، مبانيها منعت الآن الخروج والدخول لحركة المرور من خلال جدران عالية لإحباط هجمات أي شاحنة - الملغومة. جدران بلخ مجرد فصل متقدم في علم الأنساب الذي يمتد إلى يومنا هذا. وقلعة جانغي لا تزال حصنًا اليوم، وتستخدم من قِبل الجيش الأفغاني للغرض نفسه.

جغرافيا بلخ تؤكد أيضًا أهمية المسافة في الشؤون العسكرية، والخدمات **اللوجستية** الهائلة للحملات والعنف المنظم، ولعبور السهوب، والوصول إلى بلخ،

ومشاهدة أرض القارة الممتدة إلى الأمام والخلف، آلاف الأميال شرقًا وغربًا، والمرور بالجبال الشاهقة التي ترتفع أميالًا في السماء، تكون مضطرًّا إلى التفكير في الجهد البدني المطلوب لحشد المعدات ووسائل النقل لحرب طويلة المدى: نقل الإسكندر مئات الآلاف من الرجال والخيول، جنبًا إلى جنب مع أسلحتهم، والعتاد، والمواد الغذائية، من اليونان إلى سهول باكستان الحديثة، كما فعل جنكيز خان نفسه بين الصين وجنوب أوروبا، ومن الصعب تخيّل كل هؤلاء الرجال يتنقلون عبر هذه المساحات الشاسعة مع الكثير من المواد والمعدات.

كيف تم ذلك؟ ليس بشجاعة المحاربين أو الهمة. يقول المحللون العسكريون في بعض الأحيان: إن الجنرالات النظريين فقط يفكرون إستراتيجيًّا في تشكيلات ساحة المعركة، والهجمات المتتالية، والالتفاف من الأجنحة، والحشود، وتكتيكات الحركة. والجنرالات الحقيقيون هم من يفكرون في الخدمات **اللوجستية**. واقع الحرب هو أنه على الرغم من المثل الرومانسية حول الشجاعة على خط الجبهة، وقدسية الاستشهاد، والحاجة إلى القيادة ودهاء المعركة، فإن معظم الجهد يعتمد على النهاية الخلفية، إذ لا يمكن أن تخوض حربًا، ناهيك عن الفوز بها، ما لم يكن بمقدورك أن تظهر في أرض المعركة.

إن الأدوات الفعلية للعنف اليوم - الجنود والمدفعية والمدافع وطائرات الهليكوبتر - ليست سوى جزء صغير من القوة العسكرية؛ أي ما يسميه ضباطها بـ (أسنانها) فمعظم الجسم المادي للجيش،أو (الذيل) يتكون من الكتائب التي تتلقى الوقود والغذاء والذخيرة، وتنقلها، فهي التي تحرك الأسنان إلى حيث يجب أن تكون المعركة، وتدعم المقاتلين في قتالهم، وبالنسبة إلى حرب الولايات المتحدة في أفغانستان، تضطر القوات إلى نقل الجزء الأكبر من حمولتها على متن سفينة من الولايات المتحدة، وأحيانًا على طول طرق ملتوية للغاية في أوراسيا لتجنب إيران وحتى في بعض الأوقات باكستان، وعندما أغلقت الحكومة الباكستانية الطريق السفلي الوحيد من كراتشي في أواخر

عام 2011م، ارتفع مؤشر تكاليف النقل العسكري إلى 100 مليون دولار في الشهر؛ أي ما مجموعه 1,2 مليار دولار سنويًّا[10] وفي السنوات الأخيرة من الحرب الأفغانية، نُقلت الحاويات عبر المحيط الأطلسي على متن سفينة، وفرّغت في المواني على بحر البلطيق، وحُمّلت على القطارات، وسافرت عبر آلاف الأميال من روسيا وصولًا إلى آسيا الوسطى، ثم وضعت على شاحنات لتُرسَل إلى أفغانستان، وفُرّغت الحاويات الأخرى في المواني الألمانية لتؤخذ مباشرة بواسطة الشاحنات من خلال النمسا، والمجر، ورومانيا، وبلغاريا، وتركيا، مرورًا بجسر البوسفور الذي يربط أوروبا بآسيا الصغرى، لتصل إلى جورجيا وعبر أذربيجان إلى ميناء باكو، ثم نقلت عبر بحر قزوين إلى كازاخستان، التي اتخذت مرة أخرى طريق البر عبر الجزء العلوي من بحر آرال، وعبرت إلى قيرغيزستان، ثم إلى أسفل عبر طاجيكستان نحو هندو كوش، فاستغرقت وسائل النقل أشهرًا[11].

لوجستيات تقديم الدعم من هذا النوع في الوقت المناسب إلى جيش بعيد محيرة حقًّا، وهذا هو السبب الذي يجعل المؤرخين رفيعي المستوى للصراع العسكري، مثل جون كيغان، يكرسون جل اهتمامهم لقضايا الحركة العسكرية، وتفاصيل الحياة الحقيقية لحيوات الجنود، بل هو أيضًا السبب في أن المؤرخ الفرنسي مارك بلوخ، وهو أحد مؤسسي مدرسة **الحوليات** متعددة تخصصات الدراسة، ركز بشكل وثيق على القضايا اللوجستية العسكرية في كتابه (**هزيمة غريبة**) حول انهيار الجيش الفرنسي خلال الغزو النازي لفرنسا عام 1940م. الذيول العسكرية باهظة التكلفة، وهي غالبًا عامل الاستعداد النفسي في النجاح العسكري، والمؤرخ بول كيندي، الذي حلل تاريخ الشؤون الدولية والقوة الاقتصادية، افترض أن نتائج معظم الصراعات الحديثة كلها تقررها العوامل الاقتصادية مسبقًا.

ويشير إلى أن القوات مع مخرجات الإنتاج والاقتصاد المتفوق يمكنها الركون إلى هذه الحقيقة حتى في أحلك الساعات: على سبيل المثال، بالنسبة إلى الدول التي أصبحت حلفاء ضد ألمانيا خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، فقد ضمنت النصر، عندما

التحمت معًا؛ لأن الناتج الاقتصادي وخطوط الائتمان مجتمعة تجاوزت قدرات دول المحور[12] «كان السؤال الجوهري عندما بدأت تلك الحروب: هل سيتكاتف الحلفاء معًا؟ عام 1914 و1939م، لم يكن الاتحاد مضمونًا» وسواء اتفقنا مع هذا أم لا، فيمكننا أن نلاحظ أن سبب هزيمة ألمانيا في الحربين يكمن في وجود الكثير من الأعداء لها، ومن المرجح أن هتلر فهم هذا، كما فعل القادة الألمان عام 1914م؛ فلم تُرِد ألمانيا حربًا متعددة الجبهات في كلتا الحربين، وهذا هو السبب في أن القيادة العليا الألمانية عام 1914م كانت تأمل في ضربة استباقية في وقت مبكر لفرنسا قبل أن تتحول ضد روسيا (الإستراتيجية فشلت بشكل واضح)، ولماذا بعد غزو هتلر لفرنسا عام 1940م، سعى نحو اتفاق سلام كاذب مع بريطانيا؟ لأنه كان قد وضع خططًا لغزو روسيا، وهو الطموح الأكبر.

شهية هتلر لغزو روسيا، هي جزء من فكرة أكبر لكسب **المجال الحيوي** لألمانيا، وكانت في جزء منها اقتصادية؛ لأن قلب الأراضي الروسية ذو قدرات إنتاجية، والسهوب ذات موارد طبيعية غير محدودة تقريبًا، وقد أراد هتلر كليهما: وسيلة لضمان التفوق الألماني في العالم، وكانت هذه أهدافه الرئيسة، التي يتقاسمها نائبه رودولف هيس، استنادًا إلى توجيهات مستشار الرجلين الأكبر ومعلمه في القضايا الجيوسياسية، كارل هوشفر الذي كان يعتقد أن من يسيطر على أوراسيا العظمى، يستطيع أن يسيطر على العالم. هذه النظرية لم تكن غير شائعة في ذلك الوقت[13] فعام 1919م كتب المنظر البريطاني هالفورد ماكيندر في كتاب (**المثل الديمقراطية والواقع**): من يحكم شرق أوروبا يحكم المناطق التي تحكمها روسيا، ومن يحكم هذه المناطق يحكم جزيرة العالم (أوروبا وآسيا وإفريقيا) ومن يحكم جزيرة العالم يحكم العالم[14].

في صيف عام 1941م، أسرّ هتلر لضيوفه في حفل عشاء، ومعظمهم من مسؤولي الحزب النازي، بأحلامه في روسيا: «سنأخذ الجزء الجنوبي من أوكرانيا، وخاصة شبه جزيرة القرم، ونجعله مستعمرة ألمانية[15] وسوف تكون القارة الداخلية مصدرنا من

المواد الخام» بالمواد الخام الروسية، كان هتلر يعتقد أن ألمانيا لا تقهر، ولم تكن الفكرة للقتال من أجل الأيديولوجيا فحسب، أو للحصول على الأراضي ميلًا إثر ميل لمجد الغزو، على الرغم من أن كل هذه الأمجاد قد تكون أثرت في تفكير هتلر الإستراتيجي، ولكن للفوز والاستيلاء على الموارد التي يمكن استخدامها بعد ذلك في ألمانيا لتعزيز مزيد من الغزو. ومن ثم، فإن هذا التفكير كان ملازمًا للإسكندر الأكبر، والهون والمغول، ونابليون، وغيرهم الكثير، فالغزو يولد المزيد من الغزو.

الأميرال إيسوروكو ياماموتو، القائد الأعلى للقوات البحرية اليابانية في الحرب العالمية الثانية، فهم الجانب الآخر من القضايا الاقتصادية: خطر مهاجمة عدو قوي دون أن تنوي هزيمته بشكل تام، لقد ثبت تاريخيًّا اليوم أنه بعد نجاحه في بيرل هاربر عام 1941م عبر الأميرال عن أسفه لأن اليابان نجحت فقط في «إيقاظ عملاق نائم»[16]، وتوقع أن اليابان سوف تكون قادرة على القتال بنجاح في المحيط الهادي فقط نحو ستة أشهر. «إن أي شخص شاهد مصانع السيارات في ديترويت وحقول النفط في ولاية تكساس [التي رآها ياماموتو، بعد أن درس، وسافر في الولايات المتحدة في العشرينيات من القرن الماضي] يعلم أن اليابان تفتقر إلى السلطة الوطنية لسباق بحري مع أمريكا»[17] ياماموتو، الذي كان مواليًا للإمبراطورية، نفذ الأوامر حال أعطيت، وخطط لهجوم مفاجئ رائع، ولكنه يعلم أن اليابان كانت خاسرة من لحظة بدء الحرب.

وفي النهاية، قد يكون الغزو مجديًا فقط عندما تلعب لتحافظ على ما فزت به، والغزو مهم للحفاظ على السلطة، خاصة بالنسبة إلى الحكام غير الوراثيين، كما قال نابليون ذات مرة: «قوتي تعتمد على مجدي وأمجادي على الانتصارات التي فزت بها. وقوتي سوف تنهار إذا لم أغذِّها بأمجاد جديدة وانتصارات جديدة، الغزو جعل مني ما أنا عليه، فالغزو وحده فقط يمكنه أن يمكنني من الحفاظ على منصبي ومكانتي»[18]، المشكلة مع هذا الخط من التفكير واضحة: كلما تنتصر إمبراطورية، تزدد تكاليف الحفاظ على فتوحاتها. في هذا الصدد، الغزو يشبه مخطط بونزي: إنه لا ينجح إلا ما

دام العائد من الإيرادات الإجمالية يغطي التكاليف المتزايدة. عندما تنخفض العائدات، ويصيبها عجز، يؤول النمو إلى السقوط، والحفاظ على صمود الجيش النظامي باهظ الثمن. ويناقش آدم سميث في عمله الملحمي (**ثروة الأمم**)، على وجه التحديد كيف أن الحكومات في أثينا الكلاسيكية وروما تكبدت زيادة التكاليف لجيوشها في الميادين، عندما واجهت الأخطار المتزايدة التي شكلتها قوات غير نظامية صغيرة استخدمت تكتيكات مقتصدة أكثر، وهو الخلل الذي «وجدت فيه جيوش غنية ومتقدمة صعوبة في الدفاع عن نفسها ضد دول فقيرة وهمجية». قال سميث: إن الخلل تم التغلب عليه في عصر البارود، عندما أخضعت الإمبراطوريات بسهولة واقتصاديًّا القوات البربرية بالبنادق والمدافع: «في العصر الحديث، الفقراء يجدون صعوبة في الدفاع عن أنفسهم ضد قوات غنية ومتقدمة»[19]، فربما لو كان سميث على قيد الحياة اليوم، لوجد أن الإرهابيين والمتمردين المحدثين، الذين يمكنهم التمويل الذاتي التام لأنفسهم، ويحصلون بسهولة على مواد متفجرة في السوق المفتوحة، باتوا يشكلون خطرًا، مثل برابرة الماضي.

عوامل أخرى إلى جانب الاقتصاد، وبطبيعة الحال، تسهم في نتائج الحرب: الطقس، والأيديولوجية، والروح المعنوية، وصحة الجنود، والحظ، والجغرافيا. هذه المسألة الأخيرة هي حيث تاريخ بلخ ربما الأكثر إنارة. نعم، المدينة هُزمت مرارًا وتكرارًا على مر القرون، فقد مكثت تحت نير القوة العسكرية الأجنبية مرات كثيرة جدًّا لا تعد، ولا تحصى، ومع ذلك أفغانستان بوصفها دولة نادرًا ما حُكمت من قِبَل الأجانب مدة طويلة. كيف يحدث هذا؟ كيف يتم ذلك وبلخ كانت واحدة من أولى المدن المحتلة عندما غزاها الجيش السوفييتي عام 1979م؟ بقليل من الدماء، ولكن بعد أكثر من ثماني سنوات، كانت القوات السوفييتية مضطرة إلى التراجع وترك الأمر للقوات المحلية؟ سوف يصر المقاتلون المجاهدون (كما فعل الكثيرون معي) على أنهم بشجاعتهم وإصرارهم هزموا الاتحاد السوفييتي. الأمريكيون قد يزعمون أن الهزيمة كانت بسبب منظومات الأسلحة والدعم الذي قدمته وكالة المخابرات المركزية وضخها إلى المجاهدين، وخاصة بعد

عام 1985م، في السنوات الأخيرة من الاحتلال السوفييتي. وبالتأكيد كل ادعاء له ما يبرره، ولكن هناك شيء آخر، عامل أكثر أهمية في اللعبة: الأرض نفسها، والخصائص الجغرافية لأفغانستان، التي لا نهاية لها، جبالها الصخرية.

الجيوش، بعد كل شيء، يجب أن تكون قادرة على التحرك: القدرة على نقل الجنود هي في صميم ما يعنيه أن تمارس العنف على المستوى العسكري الحديث، ويمكن للجيوش أن تنزف حتى الموت عندما لا تستطيع حماية خطوط إمداداتها، عندما يثبت أن المحافظة على الـ (أسنان) مع الـ(ذيل) باتت صعبة جدًّا. هذه الفكرة البسيطة في الاتصال برزت غالبًا مع غزوات نابليون لمصر وروسيا، فضلًا على إسبانيا، حيث جماعات المتمردين - **حروب العصابات** الأولى - التي تعمل انطلاقًا من معاقلها الجبلية الآمنة استنزفت الجيش الفرنسي سنوات»[20]، فخصائص أفغانستان الجغرافية البسيطة يمكن أن تطحن حتى أغنى القوات العسكرية وتوقفها. تضاريس أفغانستان - التي تهيمن عليها سلسلة الجبال الرئيسة في الجانب الجنوبي من السهوب الأوراسية - توضح لماذا البلاد، بينما كانت تعمل كممسحة للجيوش العابرة، كانت إلى حد كبير في مأمن من السيطرة الأجنبية على مر القرون، حتى في مأمن من الحكم المركزي الأفغاني.

إذا استثنينا السهوب، فإن الجبال في الوسط لا يمكن الوصول إليها عمليًّا، فالمناطق الأعمق من أفغانستان ليست مكانًا للحملات، والهواء خفيف، والقوات والطائرات تجد صعوبة في الارتفاعات الشاهقة. التلال على التلال ووديان ضيقة عالية، والكهوف، والممرات، وبعضها مخفية، والكثير منها من المستحيل معرفته: طريق واعد ينتهي فجأة، مسار حمار صغير يوصلك فجأة إلى وجه صخرة صماء. الطرق الموجودة بين الجبال، من السهل أن تكون كمينًا، فالأمر معقد لوجستيًّا لملاحقة متمرد في ظل هذه الظروف، فجيش يمكنه أن يسيطر على مدن أفغانستان وطرقها، كما فعل الروس في الغالب في عقد الثمانينيات من القرن الماضي 1980م، وحلف شمال الأطلسي والولايات

المتحدة سنوات عدة منذ آنذاك، ولكن المتمردين لديهم عمق إستراتيجي كبير يعودون إليه منه يقومون بالهجوم المضاد، وهذا يجعل مهمة المحتل مستحيلة «خصوصًا عندما تم تحويل الجزء الأكبر من الجيش إلى مسرح آخر، كما حدث مع الولايات المتحدة في العراق».

يمتلئ تاريخ الوجود العسكري الأمريكي في أفغانستان بأسماء الوديان البعيدة – بيش، وكورانجال، ووايجال، وشورياك، وممر نهر نورستان – حيث أمضت الوحدات سنوات القتال بضراوة للسيطرة على الوديان شديدة الانحدار، فقط للتخلي عنها، عندما تغيرت الأهداف العسكرية، أو أصبحت غير ذات صلة بالوديان نسبيًّا. الجنرال جون كامبل، قائد القوات الأمريكية في شرق أفغانستان، قال لمراسل **نيويورك تايمز** في فبراير/ شباط 2011م: إن الجيش بدأ الانسحاب من وادي بيش: «هناك الآلاف من الوديان الجبلية المعزولة في جميع أنحاء أفغانستان، ونحن لا يمكننا أن نكون في كل منها»[(21)].

الجنرال ستانلي ماكريستال، القائد السابق للقوات الأمريكية في أفغانستان خلال موجة زيارات الرئيس باراك أوباما لأفغانستان منذ 2009–2010م «قبل أن يجبر على الاستقالة بسبب تصريحات نقلت في مقال **رولينج ستون** أعرب فيها مساعدوه عن آراء ناقدة لمسؤولي الإدارة»، قد يكون فهم جزءًا من هذه الحقيقة. عام 2010م عرّف الفشل للصحفي روبرت كابلان بعبارات بسيطة جدًّا: «سنعرفه عندما لا نكون قادرين على تحريك قواتنا ونقلها»[(22)]، وكانت المفارقة في تصريحه أنه بهذا الإجراء، وفي مناطق عدة في أفغانستان، بدأت هزيمة الجيش الأمريكي عام 2003م، عندما أخذت قوات طالبان تسيطر على مناطق بأكملها ومحافظات في الجنوب والشرق، وهي المناطق التي لم يكن بمقدور الجيش الأمريكي في الواقع أن يتحرك فيها بسهولة، وبدلًا من الاعتراف بتلك الإخفاقات، انسحب قادة الجيش من المناطق الصعبة، وركزوا في مكان آخر.

في فبراير/ شباط 2011م، اعترف وزير الدفاع روبرت غيتس باختصار أن الواقع أصعب في كلمة ألقاها أمام طلاب أكاديمية ويست بوينت العسكرية، في الوقت الذي كانت فيه الأزمة في ليبيا قد بدأت: (في رأيي)، قال جيتس: «إن أي وزير دفاع في المستقبل ينصح الرئيس مرة أخرى بإرسال جيش كبير من الأراضي الأمريكية إلى آسيا أو الشرق الأوسط أو إفريقيا ينبغي أن يفحص رأسه»[23].

الشيء الملاحظ أكثر عن أفغانستان هو أن عددًا قليلًا جدًّا يبدو من تعلموا منها الدرس: أنه حتى مع أموال ضخمة، فإن التحديات اللوجستية في السيطرة على البلاد عسكريًّا – المسافات، والجغرافيا، والنقل، والاتصالات – أكثر من اللازم، وليس مصادفة تاريخية أن الإمبراطوريات الأجنبية فشلت في كثير من الأحيان في أفغانستان، والأسباب دنيوية، وطوبوغرافية، ولا يمكن تجنبها مثل الجبال نفسها في قسوتها ووعورتها. لقد كانت ضربة عبقرية – إذا كان ذلك عن قصد – من أسامة بن لادن في استدراج الولايات المتحدة إلى أفغانستان حتى إن هرب هو إلى الراحة النسبية لمخبأ بعيد المنال في باكستان؛ الطعم والاستدراج.

أطلقت الولايات المتحدة العمليات العسكرية في أفغانستان، (عملية الحرية الدائمة) في ليلة الأحد 7 أكتوبر/ تشرين أول، عام 2001م، وكانت في نحو الساعة 09:00 بالتوقيت المحلي عندما بدأت الهجمات الجوية، وكنت أقيم في دار ضيافة صغيرة في بيشاور، باكستان، على بعد بضع مئات من الأميال من كابول. سمعت صوتًا خافتًا لطائرات في السماء، وكان الجيش الباكستاني والشرطة شددوا الإجراءات الأمنية حول بيشاور مع نقاط تفتيش وناقلات جند مدرعة تقف على نواصي الشوارع، وكانت هناك مخاوف من احتمال الشغب وحتى من انتفاضات مسلحة داخل باكستان، وكان من المفترض على نطاق واسع في ذلك الوقت أن كثيرًا من كبار قادة حركة طالبان وتنظيم القاعدة فروا من أفغانستان إلى باكستان، أو انضموا إلى حلفاء موجودين بالفعل هناك، وعلى الرغم من أنني لم أكن أعرف هذا في ذلك الوقت؛ أي إنني وزملائي كنا في تلك

الليلة في بيشاور قريبين جدًّا لكثير من مخططي هجمات 11 سبتمبر/ أيلول ومنسقيها. ديفيد رود، الصحفي تعرفت إليه في أثناء عمله في أفغانستان على مر السنين، وذكر في صحيفة **نيويورك تايمز** في سبتمبر/ أيلول 2002م أنه في أواخر عام 2001م «جرى تتبع 90٪ من الاتصالات والروابط الأخرى بين المشتبه بانتمائهم لتنظيم القاعدة في أوروبا وأفراد في باكستان إلى مدينة بيشاور»[24].

كل ما أعرفه أن خالد شيخ محمد نفسه كان يجلس في بيت الضيافة القريب، ويشاهد التلفاز، كما كنت أفعل، وإذا كان أعضاء تنظيم القاعدة موجودين في بيشاور، فربما كانت هذه على الأرجح واحدة من أكثر لحظاتهم ضعفًا، قبل أن يرتبوا ملاذات أكثر أمنًا، ومع ذلك كانت الولايات المتحدة تركز على أهداف في كابول وقندهار، وعلى مدى الليالي القادمة، كانت طائرات سلاح الجو الأمريكي وصواريخ توماهوك تجوب سماء المنطقة، وقد أجريت أنا وزملائي مكالمات هاتفية مع أفغانستان، في محاولة للتوصل إلى مسؤولي المساعدات الإنسانية وتقييم ما يجري. سمعنا أن الكهرباء قطعت في كابول، ووقعت انفجارات مختلفة في جميع أنحاء قندهار، ولكنها كانت تقارير سطحية. علمنا في وقت لاحق، ورأينا بأم أعيننا، أن القوات الأمريكية قد أصابت معظم القواعد العسكرية الرئيسة في مدن مثل كابول وقندهار، وكذلك الاستراحات والمساكن الأخرى التي يقال: إن أعضاء عربًا من تنظيم القاعدة عاشوا فيهابعبارة أخرى: الأماكن التي غادروها عندما جاؤوا إلى بيشاور. منازلهم في أفغانستان، إن لم تكن فارغة، فقد شغلتها فقط الزوجات والأطفال التعساء، وعدد قليل جدًّا من طالبان أو قادة القاعدة قتلوا أو حتى أصيبوا خلال تلك الحرب الجوية في أكتوبر/ تشرين أول 2001م. لم يحدث إلا في منتصف نوفمبر/ تشرين الثاني 2001م، أن قتل أحد من كبار التنظيم. كان هذا محمد عاطف، مصري الجنسية الذي ترأس قوة التنظيم العسكرية الصغيرة.

انفجارات! انفجارات! انفجارات! وسرعان ما سمعنا وصفًا للهجمات الجوية من الأفغان الذين فروا منها، كان من السهل أن نتصور عتاد الهجوم المباشر المشترك

في الهبوط على مكاتب طالبان وعلى بيوت القاعدة، وألواح الرخام تتكسر، والجدران تتهدم، والطابق الثاني ينهار على الطابق الأول، والنساء والأطفال يتناثرون إلى أشلاء بفعل المتفجرات أو يسحقون بالجدران المتداعية في كل مكان. لا يمكنني أن أتخيل فكرة أن المشروع بأكمله زلة إستراتيجية، فاعتقال أو قتل قيادة تنظيم القاعدة، كما بدا لي، كان ينبغي أن يكون مسألة عمل مباحث وفخاخ استخبارات، وليس بغارات منتصف الليل على البيوت الآمنة، وليس بإسقاط القنابل الكبيرة وطرد حركة طالبان التي في أحسن الأحوال كانت فقط المضيف لتنظيم القاعدة، تشارك في التآمر كما لو كانت مدير الفندق الذي قد يكون متورطًا في مؤامرات مختلف الضيوف. وفي وقت لاحق بعد مدة طويلة، وفي عام 2009م، وفي أثناء عملي محققًا في قضايا جوانتانامو وتحليل اعتقالات قادة القاعدة، توصلت إلى معرفة أن الكثير من النشطاء الذين شاركوا في هجمات 11 سبتمبر/ أيلول لم يكونوا موجودين في أفغانستان، عندما بدأت الحرب. هرب معظمهم من البلاد قبل أن تسقط القنابل الأولى، وكلهم تقريبًا من أولئك الذين قُبِض عليهم في نهاية المطاف - مثل خالد شيخ محمد واتصالاته مع الخاطفين ورمزي بن الشيبة - الذين لم يصطادوا إلا بعد أشهر من العمل الاستخباري الثانوي بناء على مصادر وأصول محلية في باكستان واليمن، والإمارات العربية المتحدة، وتايلاند.

وباعتراف الجميع، كان التهديد بالحرب هو الذي أدى إلى فرارهم، وأصبح (الحرمان من الملاذ الآمن) هو الهدف الإستراتيجي الرئيس لعمليات مكافحة الإرهاب الأمريكية، على سبيل المثال، حيث تكرر هذا في **الإستراتيجية الوطنية لمكافحة الإرهاب** عام 2003م بوصفها هدفًا أساسيًّا لسياسة الولايات المتحدة في مكافحة الإرهاب. ولكن هذه الإستراتيجية لم تنجح قط على أرض الواقع. وبعد عشر سنوات على هجمات 11 سبتمبر/ أيلول، كان تنظيم القاعدة لا يزال يتمتع بالملاذ على كل جانبي الحدود الأفغانية الباكستانية وأجزاء من اليمن والصومال. طرق أخرى أنتجت على ما

يبدو نتائج أفضل، فالاختراق، وتجنيد أعضاء، وإفشال العمليات المناهضة لمكافحة التجسس، لكن هذه الطرق نادرًا ما لقيت القدر نفسه من الاهتمام.

كيف يمكن لهذا المفهوم – حرمان العدو من الملاذ الآمن – أن يفشل هكذا تمامًا بوصفه هدفًا إستراتيجيًّا، ومع ذلك يدوم مدة طويلة؟ ربما بساطته هي التي عززت شعبيته، فالحرمان من الملاذ يعني شيئًا بسيطًا: السيطرة على إقليم معين لإظهار القدرة على القيام بالعنف ضد الأعداء فيه، فشيء من هذا القبيل أنجزته السلطات الفرنسية (مع الكثير من الوحشية) في الجزائر في الخمسينيات من القرن الماضي، **ويمكننا أن نحصل عليك عندما تكون في هذه المنطقة. نحن نسيطر على مقاليد السلطة هنا، ونحن يمكننا أن نمارس عليك العنف.** ومع ذلك، فإن ضعف هذا النهج واضح: مع أنه قد يكون فعالًا بمعنى وقائي، إلا أن الحرمان من الملاذ يفعل القليل لتغيير النيات والخصائص الأساسية للعدو، وعلاوة على ذلك، ولزيادة تعقيد الأمور، فإن السيطرة على الأراضي لغرض ممارسة العنف ضد الأعداء يحمل معه التزامات أخرى كذلك، وهي جزء من مسؤوليات الحكم، وبمرور الزمن تعلم المسؤولون الأمريكيون أن إنكار الملاذ استلزم برامج لتعزيز الحكم، وتطوير البنية التحتية والنشاط الاقتصادي، واتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية الناس العاديين الآمنين، وليس فقط إطلاق النار على أعداء مزعومين، ولكن إلقاء القبض عليهم، والتحقق منهم، والإفراج عن الأبرياء، وتبديد المخاوف السياسية. وعام 2001م، قدّرت قلة من المسؤولين الأمريكيين أن الجيش لم يكن مجهزًا تجهيزًا جيدًا لمثل هذا العمل.

وفي نوفمبر/ تشرين الثاني 2001م، سقطت بلخ ومزار شريف لميليشيات الأوزبك والهزارة الغازية، وهربت قوات طالبان المفككة جنوبًا، وقبضت الميليشيات المضادة لطالبان على المتطرفين، حيث نقلوهم في شاحنات وحاويات الشحن إلى الصحراء قرب بلخ، كما فعلت القوى نفسها خلال انتصارها المؤقت على طالبان عام 1997م، وبعض السجناء، بما في ذلك (عضو طالبان الأمريكي) جون ووكر ليند، احتجزوا في

قلعة جانغي المجاورة؛ لاستجوابه، وهناك حدث تمرد في المعتقل لم يدم طويلًا في الأيام الأخيرة من عام 2001م، وكان أول ضحية من وكالة المخابرات المركزية في حرب أفغانستان، مايك سبان، الذي كان يستجوب ليند في الساعات التي سبقت وفاته، ولكن سجناء آخرين من طالبان لم يصلوا حتى إلى قلعة جانغي، فقد اختنقوا أو ماتوا من الحرارة في أثناء الرحلة، ودُفنوا في مقابر جماعية خارج المدينة.

وقد زرت بلخ مرة أخرى بعد بضعة أشهر، في يونيه/ حزيران 2002م، ومررت بالجدران القديمة لقلعة جانغي مرة أخرى، في ذلك الوقت كانت قد أُفرغت من السجناء الذين إما أُطلق سراحهم أو أرسلوا إلى قندهار، وبعضهم إلى خليج غوانتانامو، وبدا أن القلعة القديمة كانت بعيدة عن المعركة، وظلت جدرانها العالية الطويلة متماسكة، وبدت دائمة الشباب، فلم ينل منها الزمن، وفي الشمال، أطلقت هزيمة طالبان البشتون العنان لقدر كبير من العنف العرقي، وكانت الميليشيات المحلية تحاول إبعاد المدنيين البشتون من الشمال، وكثير منهم عائلات عاشت في المنطقة منذ أجيال. (البشتون هم أكبر مجموعة عرقية في أفغانستان، لكنهم يشكلون أقلية في المناطق المحيطة ببلخ) وفي تقرير إبريل/ نيسان 2002م بعنوان (دفع ثمن جرائم طالبان)، وثقت هيومان رايتس ووتش كيف أنه في أعقاب سقوط طالبان، نهبت الميليشيات الطاجيكية، والأوزبكية، والهزارة القوية الناشئة في الشمال المدن ذات الأقلية البشتونية، ومسلحون ينهبون البيوت، ويرمون الرجال بالرصاص، ويغتصبون النساء والفتيات والفتيان[25]، وكانت تلك حلقات عنف أخرى على السهوب الآسيوية وفي القرى التي هوجمت بالطريقة نفسها ربما قبل ألفين أو ثلاثة آلاف سنة.

بكل تأكيد أن العائلات البشتون لم تأسف لغياب طالبان، التي جعلت حياتهم بائسة بطرق أخرى، فدب في قلوبهم الرعب من الثمن الذي سيدفعونه الآن لقاء جرائم الحركة، وهذه الأسر كانت قادرة على توثيق خسائرها بدقة على يد طالبان، ليس فقط أقاربهم الذين قتلوا إنما أيضًا خسائرهم من الثروة الحيوانية والأشياء الثمينة. «لقد

قتلوا اثنين من إخوتي وابن عمي، وأخذوا ستة رؤوس من الماعز، وبقرة واحدة، وراديو، وبعض العملات الذهبية، وسلسالًا، وقلادة» – شيء من هذا القبيل. وفي بعض المدن، المسلحون أحرقوا حتى المنازل، وسحبوا إطارات الأبواب الخشبية وإطارات النوافذ، وحدثت عمليات اغتصاب أيضًا – ثمنًا لجرائم البشتون الطالبان البشعة ضد المدنيين الهزارة في السنوات 1997–2000م. أقدم سمات الحرب في وسط وجبهة صراع القرن الواحد والعشرين.

وفي وصف خاص مفجع يفطر القلب، رجل دين بشتون في بلخ يدعى جمال الدين، أجرى زملائي لقاء معه، روى كيف أن جنود الهزارة المناهضين لطالبان، مع نشوة النصر في الآونة الأخيرة، داهموا منزله: «ضربوني على رأسي وعلى الساقين، ثم أوثقوا فمي، لذلك لم أستطع الكلام، وكانوا يسيئون لنا، وذلك باستخدام كلمات بذيئة، تتهمنا نحن البشتون، وتشكل إهانة لنا... ضربوني بالبنادق، وقيدوا يدي»[26]. المسلحون الهزارة اغتصبوا زوجته وبناته الثلاث في غرفة أخرى. قال جمال الدين: إنه في وقت لاحق كان يسمع صراخ زوجته الشابة، ووصف كيف اغتصبت وابنته البالغة من العمر أربع عشرة سنة:

«أخذوا كل النساء والفتيات إلى غرفة أخرى، وبدؤوا مع ابنتي بنت الأربع عشرة سنة التي كانت تبكي كثيرًا، وتتوسل لهم بعدم القيام بذلك؛ لأنها عذراء، لكن أحد الرجال هددها ببندقيته وبقتلها إذا لم تخلع ملابسها، وأمرها بنزع الشالوار، وردّ لها الشالوار في نهاية المطاف. لقد تعرضت للاغتصاب ثلاث مرات، فالقائد اغتصبها مرتين، واغتصبها جندي آخر مرة واحدة، وتناوب الجنود بالدور على زوجة جمال الدين أيضًا، ثم حاولوا اغتصاب بنت الاثنتي عشرة سنة والبنت الصغرى عشر سنوات قبل أن تتمكن زوجته من وقفهم، فعندما حاولوا اغتصاب ابنتي الصغرى قالت لهم: إنها تفضل القتل على الاغتصاب». زوجة جمال الدين أعربت عن الشعور الأفغاني التقليدي بتدمير مستقبل الأسرة: «لا أحد يتزوج بناتي، فلم يبقَ شيء بالنسبة إلينا، لا الزواج ولا الشرف».

كانت زوجة جمال الدين بروايتها شديدة الصراحة على غير المألوف، فقد ناضلنا في أفغانستان لتوثيق الانتهاكات الجنسية التي ارتكبها أمراء الحرب الأفغانية، فالضحايا غالبًا ما رفضن ببساطة وصف تجاربهن لنا، حتى لزميلاتي الأفغانيات. فالعائلات التي تعرضت للهجوم كانت تقيم حاجز صمت حول محنتها، وتقاوم الاستفسارات بشراسة مثلما حاولت مقاومة الاعتداء الجسدي، وكان الأمر وكأن عملية تعرضهن للاعتداء والنهب والاغتصاب قد أحيت آليات التكيف القديمة؛ وعادات يمكن تتبعها إلى أصول بلخ بوصفها واحدة من أولى المدن المسورة في العالم.

وفي منتصف نوفمبر/ تشرين الثاني 2001م، وفي خضم العملية الأمريكية في أفغانستان، اتصل مراسل لهيئة الإذاعة البريطانية بي بي سي هاتفيًّا مع زعيم طالبان الهارب الملا عمر. كانت المقابلة مثيرة للاهتمام، حيث بدا الملا عمر في حالة استرخاء، بل حتى في حالة عدم اكتراث. سأله مراسل البي بي سي: «هل لك أن تخبرنا أي المحافظات الآن تحت سيطرتك» أجاب الملا عمر: «لدينا أربع، خمس محافظات. ولكن ليس المهم عدد المحافظات تحت سيطرتنا، فذات يوم لم يكن لدينا محافظة واحدة، ثم جاء الوقت الذي كان لدينا جميع المحافظات، التي فقدناها في أسبوع، ومن ثم، فإن أعداد المحافظات ليس مهمًّا»[27].

في ذلك الوقت، أضفت هذه الكلمات المجنونة شيئًا من الفكاهة المثيرة للشفقة على هزيمة طالبان، فكنا نعتقد أن طالبان لن تتعافى أبدًا، ولن تكون قادرة على العمل بوصفها حركة تمرد، حتى في قندهار، ولكن مع ذلك تبيّن في وقت لاحق كيف أن كلمات الملا عمر ليست مجنونة. فتقارير الأمم المتحدة أظهرت عام 2005م سيطرة طالبان على مستوى منطقة الجنوب على أكثر من 50 في المئة في بعض المحافظات في الجنوب – مستويات كان لا يمكن تصورها في أواخر عام 2001م. علاوة على ذلك، فإنه لم يعد ممكنًا بالنسبة إلى الأجانب غير المسلحين السفر إلى هناك[28]. بحلول عام 2007م، شنت طالبان هجمات ليست فقط في الجنوب بل على الطرق الشمالية حول مزار شريف،

وبحلول عام 2010م، سيطرت على مساحات كاملة من جنوب أفغانستان، وكان مقاتلوها ينفذون عمليات في المدن الشمالية[29]، فالارتداد الذي يتفق تمامًا مع كلمات الملا عمر عام 2001م – أعاد إلى الأذهان قولًا مأثورًا كان يتردد بين المجاهدين في التصدي للقوات الروسية في الثمانينيات من القرن الماضي: «قد يكون لديكم كل الساعات، لكن لدينا كل الوقت».

يمكن لهذه المواقف إسقاط إمبراطوريات، فالجدران في بلخ تذكرنا بهذا النوع من الثبات، والآثار القديمة في أماكن أخرى، في أثينا وروما والقدس، أو أكساكا، وولان، تبدو مثل الأعجوبة في العالم الحديث، فعظمة عتيقة من المجتمعات القديمة، تشير إلى أمجاد مختلف الإمبراطوريات التي سادت، ثم بادت منذ زمن بعيد، ولكن الأسوار حول بلخ مختلفة: إنها تقف في تحدٍّ لكل من الوقت وزحف الإمبراطوريات، ويبدو أنها شاهدة على أهميتها الحالية، فالجدران حول بلخ يبدو أنها تقول، نيابة عن الأفغان: لقد اُقتُحمنا ألف مرة، وعبر الغزاة أرضنا، وسرق شعبنا واغتصب، **لكننا ما زلنا هنا**.

تحدي أنقاض بلخ ليس انتصارًا، فإنه مجرد أنقاض موجودة ببساطة هناك، بجانب كل ما يحيط بها من حماقات، فالجدران نفسها حماقة، والجدران القديمة لبلخ تثير المرونة، ولكنها أيضًا تشير إلى الفشل في التوصل إلى تفاهم مع مرونة العنف بوصفه ظاهرة إنسانية، ولكبح الفكر عن نتائجه المخيفة.

موضوع القمع النفسي هذا يعيد إلى الأذهان رواية (جيه دبليو جي سيبالد) WG Sebald j **لأوسترليتز**، قصة مؤثرة عن أستاذ منعزل، بعد أن نشأ في حاضنة للأطفال في إنجلترا، يناضل من أجل إزالة الحواجز العقلية التي تحجب تذكره لطفولته المبكرة في ظل السيطرة النازية على تشيكوسلوفاكيا[30]، فالموضوع الأساسي للرواية هو عدم جدوى التحصينات العسكرية، كناية عن جهود اللاوعي الخاصة التي تشكل لدى أوسترليتز حاجزًا أمام ذكرياته في مرحلة الطفولة قبل أن يصبح يتيمًا بسبب النازية.

(اسم أوسترليتز بالذات يستدعي تذكر ليس حصار قلعة، ولكنه يشير إلى، معركة ديناميكية متحركة فاز بها جيش نابليون في مونروفيا عام 1805م) عند نقطة واحدة في الرواية أوسترليتز يناقش تاريخًا طويلًا من الجدران والقلاع المحصنة في بلجيكا، من بنائها إلى تدميرها، من حصار أنتويرب عام 1585م إلى احتلال هتلر قلعة Eben– Emael عام 1940م، الجهود البلجيكية العنيدة بذلت أكثر من 350 عامًا لإعادة بناء التحصينات للدفاع ضد الغزو، التي اضطلعت بها حربًا بعد حرب، قرونًا عدة، ومرارًا وتكرارًا أثبتت عقمها، إعادة بناء سيزيفية، مثلما كل مجموعة جديدة من الحصون تُقتحَم، أو تتحول إلى حطام وخراب باستخدام أسلحة قوية على نحو متزايد من غزو الجيوش الفرنسية أو الألمانية. أوسترليتز يصنف الأسلحة: المتفجرات، والمهاجمة بالمدفعية، والهاون، ويصف التاريخ كله من حروب الحصار الأوروبية، منذ القرن الخامس عشر حتى القرن العشرين، وكفاح المهندسين إلى الكمال في بناء التحصينات المعقدة ودائمة التعقيد المتزايد لتحمل المدفعية، والملوك والجنرالات مقتنعون بأن التغلب على مدفعية الأعداء ليس مسألة ساحة معركة دينامية، أو إستراتيجية، أو هجومًا مضادًّا، ولكنها ببساطة مسألة الهندسة الدفاعية، ويصف أوسترليتز الهاجس:

لا أحد اليوم لديه أدنى فكرة عن كمية لا حدود لها من الكتابات النظرية عن بناء التحصينات، من طبيعة الحسابات الهندسية وحساب المثلثات، والحسابات اللوجستية التي سجلوها، والتجاوزات المبالغ فيها للمفردات المهنية لصناعة التحصينات، أنه لا أحد حتى الآن يفهم أبسط مصطلحاتها (الستارة، و**المخابئ، والحيطان الزائفة، والمنزلقات**)[31]. فمن الجدير بالذكر أن جدران قلعة جانغي، وإعادة بنائها في القرن التاسع عشر، أقيمت بالفعل على نمط نجمة جغرافية معقدة، كما كانت الموضة في القرون الماضية، وهو التصميم الذي دون شك كان عديم الفائدة لطالبان في الدفاع ضد الهجمات الجوية للولايات المتحدة عام 2001م.

رواية سيبالد كُتبت في أواخر التسعينيات من القرن الماضي، وقد استشرفت مرحلة ما بعد 11 سبتمبر/ أيلول، والموضوعات التي تطرقها: تدمير المباني والجهود الفاعلة لتوفير الأمن عن طريق بناء الحواجز. (مجمعات التحصينات *هذه*)، كما يكتب، «تبين لنا كيف، على عكس الطيور، على سبيل المثال، التي تحافظ على بناء العش نفسه على مدى آلاف السنين، فإننا نميل إلى المضي قدمًا في مشروعاتنا أبعد من أي حدود معقولة»[32]، ويقارن الراحة التي يمكننا أن نحسها في تكوينات أصغر، مثل الأكواخ، أو الخلوات، أو (بيت الأطفال في الحديقة)، التي تقدم (على الأقل نوعًا من السلام) مقارنة بالصعوبات التي نواجهها للشعور بالراحة في مبانٍ كبيرة، مثل وزارة الدفاع أو مركز التجارة العالمي:

«في معظم ما نحدق به بدهشة، هو نوع من الدهشة الذي يكون في حد ذاته شكلًا من أشكال بزوغ فجر الرعب؛ لأننا نعرف بالفطرة أن المقاسات المبالغ في حجمها للمباني تلقي بظلال دمارها أمامها من قبل تشييدها، ومصممة من البداية بعين تراها على شكل وجودها في وقت لاحق كأنقاض»[33].

توفي سيبالد في ديسمبر/ كانون الأول 2001م، بعد أشهر قليلة من أحداث 11 سبتمبر/ أيلول، فماذا كان سيبالد يعتقد من المكالمات المباشرة التي تلقاها في أعقاب الهجمات لإعادة بناء برجي مركز التجارة العالمي دون الدخول في الاعتبارات المستحقة من الأحداث التي دمرتهما؟ لأسباب قانونية وسياسية، مرت سنوات عدة قبل البناء، وفي ربيع عام 2007م، وبينما كنت أسير في مانهاتن ليس بعيدًا عن الموقع، لاحظت عنوانًا في صحيفة ساخرة يقول[34]: «القاعدة أيضًا ضاقت ذرعًا بالتأخير في إعادة بناء مركز التجارة العالمي».

عندما تم الانتهاء من بناء البرج الأول لمركز التجارة العالمي عام 2014م، ناضل ناقد فن العمارة في صحيفة **نيويورك تايمز** مايكل كملمان للعثور على أي شيء إيجابي

يكتبه عن تصميم المبنى أو عن منفعته الاجتماعية[35]، فكتب قائلًا: المبنى «الأطول في نصف الكرة الأرضية الغربي»، وكتب في مراجعة دامغة: «كما لو أن ذلك كان يعني أي شيء على الإطلاق».

* * *

الفصل الثالث

العنف عن بعد

كان لي لقاء غريب مع الموت عام 2003م، كان ذلك في أواخر مارس/ آذار، وقد بدأت الحرب في العراق حالًا. كنت على بعد مئات الأميال في الغرب، في أفغانستان، أُجري المزيد من البحوث لهيومان رايتس ووتش، كنا نعمل على قضية مزمنة، أمراء الحرب، ونسافر الى الجنوب الشرقي من كابول؛ لإجراء مقابلات مع مدنيين أفغان: مزارعين وسائقي شاحنات وأولياء أمور وطلاب. لكن متمردي طالبان الناشئين جددوا نشاطهم بإنتاجهم المتنامي المستمر للعنف في الصفوف الخلفية. وفي نهاية المطاف ذلك العنف وصل لي شخصيًّا، فبينما كنت جالسًا في السيارة في أحد شوارع مدينة غزني، أناقش العمل مع الزملاء، اقترب رجلان على دراجة نارية من الأمام، وتوقفا بمحاذاة نافذتي تمامًا خارج السيارة، فالرجل الذي يجلس في الخلف صوّب مسدسه إلى رأسي، ورفيقه، مع ذلك، عن طريق الخطأ وبالمصادفة داست قدمه على غيار سرعة الدراجة، فاندفع الاثنان إلى الأمام، وتجاوزا نافذتي، فضرب المسدس مرآة الرؤية الخلفية بجواري، واختل توازنهما، وعندما شاهدا أصحاب المتاجر يخرجون إلى الشارع وكذلك سائق سيارتنا الذي ترجل من السيارة (ربما كانا يعتقدان، أنه كان يحمل مسدسًا) استردا توازنهما، وانطلقا.

فاتني كل شيء، فطوال الوقت كنت غائبًا عن الحدث، وكنت قد استدرت من مقعدي للتحدث مع زميلتيّ في المقعد الخلفي: زاما كورسن- نيف والمترجمة الأفغانية معنا، وهي امرأة شابة تدعى سيتارا شريف. كل ما رأيته نظرة الذعر المفاجئة في وجه سيتارا، وجحوظ عيني زاما وتقطيبها جبينها، فلم أكن حتى قادرًا على قراءة تعبيرات وجهيهما بشكل صحيح: اعتقدت أنهما كانتا منزعجتين من شيء كنت أقوله، فقد كنت مرتبكًا، وخلال الوقت الذي استغرقته استدارتي، كان الرجلان قد اختفيا، فروت زاما، وسيتارا، والسائق، عبدالله، لي ما حدث. مواجهتي مع الموت وجهًا لوجه، وأنا متعجب، لم تكن حتى تجربة عملية. كانت مشهدًا من فيلم كرتون، كنت أشاهده وأنا صغير: كنت أنا الرجل العجوز، أعمى، غافلًا، في الغالب مصابًا بضربة من سندان يهوي، في الغالب أخطو من على حافة الهاوية، ولكن بدلًا من ذلك تلتقطني بسهولة طائرة هليكوبتر مارّة. من الغريب أن يقال لك: إنك كنت على وشك أن تُقتَل، ولكنك لم تَرَ ذلك بنفسك، ومن المؤكد أنها خففت من الآثار، وبعد الواقعة نادرًا ما فكرت فيها؛ لأنه، في الواقع، لم تكن هناك تجربة للتفكير فيها.

الذي رأى كل شيء، وتفهمه، وكان يخشى على حياته، فتأثر بعمق، هو عبدالله. وفي اليوم المقبل للحادث شرعنا في رحلة طويلة نعود إلى كابول، فقاد عبدالله بسرعة، وبعد أن دخلنا المدينة قال بصوت عالٍ:

«الحمد لله»، كل الشكر لك يا ألله، ثم اصطف بالسيارة على مقربة من مخبز، فشاهدناه يخرج مشتريًا حزمًا من الخبز الأفغاني، ويوزعه على المتسولين والأطفال من حولنا في عمل خيري شاكرًا الله على رحمته لعودتنا سالمين، وجلب عبدالله الرغيف المتبقي من الخبز، واقتطع منه لكل منا كسرة، كأنما كنا في العشاء الأخير، ثم رفع يديه إلى أعلى، وردد دعاء باللغة الفارسية، وكلنا فعلنا مثله، وعندما أنزل يديه رفعنا أيدينا فوق، ثم أنزلناها لما انتهى ماسحين على وجوهنا بها كما يفعل الأفغان في صلواتهم، أكلنا خبزنا، وحمدنا الله.

وفي الأيام التي أعقبت الحادثة أصبح مزاجي تهكميًّا وساخرًا، وشعرت بالرثاء لعبدالله، هذا الشاب الذي يجاهد لكسب لقمة العيش بنقله حفنة من الأجانب الحمقى هنا وهناك، وتصرفه مع الخبز هزني ببراءته الدينية. أتذكر نظرته الفرحة على وجهه، وهو يوزع الخبز، ووجوه النساء اللائي تناولنه منه.

من جهتي، أدهشتني غرابة قدري، فالناس الذين حاولوا قتلي لا يعرفونني، فقد كنت بالنسبة إليهم مجرد فكرة مجردة، أجنبي تتناسب شخصيته مع أهدافهم، ويجلس في سيارة لا تحمل علامات مميزة مع هاتف يعمل بالأقمار الاصطناعية، إذ كنت وكالة المخابرات المركزية بالنسبة إليهم، وهذا كل ما يعرفونه، ويعمل بالسر تحت غطاء صفته عامل إغاثة، ولقد أذهلني أن تكون قرارات طالبان تستهدف أناسًا بالخطأ، مثلما تفعل أيضًا قوات المخابرات الأمريكية التي تتبع طالبان والعرب بصفتهم (مقاتلين أعداء) وغالبًا ما تكون الأوصاف قائمة على معايير خاطئة (المقاتلين الأعداء): تم الخلط بين المقاتلين والقرويين، وسائقي سيارات الأجرة، والعاملين في المجال الإنساني ورجال الدين، فقد كانت هذه هي السمة المميزة للعنف في تلك الحقبة: يهاجمون الناس الخطأ على الدوام، سواء كان ذلك ناتجًا عن سوء فهم أو عن الاستخدام العشوائي للقوة، وعمال المطعم في مركز التجارة العالمي، والنساء والأطفال الأبرياء الذين مزقتهم القنابل العنقودية، وأصحاب المحالّ والأطفال الذين سقطوا قتلى من قِبَل الانتحاريين التفجيريين من طالبان أو تنظيم القاعدة، والعائلة التي تستقل حافلة صغيرة وتُقتَل بالرصاص عند نقطة تفتيش الناتو؛ لأن السائق لم يبطئ السرعة بالشكل الكافي من وجهة نظر من أطلقوا عليهم الرصاص.

دخنت الكثير من السجائر بعد أسبوع من الهجوم، أقتل نفسي ببطء بعد التهديد المباشر لحياتي، فقد سألني أحدهم في وقت لاحق إذا كنت أعاني الكوابيس؟ دون شك لا، فكيف يمكنك أن تخاف الموت عندما لا يتم حتى منحك فرصة له؟ الموت مخيف، وغير معروف، في كثير من الأحيان ومؤلم، ومرعب أن تواجهه في المجرد، ولكنك

عندما لا تحظى بالتجربة المباشرة، فلا شيء يحرك عواطفك. ليس هناك الكثير لنكون شاكرين. على أي حال، عندما يُطلَق النار على شخص في الجزء الخلفي من رأسه على حين غرة، أتصور أنه يعني ببساطة (إطفاء الأضواء)، فليس هناك الكثير من الألم لتخاف منه.

في مزاجي الكئيب، فكرة الشكر من أجل البقاء بدت غريبة على وجه الخصوص، ففكرت في لاعبي كرة القدم عند تسجيلهم هدفًا يشيرون إلى السماء أو يسجدون، فأحس بالاحتقار لفكرة أن مصادفة مع الموت قد تجعل شخصًا ما أقرب إلى الله. القول:

«لا يوجد ملحدون في الحفرة؛ أي الناس يؤمنون في وقت الخوف والحرب» تُردَّد كثيرًا في أعقاب هجمات 11 سبتمبر/ أيلول، ليس من سكان نيويورك أو موظفي البنتاغون، بل أيضًا من خبراء التلفاز، وهم يتحدثون الى أمريكا ككل، كما لو أن مشاهدة هجمات 11 سبتمبر/ أيلول على شاشة التلفاز تشبه خبرة الجنود في الخنادق، وهم يستنجدون بقوة سماوية لإنقاذهم[1].

كان هناك شيء غريب عن الحادثة التي وقعت في غزني: طريقة الهجوم، وهو مسدس من مسافة قريبة، فهذه الطريقة كانت مألوفة، وبعد بضعة أشهر، بالضبط في الجزء نفسه من غزني، قُتِلت عاملة الأمم المتحدة الفرنسية بيتينا جويسلار في ظروف مماثلة: كانت تجلس في سيارتها، مثلما حدث معي، وفي التاسعة والعشرين من العمر (عمري في ذلك العام نفسه) اثنان من المسلحين من طالبان يستقلان دراجة نارية وبطلق ناري مباشر في الرأس، فهذه وسيلة حميمة جدًّا لقتل شخص ما، وتثير مسألة كيفية تكييف شروط العنف عن قرب.

سمة مهمة للحروب الحديثة والإرهاب، وهذا صحيح جزئيًّا في أفغانستان، هي أن معظم أعمال العنف تميل إلى أن تكون من على مسافة بعيدة، باستثناء تفجير الانتحاريين أنفسهم في الحشود. في الحرب الحديثة لم يعد هناك مجال للالتحام بالسلاح الأبيض.

أولئك الذين يتبادلون إطلاق النار بالبنادق والقنابل من كل جانب في الصراع نادرًا ما يعرفون ضحاياهم أو يتعرفون إليهم، فالجنود يَقتلون ويُقتلون من قِبل غرباء، وهم في كثير من الأحيان الناس الذين يتكلمون لغات مختلفة، الذين قد يبدون مختلفين أو لهم رائحة أو تصرف بشكل مختلف، والذين في جميع الاحتمالات لديهم نظرة مختلفة تمامًا للحياة أو الدين، وفي حالتي، كنت هدفًا شبه عشوائي: المسلحون لا يعرفونني. تم اختياري للموت؛ لأنني كنت أجنبيًّا فقط.

هل من الأسهل أن تقتل شخصًا غريبًا؟ ربما، على الرغم من أن إحصاءات عن العنف الإجرامي في كثير من المجتمعات تبين أن ضحايا الجريمة يقتلون عادة، ويشوهون، أو يغتصبون من قِبل أشخاص يعرفونهم: المعارف والجيران، والأصدقاء، أو العائلة، حتى في جرائم الإبادة الجماعية المحلية والمذابح، يحدث القتل في كثير من الأحيان على أساس الاسم الأول مع الضحايا وأسرهم. السؤال الأكثر عمقًا هو ما إذا كان من السهل القتل من مسافة قريبة. قريبة جدًّا، فلا يمكن أن يكون من السهل، حتى مع وجود شخص غريب. ليس لدي معرفة شخصية حول هذا الموضوع، بطبيعة الحال، لكن لي تجربة مع صيد الحيوانات، حتى هذه تبدو لتأكيد الفكرة، فقد أطلقت النار على بطة ذات مرة في أثناء الصيد في ولاية نيويورك: عندما اقتربت منها وجدتها على الأرض، حيث سقطت، كانت تحاول الابتعاد، ترفرف دون جدوى بجناحها الذي لم يُصب، عيناها تندفعان في كل اتجاه، فوضعت قدمي على عنقها، وضغطت بشدة لأخنقها؛ لتجنيبها ما بدا لي وكأنه معاناة، فقد كانت مجرد طائر، ولكنه أحدث رد فعل مادي غير طوعي في جسدي، وأنا أقتلها: لقد بدأ العرق يتصبب من جسدي على الرغم من أن الجو لم يكن حارًّا، شعرت بشيء من الغثيان، وفمي امتلأ باللعاب (الذي يحدث أحيانًا عندما يتذوق البشر النباتات شبه السامة، أو يعانون لدغ الثعابين). كان كما لو أن جسدي مس شيئًا خاطئًا، وقد وقع هذا، لمجرد قتل طير، وعلماء النفس وعلماء الإنثروبولوجيا والمؤرخون

وحتى المحاربون يبدو أنهم يتفقون على أن القتل صعب ومرهق، وأن فعل ذلك من مسافة قريبة، هو أكثر من ذلك، وصعب كما هي مواجهة الموت، فهي عملية مرعبة أيضًا للقاتل.

اللفتنانت كولونيل ديفيد غروسمان، هو أستاذ علم النفس السابق في الأكاديمية العسكرية في ويست بوينت، فقد كتب على نطاق واسع حول هذه الظاهرة، وكتابه عام 1995م (**في القتل**) يحتوي على مجموعة من الحكايات والقصص من بحوثه الخاصة ومن التاريخ العسكري ما يدلل على النفور الطبيعي من القتل حتى لدى الجنود المدربين، على وجه الخصوص القتل من مسافة قريبة[2]، فالجنود أنفسهم شرحوا أن القتل لا يأتي بسهولة، وغروسمان نقل كثيرًا من التجارب التي وصف بها الجنود الاشمئزاز الذي شعروا به: على سبيل المثال، أحد جنود مشاة البحرية البريطانية اقتحم كوخًا لقناص ياباني، وعثر على القناص عالقًا بالأسلاك، لكنه دار حوله، وأطلق النار عليه من مسدس عيار 45, 0: «أستطيع أن أتذكر أني همست بحماقة: «أنا آسف»، وبعدها تقيأت»[3] أحد جنود القبعات الخضر في فيتنام الذي قابله جون كيغان وريتشارد هولمز تحدث عن مقتل جندي فيتنامي شاب: «فتحت النار حالًا، وأطلقت عشرين طلقة في طفل، وما إن سقط قتيلًا هناك حتى ألقيت بسلاحي على الأرض، وأجهشت بالبكاء»[4]، وفي عدد كبير من الروايات قصص، يتذكر الجنود كيف تقيؤوا بعد القتل.

الروايات قصص أكثر تعبيرًا عن القتل (عن قرب) هي القتل اليدوي، عندما يلتحم الخصمان بالسلاح الأبيض، ويصف غروسمان جندي مشاة من الحرب العالمية الثانية الذي قاتل جنديًّا يابانيًّا في حفرة. الجندي الأمريكي في نهاية المطاف يطعن الرجل صغير الحجم، ويجز رقبته، ثم يراقبه وهو ينزف بالقرب منه حتى يموت. وفقًا لغروسمان، كان رجل المشاة قد قتل مرات عدة خلال الحرب، ولكن هذه الحالة، التي قاتل فيها بالسلاح الأبيض عدوًّا، وأخذ ينظر إليه، وهو ينزف حتى الموت كانت الواقعة التي تسببت لي في كوابيس «مدة طويلة بعد انتهاء الحرب». «رعب الذكرى كان شيئًا لم يكن بوسعي احتماله حتى يومنا هذا»[5]. وملخص آخر موجز للصدمة يأتي من رقيب في

القوات الخاصة الأمريكية في حرب فيتنام: «عندما تصبح قريبًا جدًّا وبشكل شخصي، وتغرغر بمضغة تبغ يجترها تحت خده، حيث يمكنك سماعهم يصرخون، وتراهم يموتون، وهنا بصق التبغ للتأكيد أنه مخزٍ»[6].

ويوضح غروسمان أن علم وظائف الأعضاء البشرية، لم يصمم للقتل، وتحدث مع القاتلين ردود فعل حشوية وفسيولوجية: التعرق الغزير، واللعاب، والغثيان. ويمكن أن يعانوا منها. على الرغم من كثير من المناقشات التي تفترض أن ما بعد الصدمة النفسية عند المحاربين القدامى يأتي من الضغط في مواجهة الخطر أو من رؤية رفاق السلاح يقتلون، وبالنسبة إلى كثير من قدامى المحاربين يمكن أن يكون القتل مسببًا للصدمات: مشكلات الصحة العقلية تظهر ليس فقط بين الجنود الذين عانوا المواجهات القريبة مع الموت، ولكن أيضًا بين أولئك الذين قتلوا، أو جرحوا آخرين. جوناثان شاي، الطبيب النفسي الذي عمل على نطاق واسع مع قدامى المحاربين في الولايات المتحدة، صاغ مصطلح (الضرر المعنوي) لوصف التأثير[7]. دوغلاس برير عقيد آخر في الجيش، كتب عن الضرر المعنوي في سياق الانتشار العسكري الأمريكي منذ عام 2001م، مشيرًا إلى ارتباطات بين مشكلات الصحة العقلية لقدامى المحاربين ومشاركتهم في الماضي في انتهاكات أو جرائم مشكوك فيها، حتى تفاصيل عدة لحالات الانتحار بين المخضرمين العسكريين تظهر أنها جرت نتيجة الشعور بالذنب أو الخجل من المشاركة في السلوك المشين[8]، ويبدو أن بعض الناس قادرون على التكيف مع استخدام العنف ضد الآخرين، ولكن الكثيرين لا يتكيفون.

وقد وثقت آثار ضارة بالصحة النفسية بين الشرطة ومكاتب الاستخبارات، والجنود الذين شاركوا في تعذيب المعتقلين، والصحفي جوشوا فيليبس في كتاب بعنوان: (**لا أحد منا كان هكذا من قبل**) **نشر عام** 2010م، يورد تفاصيل مجموعة مقلقة من حالات الانتحار ضمن وحدة عسكرية متورطة في التعذيب في العراق بين عامي 2003 و2004م: كثير من أعضاء الوحدة الأحياء، تحدثوا لفيليبس عن الآثار النفسية التي تكبدوها من

المشاركة في إساءة معاملة السجناء[9]، فالتعذيب ألحق بنا في كثير من النواحي ما هو أكثر صعوبة مما أسفر عنه القتل، حيث إن عملية إلحاق الأذى والألم تستمر على مدى مدة طويلة من الزمن.

بدأت أفهم هذه الآثار النفسية، عندما قابلت قدامى المحاربين من الولايات المتحدة في أفغانستان والعراق حول حوادث التعذيب التي شاركوا فيها: إن الرجال عانوا بشكل واضح من هذه التجربة، وأذكر على وجه الخصوص ضابط مخابرات من الذين خدموا في العراق واصفًا كيف أن العراقيين في قاعدة قرب الموصل بدوا (مجوفين). قال لي: «لا أستطيع أن أنسى كيف بدا هؤلاء الرجال»، وأضاف: «هذا سيبقى معي إلى الأبد».

داريوس ريجالي، عالم اجتماع، ومؤلف كتاب (**التعذيب والديمقراطية**)، وهو كتاب موسوعي عن تاريخ التعذيب، يجد علاقة بين قصص التعذيب من قِبل الشرطة والتعذيب العسكري في البرازيل، واليونان، وشيلي وأوروغواي بين الذين يعانون الاكتئاب والقلق والتوتر الناجم عن «مستويات سامة من الشعور بالذنب والعار» أو مشاعر الخيانة من قِبل حكوماتهم، التي، على الرغم من إجازتها أو الاستفادة من سلوكهم غير القانوني، تميل على المدى الطويل إلى منع التعذيب، وترى فيهم «مرضى اجتماعيًّا، أو يفتقرون إلى الانضباط أو (القيم الأخلاقية). ويكتب ريجالي عن جلاد الشرطة المخضرم في اليونان الذي يستيقظ عادة، وهو يصرخ، وغالبًا ما يبكي علنًا، وفي إحدى المرات قال وهو يصيح: «من أكون؟ أنا وحش»، ونقل ريجالي عن جلاد الشرطة البرازيلية قوله[10]: «نحن ورق تواليت المجتمع».

وفي رواية ريجالي لفرانز فانون، الطبيب النفسي والمفكر الماركسي الذي عالج المعذِّبين الفرنسيين في أثناء الحرب الجزائرية في خمسينيات القرن الماضي، أكد الكثير من تلك الآثار، وفي مذكراته، (**المعذَّبون في الأرض**)، حيث يصف فانون كيف أن

أحد المرضى لديه، وهو ضابط في الجيش الفرنسي، وبعد عمله عشر ساعات في تعذيب المشتبه فيهم في المركز الأمني الذي يعمل به، كان سرعان ما يفقد أعصابه مع أولاده في البيت، ويضرب طفله الرضيع، وذات مرة قام بالهجوم على زوجته. الضابط كتب فانون، فهم صراحة أن النتائج كانت هي (الآثار الجانبية) من عمله، وطلب المساعدة الطبية من فانون للقضاء على هذه الآثار الجانبية، -حتى يستمر على نحو فاعل في تعذيب المشتبه فيهم. وفي مثال آخر، فانون يصف لقاء واحد من مرضاه، وهو ضابط شرطة، وجده واقفًا في الشارع، ويرتجف، ويتصبب عرقًا في منتصف نوبة صدمة، ويبدو أنه رأى واحدًا من ضحاياه السابقين[11].

قد نستنتج أن جزءًا من الإجهاد الذي يعانيه أولئك الذين يمارسون العنف هو بسبب الأعراف الثقافية الحديثة. البشر اليوم غير معتادين على الكم الكبير من العنف والموت، مثل لنقُل: شعب الهون الذين عاشوا في السهوب. القتلة والجلادون الحديثون يعانون أكثر من السابقين بسبب الخلاف الكبير بين حياتنا الاجتماعية العادية وأنشطتنا العنيفة، وربما هذه الفكرة تتجاوب مع حجج ستيفن بينكر، الذي في كتابه (**الملائكة الأفضل) لطبيعتنا** يرى أن العنف غدا أقل شيوعًا مع القوة المتزايدة للحكومات وسيادة القانون، ومع نمو وتوسيع نطاق التجارة والتعليم[12]، لكن حتى بينكر يعترف أنه على الرغم من أن المجتمع البشري قد غدا أكثر تحضرًا، فالبشر بوصفهم نوعًا ليسوا كذلك، فالتطور لا يعمل بهذه السرعة.

يكتب الناقد الأدبي ليونيل تريلنغ في مقدمة لقصص إسحاق بابل (**الفرسان الحمر**)، كيف يمكن مقارنة العنف الوحشي لدى القوزاق في روسيا وشرق أوروبا في أوائل القرن العشرين مع أشكال أكثر دهاء من العنف في الغرب الحديث، حيث استخدام العنف، في الأماكن التي لا يزال العنف فيها سائدًا، أصبح مقيدًا أكثر، ويقول تريلنغ: «الدافع إلى العنف يبدو فطريًّا في جميع البشر، لكن هذا الدافع يبدو بين فئات معينة شائعًا بحرية أكثر بكثير من غيرها»[13]. في البداية هذا يبدو وكأنه استشراق، أي

الشرق من حيث هو فوضوي وعنيف، ولكن نقطة تريلنج ليست للمقارنة بين المجتمعات، ولا تشير إلى الخصائص الوراثية الملازمة، ولكنه لاحظ أن الوحشية تلقي بظلالها على كل المجتمعات، حتى تلك التي، لأي سبب من الأسباب مهما يكن، عنيفة للغاية. في الواقع، كان هدف بابل من قصص وحشية (**الفرسان الحمر**) التفكير في التوترات داخل العنف لدى القوزاق، ليظهر في النهاية، أن إراقة الدماء لم تكن حيوانية. على العكس من ذلك، سفك الدماء يهز العواطف، ويؤثر في الناس، إنه يؤثر في بابل نفسه. إنه يؤثر في الجميع. وعلى الرغم من عدم تصنيفه تحت كلمة (العنف)، فإن مساحات شاسعة من المؤلفات تدور حول موضوع العنف وجذوره وآثاره: نصوص قديمة من الشرق إلى الغرب، وعلم النفس وعلم الجريمة وعلم الإنسان. وهناك أعمال فلسفية: **التنين**، **والأمير**، **وفن الحرب** كلها ترتبط بشكل دائم بالحرب وسياسة العنف. كونفوشيوس، وجان جاك روسو، وديفيد هيوم تأملوا حالة الطبيعة البشرية الأصلية، وحاولوا فهم أصول حمل البشر للسلاح. إيمانويل كانط في مقالته القصيرة الشهيرة (التخمين في أصول التاريخ البشري) ناقش لماذا قتل قابيل هابيل. وكتاب فرويد (**الطوطم والتابو**) في كثير من النواحي هو كتاب عن أصول العدوان البشري، ومارغريت ميد في (**بلوغ سن الرشد في ساموا**) تثير القضية من خلال دراسة مجتمع لا يبدو العدوان موجودًا به.

وبدوره، تطرق الأدب الروائي لموضوع العنف، بشكل أو بآخر، لآلاف السنين، واعترف فرويد أن الموضوعات الرئيسة في علم النفس، التي كان العدوان البشري فيها له أهمية قصوى، قد عولجت أولًا وآخرًا في الروايات، ومن ثم جاء استخدام قصة (**أوديب**) لسوفوكليس، لغز جريمة قتل كان حلها عن طريق القاتل، لاستجلاء نظرية واحدة مركزية (جذور العدوان في سياق الأسرة الواحدة) وكذلك استخدام أعمال دوستويفسكي لمناقشة الجريمة. قال فرويد للكاتب النمساوي ستيفان تسفايغ: إن «الشعراء والفلاسفة قبلي اكتشفوا اللاوعي»، وبطبيعة الحال كان محقًّا: من النصوص القديمة لهوميروس وفياسا إلى أعمال ستندال وبروست، ومن شعراء التانغ الصينيين إلى دانتي وبوكاتشيو،

كان الأدب يتولى صياغة أعماق دوافع الإنسان للعنف - والشعور بالذنب أو العار عند الانخراط في ذلك - قبل مدة طويلة من مجيء العلم أو علم النفس إلى الساحة[14]. في معايير الكتابة الغربية، تشمل الأمثلة دوستويفسكي في (**الإخوة كارامازوف**) و(**الجريمة والعقاب**)، و(**ماكبث**) شكسبير، و(**يوليوس قيصر**)، و(**هاملت**). وقد تشمل أيضًا **تيتوس أندرونيكوس**، الأكثر عنفًا والأكثر وضوحًا من مسرحيات شكسبير، وكوينتين تارانتينو، مثل مهرجان دم مع مجموعة كبيرة من الأيدي المبتورة وقتلة الثأر انتقامًا، من مشهد مغتصبي ابنة تيتوس الذين قطعوا لسانها ويديها، إلى المشهد الأخير، الوليمة، الذي يقتل فيه تيتوس ابنته المشوهة، ويكشف لزوجة الإمبراطور أن الطبق الرئيس يتكون من لحم ولديها الاثنين، ثم يقتل زوجة الإمبراطور ليُقتل على يد الإمبراطور، الذي بدوره يتم قتله على يد ابن تيتوس.

أما بالنسبة إلى النصوص الغربية القديمة التي تستكشف العنف، فإن المرشح الأوفر حظًّا هو على الأرجح **إلياذة** هوميروس، مع سبرها لأغوار غضب أخيل، لكنني أفضل الموضوعات الكامنة وراء أريستوفانيس في (**ليسيستراتا**)، وهي كوميديا بذيئة عن النساء في أثينا وإسبارطة، اللواتي يقمن بالتخطيط لحجب الجنس عن الرجال في مدنهن؛ لإجبارهم على إنهاء الحرب البيلوبونيز بطريقتهن الخاصة، فإن (**ليسيستراتا**) تقدم تشريحًا عميقًا للعنف والأسس النفسية له، إضافة إلى الكشف عن أن الكوميديا هي الخالدة عبر العصور، فالمسرحية تتميز بسقطات الحمقى التهريجية، والنكات عن الأوضاع الجنسية، النص يتناول موضوعًا خالدًا: العلاقة بين الجنسين والعنف، التي في سياق مناقشة أصول العنف، تكون دائمًا مشكلات لا يحب الناس الحديث عنها.

وبالفعل، فقد كان النوع الاجتماعي الجندر هو العقبة الدائمة. حقيقة واضحة حول العنف البشري هي أنه موجود أساسًا في المجال الذكوري: تاريخيًّا الرجال هم المحرضون ومرتكبو الحرب والنهب وجرائم العنف، لكنه سيكون من الخطأ أن نفترض أن العلم قد أوضح هذه الحقيقة. في الواقع، نشأت نظريات متعددة، ولكن لم يثبت أي

منها قطعًا. أقوى البراهين على أن الرجال وراثيًّا أكثر عنفًا من النساء نجدها في بحوث تربط بمستويات الهرمون أو تركيبة الجمجمة مع السلوك العدواني، لكن النتائج بأي حال من الأحوال واضحة كما كنا قد توقعناها، وتشير بعض الأعمال الإنثروبولوجية إلى وجود صلة بين تقسيمات العمل في مجتمعات الصيد، وجمع الثمار، والزراعة، وتربية الأطفال، وهي الفروق التي تطورت منذ ذلك الحين إلى مفاهيم اجتماعية. لكن كثيرًا من هذه الاستنتاجات لا تزال مثيرة للجدل. هذا ربما كان السبب في نصوص مثل (**ليسيستراتا**) الماثلة حتى اليوم: يبدو أننا ما زلنا لا نعرف أي شيء عن الرجال والنساء والعنف. نحن بالكاد يبدو أننا نفهم العنف.

فقط منذ القرن التاسع عشر بدأت معالجة العدوان البشري بوصفه موضوعًا علميًّا، ففي سبعينيات القرن ما قبل الماضي، بدأت جذور العنف الفردي والعدوان الجماعي تحظى بالاهتمام في سياق علم الجريمة والعلوم الاجتماعية ذات الصلة التي كانت رائجة في ذلك الوقت: علم الفراسة والعلوم الروحية للامرئيات، وعلم النفس الجديد، وأشكال بدائية من علم الاجتماع والعلوم المعرفية. نسي العلم اليوم الكثير من الزائف منها: هناك رفوف من الكتابات 150 عامًا من النظريات الزائفة تحتل رفوف المكتبات، لم يمسسها أحد. زرت المكتبات، ورأيت الغبار يغطي تلك الكتب. الكثير ملئ بالتحيزات والاتجاهات القديمة أو المحتوى العنصري أو القومي. كان هذا صحيحًا ليس فقط فيما يتعلق بالمشتبه فيهم المعتادين، مثل علماء العصر النازي - علماء تحسين النسل، والأجناس وعلماء الأجناس في القرن التاسع عشر - يحاولون تصنيف البشر بحسب نسب الجمجمة، والعرق، ليس هذا وحسب بل أيضًا هناك نصوص من الجامعات المعتمدة. علماء فرنسيون من الحرب العالمية الأولى، على سبيل المثال، كتبوا عن (العدوان البروسي) وعلاقته برائحة القوات الألمانية، حتى في سبعينيات ذلك القرن علماء نفس أمريكيون من جامعات رابطة اللبلاب كانوا لا يزالون يدرسون خصائص (الوطنية) في شبه - قالب علمي، على سبيل المثال، العقلية الروسية أو نفسية الفيتكونغ.

وبعض الأعمال الأخيرة، مع ذلك، تحتوي على بحوث أكثر شرعية تستحق بعض الاهتمام، والعالم الألماني في سلوك الحيوان كونراد لورنز، على سبيل المثال، كان من بين أوائل العلماء في ربط السلوك البشري مع الغرائز (الإقليمية) أو المناطقية للحيوانات، وبطيور معينة بصورة خاصة. كتاب لورينز **في العدوان** افترض نظرية أن الحيوانات، ذكورًا وإناثًا، لديها (دافع) طبيعي أن تكون عدوانية ضد المعارضين، بما في ذلك أعضاء من فصيلتها نفسها[15]، ووفقًا للورينز، محرك العدوان محدود داخل الأنواع على ظاهرة (الخضوع أو الاستسلام)، حيث يستطيع أعضاء من النوع نفسه إيقاف دافع العدوانية في بعضهم الآخر عن طريق عرض علامة الخضوع أو التراجع. وبهذه الطريقة ينحسر معظم العنف قبل حدوثه فعلًا.

يرى كتاب لورينز أن صمام أمان الخضوع والتراجع عند البشر لم يعد فاعلًا نتيجة تكنولوجيا مبتكرات صناعة الأسلحة، التي أدت عاطفيًّا إلى (نأي) القاتل عن ضحيته. في استخدام الرماح أو المقلاع للقتل من مسافة بعيدة، لم يعطِ المعتدي ضحاياه فرصة ممارسة الاستسلام وتفعيل مفتاح الإغلاق لعدوان المهاجم. وبهذه الطريقة، تغير البشر من كونهم صيادين في اصطياد الأنواع الأخرى للعيش إلى قتلة نوعهم بالذات.

وفي السنوات اللاحقة، نتائج لورينز عن الحيوانات ظلت تُعدّ صالحة علميًّا، ولكن تقلص نفوذها لدى معرفة أنشطة لورينز خلال مرحلة لاحقة من الرايخ الثالث، عندما أصبح عضوًا في الحزب النازي، وخلال هذه الحقبة بعض كتاباته وردت بها ملاحظات وتقييمات وراثية وعرقية الخصائص. ليس من المستغرب، أن أدى ذلك إلى إقصائه من العلماء الأوروبيين الآخرين، بما في ذلك صديقه منذ مدة طويلة العالم الهولندي نيكو تنبرجن، الذي عمل معه على الملاحظات حول الطيور، ولكنه أُسِر من قِبل النازيين في الأربعينيات من القرن العشرين، وفي السنوات الأخيرة، جعل إنكار لورينز المتكرر، الذي كان يبدو جادًّا في نبذ أخطائه في زمن الحرب، المصالحة ممكنة بينه وبين تنبرجن، فتقاسما جائزة نوبل عام 1973م مع العالم كارل فون فريش.

أفكار لورينز انفجرت في وجه الإنثروبولوجيا التقليدية في منتصف القرن العشرين، وتجاهلت إلى حد كبير أو رفضت الأعمال التي درست العدوان والحرب، وتهربت من المدرسة السلوكية التي تربط الحيوانات بالبشر. الأشكال المبكرة من الإنثروبولوجيا الإثنوغرافية درست مظاهر الحرب في المجتمعات (البدائية)، لكن المدارس اللاحقة، التي بقيت متقاطعة كما فعلت مع الداروينية الاجتماعية، وجدال الفطرة الطبيعية مقابل التنشئة، تولت بدلًا من ذلك قضايا مثل الأسرة، والقبائل، والهوية، والمحرمات، والخرافات. وكثير من علماء الإنثروبولوجيا في منتصف القرن عالجوا الحرب والعدوان البشري على أساس الآثار الجانبية للديناميات الاجتماعية. الحرب هي «مجرد اختراع فقط»، كتبت مارغريت ميد عام 1964م.

تحول المد في النصف الثاني من القرن العشرين، حيث بدأ عدد متزايد من علماء الإنثروبولوجيا دراسة الحرب بوصفها موضوعًا[16]، ويناقش جون كيغان في **تاريخ الحروب**، وبعد عقد الستينيات شرع علماء الإنثروبولوجيا الجدد يتناولون بعض نظريات لورينز لاستكشاف ديناميات (مجموعة الصيد) ودور الرجل في قيادة هذه المجموعات، وتشير هذه النظريات، إلى حدود الدور الابتدائي للرجل في المجتمع البشري.

ظهرت بحوث مثيرة للاهتمام، بعضها أعاد إلى الأذهان صحة أفكار لورينز الأساسية حول العدوان والخضوع، وتناولت دراسات جديدة الحرب في المجتمعات البدائية ما قبل الحديثة، مثل يانومامي في منطقة الأمازون، وتحدثت البحوث على الماوري من بولينيزيا والزولو في جنوب إفريقيا عن وجود مختلف أشكال العنف الطقوسية أو احتفالات حرب (وهمية)؛ أي بمعنى صنع حرب ذات طابع مسرحي في بعض الأحيان (لطم الصدر، عرض للقوة، ما يمكن أن نسميه هز سيف المبارزة أو الحرب النفسية)، التي قد يثبت فيها الجانب الأقوى تفوقه دون الانخراط فعليًّا في أعمال عنف.

وعلى الرغم من ذلك يبدو أن الناس في الثقافات ما قبل الحديثة المعزولة والمميزة في بعض الحالات تقاسمت الأشكال الكامنة وراء تكتيكات تجنب الصراع، المشابهة لمهاجمة الحيوانات وديناميات -الخضوع التراجع التي حددتها دراسات لورنز، التي كشفت أن بعض ثقافات صناعة الحروب كان تكن الاشمئزاز تجاه آثار العنف. قد يتطلب الاستعداد للعدوان في مثل هذه المجموعات وضع مراسم أو ابتلاع المثيرات العقلية، ويلاحظ كيغان أن بعض علماء الإنثروبولوجيا اقترحوا وضع خط فاصل بين (البدائية) والحداثة (أفق عسكري) بين الثقافات: تلك التي لا تزال تمارس في الطقوس القبلية مقابل تلك التي انتقلت إلى ما بعد طقوس تجنب الصراع، بدلًا من تدريب الجيوش على الهزيمة الماحقة للأعداء.

وفي نهاية المطاف، لم يثبت علميًّا سوى القليل عن العنف بوصفه ظاهرة إنسانية، ولا يزال من الحكمة عدم التعميم. وهذا ينطبق بشكل خاص على الإنثروبولوجيا وعلى وجه الخصوص على دراسات مجموعات اجتماعية محددة. ومع ذلك، لا يمكن القول: إن أي ثقافة، (ما قبل الحداثة) أو معزولة، يمكن أن تعطينا فكرة عن أصول الإنسان النقية.

لكن كثيرًا من الأعمال أعلاه تقدم أدلة على أن الحرب والعدوان ليست ظواهر تبزغ ببساطة من حقائق التكنولوجيا أو الثقافة، بل الأحرى يبدو أن العنف نتاج تفاعلات معقدة بين الثقافات والتصرفات البيولوجية غير السوية، التي تعقدت من ظاهرة تغيّر المجتمعات مع مرور الوقت، أو الثقافات العسكرية التي وجدت ضمن الثقافات، وأصبحت مهيمنة. (كيغان تحدث عن المماليك في مصر بوصفهم مثالًا، والطبقة العسكرية البروسية في أوائل القرن العشرين بوصفهم مثالًا آخر).

قد يكون لورينز على حق أننا نمتلك الاشمئزاز للعنف. إلى جانب الحقائق الاجتماعية والتاريخية، والظروف النفسية التي فصلها اللفتنانت كولونيل غروسمان عن

اشمئزاز الجنود من القتل، فالدليل يمكن العثور عليه أيضًا حتى في تاريخ التكنولوجيا العسكرية نفسها - الأسلحة.

بعد كل هذا وذاك، فإن كل تاريخ العنف البشري والأسلحة على وجه الخصوص يمكن وصفها بأنها تطور للمحاولات التكنولوجية على يد الجناة ليكونوا أبعد وأبعد عن ضحاياهم، الذي يشير على الأقل جزئيًّا إلى نفور من القتل وجهًا لوجه، من المقلاع والسهام قبل آلاف السنين إلى الصواريخ الباليستية والطائرات من دون طيار في عصرنا الحالي، والجهود المبذولة لتطوير التكنولوجيا العسكرية تركز بشكل كبير على هذا الهدف، حتى استخدام الخيول، الذي يُعدُّ تقدمًا عسكريًّا كبيرًا، هو بصورة خاصة محاولة لإيجاد مسافة - على الأقل مسافة عمودية - من الضحايا.

وكانت هناك استثناءات ملحوظة، ولا سيما في السياق الأوروبي: الطريقة اليونانية في الحرب، التي تم نقلها إلى عصر الفروسية، شددت على فضائل المعركة القريبة والانقضاض على العدو، للقائه وجهًا لوجه، وحتى مع التقدم التكنولوجي العسكري لا يزال المقاتلون يتدربون - لسبب وجيه - على القتال وعلى الالتحام بالسلاح الأبيض. (وحتى يومنا هذا، يتدرب مشاة البحرية الأمريكية على استخدام الحراب، على الرغم من الدراسات التي تبين أن هذه الأسلحة نادرًا ما استخدمت بنجاح في المعارك[17]. بصورة عامة، ومع ذلك، فإن التفضيل المعنوي للقتال المتلاحم اختفى بعد العصور الوسطى، ولم يستمر إلا رمزيًّا فقط على شكل المبارزة، سواء بالسيوف أو بالبنادق، وهي ممارسة، لأسباب سياسية واجتماعية معقدة، استمرت في أوروبا حتى أوائل القرن العشرين. وكان الاتجاه الأكبر في التاريخ العسكري نحو اكتساب مسافة أو على الأقل اختصار الوقت بين الجانبين المتقابلين الذي يكون فيه القتال في مواقع قريبة.

جزء من جاذبية المسافة هو، بطبيعة الحال، السلامة التي تتيحها، فمن الأسهل والأكثر أمانًا أن تقتل من بعيد، فلا شك أنه أكثر أمنًا وأسهل أن تقتل بالتسديد من

المدفعية منه بالسهم، وحتى أكثر أمنًا وأسهل الضغط على زر لإطلاق صواريخ كروز أو صاروخ عابر للقارات، ولكن شهية المحارب للمسافة لا يمكن تفسيرها ببساطة على أنها شهية للسلامة، والصحيح أنه أيضًا مع كل خطوة بعيدًا عن الضحية، فإن بعض الضغط النفسي الناجم عن القتل يصبح أقل. وإن الظواهر المادية أو الحسية التي تسبب القلق مرأى الدم، وأصوات الألم، وقوة الحياة، وهي تترك الجسد، ويصبح الإحساس بها أو رؤيتها أو سماعها أقل، ومع الحرمان الحسي تأتي اللامبالاة تجاه الضحية، وهذا بدوره يسمح بمزيد من القسوة، وهي صفة ممتازة بالنسبة إلى الذين يسعون للانتصار في معركة.

ومع ذلك، من بداية تطوير أسلحة المسافة، استمرت المشكلة التكنولوجية: صعوبة **الهدف**، فكلما صار الرمح على مسافة أبعد، قلت سيطرة المحارب عليه، ومن الصعب أن ترمى صخرة بدقة، ومن الصعب أن تصنع السهام التي تحلق بصورة صحيحة، ولا يزال أكثر صعوبة حساب المنحنيات القطعية المكافئة للمنجنيق أو قطعة المدفعية، والتحدي المتمثل في القتل بدقة، والسيطرة على الآثار الجانبية للأسلحة من مسافة، ظل التحدي الأساسي عبر التاريخ، سواء لضباط المدفعية المدربين أو للعصابات الفقيرة من المتمردين. فضابط المدفعية عليه معايرة هدفه لتجنب قتل المدنيين القريبين أو لتجنب هدر قذائف المدفعية، في حين أن المتمردين قد يسعون لاستخدام المدى الطويل بدقة لتجنب كشفهم؛ لأن خصومهم يفوقونهم عددًا. وعلى مدى قرون، أبقت تحديات الهدف المحاربين بالقرب من بعضهم، ولم يحدث إلا في الآونة الأخيرة فقط، في القرن الماضي أو نحو ذلك، أن بدأ التغلب على تحدي الهدف من الناحية التكنولوجية، وأصبح السعي العسكري لمسافة أبعد غير محدود.

شملت التطورات الحديثة المدفعية وصواريخ الميدان، والطائرات، وفي الآونة الأخيرة، صواريخ طويلة المدى والمركبات الجوية غير المأهولة، أو الطائرات من دون طيار، التي يمكن السيطرة عليها من قبل المشغلين على الجانب الآخر من العالم، ولقد

وصلت البشرية في القرن الحادي والعشرين النقطة التي تستطيع فيها بعض أفضل الجيوش تجهيزًا خوض الحروب عن بعد من قارة أخرى: الجندي يمكن أن يقتل من دون أخطار، دون خوف، ودون الكثير من المدخلات الحسية من المشهد الذي يحدث فيه القتل، ويظل الندم والاشمئزاز هو ما يصنعه بخياله.

الظاهر أن لورينز فهم الأمر بطريقة صحيحة، إذ يبدو أن الناس ليسوا مبرمجين للعنف المنفلت بلا قيود. الأصول التاريخية والإنثروبولوجية للعنف قد تكون معقدة للغاية لكي نفهمها، ولكن يبدو واضحًا أنه في معظم المجتمعات البشرية والثقافات، حتى في وسط الصراع، فإن الناس يفضلون تجنب العنف.

على الرغم من كل هذا، فالناس تقتل في كثير من الأحيان، ومن مواقع قريبة. في عملي في هيومان رايتس ووتش، فإنني كثيرًا ما جمعت قصصًا عن مثل هذه العمليات من القتل: في عمليات شغب غوجارات في الهند عام 2002م، على سبيل المثال، التي شرع بها الغوغاء القوميون الهندوس بقتل المسلمين الهنود ومهاجمتهم من بيت إلى بيت ومن باب إلى باب، ما أسفر عن مقتل رجل وصبي من مسافة قريبة بالسيوف والحراب واغتصاب النساء والفتيات، وتمزيق الجثث وحرقها(18). أو بعد عشر سنوات، ابتداء من يونيه/ حزيران 2012م، اندلعت موجة من أعمال العنف في ولاية أراكان غرب بورما التي نفذ بها الأراكانيون البوذيون العرقيون مذابح ضد مسلمي الروهينغيا، وهاجموا الضحايا بالسيوف، وزجوا بهم في أتون النيران، وأُحرِق في هذه العملية آلاف المنازل، بما في ذلك الحي الإسلامي كله من مدينة الولاية الشمالية، سيتوي(19). قداس العنف من هذا النوع يحدث في كل مكان بشكل روتيني في جميع أنحاء العالم. كيف يطاوع الناس أنفسهم القيام بذلك؟

ربما لضحالة التفكير، ففي مقال بعنوان (صعوبة تخيل أشخاص آخرين) تقول إلين سكاري : إن العنف متمكن بسبب محدودية قدرة الإنسان على تصور محنة الآخرين.

وتوضح: «إن قدرة الإنسان على إيذاء الآخرين كانت دائمًا أكبر بكثير من قدرته على تخيل أشخاص آخرين، قدرة الإنسان على جرح الآخرين كبيرة جدًّا على وجه التحديد بسبب أن قدرتنا على تصور الآخرين صغيرة جدًّا[20]، وهنا ربما نصل إلى جوهر المسألة. رجل يوجه سلاحًا إلى رأسك، وعلى الرغم من كل العوامل الإنسانية التي تجعل ذلك صعبًا، لأنه على اقتناع تام لسبب ما أن جريمة القتل في حاجة لأن تنفذ، ويتعين عليه القيام بها، ولم يتوقف قليلًا للنظر في البدائل، أو في التناقضات في قناعاته، أو في وجهة نظر الضحية.

لسوء الحظ، على الرغم من ذلك، في المخيلة الشعبية غالبًا ما يُعتقد أن الحل للكراهية العرقية هو في التعليم: فكلما عرف المزيد من الناس عن حقوق الإنسان والثقافات الأخرى، قل حدوث عنف لا معنى له، فمن السهل تبني هذه الفكرة – تثقيف الناس بأن يكونوا أكثر عالمية – وخاصة إذا ما وضعناها جنبًا إلى جنب مع الشوفينية والقومية الطائشة.

ولكن من وجهة نظر أولئك الذين يقومون بالدراسات والبحوث حول انتهاكات حقوق الإنسان في العالم الحقيقي، تبدو الفكرة ساذجة أو أكاديمية، فإذا وضعنا جانبًا القضايا التربوية عما إذا كان التعليم حتى في التعاطف ممكنًا، فإن معظم الباحثين في مجال الحقوق سوف يقلبون القضية رأسًا على عقب، وسوف يوضحون أن كثيرًا من جناة انتهاك حقوق الإنسان لديهم تعاطف: تعاطف مع جنسهم، وتعاطف مع أولئك الذين يعتقدون أنهم يشبهونهم أو غير ذلك يستحقون الاحترام. الجناة قد يؤمنون حتى بـ (حقوق الإنسان) من نوع ما: حقوق الإنسان من شعبهم وحلفائهم، ويرجح كثير من المنتهكين رؤية ضحاياهم بوصفهم أعداء للخير، ولا يستحقون الحماية القانونية أو هم غير شرعيين. وإلا فكيف يمكننا أن نبرر ما يقوله نشطاء حقوقيون يتحدثون في بورما عن الأقليات المسلمة في روهينغيا بوصفهم (أجانب) ينبغي أن يوضعوا في معسكرات الاعتقال؟[21]. وإلا فكيف يمكننا أن نفسر الساسة الأمريكيين المعتدلين، المكرسين

للديمقراطية في الداخل والخارج، متحدثين عن مجموعات الإرهاب المتطرف بصفتهم لا يستحقون حماية حكم القانون؟

فكرة حقوق الإنسان يمكن بالفعل ليّ عنقها وقلبها رأسًا على عقب، وجعلها تبريرًا للعنف، فالعمومية الكامنة في تعريفها أُسقطت وكأنها تفاصيل لا تبعث على الارتياح. في الحالة الأكثر تطرفًا، يمكننا دراسة حالة أدولف هتلر، وهو يتحدث عن **حقوق الأقلية** الألمان في تشيكوسلوفاكيا عام 1938م أو دانزيغ عام 1939م أو إعلان ألمانيا الحرب على الولايات المتحدة في 11 ديسمبر/ كانون الأول 1941م، الذي تحدث فيه هتلر عن كيف أن ألمانيا «لا تحتاج إلى أعمال خيرية [من القوى الحليفة] ولكنها تطالب **بحقوقها**». أو كيف يمكننا أن ننظر إلى المجاهدين الأفغان، وبعضهم ندد بحقوق الإنسان بعد عام 2001م بوصفها قيمًا غربية، ولكنهم دافعوا عن مسألة الحقوق في الثمانينيات على سبيل المثال، عندما كتب قلب الدين حكمتيار عام 1985م:

«السلوك السوفييتي في أفغانستان يسخر من ميثاق الأمم المتحدة، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان والقانون الدولي وقواعد السلوك المتحضر»[22]. من السهل أن تصبح ساخرًا عندما تنتقد الدعوات التاريخية لحقوق الإنسان، فشبح الدوافع الخفية يلوح في العلن، وقد كتب نيتشه، مناقشًا (إغراء) العدالة في كتاب (**إنساني ومفرط في إنسانيته**): «إن المطالبة بالمساواة في الحقوق، كما يفعل الاشتراكيون من الطبقات المقهورة، لم ينتج عن العدالة بل عن الطمع. إذا أظهر شخص ما لوحش قطعًا دموية من اللحوم عن قرب، وبعد ذلك سحب هذه القطع من اللحم بعيدًا مرة أخرى إلى أن يزمجر أخيرًا، فهل تعتقد أن هذه الزمجرة تعني العدالة؟».

الحقوق والعدالة غالبًا ما كانت اللافتات التي ادّعت الأنظمة الفاسدة الشرعية بناء عليها. منذ قرون عدة ادعت الأنظمة الاستبدادية أنها (جمهوريات) وعقدت البرلمانات، في محاولة لاحتضان عباءة المساواة. حتى في المكتب السياسي في الاتحاد السوفييتي،

في ظل حكم ستالين، صدر دستور سوفييتي جديد في عقد الثلاثينيات، الذي، على الرغم من أن النظام لم يكن لديه نية لإعلاء بنوده، يكفل حرية التعبير والصحافة والتجمع، وهناك أمثلة عدة في التاريخ - من الماجناكارتا إلى **البيريسترويكا** - لصكوك الحقوق التي كانت تقدم مكافأة من قِبَل الحكام المستبدين على وجه التحديد بوصفها حلًّا وسطًا للاحتفاظ بالسلطة. ديفيد غريس، المؤرخ الدانماركي المحافظ، أشار إلى أن كثيرًا من التطورات في الحرية في تاريخ البشرية حدثت في المقام الأول «لأنها تخدم مصالح السلطة»[23].

عدم الطهارة موجودة حتى بين الناشطين في مجال حقوق الإنسان: الاهتمام غير المتناسب في قضايا معينة، والتشويهات، والتعاطف مع مجموعات معينة على حساب مجموعات أخرى. مثلًا، أظهر نشطاء الحقوق قليلًا من الاهتمام لمواطني صربيا تحت القصف خلال التدخل في كوسوفو عام 1999م، فمن السهل جدًّا التركيز على حقوق مجموعة واحدة على حساب مجموعة أخرى، حتى في حالات التدخل الإنساني، فالحقوق يسهل استدعاؤها دائمًا، عندما نستبعد الجانب العام منها، ونركز على فئة معينة من الضحايا.

وفي نهاية المطاف، المشكلة في الدفاع عن الحقوق هي أن معظم منتهكي حقوق الإنسان لا ينظرون لأعدائهم على أنهم جديرون بالاحترام وحماية القانون. على العكس من ذلك، فإن كثيرًا من الجناة يَعدّون أنفسهم ضحايا الانتهاكات التي ارتكبها أعداؤهم، وحدد الفيلسوف الأمريكي ريتشارد رورتي هذه القضايا في خطاب ألقاه عام 1993م، ومقال بعنوان (حقوق الإنسان، والعقلانية، والعاطفة)[24]. ويتمثل التحدي في صميم حقوق الإنسان ليس من أجل حل مسألة فلسفية حول لماذا يجب أن يكون شخص ما في التزام أخلاقي تجاه الآخر، هكذا جادل رورتي. المشكلة ليست مجادلة أولئك الذين يرون أشخاصًا معينين دون البشر وإقناعهم بأن ما يرونه شبه آدمي هو ليس كذلك. رورتي استدعى نقد نيتشه للفلسفة الأخلاقية التقليدية وفكرة المساواة، مشيرًا إلى أن

الخرافة التشريعية للمساواة في ظل القانون تبدو في بعض الأحيان مثل خدعة عقلية لُعبت من قِبل الأضعف، مغيرة القيم لتحويل قوة سادتهم بحكم الأمر الواقع إلى مسؤولية أخلاقية. بدلًا من ذلك ينبغي أن يُنظر إلى المسألة من وجهة نظر الجناة: «لماذا يجب أن أهتم بشخص غريب، شخص ليس قريبي، وعاداته بالنسبة إلي مثيرة للاشمئزاز؟» رورتي يوضح: «الجواب التقليدي عن السؤال الأخير هو أن القرابة والعرف ليست ذات صلة أخلاقيًّا، ولا علاقة لها بالالتزامات التي يفرضها الاعتراف بالعضوية في النوع نفسه»، ثم يفسر رورتي لماذا الجواب غير مقنع.

هذا لم يكن أبدًا مقنعًا جدًّا؛ لأنه يطرح السؤال في المسألة المثارة: ما إذا كانت مجرد عضوية الأنواع هي، في الواقع، بديلًا كافيًا لقرابة أوثق. علاوة على ذلك، فإن هذا الجواب يترك المرء منفتحًا على الرد السريع المحبط لنيتشه: هذه الفكرة تعميمية،ربما خطرت فقط ببال عبد أو ربما عقل مثقف، أو كاهن يعتمد تقديره لذاته ووسيلة عيشه على جعلنا نقبل مفارقة مقدسة غير قابلة للنقاش، والطعن والتحدي.

معنى المفارقة المقدسة أن جميع البشر متساوون، على الرغم من أنهم من وجهات نظر مختلفة وعملية ليسوا متساوين.

فكرة رورتي - فكرة ثورية - هي أن البشرية لا تحتاج إلى الأساس الفلسفي لمنظومة حقوق الإنسان. بدلًا من ذلك، فإنها تحتاج إلى حملة دفاع مستمرة وعملية لتعزيز التعاطف وجعل الجناة المحتملين يشعرون نحو ضحاياهم بشكل مختلف:

الجواب الأفضل إلى حد ما عن [سؤال: لماذا ينبغي للمرء أن يهتم بالغريب؟] هو قصة عاطفية حزينة، وطويلة تبدأ «لأن هذا هو ما يبدو عليه أن تكون في مثل حالتها، وأن يكون المرء بعيدًا عن الوطن، بين الغرباء»، أو «لأنها قد تصبح كنتك» أو «لأن والدتها حزينة عليها/ عليه».

مثل هذه القصص، متكررة ومتنوعة على مر القرون، وقد حثتنا، نحن الناس الأغنياء الأقوياء الآمنين، على التسامح، وحتى أن نعتني به/ بها، وبالناس الضعفاء؛ الناس الذين مظهرهم أو عاداتهم أو معتقداتهم في البداية بدت إهانة لهويتنا المعنوية الخاصة، وإحساسنا بحدود الاختلاف البشري المسموح به.

العاملون في مجال حقوق الإنسان، في إطار تحليل رورتي، مروجو (عاطفة) عملهم يتكون من جهد لجعل الجناة وعملائهم يشعرون بالرثاء للضحايا. العاملون في مجال حقوق الإنسان يروون قصصًا حزينة، أو يلتقطون صورًا حزينة، لاستدرار العاطفة.

هل هذا الأسلوب ناجح؟

في معظم الوقت، لا. فالعاطفة لا تناسب عصر الإرهاب الحديث ومكافحة الإرهاب وأشكال العنف المصاحبة لهما، والكثير من أعمال العنف تتم عن مسافة كبيرة جسديًّا وعاطفيًّا، فزعيم المتمردين، على سبيل المثال، يجند الانتحاري التفجيري، ويرسله لتنفيذ الهجوم، ثم ينتظر تقارير، وهو في مركز بعيد، بينما ينفذ المجند الضعيف ربما المهمة الأولى والوحيدة المكلف بها، فإنه لمن الصعب جعل قادة المتمردين يكترثون بالمدنيين الذين تقتلهم أفعالهم، فهم يبقون أنفسهم على مسافة عاطفية من التفاصيل: إنهم يقاتلون، على أي حال، نيابة عن السكان المدنيين جميعًا. وفي الوقت نفسه، يجلس القادة العسكريون، ورجال المخابرات، الذين يشرفون على عمليات مكافحة الإرهاب أو مكافحة التمرد، في قواعد محصنة، وأحيانًا في قارة أخرى، ويشنون هجمات على مجمعات لا يرونها إلا من الجو فقط. وهكذا، إذا كان الهدف الأساسي من العمل في مجال حقوق الإنسان هو جمع القصص وسردها لتوليد التعاطف، فإن هذه الجهود تفشل في العادة، فما يتبقى هو مهمة جمع الأدلة للسجل التاريخي، على أمل أنها ستستخدم لمساءلة مرتكبي الانتهاكات عن أفعالهم.

حجة رورتي تفشل أيضًا في الإجابة عن الأسئلة الكبرى، وهي: لماذا الناس حريصون جدًّا على العثور على الأسس الفلسفية للنظم الأخلاقية في المقام الأول؟ وماذا يعني أن نفعل ذلك؟ ولكن ربما تساعد حجته على تفسير السبب الذي يضطرنا إلى تسجيل قصص ورواياتها - عادة إنسانية تخترق كل عصر وفي كل ثقافة تقريبًا في جميع أنحاء العالم. جمع القصص هو ما كنت أفعله عندما وضع ذاك المسلح من طالبان في غزني مسدسًا في رأسي، وكاد يقتلني. هل كان ذلك المسلح يعرب عن أسفه على تصرفاته لو أنه عرف أنني لست جاسوسًا، ولكنني عامل في مجال حقوق الإنسان، وداعية، ومحامٍ، ومهرب مشاعر؟ أم أنني كنت، دعنا نقول: مجرد صبي، أو الأخ الأصغر القلق، أو أبًا في المستقبل يعتني بأبنائه؟ أود أن أعتقد ذلك.

* * *

الفصل الرابع

حدود العنف البعيد

حدثت أول عملية معلنة مسجلة للقتل بطائرة من دون طيار في فبراير 2004م في مقاطعة بختيا في أفغانستان بالقرب من مدينة كوست. كان الهدف أسامة بن لادن، أو هكذا اعتقد أحدهم في وكالة المخابرات المركزية. وهذا ما شرحه وزير الدفاع رونالد رامسفيلد في وقت لاحق بالقول، مستخدمًا صيغة المبني للمجهول: لقد اتُّخِذ قرار بإطلاق صاروخ هِلفَيَر، وقد أُطلق[1]. لقد وقعت الحادثة في مدة قصيرة، عندما كانت السلطات العسكرية، التي تزود وكالة المخابرات المركزية بالفنيين لتشغيل الطائرات من دون طيار، تعترف بوجود البرنامج. وخلال أيام من الضربة الجوية، أبلغ الأهالي الصحفيين أن القتلى كانوا من المدنيين الذين كانوا يجمعون خردة الحديد. عندها أخذ الصحفيون الذين يغطون أخبار وزارة الدفاع يطرحون الأسئلة.

كانت وكالة المخابرات المركزية تطلق طائرات من دون طيار غير مسلحة فوق أفغانستان منذ عام 2000م، وبدأت تسليحها بعد وقت قصير من هجمات 11 سبتمبر/ أيلول، واستخدمت بعضها في أثناء الحرب الجوية ضد طالبان في أواخر عام 2001م، ولكن بحلول فبراير/ شباط 2002م لم تكن وكالة المخابرات المركزية تستخدم طائرة من دون طيار لأي سبب آخر سوى الدعم العسكري، والهجوم الذي وقع في 4 فبراير/ شباط 2002م، كان محض عملية قتل قامت بها وكالة المخابرات المركزية، التي

اضطلعت بها بشكل منفصل عن أي عمل عسكري مستمر، وقد قيل يومها: إن مشغلي الطائرات من دون طيار قد شاهدوا ثلاثة أشخاص في قاعدة المجاهدين السابقين تدعى زاوار كيلي Zhawar Kili وحتى بعد القتل، فإن المسؤولين لم يدعوا أن ثلاثتهم كانوا مسلحين - بمن فيهم أطول الثلاثة قامةً الذي كان الرجلان الآخران يظهران له «قدرًا كبيرًا من الاحترام والطاعة»[2]. (وفي مناسبة سابقة واحدة، قبل عام من هجمات 11 سبتمبر/ أيلول، اعتقد مراقبو وكالة المخابرات المركزية أنهم شاهدوا بن لادن: رجل طويل القامة مرتديًا رداءً طويلًا قرب مزرعة تارناك، على مقربة المنزل السابق لبن لادن في قندهار، وكانت هذه المشاهدة قد أدت إلى النقاشات الأولى بين البيت الأبيض ووكالة المخابرات المركزية حول تسليح طائرات من دون طيار مزودة بصواريخ، وهو النقاش الذي غطّت عليه هجمات 11 سبتمبر/ أيلول بعد ضربة زاوار كيلي عام 2002م، وقد اعترف مسؤولون عسكريون بسرعة أن أطول رجل لم يكن بن لادن، لكنهم أصروا على أن الأهداف كانت (مشروعة)، على الرغم من أنهم جاهدوا لشرح السبب، وذلك باستخدام لغة غامضة وحتى خجولة للتغطية على ما يبدو على عدم اليقين.

وقالت المتحدثة باسم البنتاغون فيكتوريا كلارك: «نحن على قناعة أنه كان هدفًا مناسبًا»، لكنها أضافت: «نحن لا نعرف حتى الآن بالضبط من كان»[3]. الجنرال تومي فرانكس أخبر محطة أيه بي سي نيوز التلفازية أنه يتوقع أن هويات الثلاثة سيثبت أنها «مثيرة للاهتمام»[4]. وتحدث الناطق باسم البنتاغون جون ستفلبيم عن كون الحكومة في (منطقة الراحة) لتحديد أن الأهداف كانت (غير بريئة)، مشيرًا إلى أنه «لا توجد مؤشرات أولية على أن هؤلاء هم من السكان المحليين الأبرياء»، وهي عبارة غريبة تفترض الشعور بالذنب: «كانت هناك مؤشرات بوجود شيء غير مرغوب فيه، وأننا في حاجة إلى أن نتصرف... المؤشرات الأولية بعد ذلك يبدو أنها تقول: إنهم ليسوا فلاحين يمارسون الزراعة هناك»[5]. عرض رامسفيلد في وقت لاحق تحليله الفلسفي الزائف للرد على الاتهامات التي قالت: إن القتلى كانوا مدنيين:

«ما سوف يجب علينا هو أن نعرف ذلك، فليس هناك أكثر بكثير مما يمكن لأي شخص إضافته، ما عدا أنه توجد رواية واحدة، وأن هناك رواية أخرى»(6). ما ساعد تهرب الحكومة كون زاوار كيلي، موقع الضربة الجوية، كان مجمع المجاهدين سيئ السمعة الذي بني بمساعدة من وكالة المخابرات المركزية من قِبل جلال الدين حقاني، سليل المجاهدين المتحالفين مع طالبان، آنذاك وبعد ذلك. وفي عقد الثمانينيات من القرن الماضي اعتاد ضباط وكالة المخابرات المركزية والصحفيون زيارة القاعدة التي كانت موقع معركتين كبيرتين ضد القوات السوفييتية في منتصف الثمانينيات، وأمر الرئيس بيل كلينتون بقصف جوي على المنطقة بصواريخ توماهوك كروز عام 1998م بعد تفجيرات السفارتين في إفريقيا، ودكّها الجيش الأمريكي بالضربات الجوية التي بدأت في أواخر عام 2001م. منذ مدة اعتقد فيها الجيش أن بن لادن وقوات تنظيم القاعدة قد فروا إلى زاوار كيلي بعد معركة تورا بورا (فرضية محيرة بالنظر إلى أن المنطقة قد تعرضت لحريق مدمر بالفعل، وكانت أكثر عرضة من تورا بورا، وفي يناير/ كانون الثاني 2002م أرسل الجيش وحدات عدة للبحث والهدم هناك لجمع بقايا المواد ذات القيمة الاستخبارية المحتملة وتفجير الكهوف.

وبحلول فبراير/ شباط 2002م هجر المسلحون المكان أشهرًا عدة، فتوجه عدد من الصحفيين إلى زاوار كيلي بعد الضربة، وتحدثوا مع الزعماء المحليين وعائلات القتلى، الذين أكدوا هوية الرجال الذين قُتلوا: داراز خان الرجل طويل القامة، نحو 31 عامًا، من قرية لالازا، وجهانجير خان، نحو 28 عامًا، ومير أحمد نحو 30 عامًا، وكلاهما من قرية باتالان، وكان جون بيرنز من صحيفة **نيويورك تايمز** من بين الذين تحدثوا مع عائلات الضحايا، وشاهدوا قبورهم، وأكدوا فقرهم المدقع، وكان الرجال قد صعدوا إلى منطقة جبلية لالتقاط المعادن التي خلفتها الغارات الجوية للولايات المتحدة والشظايا وزعانف ذيول القنابل التي تجلب لهم نحو خمسين سنتًا لحمولة الجمل الواحد على الرغم من أن

داراز خان كان طويل القامة ومن المسلم به بالمعايير الأفغانية خمسة أقدام و 11بوصة، لكنه كان أقصر من بن لادن بست بوصات[7].

وبالقراءة عن الضربة في وقت لاحق، شعرت بارتباط طفيف بيني وبين داراز خان، فأنا أيضًا طولي نحو 5 أقدام و11 بوصة، وأنا وزملائي كنا نصعد الحفر للحصول على شظايا القنابل في الأماكن النائية، حيث زعانف الذيول الملتوية من القنابل، وأجريت مقابلات مع الشهود وعائلات القتلى، وكنت الأطول بين زملائي، وربما أنا أيضًا، كان من الممكن أن أكون بن لادن بطريق الخطأ.

وقع أول استخدام معروف للطائرة لشن ضربة جوية عسكرية قبل نحو تسعين عامًا من ضربة أفغانستان، في ليبيا، في 1 نوفمبر/ تشرين الثاني 1911م[8]. الطيار يوليوس غافوتي كان برتبة ملازم ثانٍ في كتيبة الطيران الوليدة في الجيش الإيطالي، وكان في مهمة استطلاعية على امتداد الصحراء جنوب طرابلس، خلال الأسابيع الأولى من الحرب الإيطالية- التركية، وكانت إيطاليا قد خاضت صراعًا استمر سنتين للاستيلاء على الأراضي من الدولة العثمانية التي كانت تسيطر على المنطقة منذ القرن السابع عشر، وكان على متن طائرته غافوتي أربع قنابل صغيرة، وكانت حربًا إمبريالية، فقبل الغزو، كان الصقور في روما قد دفعوا بفكرة أن إيطاليا يجب أن تستفيد من نقاط الضعف المتزايدة للإمبراطورية العثمانية في شمال إفريقيا، الذي تهيمن عليه بصورة متزايدة فرنسا وبريطانيا، وزعم أنصار التدخل أن الليبيين كانوا معادين للعثمانيين، الذين ظلوا سادة يحكمون أنحاء الشرق الأوسط وشمال إفريقيا دهورًا، وقال بعضهم في الصحافة الإيطالية: إن الليبيين سيتوجهون بالتحية للجيش الإيطالي بصفتهم (محررين)، وإن الحملة ستكون نزهة عسكرية، سيرًا على الأقدام، ضد قوات المسلمين غير المنظمة.

وإنها ستكلف فقط نحو ثلاثين مليون ليرة إيطالية في الشهر، وهو مبلغ من شأنه أن يمكِّن من الوصول إلى المصادر الطبيعية الليبية (الوفيرة)[9]، وبعبارة أخرى، فإن

الحرب تدفع تكاليفها بنفسها «ابن الثمانية والعشرين عامًا آنذاك بنيتو موسوليني الاشتراكي والمناهض للإمبريالية نظم الاحتجاجات المناهضة للحرب، وحكم عليه بالسجن مدة خمسة شهور»[10]. في النهاية إيطاليا كسبت الحرب، ولكن ليس بالسهولة المتوقعة، فتكلفة الحملة بلغت مئات الملايين من الليرات وخسائر ثقيلة في القوات، ووجدت إيطاليا القليل من الصعوبات في طريقها للموارد الطبيعية، وكانت المعارك الرئيسة قد وضعت أوزارها بحلول العام المقبل، واستولت إيطاليا على البلاد حتى الحرب العالمية الثانية، وعام 1941م كسبت قوات الحلفاء السيطرة في المعارك الكبرى مع الجيش الإيطالي المدعوم بوحدات الدبابات الألمانية بقيادة أروين رومل.

وعام 1911م، كانت الطائرات جديدة على الجيوش في العالم، ولكن أورفيل رايت زار إيطاليا قبل عام من الحرب، وكان قد ساعد على تدريب بعض الطيارين الأوائل في الجيش. وفي الحقبة التي سبقت الحرب، اشترت إيطاليا نماذج عدة من اثنتي عشرة طائرة ألمانية تدعى توب، أو (حمامة) في الألمانية، التي في الواقع كانت تبدو كثيرًا مثل طائر: نهايات أجنحتها تقريبًا كانت ملفوفة في اتجاه الظهر وبشكل الريش، وكانت مقدمتها مثل منقار. لم تكن توب تحمل أي أسلحة: لم تكن هناك طائرات عسكرية على هذا النحو من إنتاج أي مكان في العالم في ذلك الوقت. كان رايت قد قام بأول رحلة طيران تاريخية له قبل ثماني سنوات فقط، ولكن الجيوش في جميع أنحاء العالم كانت قد بدأت بالتفكير في كيفية استخدام الآلات الجديدة بوصفها أسلحة.

استخدمت بالونات الهواء الساخن للمراقبة منذ أواخر القرن الثامن عشر، والمناطيد البطيئة، بمحركات كانت موجودة منذ عقود، لكن استخدام وسائل أسرع محمولة جوًّا بصفتها أنظمة لتوصيل الأسلحة - طائرات أو ما هو أحدث، من مناطيد أسرع - كان شيئًا آخر تمامًا. كانت الجيوش في جميع أنحاء العالم تسعى جاهدة للحصول على الطائرات، وقبل عام من الحرب الإيطالية - التركية، أظهر طيار شاب متهور من الولايات المتحدة يدعى غلين كيرتس، وهو مهندس بارع، للمحركات الخفيفة

القوية، الإمكانات المحتملة على قدرتها في الحرب، فقام باستعراضات مختلفة عام 1910م، بما في ذلك واحدة في خليج بروكلين، حيث أطلق مهاجم من الجيش النار بدقة على هدف على الأرض من على ارتفاع أكثر من 100 قدم، على ما يبدو هي المرة الأولى التي سبق أن أطلقت نار من بندقية من طائرة[11].

«بدأ كيرتس بشركة طيران زودت في وقت لاحق الجيش الأمريكي بالطائرات في الحرب العالمية الأولى، وفي نهاية المطاف اندمجت مع شركة أورفيل رايت لتصبح شركة كيرتس – رايت Curtiss– Wright، وهي شركة صناعية عسكرية موجودة حتى يومنا هذا» في حملتهم على ليبيا، استخدم الإيطاليون أول طائرة Taubes للاستطلاع، للكشف عن المجاهدين الليبيين وسادتهم من الجيش التركي. (الشاب مصطفى كمال أتاتورك، مؤسس تركيا الحديثة، كان من بين الضباط الأتراك المتمركزين على الأرض) وفي ذلك اليوم الأول من نوفمبر/ تشرين الثاني عام 1911م سيئ الصيت، حاول الملازم غافوتي شيئًا جديدًا، بينما كان يحلق فوق مجموعة من الأتراك بالقرب من واحة في عين زارة، إلى الجنوب مباشرة من طرابلس، أزال غافوتي صمامات الأمان عن أربع قنابل صغيرة من حقيبته، وألقى بها على القوات تحته، ولا نعرف ما إذا كان أي جندي قد قتل أو جرح، ولكن التأثير كان التخويف والرعب على الأرجح، واحتل هذا الحدث عناوين الصحف في جميع أنحاء العالم[12]. وبحلول أوائل عام 1912م، كانت القوات الإيطالية تنفذ هجمات جوية بالجملة بالتنسيق مع العمليات البرية، وذلك باستخدام المناطيد والطائرات، فشكل جديد تمامًا للحرب قد وُلد، وجاء عنوان صحيفة واشنطن بوست على صفحتها الأولى عام 1912م كما يلي:

(وأخيرا الحرب في الجو!) في إشارة إلى رواية إتش جي ويلز H. G. Wells 1907 التي تحمل الاسم نفسه، والتي يصور فيها مشاهد سريالية للحرب الجوية التي تشنها طائرات مستقبلية وبالونات، وتضمنت المقالة، رسمًا كرتونيًّا كبيرًا لطائرات متشابكة في فوضى المعركة ووصفًا مبالغًا فيه للمناطيد الإيطالية التي تقصف 2000 من الأتراك،

وتحولهم (إلى أشلاء) في معركة واحدة، ووعدت بنشر تقارير مقبلة بـ «ما هو أكثر روعة ورعبًا يمكن للعقل البشري تصوره من أي وقت مضى»[13]، فإنه من الصعب قياس الآثار العسكرية الفعلية لعمليات القصف الجوي في إيطاليا، وذلك أنه ليس من السهل رمي قنبلة بدقة من طائرة نقل أو بالون متحرك لضرب هدف ثابت؛ لذلك يفترض أن عددًا كبيرًا من الضربات الجوية مع أنها ربما كانت مؤثرة من الناحية النفسية إلا أنها أخطأت أهدافًا كثيرة.

هل كانت الحرب الإيطالية – التركية أول من أوقع الخسائر في التاريخ في صفوف المدنيين الناجمة عن ضربة جوية؟ ربما، فكثير من المعارك التي استخدمت فيها الطائرات كانت في مناطق صحراوية نائية، وليس حول مدن مثل طرابلس، فأول خسائر في أرواح المدنيين تسجل من ضربة جوية وقعت بعد مدة وجيزة، عبر المحيط الأطلسي في المكسيك في أثناء الثورة المكسيكية الدموية للغاية؛ أي في الحرب الأهلية التي أعقبت الإطاحة بحاكم المكسيك لمدة طويلة بورفيريو دياز عام 1911م.

وخلال السنوات الأولى من الحرب، كانت القوات تحت قيادة زعيم المتمردين الجنرال ألفارو أوبريغون الذي قاد حملة في شمال المكسيك ضد نظام فيكتوريانو هويرتا الرجعي المناهض للثورة. قائد الثورة في ذلك الوقت، الجنرال أوبريغون (الذي في وقت لاحق شغل منصب رئيس المكسيك في عشرينيات القرن الماضي) على الأرجح قد قرأ عن الجهود الإيطالية في ليبيا، وكان حريصًا على الاستفادة من الجو للاستطلاع والقصف، وأرسل اثنين من ضباطه في مهمة سرية إلى الولايات المتحدة عام 1913م لشراء طائرة وتهريبها إلى المكسيك، واشترى الضباط طائرة ذات جناحين مزدوجين في ولاية كاليفورنيا، وفككوها، ثم هرّبوها إلى المكسيك في صناديق.

ثم استأجر الجنرال أوبريغون طيارًا فرنسيًّا للمساعدة على تجميع الطائرة، التي سماها سي أورا، وتدريب بعض الطيارين، وجهز أوبريغون الطائرة بالقنابل محلية

الصنع المكوّنة من الديناميت والمسامير الملفوفة والمربوطة في جلود جافة منفوخة – قنابل كرة قدم، وسرعان ما شاركت الطائرة في معارك حول مدينة غوايماس على الساحل الشمالي الغربي للمكسيك، ثم اشترى بسرعة طائرة ثانية حالما انتقل بقواته جنوب شرق نحو مكسيكوسيتي، وعلقت القنابل بأسلاك تحت الطائرة، وكانت تطلق من خلال سحب الكلاليب التي كانت تبقيها في مكانها ومن بين طياري سي أورا كان البرتو وغوستافو ساليناس، اللذان توليا تشغيل سلاح الجو في المكسيك خلال الحرب العالمية الثانية، وتوجيه مهام قتالية ضد اليابانيين عام 1945م وفي أوائل عام 1914م، في أثناء الهجمات على قوات هويرتا في المدينة الساحلية من مازاتلان، انحرفت سي أورا، التي كان يقودها غوستافو ساليناس عن مسارها بعد عملية قصف على حصن على قمة تل يطل على المدينة.

وقنبلة انفلتت بطريق الخطأ من الأسلاك، فهوت إلى الشوارع، وسقطت في تقاطع شارعي كنز اليس وكرنفال، ما أسفر عن مقتل أربعة مدنيين بينهم دبلوماسي فرنسي، وما زال هناك نصب يقف على ناصية الشارع في مازاتلان إلى يومنا هذا، بمناسبة سقوط أول ضحايا سجلت من المدنيين خلال القصف الجوي(14). عودة إلى الولايات المتحدة مرة أخرى، فقد ظل جلين كيرتس، رائد الطيران، يعمل مع وزارة الحرب الأمريكية على تطوير الطائرات العسكرية التي يمكنها إطلاق الرشاشات وإسقاط القنابل الكبيرة، وظلت القوات المسلحة الفرنسية والألمانية تشارك في تنفيذ المهام المماثلة، مع التركيز على بناء المناطيد الكبيرة مع محركات مروحة قوية يمكن أن تستخدم للمراقبة ومهام القصف طويلة المدى، ومع بداية الحرب العالمية الأولى في أواخر عام 1914م، كانت فرنسا وبريطانيا، والقوات الروسية جميعها قد وضعت الطائرات المقاتلة في الخدمة، والألمان من جانبهم، استخدموا المناطيد الصاروخية الضخمة لقصف جنوب بريطانيا، جنبًا إلى جنب مع الطائرات المقاتلة الأسرع والقاذفة، فجدتي لأمي كفتاة تبلغ من العمر سبع سنوات في ذلك الوقت، فقد ولدت في إنجلترا، ونشأت بالقرب من

ساوثامبتون على القنال البريطانية، شهدت (وابلًا من البالونات) البريطانية المنتفخة التي نُشرت على طول الموانى في المدينة خلال الحرب، رافعة شبكات متفرقة من الأسلاك لتعطيل الطائرات، وفي تلك الأيام من الطائرات الخشبية الخفيفة والقماشية الأجنحة، فإن السلك يمكن أن يمزق الجناح، فقد كان من المرجح أن مرأى الطائرات، وكذلك المناطيد الألمانية الضخمة، وهي تكنولوجيات جديدة في ذلك الوقت، كان مدعاة للرعب.

امتلأت الصحافة البريطانية بالهوس والشكوك عن المخربين والجواسيس الألمان، فمربية جدتي، وهي امرأة ألمانية شابة رسمت مشاهد الواجهة البحرية المقابلة لها في تلك الأيام، اعتقلت بوصفها عدوًّا من المشتبه فيهم خلال الحرب، ورُحّلت إلى ألمانيا، ومن المفترض أن رسومها قد صودرت، وضعف القوة الجوية الألمانية جعلها غير فاعلة في مواجهة الجهود الماهرة على نحو متزايد للمضادات الأرضية في بريطانيا. وبشكل عام، ظلت فاعلية آثار الحرب الجوية في الحرب العالمية الأولى محدودة، ولكن أهمية الطائرات نمت طوال مدة الحرب، واستمر التقدم في أثناء النزاعات الأخرى في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي، بما في ذلك في أثناء الحرب الأهلية الإسبانية، عندما أعيرت الطائرات الألمانية، من هتلر لفرانكو، واستخدمت بشكل فاعل جدًّا ضد قوات الجمهوريين.

ومع بداية الحرب العالمية الثانية، كانت قوات الحلفاء والمحور قد جمعت قوات جوية هائلة، وعندما استخدمت بالتنسيق مع القوات البرية الآلية – كان هتلر مولعًا بهذا التكتيك – فقد أثبتت القوة الجوية أنها مدمرة، وحاسمة، ومؤثرة، وكانت الطائرات ناجحة للغاية في الحملات ضد المدن، وعلى القواعد العسكرية، وعلى الطرق المكتظة باللاجئين أو الجيوش المتراجعة، ولقد أثبتت قدرتها النارية أو إلقاء المتفجرات أنها مرعبة، وقد غيرت تمامًا وجهة الحرب، ففي كتاب (**هزيمة غريبة**) Strange Defeat، يشير مارك بلوخ Marc Bloch إلى أن القيادة العليا الألمانية استخدمت الطائرات على

وجه الخصوص لتأثيرها النفسي، حتى تغيير وتبديل محركاتها لجعلها أعلى صوتًا وأكثر رعبًا للعدو، ويصف خوفه الخاص في أثناء انسحاب الفرنسيين عام 1940م: القصف الجوي على الأرجح، في حد ذاته، ليس أكثر خطرًا في **الواقع** من أنواع عدة أخرى من الأخطار التي يتعرض لها الجندي [لكن] الحقيقة هي أن إسقاط القنابل من السماء له قوة فريدة في نشر الرعب، فهل هناك شيء غير إنساني في طبيعة مسار القذائف والشعور بالقوة؟ فالجندي ينكمش كما لو أنه وقع تحت كارثة طبيعية، والضجيج كريه، ووحشي، ومحطم للأعصاب بشكل مفرط[15].

ومع كل هذا التفوق في القوة الجوية في العقود الأولى من القرن العشرين، إلا أن حقيقة بسيطة ظلت قائمة: فالبشر لا يزالون في حاجة لربط أنفسهم إلى الأجهزة التي تطير بهم، وهذه الحقيقة قلصت الأخطار التي يمكن التعرض لها (إذا ما وضعنا النموذج الكاميكازي الياباني جانبًا) مهما كان الغرض الذي تستخدم الطائرة من أجله، ففي نهاية المطاف يجب عودتها إلى قاعدتها بطيارها، وهذا العامل الذي يحدد الاستخدام الإستراتيجي للطائرات يشبه سياق التحدي الأساسي لرحلات الفضاء، وهو أن عودة رواد الفضاء تحدٍّ يشبه تحدي إطلاق المركبة.

وليس من المستغرب، أنه بمجرد تطوير الطائرات لاستخدامها في الحرب، جاهد المهندسون للالتفاف على المحددات وخلال الحرب العالمية الأولى، استأجرت البحرية الأمريكية إلمر أمبروز سبيري، مخترع الجايروسكوب (البوصلة الدوّارة) لتطوير أسطول (طوربيدات جوية)، وهي قاذفات بلا طيار يطلقها المنجنيق للتحليق فوق مواقع العدو، وطُبِّق البرنامج السري من ملعب بيسبول صغير في وسط لونغ آيلاند، نيويورك، تقرير **نيويورك تايمز** عام 1926م، عندما كُشِف عن السر، قال: إن الطائرات كانت (موجهة آليًّا لتطير بدرجة عالية من الدقة)، وبعد مسافة محددة سلفًا، كان من المفترض التحويل فجأة والتحليق إلى أسفل بشكل مستقيم، وهي تحمل ما يكفي من المتفجرات، وأن «تضرب بلدة صغيرة، فتقلب عاليها سافلها»[16]. والبرنامج انتهى بانتهاء الحرب،

وفي الواقع، ووفقًا لتاريخ البحرية، فإن هذه الطائرات نادرًا ما أفلحت، فقد تحطمت حال إقلاعها أو حلقت بعيدًا فوق المحيط، واختفى أثرها إلى الأبد.

في الحرب العالمية الثانية، اتخذت الولايات المتحدة نهجًا مختلفًا: أطلقت البحرية برنامجًا يسمى عملية أفروديت لاستهداف عمق المخابئ الألمانية باستخدام قاذفات B-24 المعدلة مملوءة بضعف سعتها بالمتفجرات، وقد وجهت الطائرات من قِبل أجهزة التحكم عن بعد لتتحطم الطائرة في أهداف مختارة في ألمانيا وفرنسا التي كانت في قبضة النازية، وتكنولوجيا التحكم عن بعد كانت لا تزال محدودة؛ لعدم صلاحية أجهزة التحكم في اللاسلكي المحمول على عربات؛ لهذا فقد كان الطيارون في الواقع معتادين على عملية الإقلاع وكان من المفترض أن يوجهوا الطائرة إلى ارتفاع الطيران المطلوب، ثم الهبوط بالمظلات بأمان في إنجلترا، وبعد ذلك كان على (السفينة الأم) توجيه الطائرة إلى هدفها، وعمليًّا وعلى أرض الواقع، كان البرنامج كارثة، فكثير من الطائرات تحطمت في الريف الإنجليزي أو ما هو أسوأ، والشقيق الأكبر لجون ف. كيندي، جوزيف، كان واحدًا من الطيارين الأوائل في البرنامج، وقتل في أغسطس/ آب 1944م عندما انفجرت الطائرة التي كان يقودها قبل الأوان فوق سوفولك، في إنجلترا، ومن المفارقات أن طائرة كيندي كانت في مهمة هدفها موقعًا ألمانيًّا في فرنسا وكان العلماء النازيون يعملون فيه على تقنية مماثلة تهدف إلى قذف المتفجرات عن بعد: برنامج أول صاروخ عسكري في العالم(17).

وكان الألمان بالفعل لديهم برنامج طوربيد جوي، الطوربيد V-1، الذي كانت تحلق به طائرة من دون طيار على مسافة محددة مسبقًا، ثم تتحطم، ولكن الطائرات كانت بطيئة ومداها قصير، ويمكننا أن نتفهم السبب الذي جعل المهندسين الألمان يتحولون إلى الصواريخ، فإذا كنت تحاول بناء شيء ليطير من تلقاء نفسه، فلماذا بناء طائرة بأكملها، بينما تستطيع آلة أسرع وأصغر حجمًا، ويمكنك السيطرة عليها أكثر، وتنطلق مثل السهم أن تقوم بالمهمة؟ الجيش الألماني عمل على نطاق واسع على صواريخ

قبل نهاية الحرب، وواصلت الولايات المتحدة وروسيا بعد الحرب عملهما، وفي أواخر الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي، جُلِب مئات مهندسي الصواريخ الألمان وغيرهم من العلماء النازيين إلى الولايات المتحدة، ومنحوا الجنسية مقابل مساعدتهم على جهود الهندسة الصاروخية، وفي الخمسينيات كانت الصواريخ حمّى العصر.

وهكذا، فإن نُظُم تطوير الطائرات من دون طيار بوصفها قاذفات مسلحة ركدت عقودًا بسبب التقدم في صناعة الصواريخ، وبحلول أواخر الخمسينيات، كان الجيش الأمريكي قد طُوّر، إضافة إلى عدد كبير من الصواريخ، (صواريخ كروز) من الأبطأ، ولكن أكثر مرونة في التحكم فيها، التي بطريقتها الخاصة، كانت مثل طائرات صغيرة: صواريخ كروز، في الواقع، حملت (رافعة) على أجنحة صغيرة قصيرة (على عكس الصواريخ الباليستية أو الصواريخ، التي تتحرك من خلال منحنى طويل من رحلة الإطلاق والارتفاع الذي يعقبه سقوط موجه). كانت صواريخ كروز، بمعنى من المعاني طائرات من دون طيار مبسّطة، أو نسخًا مصغرة لما حاول الجيش عام 1944 م أن يفعله مع طائرة كيندي؛ أي إنها يمكن نقلها وتوجيهها في الرحلة، وبعضها كان مزودًا بالكاميرات، وفي بعض النماذج، وحدات للتحكم حتى يمكن أن تغير في منتصف الرحلة الهدف المتجهة إليه، لكن صواريخ كروز لم تكن تستطع أن تبقى في حالة سكون فوق ساحة المعركة، ولا تستطيع العودة إلى القاعدة التي انطلقت منها، وطريقة إسقاط حمولتها التسليحية عمياء، ولا يمكن التحكم فيها، وكان الصاروخ نفسه هو القذيفة برأس حربي واحد.

في عقدي الستينيات والسبعينيات، واصل مهندسو القوات الجوية عملهم على الطائرات من دون طيار، وذلك من أجل استخدامها في طلعات المراقبة الجوية، التي لا تشارك في المناورات والطلعات المعقدة، وتتطلب قيادتها طيارين أقل مهارة، وقد حققوا بعض التقدم في عملهم. وعلى الرغم من أن البرنامج كان سريًّا في ذلك الوقت، إلا أن الجيش الأمريكي أطلق الآلاف من طلعات المراقبة الجوية من دون طيار خلال حرب فيتنام بوصفها جزءًا من محاولة خفض عدد الطيارين، مثل جون ماكين، الذين

أُسقطت طائراتهم. لكن التكنولوجيا بقيت محدودة جدًّا لاستخدام هذه الطائرات في أدوار قتالية فعلية[18]، ومع التحسينات الكبيرة فقط في مجال الحوسبة وأنظمة السيطرة الإلكترونية في عقدي الثمانينيات والتسعينيات في العصر الحديث أصبحت الطائرات من دون طيار ممكنة.

وفي أواخر التسعينيات، بدأ سلاح الجو العمل على الجوانب التقنية لتسليح الطائرات من دون طيار بالصواريخ، من خلال العمل مع شركة تدعى جنرال أتوميكس، ومع ذلك، فإن معظم الطائرات من دون طيار المنتشرة فعليًّا - طائرة جنرال أتوميكس بشكل أساسي المسماة (بريدِتَر) - استمر استخدامها فقط للمراقبة، وأصبحت وكالة المخابرات المركزية مهتمة بالطائرات من دون طيار في الوقت نفسه تقريبًا، وعملت الوكالة مع القوات الجوية على نشر طائرات غير مسلحة في البلقان لأغراض المراقبة، ونُشِر بعضها في أفغانستان عام 2000م. (ومنها الطائرة من دون طيار سيئة السمعة التابعة لوكالة المخابرات المركزية التي استهدفت عام 2000م رجلًا اشتبهت بأنه أسامة بن لادن، بالقرب من قندهار) في أعقاب هجوم أكتوبر 2000م بقارب انتحاري على المدمرة الأمريكية كول، في عدن، باليمن، واقترحت وكالة المخابرات المركزية ومسؤولو مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض أن تكون طائرات من دون طيار مسلحة بصواريخ لمهاجمة قادة القاعدة في أفغانستان[19]، وفي الأشهر الأولى من إدارة بوش، كانت هناك مناقشات مستفيضة في البيت الأبيض حول تسليح أسطول وكالة المخابرات المركزية بطائرات من دون طيار مزودة بصواريخ: وفقًا لتقرير لجنة 11 سبتمبر/ أيلول فقد درس مجلس الأمن القومي هذه المسألة في الاجتماعات في 1 أغسطس/ آب 2001م، وفي 4 سبتمبر/ أيلول 2001م. وفي ذلك الوقت، كانت وكالة المخابرات المركزية ملزمة بقيود قانونية تمنع موظفيها من التورط في الاغتيال.

على الرغم من أن وكالة المخابرات المركزية كانت مخولة بدعم العمليات العسكرية إلا أن المعايير القانونية لمشاركتها كانت غامضة، وطبقًا لقوانين الصراع

المسلح، فإن أعضاء القوات النظامية بالزي العسكري فقط لديهم سلطة قانونية، أو (امتياز) لاستخدام القوة المميتة في زمن الحرب. إدارة بوش فيما بعد بذلت جهدًا كبيرًا لتصنيف طالبان وأعضاء تنظيم القاعدة بأنهم مقاتلون أعداء (غير قانونيين) لأنهم لا يرتدون الزي للتعرف إليهم أو ملتزمون بقواعد اتفاقية جنيف، وهذا يفترض إمكانية محاكمتهم ليس فقط على جرائم الحرب، وإنما أيضًا على القتال في الحرب، ولما كانت وكالة المخابرات المركزية، كيانًا مدنيًّا غير عسكري وأفرادها لا يلتزمون بارتداء زي يُعرفون به، ولا يشاركون في صراع مسلح مفتوح، فإن الوكالة لم تكن مخوّلة بتنفيذ عمليات قتالية، حتى في ظروف النزاع المسلح، أو نحو ذلك من كثير من المسائل التي أقلقت مسؤولين كثيرين في الإدارة في ذلك الوقت.

وبعد11 سبتمبر/ أيلول 2001م، هُمّشت معظم هذه المخاوف القانونية، وفي أكتوبر/ تشرين أول 2001م، أصدر الرئيس بوش توجيهًا رئاسيًّا يفوض وكالة المخابرات المركزية بقتل أو إلقاء القبض على أعضاء القاعدة الذين لهم علاقة بهجمات 11 سبتمبر/ أيلول، ولكن هذا لم يخفف من حقيقة أنه في ظل القانون الدولي، كان موظفو وكالة المخابرات المركزية الذين يشاركون في الضربات الجوية المستهدفة، بمعنى من المعاني، مقاتلين غير قانونيين، ما داموا ليسوا بالزي ومن غير الملتحقين بالجيش، وإن وكالة المخابرات المركزية حصلت على إذن لتسليح طائرات من دون طيار مزودة بصواريخ، وبدأت القوات الجوية برنامجها الخاص في ذلك الوقت، فالحرب الجوية في أفغانستان كان يديرها إلى حد كبير سلاح الجو الأمريكي باستخدام الأسلحة التقليدية من طائرات وقاذفات القنابل، ولكن في أوائل عام 2002م، كانت وكالة الاستخبارات المركزية والبنتاغون يرسلان طائرات من دون طيار مسلحة عبر أفغانستان في المهمات العادية، بما في ذلك المهمة على زاوار كيلي.

وفي العقد المقبل لحادث زاوار كيلي، لم تقدم حكومة الولايات المتحدة معلومات عامة حول كيفية استخدام طائرات من دون طيار من قِبل وكالة المخابرات المركزية، إلا

النزر اليسير من المعلومات المحدودة المتاحة حول استخدام الجيش للطائرة، ومع ذلك، كتب صحفيون مثل دانيال كليدمان، وسكوت شين، وغريغ ميلر، وجين ماير على نطاق واسع عن البرنامج بعد عام 2009م، وذلك باستخدام معلومات مسرّبة من المقابلات مع مصادر من البيت الأبيض، ووكالة المخابرات المركزية، ومن داخل البنتاغون[20]، والخبر المنشور كان قصة ازدهار بطيء لاستخدام السلاح على النطاق العالمي في المواقع النائية مثل باكستان والصومال واليمن، وما هو أبعد منها.

وفي السنوات الأولى بعد 11 سبتمبر/ أيلول، كان استخدام الطائرات من دون طيار أكثر من استثناء من كونه قانونًا بعد الضربة الفاشلة في زاوار كيلي، الطائرات من دون طيار التابعة لوكالة المخابرات المركزية تشن عددًا قليلًا من الغارات على أهداف أخرى في أفغانستان عام 2002م، بما في ذلك الهجوم الفاشل الموجه إلى قلب الدين حكمتيار، زعيم المجاهدين الذي كان يحظى بالرعاية المفضلة من وكالة المخابرات المركزية في عقد الثمانينيات وأكبر متلقٍّ للمساعدات العسكرية الأمريكية في ذلك العقد. (حكمتيار لم يكن عضوًا في طالبان، وكان قد هزم، ونفي من قِبل المجموعة قبل أكثر من خمس سنوات، ولكنه عاد إلى أفغانستان بعد 11 سبتمبر/ أيلول؛ لتنظيم قواته القديمة، والحزب الإسلامي؛ لمحاربة الولايات المتحدة) واستخدمت القوات الجوية الأمريكية أيضًا الطائرات من دون طيار في عمليات مختلفة في جنوب شرق أفغانستان، وعندما كنت أعمل في هذا المجال عام 2003م وعام 2004م كنت أنا وزملائي نتندر عن نسفنا بواسطة طائرات من دون طيار؛ لأننا كنا نتحدث بالهواتف عبر الأقمار الاصطناعية، وهي مكالمات افترضنا أنها كانت مراقبة، على الأقل من قِبل أجهزة الكمبيوتر إن لم يكن من قِبل محللي المخابرات، فقد كنا نقول أشياء، مثل: «أنا أفضل النزول قبل أن تنزلني طائرة من دون طيار» والطائرات من دون طيار كانت لا تزال جديدة في ذلك الحين.

وكانت نسبة الفشل في تلك الطائرات في وقت مبكر من صناعتها عالية: نحو أربعين طائرة من دون طيار تحطمت في أفغانستان في الجزء الأول من العقد، البالغ كلفتها مئات الملايين من الدولارات بوصفها معدات مفقودة،[21]، ولكن أنظمة التشغيل والتوجيه تحسنت في السنوات الأخيرة، وبدأت تلك الطائرات تستخدم بانتظام عبر جنوب شرق أفغانستان، وعادة بالتزامن مع الطائرات المقاتلة.

وجاءت مرحلة قانونية مهمة في استخدام وكالة المخابرات المركزية للطائرات في نوفمبر/ تشرين الثاني 2002م، عندما استخدمت الوكالة طائرة بريدِتر أطلقتها من قاعدة في جيبوتي في هجوم على اليمن -خارج المسرح الأفغاني تمامًا- مستهدفة رجلًا يدعى قائد سالم سنان الحارثي، أحد المشتبه فيهم في تفجير المدمرة كول عام 2000م، وذكر أن مدير ووكالة المخابرات جورج تينيت أعطى إذنًا مباشرًا للمتحكم في طائرة من دون طيار بإطلاق صاروخ على سيارة تقل الحارثي وعددًا آخر من الرجال، بمن فيهم المواطن الأمريكي المولود في بوفالو، نيويورك، واسمه أحمد حجازي، والصاروخ دمر السيارة، وقتل الرجال بداخلها. (جرى تحديد هوية حجازي في وقت لاحق فقط من خلال عينة DNA التي قدمها أحد أعمامه في نيويورك) منذ وقوع الهجوم في اليمن، التي تقع خارج منطقة صراع مسلح نشط، وفي بلد يمكن القول: إنه كان يملك قوة شرطة فاعلة، أشار كثير من المحللين القانونيين إلى أن الهجوم كان غير قانوني، وعملية إعدام خارج نطاق القضاء، وفي ذلك الوقت، ناقشت أنا وزملائي في هيومان رايتس ووتش الجوانب القانونية مطولًا.

وعلى الرغم من أننا في بعض الأحيان لا نتفق حول إمكانية تطبيق دقيق للقواعد القانونية لحالات على أرض الواقع، إلا أننا كنا جميعًا قلقين من أن ضربة اليمن من شأنها أن تكون سابقة سيئة، وكنا نخشى من أن برنامج وكالة المخابرات المركزية، من دون قيود كافية، قد يصبح ببساطة تحت ستار مكافحة الإرهاب شكلًا من أشكال القتل خارج نطاق القضاء، وأنه سيتم الحفاظ على القشرة الشرعية عن طريق الادعاء: إن

فكرة أن جميع الهجمات الإرهابية كانت جزءًا من الصراع المسلح، لذلك كانت ردود الفعل عليها نزاعات مسلحة أيضًا.

وعام 2004م فقط بدأت وكالة المخابرات المركزية في استخدام طائرات من دون طيار لاستهداف طالبان وقادة القاعدة عبر الحدود، في المناطق القبلية في باكستان. ولقد استخدمت الطائرات من دون طيار في باكستان، كما هو الحال في اليمن عام 2002م، بزعم تحقيق أقصى قدر من السرية في العمليات وتقليل الأخطار من خسارة الطيارين، ورسميًّا، فإن الحكومة الباكستانية كانت تعارض العمليات العسكرية للولايات المتحدة في أراضيها، ولا تريد للمقاتلات دخول مجالها الجوي، لكنها توصلت لحل وسط غير رسمي: الولايات المتحدة ستشن هجمات بالطائرات من دون طيار في بعض الأحيان ضد أهداف القاعدة غير الباكستانية؛ وعلى الباكستان أن تقدم (احتجاجًا) على الضربات عند حدوثها، وعلى المسؤولين الأمريكان عدم تأكيد حدوث هذه الهجمات، وهكذا استمر الحال سنوات عدة.

وأصبحت الطائرات العسكرية من دون طيار منتشرة في كل مكان في العراق في السنوات التي أعقبت غزو العراق عام 2003م، وسلاح الجو الأمريكي استخدمه في البداية للمراقبة، إضافة إلى البريدِتَر ونموذج آخر حديث من جنرال أتوميكس اسمه ريبر، فقد وضعوا طائرات غير مسلحة أصغر حجمًا (بعضها أساسًا لطائرات مزودة بكاميرات مركّبة عليها) وكان الثوار العراقيون أحيانًا يطلقون النار عليها، فيسقطونها - خاصة الصغيرة منها - وفي المقابل وبشكل ملحوظ، ظهر في أواخر عام 2009م أن المسلحين الشيعة تمكنوا من التقاط إشارات بث بعض الطائرات من دون طيار، «ورصدوا تسجيلات الفيديو الخاصة بها غير المشفرة بأنفسهم، ومن ثم أصبح بوسعهم رؤية المشاهد والصور نفسها التي التقطها الجيش الأمريكي، وأشارت وكالة أسوشيتد برس إلى أن المسلحين كانوا يستخدمون» برمجيات مثل SkyGrabber المتاحة مقابل أقل من 25.95 $ على شبكة الإنترنت؛ «لاعتراض تسجيلاتها الملتقطة[22]، ما أدى إلى

انتشار النكات بين الصحفيين حول اختراق المتمردين لنظم التحكم في الطائرات من دون طيار» واستخدامها ضد قوات الولايات المتحدة التي يصر سلاح الجو على أنه أمر غير ممكن.

وابتداء من عام 2008م، وعلى نحو متزايد في السنوات الأولى من إدارة أوباما، أصبحت الضربات بطائرات بلا طيار منهجية تشغيلية للاستهداف، سواء ضد قادة تنظيم القاعدة المرتبطين بمؤامرات إرهابية دولية أو المسلحين المحليين العاملين ضد الحكومتين الأفغانية والباكستانية، في الباكستان. ومع أنه لم تشن أكثر من دزينة غارات في باكستان بين عامي 2004 و2007م، شنت وكالة المخابرات المركزية ما لا يقل عن خمسين هجمة بالطائرات من دون طيار عام 2009م وحده، وأكثر من مئة عام 2010م؛ أي بمعدل أكثر من غارتين في الأسبوع الواحد[23]، وبحلول أوائل عام 2011م، كان البرنامج قد أصبح عملية قياسية، فالمشغّلون المتمركزون في أماكن مثل قاعدة كريتش الجوية في ولاية نيفادا، حيث تمت تجربة كثير من الطائرات من دون طيار، أو في قيادة العمليات الخاصة للقوات الجوية في Okaloosa، بولاية فلوريدا، صاروا يديرون الآن المئات من الطائرات من دون طيار التي أصبحت ضرباتها روتينية، ومع أن ذلك يساعد منظمة العفو الدولية على إرسال تقرير عن الحياة المدنية في المناطق القبلية في باكستان عام 2010م، كان زملائي يسمعون من السكان المحليين عن الضوضاء الصاخبة المستمرة للطائرات من دون طيار التي تحلق حولهم.

وزاد استخدام الطائرات من دون طيار جزئيًّا إلا أن وكالة المخابرات المركزية والجيش غيّرا تركيز عملياتهما، فبينما كانت الضربات في السنوات السابقة وحتى وقت متأخر من عام 2008م موجهة نحو القادة (رفيعي المستوى) في باكستان الذين يشتبه في ضلوعهم في الإرهاب الدولي، إلا أن البرنامج بحلول عام 2009م توسع ليشمل الإرهابيين المشتبه فيهم في الصومال واليمن فضلًا على قادة معارضين للتمرد: قادة طالبان الأفغان الذين لهم ارتباطات ضعيفة بتنظيم القاعدة.

واستخدمت الولايات المتحدة أيضًا طائرات الاستطلاع من دون طيار فوق الصومال عامي 2006 و2007م لمراقبة اتحاد المحاكم الإسلامية، وهي جماعة صومالية مسلحة، وفروعها النار وحلفاؤها، وكانت هذه القوات قد استولت على الكثير من الأجزاء الوسطى والجنوبية من البلاد ابتداء من عام 2005م، فالاستخدام العسكري للطائرات من دون طيار في شرق إفريقيا أُسّس- على ما يبدو - على تمديد تفويض استخدام القوة العسكرية الذي أُقِر عام 2001م ردًّا على هجمات 11 سبتمبر/ أيلول، وقد أصرت كل من إدارة بوش وإدارة أوباما على مر السنين على أن الجماعات الصومالية كانت (مرتبطة) بتنظيم القاعدة بسبب صلاتهم بمرتكبي تفجيرات السفارات عام 1998م في كينيا وتنزانيا، وتفجير المدمرة كول عام 2000م، وبضع هجمات فرعية على أهداف غربية في إفريقيا منذ عام 2001م.

وعلى الرغم من أنها لم تلقَ سوى اهتمام محدود من وسائل الإعلام الأمريكية، بدأت الولايات المتحدة في أواخر عام 2006م بتقديم مساعدات عسكرية سرية واسعة وتشجيعًا للجيش الإثيوبي لغزو وسط الصومال؛ لإعادة تثبيت الحكومة الانتقالية في الصومال التي كان قد أُطيح بها من قِبل اتحاد المحاكم الإسلامية، وجرى في وقت لاحق تمركز قوات إفريقية أوغندية في العاصمة للمساعدة على حماية الحكومة. وكانت نتائج الحرب مختلطة، فبعد الغزو وانسحاب القوات الإثيوبية، استردت حركة الشباب المجاهدين المسلحة (الشباب) المنبثقة عن اتحاد المحاكم الإسلامية سلطتها على معظم البلاد مدة قصيرة بما فيها جزء كبير من العاصمة مقديشيو، إلا أن ذلك لم يدم طويلًا، فما لبثت في السنوات اللاحقة أن هُزمت من قِبل قوات الاتحاد الإفريقي.

وواصلت الطائرات من دون طيار التحليق في الصومال طوال مدة الصراع، وادعى مقاتلو حركة الشباب أنهم أسقطوا طائرة عام 2009م، على الرغم من أنها على ما يبدو كانت طائرة استطلاع صغيرة من دون طيار (السفن البحرية الأمريكية المتمركزة في المحيط الهندي تطلق بانتظام طائرات صغيرة من دون طيار وغير مسلحة لعمليات

الاستطلاع) ومن ثم غدت إدارة أوباما أكثر تشددًا تجاه حركة الشباب عام 2011م، وبث تقارير تفيد أن المجموعة كانت (تبحث في) تنفيذ هجمات خارج البلاد «ربما إشارة مبالغ فيها فقط لعمليات المجموعة ضد أهداف في أوغندا، التي وفرت قوات الحماية للحكومة الانتقالية في مقديشيو». وظهرت تقارير عن هجوم طائرة بلا طيار في إبريل/ نيسان 2011م، وفي أواخر يونيه/ حزيران 2011م، اعترف مسؤولو الحكومة الأمريكية بعد استخدام الطائرات من دون طيار بتنفيذ هجوم صاروخي في المدينة الساحلية كيسمايو. «اقترح بعض المراقبين أن الطائرات من دون طيار التابعة لوكالة المخابرات المركزية في شرق إفريقيا قد تكون استخدمت في الغارات الجوية ضد مهربي الأسلحة المرتبطين مع حركة حماس في السودان النائية، على الرغم من أن معظم الصحفيين في المنطقة يعتقدون أن هذه الهجمات من عمل الطائرات الإسرائيلية» وفي يناير/ كانون الثاني 2012م استهدف هجوم طائرة عسكرية بلا طيار هدفًا آخر هو بلال البرجاوي، المزعوم أنه عضو تنظيم القاعدة في الصومال، فبينما كان مسافرًا في سيارة على مشارف مقديشيو هاجمته طائرات من دون طيار عسكرية تسيطر عليها قيادة العمليات الخاصة الأمريكية المشتركة التي أطلقت صواريخ عدة على موكبه، فدُمّرت سيارته، وقتلته على الأرجح[24].

وفي الوقت نفسه تقريبًا، استخدمت الطائرات من دون طيار غير المسلحة لمراقبة القراصنة الصوماليين، وفي أواخر عام 2009م، بدأت الحكومة الأمريكية تمركز أسطولًا صغيرًا لها من طائرات ريبر من دون طيار في سيشيل، الدولة الجزيرة شرق الصومال، وأصبحت سيشيل تشارك على نحو متزايد في عمليات مكافحة القرصنة عام 2009م، بعد أن هاجم القراصنة يخوتًا عدة حول الجزر، ما أدى إلى انخفاض حاد في السياحة في البلاد، ولقد عرفت الكثير عن عمليات القرصنة في سيشيل عام 2010م حين أجريت تحقيقات في قضية جنائية في نيويورك التي تورط فيها قرصان صومالي في سن المراهقة، عبد والي موسى، المتهم باختطاف سفينة الشحن الأمريكية **ميرسك**

ألاباما في إبريل/ نيسان 2009م «وقد جرى تحويل الحادثة إلى فيلم عام 2013م بعنوان (**الكابتن فيليبس**)، بطولة توم هانكس». وظهر خلال القضية أن موسى كان ضالعًا بها في هجوم سابق له في الشهر نفسه على سفينة محلية بالقرب من سيشيل. وأَرسلتُ محققًا، بريجيت برنس، لتعقب ضحايا الهجوم الذي وقع في سيشيل، وعندما وصلت إلى هناك، علمت بريجيت أن مكتب التحقيقات الفيدرالي قد زار شهود عيان بالفعل، وأن السلطات المحلية قد غطت على حقيقة أنهم؛ أي ضحايا القرصنة، كانوا يحملون كميات كبيرة من المخدرات عندما تعرضوا للهجوم، ونحن أيضًا بحثنا في برنامج الطائرات من دون طيار في سيشيل لمعرفة ما إذا كانت أي لقطات من الفيديو من دون طيار قد تكون ذات صلة بقضيتنا، وفي أواخر عام 2011م، ذكرت صحيفة (**وول ستريت جورنال**) أن الولايات المتحدة كانت ترسل طائرات مسلحة من دون طيار انطلاقًا من سيشيل لتوجيه ضربات في الصومال[25] وقد أوقف البرنامج في وقت لاحق بعد تحطم اثنتين على الأقل من الطائرات من دون طيار بالقرب من المطار الرئيس في سيشيل أو فيه، وأظهر التحقيق أن خطأ المشغِّل كان السبب الرئيس للتحطم، ففي إحدى المرات أطلق المشغِّل، وهو مقاول متمركز في ولاية نيفادا، طائرة ريبر MQ-9 التي تبلغ كلفتها تسعة ملايين دولار دون الحصول على إذن من برج المراقبة المحلية، ثم ضغط الزر العتلة الخطأ في وحدة المراقبة، وأغلق المحرك؛ لعدم إدراكه لما تسبب في عطل المحرك، وحاول بعد ذلك إنزال الطائرة اضطراريًا، لكنه نسي أن يقلل من سرعة الهبوط، فتحطمت الطائرة في مدرج المطار، ثم هوت في المحيط على حافة المطار.

وعام 2011م، بدأ الجيش الأمريكي استخدام طائرات من دون طيار في غارات جوية على ليبيا بوصفها جزءًا من العمليات العسكرية لحلف الناتو ضد الزعيم الليبي معمر القذافي، ووردت تقارير عن عشرات الهجمات لطائرات من دون طيار نُفذت، حتى بعد أن سُلمت العمليات من قِبل الولايات المتحدة رسميًا إلى حلف شمال الأطلسي في مايو/ آيار 2011م. وفي تطور غريب، في يونيه/ حزيران 2011م وقع خلاف حاد

في إدارة أوباما حول ما إذا كان استخدام الطائرات من دون طيار في ليبيا يعني أن الولايات المتحدة متورطة في (الأعمال العدائية) هناك، وإذا كان الأمر كذلك، فإن الرئيس أوباما في حاجة للحصول على موافقة الكونغرس بموجب قانون سلطات الحرب، والجمهوريون في الكونغرس اتهموا الرئيس بشن حرب جديدة دون موافقة الكونغرس، وكثير من المستشارين، بمن فيهم المحامون في وزارة الدفاع ومكتب المستشار القانوني في البيت الأبيض، خلصوا إلى أن استخدام الطائرات من دون طيار وصل إلى درجة القتال، وغيرهم من المستشارين وصلوا إلى استنتاج معاكس، مشيرين إلى أنه ما دام ليس هناك قوات للولايات المتحدة منخرطة فعلًا مع قوات العدو الليبية، فإن العمليات ليست عدائية، وانحاز أوباما إلى المجموعة الأخيرة، التي أثارت جدلًا مفهومًا. «الحس السليم يقترح أن المعاملة بالمثل ليست عنصرًا ضروريًّا للحرب، بالنظر إلى أن فعل إطلاق الصواريخ من بلد على بلد آخر يرقى إلى الأعمال العدائية سواء رد البلد الآخر المتلقي أو لم يرد».

وفي ذلك الوقت، بدا أن النقاش غريب، فتحت عنوان مكافحة الإرهاب، كانت وكالة المخابرات المركزية والجيش قد سعيا بالفعل لاستخدام الطائرات من دون طيار في اليمن والصومال دون الكثير من النقاش، لماذا إذن كان الاستخدام في ليبيا يسترعي كل الاهتمام؟ لقد بدا أن أولئك الذين وجدوا أن الأنشطة القتالية المرتبطة بمناهضة الإرهاب مفتوحة النهاية مقبولة، كانوا قانونيين صارمين عندما تعلق الأمر بالقذافي، وكان موقفهم غير متسق، وانتهى النقاش عندما انتهى الصراع.

وفي منتصف الحملة الليبية في مايو/ آيار 2011م جاء مقتل أسامة بن لادن، فالمفارقة أنها كانت عملية قتل مستهدف من دون طيار، وعندما ركزت وكالة المخابرات المركزية أخيرًا على مجمع واحد يُوجد فيه، ليس في المناطق القبلية، ولكن داخل الباكستان نفسها استُدعي فريق القوات الخاصة التقليدي إلى الموقع بطائرات

الهليكوبتر، ويقال: إن الإدارة أرادت الحصول على دليل الحمض النووي على مقتل بن لادن والتخلص من جثته؛ حتى لا يصبح قبره مزارًا.

والغريب في الأمر أنه في الوقت الذي جرى فيه قتل بن لادن، جرى تقليص الغارات بطائرات من دون طيار بشدة بسبب تدهور العلاقات بين الولايات المتحدة وباكستان، ويمكن إلى حد كبير أن تعزى المشكلة إلى يناير/ كانون الثاني 2011م لوقوع حادث لمقاول وكالة المخابرات المركزية في باكستان، ويدعى ريموند ديفيس، الذي أُلقي القبض عليه بعد قتله بالرصاص رجلين باكستانيين في شارع في لاهور، وهو العمل الذي وصفه بأنه دفاع عن النفس، ولكن السلطات الباكستانية ادعت أنه كان قتلًا، وأعقب ذلك مواجهة دبلوماسية، تم خلالها وقف التنفيذ لبرنامج الطائرات من دون طيار، وأطلق سراح ديفيز يوم 16 مارس/ آذار 2011م، بعد أن تردد أن الولايات المتحدة دفعت أكثر من مليوني دولار دية لعائلتي القتيلين، وتعقدت الأمور بعد يوم من إطلاق سراح ديفيس، فقد قامت وكالة المخابرات المركزية بهجوم بطائرات من دون طيار في وزيرستان الشمالية التي أوقعت أكثر من أربعين قتيلًا، ما أغضب السلطات الباكستانية، وكالعادة اختلفت تفاصيل الهجوم، ولكن يبدو واضحًا أن بعض القتلى كانوا من المدنيين، ولم يكن من بينهم مشتبه فيهم على أنه من (الإرهابيين الدوليين).

وذكرت السلطات الباكستانية أن بعض أعضاء طالبان كان حاضرًا عندما وقعت الهجمات، إلا أنه ادعى أن معظم القتلى من شيوخ القبائل والتجار وغيرهم من المدنيين الذين تجمعوا بوساطة من طالبان لتسوية الخلاف على الدخل من مناجم الكروميت المحلية، ووفقًا لمسؤولين في الاستخبارات الباكستانية، كان ما يصل إلى أربعة وعشرين من القتلى من المدنيين بشكل قطعي، ولكن العدد الدقيق للقتلى من الصعب تحديده؛ ذلك أن الصواريخ كانت قد طمست الهدف، ولم يبقَ من الضحايا سوى أشلاء. ومسؤولون أمريكيون طلبوا عدم الكشف عن هويتهم وصفوا الحادثة للصحفيين بشكل مختلف، مشيرين إلى أن القتلى كانوا جميعًا إما (متمردين) أو (متعاطفين مع المتمردين) وهو

عذر غير مقبول من الناحية القانونية، وبالنظر إلى أن المتعاطفين من المدنيين، بغض النظر عن وجهات نظرهم، ليسوا هدفًا شرعيًّا لضربة عسكرية، فقد كانت تداعيات غارة 17 مارس/ آذار وحادثة ديفيس خطيرة، لدرجة جعلت أحمد شجاع باشا، رئيس وكالة المخابرات الباكستانية، يقوم بزيارة غير عادية لواشنطن في منتصف إبريل/ نيسان (قبل ضربة بن لادن) للقاء مدير وكالة المخابرات المركزية ليون بانيتا، مطالبًا، كما قيل، بتغييرات في موقف وكالة المخابرات المركزية في باكستان، بما في ذلك تخفيض في عدد الموظفين، وقال مسؤول باكستاني لشبكة CNN في إبريل/ نيسان 2011م: إن الضربات في 17 مارس/ آذار (أزعجت الجميع) في الدوائر العسكرية والاستخباراتية الباكستانية، وكان ينظر إليها على أنها مثال على «الغطرسة الشديدة»[26] لحكومة الولايات المتحدة، وعندما وقعت ضربة بن لادن بعد شهر، وصلت الأزمة إلى نقطة الغليان، واستمر استخدام الطائرات من دون طيار، ولكن بوتيرة أبطأ مما كانت عليه عام 2010م، وعلى الرغم من أن الحكومة الباكستانية زادت القيود على الأفراد في وكالة المخابرات المركزية في باكستان، إلا أن وكالة المخابرات واصلت تنفيذ الضربات.

وفي أعقاب مقتل بن لادن، كثف الجيش الأمريكي من استخدامه للطائرات من دون طيار لاستهداف المشتبه فيهم من المرتبطين بالقاعدة في اليمن، بما في ذلك كثير من الغارات التي استهدفت أنور العولقي، وهو مواطن أمريكي وعضو تنظيم القاعدة «إحدى الهجمات جاءت بعد أيام قليلة من العملية الأمريكية ضد بن لادن». في أكتوبر/ تشرين أول 2011م، قتل العولقي أخيرًا، وهو أول مواطن أمريكى منذ 11 سبتمبر/ أيلول يستهدف عمدًا، وفي أوائل عام 2012م، كان واضحًا أنه يجري العمل على ثلاثة أنواع منفصلة من برامج الطائرات من دون طيار: كان الأول منها هو استخدام الجيش للطائرات من دون طيار لدعم العمليات العسكرية العادية في أماكن مثل أفغانستان.

وكان ثاني برنامج هو القتل المستهدف من قِبل وكالة المخابرات المركزية، وموجه إلى حد كبير إلى قوات القاعدة وطالبان في باكستان، ولكن يشمل أيضًا الضربات في

اليمن وغيرها من المواقع، وكان الثالث تديره وزارة الدفاع، برنامج - أهداف تحت الطلب - للقتل في أماكن مثل الصومال واليمن، ولكن التناقضات في كيفية استخدام الأسلحة في كل نوع من أنواع النشاط، ولا سيما عمليات القتل المستهدف، دفعت البيت الأبيض عام 2012م إلى توحيد العملية، حيث يتم (ترشيح) الأهداف. أما عملية صنع القرار فتكون في البيت الأبيض نفسه، مع فريق يديره برينان، ويشرف عليه الرئيس وفي جوهره، كان فريقًا للقتل.

قُتل كثير من الناس في غارات بطائرات من دون طيار في باكستان واليمن والصومال بين عامي 2008 و2012م، وكانت أعداد الضحايا كبيرة، خصوصًا في الباكستان، وظل السؤال يتكرر: كم منهم كانوا من المدنيين؟ وجماعات حقوق الإنسان واجهت تحديات هائلة في البحث في المسألة «من المستحيل تقريبًا على الغرباء السفر للبحث في باكستان القبلية» وواجهوا صعوبات أيضًا في كيفية إثبات أن مدنيين قتلوا نتيجة الاستخدام غير المتناسب أو العشوائي للقوة في سياق النزاع المسلح، ونددت جماعات حقوق الإنسان بتجاوزات كثيرة لقواعد النزاع المسلح التي وضعها البرنامج مسبقًا، وبدا أننا دخلنا عالم إعدام الناس خارج نطاق القضاء.

والتقارير الدقيقة عن عدد الوفيات والإصابات الناجمة عن هجمات الطائرات من دون طيار في باكستان ظلت غير متوافرة.

والتقديرات التقريبية من قِبل مؤسسة أمريكا الجديدة the New America Foundation، وهو معهد السياسة العامة غير الحزبية، تقوم أساسًا على تقارير وسائل الإعلام، وأحيانًا على اعترافات المسلحين عن حدوث الضربات، وتشير إلى أنه عام 2009 و2010م قُتل المئات من المقاتلين المتمردين[27]، ومع الزيادة في وفيات المسلحين، يبدو من المرجح أن المزيد من المدنيين قد قُتلوا أيضًا، ولكن كان من الصعب تحديد ما إذا كان غير المقاتلين قد قتلوا في هجمات معينة: فحتى عندما يموت المدنيون،

فإن البيانات لا تظهر ما إذا كانت وفاتهم مبررة أو غير مبررة من الناحية القانونية. «البيانات لا يمكن أن تفسر، على سبيل المثال، إذا كانت مجموعة معينة من الوفيات بين المدنيين نتيجة استهداف خاطئ، أو من قوة الانفجار المفرطة غير المناسبة ما تسبب في أضرار بمنازل المدنيين القريبة، أو لأن المسلحين تمركزوا في منطقة مدنية» ومع ذلك، تشير البيانات المتوافرة إلى أن هجمات الطائرات من دون طيار لوكالة المخابرات المركزية في باكستان خلال عام 2012م قتلت ما بين 1500 و4500 شخص بشكل عام، ولكن البيانات أشارت أيضًا إلى أن السلطات الأمريكية في كثير من الحالات لا تعرف، بالضبط، من الذين قتلوهم، حتى عندما تدعي أن الأهداف التي قصفتها كانت أهدافًا مشروعة:

بعبارة أخرى، كانن كثير من الضربات مثل تلك التي وقعت في زاوار كيلي، فإن عدم التيقن هذا - قتلى هوياتهم مجهولة- يرجع إلى الجانب المثير للجدل في برنامج القتل المستهدف - برامج قتل: استخدام ما يسمى ضرابات التوقيع signature strikes. التي كانت عبارة عن هجمات تُشَنُّ على أساس قرارات تقول: إن الأشخاص المستهدفين تنطبق عليهم معايير معينة، ما يدل على أنهم كانوا أعضاء في القاعدة أو طالبان، مثل أن تكون مسلحًا أو مسافرًا فيما يشبه القوافل العسكرية، فضربات التوقيع تختلف عن (ضربات الشخصية) التي استخدمت فيها لأول مرة طائرات من دون طيار: في الهجمات الأخيرة، أشارت المعلومات الاستخباراتية لهوية شخص تحدد بالفعل أن يكون هدفًا للقتل.

الحقيقة الثابتة في ضربات التوقيع هي أن هوية الأهداف غير معروفة، ويُحكَم على الأشخاص المقاتلين بحسب الخصائص من مظهرهم وأفعالهم، وليس من معرفة هوية محددة لهم. العملية - في الصراع الذي لا يرتدي فيه المقاتلون الزي الرسمي - تكون مؤهلة للخطأ، ومما يزيد من المشكلة حقيقة أنه منذ سنوات عدة تصرفت الحكومة على افتراض أن أي ذكور قادرين على حمل السلاح يكونون حاضرين في مشهد موقع

الضربة هم من المقاتلين، والذي يزيل تلقائيًّا أي ذكور من مرحلة عمرية معينة من قائمة إمكانات سقوط ضحايا من المدنيين. بدأ استخدام ضربات التوقيع في مرحلة متأخرة من إدارة بوش.

ورد أن الرئيس أوباما لديه تحفظات على ضربات التوقيع في بداية رئاسته، فالصحافي دانيال كليدمان ذكر عام 2012م أن نائب مدير وكالة المخابرات المركزية، ستيف كابس، حاول تبرير هذا النهج في جلسة واحدة في وقت مبكر قائلًا: «السيد الرئيس، يمكننا أن نرى أن هناك الكثير من الذكور البالغين سن التجنيد هناك، والرجال المرتبطين بالنشاط الإرهابي، لكننا لا نعرف دائمًا من هم»، وردّ أوباما مجيبًا: «هذا ليس جيدًا بما فيه الكفاية لي[28]، وأخيرًا رضخ، مع ذلك، بمرور الزمن، وقبل باستخدامها، ولكن بشرط أن مدير وكالة المخابرات المركزية يوافق على كل ضربة، وضربات الطائرات من دون طيار في باكستان بلغت ذروتها عام 2010م، وهو العام الثاني من رئاسة أوباما، وانخفض عدد الهجمات في 2011 و2012م، ومع ذلك، وقع عدد متزايد منها في اليمن في السنوات اللاحقة لعام 2011م. وفي مايو/ آيار 2013م، اقترح أوباما أنه يريد الضربات من دون طيار أن تسترشد بمعايير أكثر صرامة، وانتقلت على نحو متزايد تحت سيطرة وزارة الدفاع الأمريكية، واستمر عدد ضربات وكالة المخابرات المركزية في الانخفاض، لكن الوكالة احتفظت بالسيطرة، واستمرت الضربات في كل من باكستان واليمن[29].

سؤال كبير يخيم حول الطائرات من دون طيار: هل لدى مسؤولي الاستخبارات القدرة على اتخاذ قرارات دقيقة حول أوضاع الناس المدنيين منهم أم المقاتلين، من المراقبة بالفيديو وحدها؟ هل يستطيع المحللون - أو حتى الطيارون في كبائنهم - فهم ما يشاهدونه على أرض الواقع، والتفاعلات الإنسانية للثقافة التي هم ليسوا ضليعين فيها؟ واحدة من قضايا التحقيق بعمق - ليست قضية وكالة المخابرات المركزية، ولكنها خاصة بالجيش - كانت ضربة 21 فبراير/ شباط 2010م، ضربة بريدتر العسكرية

المدعومة بطائرات مروحية عسكرية في منطقة دايكوندي في جنوب وسط أفغانستان، وكانت قد استهدفت السيارات التي اشتبهت الولايات المتحدة بأنهم من مقاتلي طالبان، وهذه الحادثة كانت بارزة؛ لأنه اتضح فيما بعد، أن الأهداف التي قصفت كانت فعلًا حافلات مدنية تقل ركابًا معظمهم من النساء والأطفال.

ديفيد كلاود، وهو مراسل مخضرم مع صحيفة (**لوس أنجليس تايمز**)، أجرى تحقيقًا في الحادثة، وحصل على مئات الصفحات من السجلات من الجيش الأمريكي بموجب قانون حرية المعلومات، مثلما ذكرت التقارير لاحقًا، عام 2011م، فقد كان معظم الركاب في السيارات من فقراء الهزارة الريفيين، الأقلية العرقية من الشيعة السائدة في أفغانستان الذين كان بشتون طالبان قد استهدفوهم مرارًا وتكرارًا بعمليات القتل على مر السنين، كما كتب كلاود في وقت لاحق: «كان من بينهم أصحاب محالّ ذاهبون لشراء لوازم الطلاب للعودة إلى المدرسة، وأناس يسعون للعلاج الطبي وعائلات مع الأطفال خارجون لزيارة الأقارب، وكان هناك كثير من النساء، وما لا يقل عن أربعة أطفال أصغر سنًّا من ست سنوات»(30).

في أثناء تحقيق كلاود، تبين من بين أمور أخرى، أن مشغلي بريدتر اعتراهم الشك من المركبات بعد رؤية الركاب يعطون (إشارة) إلى غيرهم من المركبات بالمصابيح الأمامية، وبعد ذلك، في وقت لاحق، يغادرون المركبات، ويصطفون على جانب الطريق عند الفجر لتأدية الصلاة، عندما قرأت لأول مرة هذه التقارير، أصابني الغثيان، فالكثير من الناس الذين عملوا في باكستان أو أفغانستان يعرفون أن المركبات بانتظام تشعل المصابيح الأمامية لبعضها، وأنها وسيلة محلية من الإشارات، وكذلك الحال مع الزامور، الذي يستخدمونه للتحية، أو ليخاطب بعضهم بعضًا «أنا هنا في الطريق، احترس، وتحرك جانبًا» أو ربما ببساطة «مرحبًا». أما بالنسبة إلى الصلاة، فالمسافرون يتوقفون بشكل روتيني للصلاة على جانب الطريق في مواقيت الصلاة وبحسب التقاليد الإسلامية، مثل تأديتهم لصلاة الفجر أو المغرب، ولقد توقفت مع القوافل في أفغانستان،

وجلست على قارعة الطريق في حين كان يصلي زملائي، كما يقول كلاود: تكشف الحادثة عن مأساة، وهناك شعور بالرعب يصيبك مع إدراكك أنه كان ممكنًا تجنب الهجوم: لو كانت الولايات المتحدة قد أوفدت القوات البرية في محيط الأهداف، لكانت قادرة على استخدام مناظير لتحديد النساء والأطفال في القافلة، ولرأت أن الرجال لم يكونوا مسلحين، وقد تكون لاحظت أن المسافرين كانوا من الهزارة، بملامحهم الآسيوية التي تختلف كثيرًا عن تلك لدى طالبان البشتون، لكن مشغلي الطائرة - على بعد آلاف الأميال استخدموا صور الفيديو - فلم يستطيعوا تمييز شيء من هذا، وعن طريق الخطأ، مع القليل من المعرفة التي توجه قراراتهم، اكتشفوا أن الركاب هم العدو.

وفي نص حصل عليه كلاود، يقول لأحد المشغلين: «هذا هو بالتأكيد، وهذه هي قوتهم، الصلاة؟ أعني، على محمل الجد، هذا هو ما يفعلونه». ويضيف قائلًا: «إنهم عازمون على فعل شيء شائن»، يضيف منسق الاستخبارات.

وبعد بضع دقائق، يذكر أحد مشغلي الطائرات من دون طيار في تقرير له أن الركاب عادوا مرة أخرى إلى سياراتهم. «أوه، يا له من هدف حلو!» يقول كما لو كان على الرغم من ذلك يلعب لعبة على الفيديو.

وبعد ذلك بوقت قصير، تشارك طائرة البردتر (المفترس) مدعومة بطائرات سلاح الهليكوبتر، فتضرب اثنتين من المركبات بصواريخ هِلفَيَر (تعني نار الجحيم) التي اخترقت الشاحنات الصغيرة، منفجرة بداخلها، لتُمزّق المركبات بركابها تمزيقًا. خمسة عشر شخصًا على الأقل قتلوا، من بينهم اثنان من الأولاد وطفل صغير وجرح اثنا عشر شخصًا آخر، وكثير من الناجين كانت أطرافهم مفقودة، وبعد الهجوم، هرعت بعض النساء بملابس زاهية للخروج من السيارة المتبقية، بعضهن يحملن أطفالهن بين أذرعهن، والمشغلون لطائرة المفترس من دون طيار بدؤوا إدراك خطئهم، والنص يسجل لضابط المخابرات قوله: «نساء وأطفال»، فيقول الطيار: «هذه سيدة تحمل طفلًا،

هاه؟ ربما» «الطفل، كما أعتقد، على اليمين. نعم» الأفراد العسكريون عند هذه النقطة بدؤوا الإبراق لاستدعاء المساعدة الطبية للجرحى، وفي وقت لاحق، واحد من مراقبي الفيديو يسعى للحد من شعور الفريق بالذنب: «لا نملك جوابًا يا رجل» ثم يقول: «واحد من مشغلي المفترسة، من ولاية نيفادا» لا نملك جوابًا من هنا.

في عهد إدارة أوباما، ومع ازدياد استخدام الطائرات من دون طيار تغيرت الدوافع الكامنة وراء استخدام الطائرة، ففي زمن إدارة بوش عندما انطلق البرنامج استخدم لتحقيق أقصى قدر من السرية التشغيلية، وكان المقصود به عند إطلاقه الحد من حالات إسقاط طياري الطائرات المقاتلة، فعند القيام بذلك، تساعد على الحفاظ على سرية الطلعات الجوية، فعام 2002م لم يكن هناك سوى أقل من عشر طائرات من دون طيار مسلحة، وبحلول عام 2011م، أوفدت وكالة المخابرات المركزية والجيش أسطولًا يتألف من أكثر من 7000 طائرة من دون طيار، ومع التوسع في الاستخدام، باتت الطبيعة السرية للبرنامج مكشوفة، وحتى بحلول عام 2008م، كان الإنكار للبرنامج غير قابل للتصديق فحسب، ولكن سخيفًا أيضًا. الدافع للحكومة الأمريكية كان أكثر بساطة: القضاء على إمكانية إسقاط الطيارين من الناحية العملية، وهذا يعني أن البرنامج أصبح غير محدود.

نما الحب لطائرات من دون طيار لدى قادة الجيش والمخابرات الأمريكية بوصفه نظام أسلحة خاليًا من الأخطار، كما هي صواريخ كروز، ولكنه وفّر تقديرًا تشغيليًّا أكبر، وبقي الجيش الأمريكي على استعداد للإبقاء على قواته معرضين للخطر، فالغارة على بن لادن أثبتت ذلك، فقد كانت القوات الخاصة فاعلة في مواقع أخرى، على سبيل المثال، الصومال، حيث نفذت عمليات عدة ضد أفراد يشتبه فيهم من القاعدة، بما في ذلك مهمة سبتمبر/ أيلول 2009م الحربية التي شنت هجومًا صاروخيًّا جنوب مقديشيو ضد عضو مشتبه فيه بتنظيم القاعدة، ثم اعتقلت الناجين، وبعد الضربة رأى شهود عيان محليون القوات البرية تحضر إلى المكان لحمل بعض الجثث، وتعتقل شخصًا

جريحًا، وكانت هذه، على أي حال، حالات استثنائية، لكن ما هو افتراضي في (حركية) عمليات مكافحة الإرهاب، وعمليات مكافحة التمرد في باكستان، لا يزال هو الطائرات من دون طيار، لكن حماية الطيارين لم تكن الهدف الوحيد، فقد خفضت الطائرات من دون طيار الأخطار السياسية كذلك، ويشير تحليل سريع لاستخدام الطائرات من دون طيار إلى أنها تميل إلى أن تستخدم في الحالات التي قد تشكو فيها جهة أو أخرى، في البلد المستهدف أو في أمريكا، من استخدام القوات النظامية الأرض، مثل حكومة حليفة مضيفة (مثل باكستان) أو معارضين سياسيين محليين (في حالة ليبيا). وبعبارة أخرى، تستخدم طائرات من دون طيار عندما تحد الحقائق السياسية - سواء كانت خارجية أو محلية - من قدرة الحكومة على استخدام الجنود، وهذا يقود إلى أسئلة كبيرة: هل الطائرات من دون طيار تجعل استخدام القوة العسكرية أكثر احتمالًا؟ وهل القادة العسكريون والسياسيون إجمالًا يرجحون استخدام القوة العسكرية الفتاكة أكثر مما استخدموها في الماضي، إذا كان يمكنها أن تفعل ذلك مع تداعيات سياسية أقل؟ من المستحيل إنكار الاحتمالات.

وبحلول عام 2014م، كانت الولايات المتحدة، والصين، وإسرائيل تستخدم هذا النوع من الطائرات، والهند، وروسيا تعملان على تطوير إصدارات خاصة بهما، فالصين عرضت نموذجًا أسمته (التنين المحلق)، وسلاحها (الزاحف المجنح) الذي أصبح بالفعل على الصعيد الدولي يباع في السوق، فالمسألة ليست سوى مسألة وقت قبل أن تمتلك كثير من القوات العسكرية والمعارضة في العالم قدرات الطائرات من دون طيار، بما لها من مغريات نشر منخفض الأخطار. وأما إذا كان الوضع سيزيد من احتمال نشوب النزاع، فالأمر متروك للمستقبل.

سبب آخر مرجح لشعبية الطائرات من دون طيار، وإن كان الوحيد الذي نادرًا ما تم الاعتراف به، هو أنها تسمح للموظفين بالبقاء منفصلين نفسيًّا عن العدو، وهو عدو غالبًا ما يخشونه، ولا يفهمونه، وكما أصبح واضحًا منذ هجمات 11 سبتمبر/ أيلول، فإن

الجيش الأمريكي ووكالة المخابرات المركزية لم يفهما أعداءهم جيدًا، بل على العكس من ذلك، فقد وجدا نفسيهما مرارًا وتكرارًا في موقف كونهما من الناحية التكنولوجية والتنظيمية متفوقين على أعدائهما، ولكنهما أقل شأنًا يرثى له في نواحٍ أخرى: التفوق العددي للمتمردين، وأقل مهارة في فهم استخدام الحيلة والغدر «كما هو الحال عندما يدعي المقاتلون أنهم مدنيون»، والأهم من ذلك كله، (أقل ثقافة). وقد أدى الوضع إلى الخوف والارتباك، وغالبًا إلى تفضيل أقوى للسلامة من خلال المسافة وعدم الالتحام المباشر. وبعبارات بسيطة، قوات الولايات المتحدة شعرت بالضغط الشديد من كونها غريبة، أو معزولة عن ديناميات البشر من حولها، ومن ثم فروا بخوف إلى المألوف: إلى سلامة القواعد العسكرية (التي غالبًا ما يتم إنشاؤها لتشبه تلك الموجودة في بلادهم).

وفي هذا السياق، فإنه ليس من الصعب أن نتخيل إغراء استخدام نظام الأسلحة التي لا تتطلب من الموظفين مغادرة قاعدتهم، فمسألة الاغتراب دائمًا موجودة في الحرب، ولكنها في أفغانستان كانت عميقة، وخلال عشر سنوات من العمليات في أفغانستان بعد هجمات 11 سبتمبر/ أيلول، عدد قليل من القوات الأمريكية أو حلف شمال الأطلسي الذي تعلم أن يتكلم اللغات المحلية، بدلًا من الاعتماد في المقام الأول على المترجمين، وجمع المعلومات الاستخباراتية لا يزال محدودًا بسبب الفساد في قوات القوات الأفغانية الحليفة على الأرض، ولقد حصلت على معرفة مباشرة من هذا بنفسي، بينما كنت أعمل لمنظمة هيومان رايتس ووتش، وقوات الجيش الأمريكى فشلت في كثير من الحالات في فهم لغز الذين كانوا يقاتلونهم: القادة المحليون القبليون كانوا يوصفون من المخبرين التغيرين باستمرار بأنهم حلفاء، وأعداء، وعملاء مزدوجون، أو ضحايا أبرياء. وعلى الرغم من أن الضباط حاولوا في كثير من الحالات تصحيح الوضع، وخاصة في السنوات الأخيرة، لكن الحقيقة الباقية هي أن: أكثر الجنود لا يعرفون عدوهم.

لزيادة الارتباك، فقد تغيرت إستراتيجية القوات الأمريكية مرات عدّة، من مهاجمة طالبان وتنظيم القاعدة كما كانت في 2001م، إلى تتبع غيرها من الجماعات المتمردة

أو الأحدث، ومن توفير الأمن للانتخابات، وتوفير الأمن للحياة المدنية، إلى إعادة التركيز من جديد على القاعدة والمرتبطين بها من المتمردين، ومن إعادة التركيز من جديد على طالبان والجدد من قوات طالبان، إلى حماية المدنيين مرة أخرى، والجيش الأمريكي يعمل في حالة من الارتباك الإستراتيجي، فهو متردد وساخر، وفي باكستان كان الوضع أسوأ من ذلك: لم يسمح للجيش الأمريكي رسميًّا بالعمل هناك بوصفه قوة مقاتلة، وكانت العمليات العسكرية أو عمليات وكالة المخابرات السرية بعد عام 2001م خاضعة لقيود تشغيلية مشددة، ونتيجة لذلك، كانت قدرات الاستخبارات محدودة، ولقد زرعت وكالة المخابرات المركزية عملاء في باكستان، كما يدل على ذلك حقيقة أن الطائرات من دون طيار كانت قيد الاستخدام، فلا يمكنك إطلاق صواريخ إلا إذا كنت تعرف أين ومن الذين تطلق عليهم النار، ولكن أولئك العملاء كانوا محدودين في كثير من الأحيان، وكانوا يعملون في وضع غير مواتٍ.

كل هذه العوامل كانت تفرضها المشكلة المتكررة ألا وهي حياة الجنود، والعقيدة العسكرية الأمريكية في السنوات التي أعقبت أحداث سبتمبر/ أيلول 2001م ووضعت تركيزًا قويًّا على (حماية القوات) المبالغ فيها، وبعبارة أخرى، بذلت الولايات المتحدة الكثير من الجهد العسكري لمجرد حماية مقاتليها، وكجزء من هذا الجهد المبذول جاء توظيف الطائرات بدلًا من القوات البرية، وذلك باستخدام الطائرات من دون طيار بدلًا من الطائرات المقاتلة، بل وحتى تحديد مشغِّلي الطائرات من دون طيار ومشغلي الكاميرات ومراقبي الفيديو، وضباط الاستخبارات ليكونوا جميعًا على مبعدة آلاف الأميال من الصراع، فكثير من المشتغلين المشاركين في الأعمال العدائية يعملون في مكاتب في ولاية نيفادا وفلوريدا، أو ولاية فرجينيا، وهم منكبون على أشرطة الفيديو المرسلة لهم من طائرات القتال والأقمار الصناعية في جميع أنحاء العالم.

كيف يمكن لهؤلاء المشغلين أن يكونوا متفهمين لخصائص ساحة معركة بعيدة جدًّا؟ في هيومان رايتس ووتش نحن غالبًا ما نقرأ من خلال تقارير التحقيق ما بعد

الحادثة العسكرية من الغارات الجوية أو العمليات البرية عن إيجابيات كاذبة في تحديد قوات العدو في الحالات التي يجري تحليلها من المخابرات عن بعد، وكانت أبسط الأنشطة في بعض الأحيان تفسّر على أنها عمل عدائي، مثل صعود مزارع على سطح منزله في الليل، ومن المعروف للذين عملوا منا في الشرق الأوسط وجنوب آسيا أن الكثير من الناس ينامون على أسطح منازلهم في الطقس الحار كل ليلة؛ للحصول على النسائم التي قد تجعل النوم أكثر سهولة. «أستطيع أن أتذكر النوم على أسطح المباني في جلال أباد ومزار شريف خلال صيف حار وجاف عام 2001م» محللو الاستخبارات، والذين يجلسون على بعد آلاف الأميال، قد يرون الأمور بشكل مختلف: متمرد يتخذ له موقعًا عسكريًّا، ليراقب من مكان عالٍ، فالحقيقة قد تتحول من خلال مجموعة من المنظورات، على أساس فهم المحللين للثقافة وتحيزهم، أو ببساطة من وضوح الصور التي تنتقل إلى عيونهم، ورجل قد يكون ماشيًا على الطريق قرب قندهار، ويحمل عصا يتوكأ عليها، أو ربما مجرفة لزرع العبوات الناسفة لتفجير قافلة تابعة للناتو، فالقوات الأمريكية تراقب تلك الأنشطة بشكل روتيني، وتتخذ قرارات حول هوية الأفغان والعراقيين - المدنيين أو المقاتلين - وتفسر أنشطتهم، ويقومون بالافتراضات، والتوصل إلى النتائج، ودون شك في بعض الأحيان يرتكبون أخطاء.

ما الذي، في التحليل النهائي، يدعو للقلق حول استخدام الطائرات من دون طيار؟ إن هذه الطائرات هي نظام سلاح واحد فقط من بين كثير من الأنظمة، ودور وكالة المخابرات المركزية في استخدامها، مع أنه مثير للقلق، ليس السبب الرئيس لدق ناقوس الخطر، فمن المؤكد أن الهوية القانونية لمشغلي الطائرات من دون طيار، سواء وكالة المخابرات المركزية أو الجيش، هي أمور لا تعني الكثير لضحايا الضربة. إذًا، ماذا عن الطائرات من دون طيار، التي تسترعي انتباه الضحايا، ومديري دعاية المتمردين، والمحامين، والصحفيين، أكثر من غيرها من أشكال العنف الحركية؟ لماذا تعنينا الطائرات من دون طيار، وتفتننا، أو تشكل إزعاجًا لنا؟

ربما نجد إحدى الإشارات في اللغة نفسها، فأسماء الأسلحة تشير إلى خصائص لا ترحم وغير إنسانية، والطائرات من دون طيار الأولى التي نشرت من قِبل وكالة المخابرات المركزية والقوات الجوية بعد عام 2001م كانت تسمى المفترس Predator، وهو اسم خشن حتى ولو لنظام الأسلحة، ما يشير إلى أن العدو لم يكن إنسانًا، ولكنه مجرد فريسة، وأن العمليات العسكرية لا تخضع لقوانين الحرب، ولكنها مطاردة. بعض برامج الكمبيوتر التي يستخدمها الجيش ووكالة المخابرات المركزية لحساب عدد الضحايا المتوقع سقوطهم من المدنيين خلال الضربات الجوية معروف في الدوائر الحكومية (بنظام الإبلاغ عن الخطأ). وقد طور جنرال أتوميكس في وقت لاحق طائرة أكبر من نوع Reaper، وهو اسم يعني الحصادة؛ أي إن الولايات المتحدة هي المصير نفسه، تحصد الأعداء المقدر سلفًا لهم أن يموتوا، وأن حمولات الطائرات من دون طيار تسمى صواريخ هِلفَيَر؛ أي نار جهنم، في استدعاء لعقاب الآخرة، مضافًا لكل ذلك شعور، بالبِرّ والتقوى.

لكن المشكلة الحقيقية، التي يجب علينا أن نستنتجها، هي كيف تقتل الطائرات من دون طيار، فالسمات الغريبة لها معززة بأسمائها- هي أنها تستخدم في المقام الأول لاستهداف البشر بوصفهم أفرادًا، وليس البنية التحتية العسكرية أو القوات المسلحة. ومع ذلك، فإنها تحجب في الوقت نفسه دور الإنسان في ارتكاب العنف، وخلافًا للهجوم الصاروخي، الذي يُختار فيه هدف مادي أو جغرافي مسبقًا، فإن الطائرات من دون طيار تحوم، وتبحث عن هدف محدد - هو الإنسان، وفي الوقت نفسه، لا يكون مرتكب العنف موجودًا جسديًا، فيجري تضليل المراقبين ليعتقدوا أن البريدتر هي التي قتلت أنور العولقي أو ربما قذائفها الصاروخية، وأن نار جهنم، وليس ضباط وكالة المخابرات المركزية الذين يأمرون الأسلحة بالانطلاق. ومن جهة، لدينا شكل العنف الأكثر حميمية القتل المستهدف لشخص معين، وهو ما يسمى في بعض السياقات اغتيالًا، بينما من جهة أخرى، لدينا الأسلحة الأقل حميمية، فالمسافة بين الأهداف وصناع القرار في

واشنطن أو نيفادا هي السمة المميزة للطائرات من دون طيار، فالطائرات من دون طيار تقترب من ذروة المسعى التكنولوجي الذي يعود تاريخه إلى اختراع المقاليع والسهام منذ آلاف السنين، وهي جهود تهدف إلى وضع مسافة بين مرتكبي العنف وبين ضحاياهم المقصودين.

إن هذا المسعى، الذي جلب لأول مرة المنجنيق والمدفعية في وقت لاحق، وصل إلى قمة أخرى مع تطوير صواريخ باليستية عابرة للقارات مجهزة برؤوس نووية، ولكن تلك الأسلحة ذات استخدام تكتيكي محدود، ولم تُنشَر أبدًا في مهمات قتالية، والطائرات من دون طيار تسمح بالاغتراب نفسه أو القطيعة مع الضحايا مثلما هي الصواريخ طويلة المدى، ولكن مع مزيد من المرونة والقدرة على الاستهداف، والنتيجة النهائية هي العنف اليومي مع كل المسافة والبعد التي تحملها هذه الصواريخ، وهذا يبعث على القلق؛ لأن الاغتراب مثير للقلق بحد ذاته.

فكّر مرة أخرى بكونراد لورنز وكتاباته عن موقف الإذعان، حيث يطفئ ضحايا العنف عدوان الآخرين عن طريق إظهار علامات الخضوع، ووقف الكثير من العنف الحيواني قبل حدوثه، وتكنولوجيا الحرب الحديثة جعلت صمام الأمان بتقديم الخضوع غير ذي صلة: فقدت الضحايا فرصة المشاركة في تقديم الإذعان لتجنب العدوان، والطائرات من دون طيار خطوة أخرى إلى الأمام في مجال التكنولوجيا، فقد عبرت جبهة جديدة في الشؤون العسكرية إلى منطقة نائية خالية من الخطر، وإلى القتل الآلي بعيدًا عن أي لمسة سلوك إنساني، ومن الواضح أن المشغِّلين معزولون عن أي أذى جسدي محتمل، ومع ذلك، فإننا لا يمكننا إلا أن نتساءل عما إذا كان النفور لدينا من العنف هو عامل تحفيز آخر في استخدام الطائرات من دون طيار. إن هذه الطائرات تجعل مهمة القتل السيئة أسهل قليلًا.

أم أن العكس هو الصحيح؟ تقول بعض التقارير: إن مشغّلي الطائرات العسكرية من دون طيار يعانون مرحلة اضطراب ما بعد الصدمة، وتبيّن الدراسات أن بعض من يقومون بالضربات أو مشاهدة فيديو الضربات يعانون (الضغط التشغيلي)، الذي يعتقد المسؤولون أنه نتيجة عمل المشغّلين ساعات طويلة ومشاهدة أفلام الفيديو التي تظهر نتائج العمليات العسكرية بعد حدوثها- بعبارة أخرى، جثامين القتلى[31]، ومع ذلك، يفترض أن الإجهاد النفسي الذي تصفه هذه التقارير يتضاءل بالمقارنة مع اضطراب ما بعد الصدمة الذي يعانيه قدامى المحاربين. في كل الأحوال، التقارير الموجودة تتناول تجربة المشغّلين العسكريين في مشاهدة شاشات الفيديو أشهرًا بلا انقطاع، وليس مسؤولي وكالة المخابرات الذين يقررون الاستهداف على أساس فردي حالة بعد حالة. ليس هناك معلومات عامة حول التوتر بين أولئك الذين يأمرون بالضربات في وكالة المخابرات- مشغلي الضربات وصناع القرار في مقر الوكالة في لانغلي.

تناقش دراسة لوزارة الدفاع البريطانية عام 2011م عن الطائرات من دون طيار بعض هذه النقاط: مخاوف بشأن عزلة مشغلي الطائرات المحتملة عن العنف، وفرص الدعاية للأعداء. «تلاحظ الدراسة أن استخدام الطائرات يمكّن المسلحين من تصوير أنفسهم في دور المستضعفين والغرباء بوصفهم بلطجية جبناء - غير مستعدين للمخاطرة بقواتهم الخاصة، ولكنهم سعداء بالقتل عن بعد»[32]، وتناقش الورقة أيضًا المخاوف التي أثارها المحلل العسكري بيتر سنجر، الذي كتب عن (حرب الروبوت) وإمكانية أن الطائرات من دون طيار قد تكتسب القدرة على الاشتباك مع الأعداء بشكل مستقل، وذلك جعل منظمة هيومان رايتس ووتش تتناوله في وقت لاحق في تقرير 2012م بعنوان (خسارة الإنسانية: قضية الروبوتات القاتلة)[33]. الوثيقة البريطانية وهيومان رايتس ووتش تصوران السيناريوهات التي قد تجعل الطائرة من دون طيار تطلق النار على هدف «مستندة فقط إلى أجهزة الاستشعار الخاصة بها، أو المعلومات المشتركة، ودون اللجوء إلى سلطة بشرية أعلى». هذا هو التغريب في صورته المتطرفة.

يشير التقرير البريطاني ثانية إلى ما قاله لورينز، وهو، أن في الأخطار من ساحة المعركة والرعب الذي يأتي من القيام بالعنف يمكن أن يخففا الوحشية، وبهذا الاستشهاد بالقول المأثور للجنرال روبرت لي، الذي قيل: إنه قاله بعد معركة فريدريك سبيرغ في الحرب الأهلية الأمريكية عام 1862م، «مما لا شك فيه أن الحرب أمر فظيع جدًّا، وإلا فإننا سوف نغدو أيضًا مولعين بها». يتساءل مؤلفو التقرير: إذا كان لنا أن نزيل أخطار الخسارة من حسابات صناع القرار عند النظر في خيارات إدارة الأزمات، فهل نجعل من استخدام القوة المسلحة أكثر جاذبية؟ هل سيلجأ صناع القرار إلى الحرب بوصفها خيارًا سياسيًّا أسرع مما سبق؟ كلاوزفيتز نفسه يشير إلى أن السياسة تمنع تصاعد وحشية الحرب إلى أقصى أشكالها، عن طريق حلقة من ردود الفعل التصعيدية الشيطانية، وأحد العوامل المساهمة في السيطرة والحد من العدوانية السياسية هو الخطر المحدق بقوات المرء نفسه، ومن الضروري، قبل أن تصبح الأنظمة غير المأهولة في كل مكان (إذا لم يكن قد فات الأوان فعلًا) أن نبحث هذه المسألة، ونضمن، عن طريق إزالة بعض الرعب، أو على الأقل إبقاؤه بعيدًا، فإننا لا نخاطر بفقدان إنسانيتنا المسيطرة، ونجعل الحرب أكثر احتمالًا[34].

المسألة ليست أن الطائرات من دون طيار المسلحة أكثر فظاعة أو مميتة من نظم الأسلحة الأخرى، فعلى العكس، فإن العنف الناجم عن هذه الطائرات أكثر انتقائية من كثير من أشكال العنف العسكري، وتعترف جماعات حقوق الإنسان بأن هذه الطائرات، بالمقارنة مع أقل الأسلحة دقة، لديها القدرة على تقليل الخسائر في صفوف المدنيين خلال ضربات عسكرية مشروعة، والقضية ليست فقط إسقاط الأسلحة عن بعد: فالعزلة عن آثار العنف أصبحت شائعة في الحرب العالمية الأولى، عندما جلس الضباط في المقر، بعيدين أميالًا عن المعركة. على الأرجح، فإن المزيد من التقدم التكنولوجي سيجعل تطوير الطائرات من دون طيار مجرد مرحلة وسيطة لمزيد من الأسلحة التي يجري تشغيلها عن بعد: أسلحة الليزر الدقيقة التي تطلق من الأقمار الصناعية، أو بعض

الطرق التي لم تكتشف بعد من أشكال العنف، وليس هناك شيء فريد عن الطائرات من دون طيار يجعلها فظيعة ومرعبة. إن ما يجعلها مثيرة للقلق هو مزيج غير عادي من الخصائص: المسافة بين القاتل والقتيل، وعدم التماثل، واحتمال التشغيل الآلي، والأهم من ذلك كله، التقليل من تعريض الطيارين للخطر والأخطار السياسية. إن دمج هذه الخصائص هو ما يلفت انتباه الصحفيين والمحللين العسكريين والباحثين في مجال حقوق الإنسان، والمؤيدين لتنظيم القاعدة. الطائرات من دون طيار تشير إلى شيء مثير للقلق حول مستقبل العنف البشري، وقد سمحت التكنولوجيا بحجب العنف الدنيوي والعنف المنتظم للقوة العسكرية عن المشاعر الإنسانية، فهذه الطائرات من دون طيار تنذر بإمكانية فصل الوحشية تمامًا عن الإنسانية، وتسفر عن العنف الذي كان ولا يزال، لا شعوريًّا. بهذا المعنى، فإن هذه الطائرات تنبؤ بمستقبل مظلم جدًّا في الواقع.

* * *

الجزء الثاني
الأقوال

الفصل الخامس

مسرح القوة

عام 2013م، واصلت مع زملائي البحث في أفغانستان مركّزين على غياب القانون في مرحلة ما بعد طالبان، وجمعنا روايات عن الجرائم والمضايقات التي تعرّض لها المواطنون الأفغان على يد الجيش والشرطة (أمراء الحرب) و(المسلحين) كما وصفهم معظم الأفغان. وقد استخدم الأفغان الكلمات بطريقة توحي بالقسوة: جانغسالاران، المكونة من جانغ (الحرب) وسالار (أمير) وتوفانغدار، المكونة من توفانغ (البندقية) ودار (رجل). لقد سمعت كلمتي جانغ وتوفانغ حتى عندما لم أكن أفهم الشكوى المروية بطريقة سريعة. في كل مكان ذهبنا إليه، تحدّث الناس عنهم: «الحكومة في كابول مليئة بلوردات الحرب»، «الحاكم نفسه أمير حرب»، «قريتنا يحكمها أمراء الحرب». لقد أجريت مقابلات مع صحفيين وقادة سياسيين معارضين عن أجواء الحرب اللامنتهية.

«هنا، لا يوجد حكم للقانون» كانوا يقولون. «كل السلطة للبندقية». طلب مني الصحفيون ألا أستخدم أسماءهم، موضحين أنه لا يمكنهم مناقشة القضايا المثيرة للجدل علنًا «نكتب عن أشياء غبية، عن الاحتفالات والاجتماعات» قال لي الصحفيون «أي شيء أكثر إثارة للاهتمام – عن **تفاهة**». قابلت خطاطين وطباعين، وطرحت عليهم أسئلة افتراضية: «ماذا كنت ستفعل لو أن شخصًا ما طلب منك طباعة لافتات للاحتجاج السياسي أو لانتقاد الحاكم؟» فأجابوني: «لا نفعل ذلك»، سوف يقضون علينا. إنهم

يحذروننا بأدب، ولكن إذا أغفلنا التحذير، وواصلنا، فسوف يقتلوننا بكل تأكيد. كنت قد سمعت عن هذه التحذيرات المهذبة من قبل، فقد التقينا زعيمًا معارضًا في أواخر عام 2002م، دعوني أسمِّيه (أكبر)؛ لأنه لا يريد مني أن أستخدم اسمه علنًا، وصف لي قائدًا فرعيًّا لأحد أمراء الحرب الذي دعاه لتناول الشاي، ثم طرح معه قضية (أمنه الشخصي) كان يتحدث، وكأنه صديق، وهو في الواقع دون شك لم يكن كذلك، قال القائد: إنه «رجل تقي» و«وضع كل إيمانه بالله»، وإنه يريد مساعدة (أكبر) وحمايته، وأضاف حتى إنه كان «قلقًا عليه». وتوسل القائد إلى (أكبر)، وأخذ يعدِّل ياقته، ويمسح معطفه، وهي لفتة أمومة، يستخدمها الأفغان في بعض الأحيان عند التحدث مع الأصدقاء، لكن (أكبر) لم يلزم نفسه بقبول العرض.

أخيرًا، قال القائد: إنه إذا استمر (أكبر) في انتقاده الإدارة المحلية، فإنه لن يكون قادرًا على ضمان سلامته «أي شيء يمكن أن يحدث»، قال القائد له. كانت المحادثة المباشرة كما لو أنها من فيلم عصابات سيئ. عندما كانت طالبان في السلطة كانت الأمور كما هي عليه اليوم. استدعاء حكام المقاطعات للتهديدات بطرق مهذبة وخفية. «إذا كنتم تنوون السفر لتلك القرية» كانوا يقولون لنا، ونحن نتناول الشاي، في إشارة إلى قرية لا يرغبون لنا بزيارتها، «فنحن لا يمكننا ضمان سلامتكم» كانوا يلحون علينا وهم يقدّمون لنا المزيد من اللوز الحلو والمزيد من الشاي «واجبنا هو حمايتكم، أنتم ضيوفنا» كانت المسرحية شفافة تمامًا، فدون شك هنا تكمن الفكرة.

بدأت الحرب على العراق في 20 مارس/ آذار، كنا نتابعها من خلال المذياع، ونحن نتجول بين القرى الأفغانية، استمعنا على الراديو للقادة العسكريين الأمريكيين، وهم يستدعون العقيدة العسكرية الجديدة: (الصدمة والترويع) تلك هي الإستراتيجية، التي أخبرونا بها، كانت الولايات المتحدة في الأيام الأولى للغزو تستعرض مستوى من القوة العسكرية المروعة جدًّا والمرعبة للجيش العراقي، بحيث تدفعه للتسليم، وليس القتال. بعبارة أخرى، أعمال العنف ستنفذ ليس فقط بوصفها قوة ديناميكية، ولكن كعمل

مسرحي أيضًا، ولم تكن الفكرة تبدو أصيلة تمامًا، فقد صيغت بعبارات يراد بها أن تكون حديثة، ولكن أهدافها قديمة قدم الحرب نفسها، وتخطيط الغزوات لتخويف العدو أو التي تؤدي لكسر صفوفه تكتيك يعود تاريخه إلى الأطروحة الصينية القديمة في فن الحرب، ففي الأشهر اللاحقة، وأنا أقرأ المزيد عن العقيدة علمت أن المصطلح – أي الصدمة والترويع – يعود بجذوره إلى ما ورد في ورقة مكتوبة لجامعة الدفاع الوطني من قِبل هارلان أولمان وجيمس ويد بعنوان (الصدمة والرعب): تحقيق الهيمنة السريعة[1]. كانت الفكرة كما تصورها في الأصل تدعو إلى حشد وتركيز كل الموارد العسكرية والاستخباراتية للولايات المتحدة من أجل «تدمير إرادة العدو على المقاومة». وتتطلب هذه العقيدة مستويات عالية من الذكاء في معرفة قوات العدو والعمليات اللازمة مع (السرعة، والذكاء، والسيطرة).

ليس من المستغرب، نظرًا لمعطيات الأحداث لاحقًا، أن كثيرًا من المعارضين للحرب انتقدوا هذا المذهب؛ لأنه يذكّرنا بأيام هياج هتلر في طريقه إلى فرنسا عام 1940م. (السرعة) وتنسيق القوات ليست سوى اسم آخر **للحرب الخاطفة**. علاوة على ذلك، فإن حشد العمليات – جعل العمليات العسكرية مستمرة وواضحة، وجمع الجيش، وسلطات إنفاذ القانون، وقدرات الاستخبارات معًا تعيد إلى الذاكرة جزءًا من **ملامح** الفاشية. ربما كان الجانب الأكثر إزعاجًا في الصدمة والرعب هو ركنها المركزي: هدف إلحاق العجز والخوف في الخصوم. فالقوة، كما قيل لنا: ستكون مولدة للخوف، ومن ثم فيها لمسة من الإنسانية. وبواسطة إخافة الخصوم، فإننا نمنعهم من القتال، ومن ثم سيكون هناك عنف أقل. باختصار، سيتم حفظ الأرواح من خلال الإرهاب، لدرجة أن أولمان وويد أدرجا قصف هيروشيما وناغازاكي بوصفهما أمثلة على هذا الأثر، على الرغم من قولهما: إن التقنيات الحديثة يمكن أن تحقق النتيجة نفسها دون هذه الأعداد الكبيرة من الضحايا المدنيين.

وفي الممارسة العملية، غزو العراق مضى قدمًا وبسرعة، وخلال أيام كانت القوات الأمريكية على أبواب بغداد. للحظة يبدو أن الصدمة والرعب كانت تعمل بفاعلية، فالاسم، على الأقل، كان جذابًا، ففي الأسبوع الأول من بدء الغزو، قدمت شركة سوني طلبًا إلى مكتب البراءات والعلامات التجارية لتسجيل علامة تجارية للعبة فيديو جديدة تحمل الاسم نفسه[2]، وبعد انكشاف الأمر سحبت الشركة طلبها، لكن تبين أن طلبات تسجيل قد قُدِّمت من الشركات المصنعة للألعاب النارية، ونوادي الجولف، والصلصة الحارة، وقفازات الملاكمة، والشامبو، والمبيدات الحشرية، والملابس الداخلية[3] **الصدمة والرعب** Shock and Awe™.

في الأشهر اللاحقة، أصبح من الواضح أن الولايات المتحدة لم تنفذ الإستراتيجية كما تم تصميمها. وقال أولمان، الكاتب الذي صاغ هذا المصطلح، للصحفيين في صيف عام 2003م: إن قوة الغزو الهزيلة لوزير الدفاع دونالد رامسفيلد كانت على خلاف مع المذهب كما بالصورة التي قدّمه بها. فالجيش، قال أولمان: قد استخدم العبارة فقط بقصد (التأثير في العلاقات العامة)[4] أحد الأركان الأساسية من أركان العقيدة المصطلح، (المعرفة الكاملة) للعدو، لم تعالج بشكل كافٍ.

ودعا خطة رامسفيلد بأنها (الصدمة والرعب الفاشلة)[5] وقال أولمان: إنه انزعج من أن المراقبين قد «أساؤوا فهمه» بأن مذهبه كما لو كان قائمًا أساسًا على التفجيرات الإرهابية – هذه الفكرة، أوضح، كانت تقوم على استخدام قوة منسقة ساحقة، في حين أن رامسفيلد قد استخدم القصف الجوي الثقيل مع جيش صغير من القوات البرية على الأرض[6]، ولا يبدو أن الضربات الجوية كانت فاعلة، فقد أصبح من الواضح في وقت لاحق أن الوحدات العسكرية العراقية ما انهارت إلا بعد اتصالها المباشر مع القوات البرية، وأن الكثير مما عُرِض من قصف مذهل لم يحقق المقصود منه بالتأثير النفسي[7]، فصدام حسين، وجنرالاته كان المخطط لهم على ما يبدو لحرب أطول فيها أعضاء من حزب البعث على استعداد لمواصلة القتال ليس كجيش نظامي، ولكن كمتمردين –

وهذا ما حدث في الواقع. صحيح أن الجنرالات العراقيين ألحوا إلى شن حرب دفاعية شاملة ضد الغزو، ولكن الضباط العراقيين كانوا يعرفون أفضل، فقد فهموا أن الجيش الأمريكي لا يمكن أن يتوقف كجيش متحرك، وسيدخل بغداد، وكان السؤال فقط: ماذا سيحدث بعد ذلك؟

الإعداد لحرب العراق تسبب في قدر كبير من الذعر في أوساط حقوق الإنسان، فكثير من موظفي هيومان رايتس ووتش، مع أنهم كانوا يعون أن المبررات القانونية غير معتمدة للغزو، إلا أنهم فكروا في المكاسب الإيجابية لحقوق الإنسان التي يمكن أن تحدث مع نهاية حكم صدام حسين، وباحثونا الذين وثقوا جرائم الحرب في المناطق الكردية في ثمانينيات القرن الماضي، وأجروا مقابلات مع الناجين من المجازر والهجمات بالأسلحة الكيميائية، لن يحزنوا على سقوط نظام صدام حسين، ولا زملائي من الإيرانيين - الأمريكيين الذين عانوا الغارات الجوية العراقية الخاطفة على طهران خلال الحرب الإيرانية - العراقية. والأكاديمي الكندي مايكل إيجناتييف الذي تحول إلى سياسي زار هيومان رايتس ووتش في شتاء عام 2002م، وناقش فوائد إزالة صدام حسين من السلطة.

وبعض العاملين في هيومان رايتس ووتش وافقوا على أنه من المناسب عمل مثل هذه الاعترافات، وبعضهم الآخر روع من احتمال وقوع نزاع غير مبرر ودعم بيانًا يعارض الحرب، لكن هيومان رايتس ووتش نادرًا ما تدلي بتصريحات من هذا النوع، فكما هو الحال مع الجماعات الإنسانية، تقضي سياستها بالتزام الصمت بشأن مسائل تتعلق بمشروعية العمل العسكري في ظل حرب دولية، ما يسميه المحامون نظرية (الحرب العادلة). وبدلًا من ذلك، تركز المجموعة على شرعية الأساليب والوسائل القتالية خلال الحرب: العدالة في الحرب.

بعبارة أخرى، عندما يتعلق الأمر بالحرب، تتعامل هيومان رايتس ووتش مع الحال، وليس مع الصفة. وتلتزم الصمت حول ما إذا كانت الحروب **عادلة**، وتركز فقط على ما إذا كانت تُخاض **بعدالة**. هذه السياسة متجذرة ليس فقط في الحياد الأكاديمي كما هو الحال في فكرة أنه من أجل الوصول إلى المناطق التي يسيطر عليها كلا الجانبين في الصراع، يجب أن تظل الجماعة الحقوقية محايدة حول المبررات التي يقدمها كل جانب لأفعاله، أو على الأقل التظاهر بالحياد، فقد ترفض الحكومات بسهولة جدًّا المدافعين عن حقوق الإنسان لدوافع سياسية إذا كانوا يناقشون عدالة قضية أي مقاتل معين. نحن نرى أنفسنا الحكم في مباراة في الملاكمة، وليس القاضي الذي يقرر من ضرب منهما الآخر أولًا. لكن في سياق العراق، بعضهم داخل هيومان رايتس ووتش يعتقد أن إدارة بوش، من خلال تضمين سجل النظام العراقي في مجال حقوق الإنسان كأحد المبررات للحرب، قد فتحت الباب لجماعات الحقوق للتحدث علنًا.

بعضهم قال: نحتاج إلى أن نوضح أننا لا نؤيد الغزو، فعارض آخرون، وقالوا: لا يمكن لأحد أن يفكر بجدية أننا أيدنا الحرب. مع ذلك، قال آخرون: إن تبريرات الحرب مجنونة وغبية، بحيث إن أعضاء المجتمع المدني بشكل عام – و جماعات حقوق الإنسان جزء منها – لديها التزام بالتحدث علنًا ضد ذلك، ليس بصفتنا المهنية، ولكن بوصفنا مجموعات مكرسة لحكم القانون والعقل والحس السليم. ذهبت الحجج ذهابًا وإيابًا، وحدث أخذ ورد. المدير القانوني لهيومان رايتس ووتش في ذلك الوقت، وايلدر تايلور، اقترح أننا قد ننتقد العمل العسكري على أساس أنه يهدد بتقويض القانون الدولي بشكل عام، ويضر بمعاهدات حقوق الإنسان بقدر ما سيضر بميثاق الأمم المتحدة. ولكن في النهاية هذا ليس حلًّا لقضايا الولاية الأساسية؛ نظرًا لأنه لا يزال يشكل سابقة سيئة، فإن الحكومات سوف يشتكون في المستقبل: **أنت أدنت الولايات المتحدة لغزو العراق، فلماذا لا تدين الآن هذه الحرب؟**

ولأني شهدت الاضطرابات في أفغانستان في أعقاب الهجوم الأمريكي، فقد كنت في معسكر الحمائم، كنت أظن أن العراق قد ينتهي بالسوء أو ما هو أسوأ من أفغانستان، وكان هذا شبح الدمار الذي أشرت إليه على مسمع إيجناتييف عندما زارنا: تمرد راسخ أو حرب أهلية في العراق. وقلت: إن العراق، على عكس أفغانستان، يفتقر إلى هوية وطنية متماسكة، وكانت واحدة من المرات القليلة في حياتي التي أتنبأ بها بدقة بالمستقبل، مساهمة ليست لعلم الغيب، ولكن لمجرد تجربتي في أفغانستان. وافقني الرأي إيجناتييف أن قضايا الأمن بعد الحرب العالمية الثانية كانت تدعو إلى (القلق) لكنه أشار، كما فعل في وقت سابق، إلى أن البديل كان ببساطة هو «المزيد من أمثال صدام».

كانت مناقشة كئيبة وبعيدة عن الاستقامة الأخلاقية إلى حد كبير. إيجناتييف في وقت لاحق كتب مقالة في مجلة (**نيويورك تايمز**) (الإمبراطورية الأمريكية اعتادوا على ذلك)، وألف كتابًا بعنوان (**أهون الشرين**)، ظهرت فيه هذه العبارات: «الضرورة قد تتطلب منا اتخاذ إجراءات للدفاع عن الديمقراطية التي سوف تبتعد عن الالتزامات المؤسِسة لصالح الكرامة»[8] في زمن سبتمبر/ أيلول العدوانية الشديدة، كان الأكاديميون، وحتى نشطاء حقوق الإنسان يحاولون إعطاء الانطباع بأنهم واقعيون عنيدون. كثير من الناس لم يعترضوا على البدهيات، وكشفوا نقاط الضعف في حجج الإدارة الأمريكية. لكنه كان أيضًا زمن الجبن المريب وعقلية القطيع. معظم الناس أخذوا العظة من الناس الآخرين، وعلى الرغم من أنني كنت أدرك ذلك، إلا أنني وقعت ضحية لهذا الواقع. على مستوى اللاوعي، ذهب تفكيري على هذا النحو: **إذا لم يعارض محرر افتتاحية** واشنطن بوست **الحرب، وإذا لم يكن مايكل إيجناتييف نفسه كذلك أيضًا، فلا يمكن أن تكون سيئة، أو أن الحرب واقعة بغض النظر عما أعتقده أنا.**

وفي وقت لاحق، أولئك الذين كانوا داعمين للحرب كتبوا اعتذاراتهم، واعترفوا بذنبهم، **مثل** إيجناتييف الذي قال في اعتذار خجول عام 2007م: «لقد تركت العاطفة تحرفني عن فهم الأسئلة الصعبة»[9].

وفي يونيه/ حزيران، بعد بضعة أشهر من الغزو، تلقيت اتصالًا من العراق على هاتف يعمل بالأقمار الصناعية في أفغانستان، كان زميلي أوليفييه بيركولت، الباحث الفرنسي الذي يعمل مع هيومان رايتس ووتش والذي لا يعرف الخوف في مجال حقوق الإنسان والذي كان معروفًا بأنه على استعداد للذهاب إلى أي مكان – العراق والشيشان والسودان وأفغانستان – كان مع سام ظريفي في جنوب البلاد، قال:

-«نحن في البصرة!» صاح أوليفييه على الخط.

-«أتمنى لو كنت هنا. لقد غاب عنك كل شيء!».

بدأ أوليفييه المحادثة مازحًا، ولكن شيئًا في لهجته جعلني أشك في أنه كان عصبي المزاج، عندما سألته: كيف كانت الأمور تسير على الأرض؟ قال بجدية ودون مزاح:

-هذا ليس وضعًا جيدًا، فالأمريكيون لا يعرفون ماذا يفعلون.

سمعت الكثير من الصراخ في الخلفية، بالعربية، وأبواق الحافلات، والأذان. -هذا سام يريد أن يتحدث إليك.

كان سام على الخط.

- «يا محتال، قال مستخدمًا اسمي المستعار». كيف حالك؟ كان سؤالًا عابرًا.

- اسمع، أنت لن تصدق هذا، الوضع هنا فاسد تمامًا.

- ماذا يحدث؟ سألت.

- لا يوجد أحد هنا، لا القوات، ولا حكومة الاحتلال. هناك عدد قليل من الشركات، إنهم يحرسون بعض الوزارات، وهناك خمسة مدنيين من الوزارة، يعني وزارة الخارجية، وأضاف:

- إنهم بلهاء، حمير.

في خلفية المكالمة كنت أسمع حماسة وصراخًا باللغة العربية.

- كل ما يمكنني قوله هو: من الجيد أنك لست هنا، كنت ستفقد أعصابك، سيقف شعر رأسك، أو يقشعر بدنك لو كنت معنا هذا هو واقع الأمر، وأنا سعيد لأنك لست هنا. سألت:

هل هناك حقًّا خمسة أشخاص فقط من الوزارة؟

- عدد قليل فقط التقيناهم مع سلطة الائتلاف المؤقتة. لا توجد **خطة** أمنية، يا صديقي، ليس لديهم **خطة**، أي خطة، التقينا مع مسؤول هذا الصباح، وليس لديهم موظفون، ولا خطة، أرادوا **مساهمتنا**، هل يمكنك أن تتخيل؟

- إضافة إلى النهب، قال سام، المدنيون العراقيون بدؤوا بنبش المقابر الجماعية القديمة حول البصرة بحثًا عن أقاربهم المفقودين، وقال: إنه وأوليفييه حاولا، - وهما يوضحان للقادة المحليين ضرورة الحفاظ على الأدلة على جرائم الحرب الماضية - إقناعهم بالتوقف، ولكن دون جدوى، ثم طلبا من القوات حراسة المواقع، وأيضًا دون جدوى، وفي الوقت نفسه، السكان المحليون بدؤوا بتشكيل ميليشيات خاصة بهم، في كل مجمع سكني وراء الآخر في البصرة، لحماية المنازل.

- حسنًا، سألت: هل هناك خطة لزيادة القوات؟ أعني، بعد عمليات السلب والنهب وكل شيء.

-كان سام مصرًّا على موقفه.

- ليس هناك خطة ولا ما يحزنون، وضحك، نهاية لضحكة مكتومة تقريبًا مثل تنهد مخنوق.

– دعني أؤكد أنه، حتى وإن كانت هناك خطة، فإنها خطة سيئة. بالأحرى ليس هناك خطة، لا خطة. كرر، وقال: «لا خطة!». «إن الناس هنا» وكان يقصد المسؤولين الأمريكيين. «اسمعني، لو كنت هنا لكنت مقيدًا هنا».

– «مصدومًا ومرعوبًا»، قلت له.

– «حسنًا»، قال سام «إنها صادمة ومرعبة».

بعد بضعة أشهر أصبح واضحًا مدى السوء الذي آل إليه الوضع. نفذ مسلحون عراقيون هجومًا كبيرًا على مكاتب اللجنة الدولية للصليب الأحمر والأمم المتحدة في بغداد، ومن بين القتلى في الهجوم رئيس بعثة الأمم المتحدة سيرجيو دي ميلو، وعدد من موظفيه. أحد أساتذتي في كلية الحقوق، خبير قانون اللاجئين آرثر هيلتون، وكان يجتمع معه في ذلك الوقت قُتل أيضًا في الانفجار، فقد كانت لي ذكريات جميلة مع هيلتون – كنت طالبًا عنده قبل بضع سنوات فقط – وحزنت من الأخبار؛ لم أكن أعرف حتى إنه كان في العراق. كانت زميلتنا هنية المفتي في المجمع وقت الهجوم، ولكن على الرغم من أنها طرحت أرضًا، إلا أنها نجت دون إصابات. زميلة أخرى اسمها ألهي شريفبور هيكس، وكانت تعمل مع الأمم المتحدة في ذلك الوقت، نجت من الموت بأعجوبة: تطاير مكتبها إلى نتف في الانفجار، أُنقذت ببساطة لأنها كانت قد ذهبت إلى القاعة في الطابق السفلي للحصول على شيء من الماء.

من الناحية النظرية، فإن آثار هذه الهجمات يبقى ضئيلًا من حيث النتيجة المادية الفعلية: كان هناك بضع عشرات من القتلى، وأصيبت بعض المباني بأضرار بالغة. فعل الجيش الأمريكي، كل شيء في أثناء الغزو، ولكن من حيث الآثار النفسية، أحدثت الانفجارات الصدمة والرعب نفسه، فالمتمردون أرسلوا الرسالة الأساسية البسيطة: يمكننا أن نضرب في أي مكان وفي أي وقت نشاء. سحبت الأمم المتحدة والصليب الأحمر الموظفين الدوليين خارج العراق أشهرًا عدة. كان تركيز المتمردين

على وكالات المعونة الإنسانية قاسيًا إلى حد كبير. بإخراج منظمات المساعدة الدولية، ترك الأمريكيون ليواجهوا الهجمات وحدهم، يتحملون المسؤولية الأمنية والمساعدات أو التنمية. كان هذا سيناريو مسرحيًّا خبيثًا ومنفّذًا جيدًا: تحولت الصدمة والرعب ضد المدافعين عنها، وانقلب السحر على الساحر، **فالمسرح** هو الكلمة الدقيقة المناسبة. أتذكر الإحساس الغريب الذي شعرت به ذات مرة في شمال ألبانيا عام 1999م، على حدود كوسوفو، في بداية الاحتلال العسكري الأمريكي وحلف شمال الأطلسي. كنت أنا والمترجم نستخدم إستراتيجيات مختلفة لعبور الحدود إلى جنوب كوسوفو، فالمساومات مع الحراس، والسير أميالًا عبر الطرق الخلفية لتجاوز نقاط التفتيش، والقيلولة لتمرير الوقت، بينما كانت عربات النقل العسكرية تسد الجسور الضيقة. كنا نقطع مسافات سيرًا على الأقدام، وكنا فقدنا الأمل منذ مدة طويلة في الحصول على سيارة عبر الحدود. مشينا على طول الطريق المؤدية إلى أحد المعابر الوحيدة للحدود، نمر بين صفوف من السيارات والدبابات وعربات النقل العسكرية، وسيارات الجيب.

عند إحدى النقاط مرت طائرة هليكوبتر ضخمة بمروحيتين تحمل ناقلة جند مدرعة تحتها معلقة على مجموعة من الكابلات، والناقلة الثقيلة تتمايل قليلًا. طاقم التلفاز على الطريق كان يحمل الصناديق السوداء والمعدات سيرًا على الأقدام. كانت الحفر تملأ جانب الطريق من القصف العسكري الصربي عبر الحدود، وحقول الألغام على جانب كوسوفو، لكن يبدو أن القضية برمتها مثل عرض موسيقي في الهواء الطلق: بدت محاولاتي وتوسلاتي مع القوات الألبانية وحلف شمال الأطلسي لإقناعهم بالسماح لي بالعبور، مثل الالتفاف وراء بوابات ملعب لحضور العرض.

تداخلت عناصر المسرحي بالواقع، وبعد أيام قليلة من وصولي، جئت عبر موقع مراقبة صربي مهجور في أثناء قصف حلف شمال الأطلسي، تناثرت في آخره زجاجات الفودكا والمجلات الجنسية، وبقايا طعام، وعلى الطاولة تمكث قطعة جبن جافة مأكولة من طرفها، ومجلة مفتوحة تظهر امرأتين عاريتين، فتولد لدي إحساس بأن القوات شبه

العسكرية قد غادرت على عجلة من أمرها، وربما في ذروة القتال، وفي منتصف الليل، في ذروة قصف حلف شمال الأطلسي. لم يكن لدي أي تعاطف مع هؤلاء الرجال، فقد كانوا متورطين في أعمال وحشية ضد السكان الألبان في كوسوفو، لكن يمكنني أن أتصور الرعب الذي يجب أن يكونوا قد شعروا به في أثناء تعرضهم للقصف من قِبل طائرات حلف شمال الأطلسي. كانوا، بعد كل شيء، بشرًا. رجال عاديون يحبون أكل الجبن، وشرب الفودكا، ومشاهدة الصور الإباحية. كان الرعب هو الذي أخرجهم من ذلك الموقع. كان ذلك الرعب هو الذي أوقف التطهير العرقي الذي كانوا يقومون به. وكانت التفجيرات في صربيا هي التي اضطرت سلوبودان ميلوسيفيتش في نهاية المطاف إلى التنازل عن كوسوفو، ولكنها كانت الضربات الأولية في كوسوفو التي أوقفت عمليات قتل الكوسوفيين من قِبل القوات شبه العسكرية مثل هذه، فتحولت من مرعبة إلى مرعوبة.

في التحليل النهائي، فإن العنف هو النشاط نفسه على كلا الجانبين، وهو الأفعال المادية للصديق والعدو، والشرطة والمجرمين: الرصاص الذي يخرج من فوهات البنادق، واللحم الذي يتمزق، والألم المحسوس، والقلوب التي تتوقف، وفقدان الوعي، والنفوس التي تتقاعد في العوالم الأبدية – وقبل كل شيء، الخوف في مواجهة كل ذلك. إن أي مجرم هارب، على سبيل المثال، يشعر بالرعب، وهو يقود سيارته على طريق نيو جيرسي السريع، عندما تظهر سيارة شرطة وراءه. جميع أعمال العنف لديها القدرة على إثارة الذعر والألم، وتهديد العدالة يمكنه أن يسبب الرعب في الإرهابيين، وخطر الإرهاب يسبب الرعب في السكان المدنيين. وهناك خط بين العنف الشرعي وغير الشرعي، لكنه يكمن في السياق، وليس في التنفيذ.

ما الشيء الخاص في الحرب الذي يوحي بالمسرح؟ يبدو أن ثمة علاقة صوفية موجودة في الحرب والمسرح، فالحرب مليئة بالأجهزة، ومعدات المسرح: الحيل، والأزياء، والاستعراضات، والمفاجآت. التمويه والأحزمة، بطريقتها الخاصة، هي أدوات لا تختلف عن ستائر جانبية سوداء على المسرح أو الملابس السوداء التي يرتديها عمال

المسرح لجعلها غير مرئية للجمهور. الحرب والمسرح يشتركان في كثير من الخصائص: أفعال معقدة ومنسقة ومسرحيات ضمن مسرحيات ومجموعات وفرق بمهام متنافسة، تجاور التخطيط والارتجال، والحاجة إلى أن تكون مقنعًا، تضخيم الصوت وعرض القوة. إن التنظيم المحكم للحرب، (واستعراضها) المسرحي: التدريب، والمسيرات، والمناورات، ومختلف الأدوار المسندة، والإعداد لـ (العرض) (مصطلح يستخدمه الجنود للقتال). حتى كلمة **المسرح** نفسها هي مصطلح للحرب، على سبيل المثال، (المسرح الأوروبي). (مسرح المحيط الهادي). أو (مَرفق مسرح احتجاز باغرام)؛ قاعدة الاحتجاز العسكرية الأمريكية شمال كابول. كلمة المسرح، من جانبها، قد توحي بالشعور بالحرب: الأطراف الفاعلة، وارتداء الماكياج والأقنعة والدخول في حالة تأمل قبل وقت رفع الستار، على عكس الجنود الذاهبين لخوض المعركة. وربما يحتفظ المسرح بارتباطاته مع المدرج في مرحلة ما قبل الحداثة، حيث كان الرجال يخوضون معركة حقيقية أمام آلاف النظارة؛ لإمتاعهم.

المسرح، مثل الحرب، من المفترض أن يصل إلى الجمهور، ويؤثر فيه – لنفكر في تعبير العمل الدال على القوة أو البراعة. في نظرية أرسطو، فإن جمهور مسرحية مأساوية يتعاطف مع الضحايا، ويشعر بآلامهم، يخوض تجربة التنفيس أو التطهر. وفي الحرب، الهدف من ذلك مماثل على الرغم من غموضه: لكسر العدو عاطفيًّا. ولا يوجد قائد يريد لرجاله القتال حتى آخر رجل، على الرغم من أن هذا يكون ضروريًّا في بعض الأحيان. حتى يكون منتصرًا، على أحد الأطراف يثبت هيمنته في المعركة، ويجبر العدو على التراجع أو الاستسلام.

عندما يكون الفشل حقيقيًّا، في الحرب كما في المسرح، فإن له عواقب وخيمة. بهذا المعنى، فإن الجانبين المتقاتلين ممثلون وجمهور في وقت واحد، ويتصادمون مع بعضهم، مثل الفرق المتنافسة. يجري عزل أحدهما؛ أحد الجمهورين، ليصبح الضحية في نهاية المطاف. وفي الحقيقة أنه عند نقطة معينة في كل المعارك يصبح أحد

الطرفين مقتنعًا بمصيره، ويفقد الإرادة في القتال، أو يصبح معاندًا ما يجعل من السهل هزيمته، عندما يخلي جنوده مواقعهم، أو يهربون، أو يقتلون. العنصر الوحيد المفقود هو التنفيس أو التطهر.

لعل من نافلة القول أن نشير إلى أن الإرهاب هو المسرح، ولكن هذا هو الحال إلى حد كبير. لقد كانت هجمات 11 سبتمبر/ أيلول عملًا مسرحيًّا متقنًا. في الحدث الفعلي، أصيب جمهور بالملايين بالذهول والارتباك، والصدمة، والرعب، كان العرض مميزًا بصفة خاصة؛ نظرًا لكفاءته على الرغم من الميزانية الصغيرة، وهذه دائمًا ما تكون السمة المميزة لأي فرقة مسرحية ناجحة. أثار الحدث ردود فعل شديدة، ففي تحليل لوكالة المخابرات المركزية، استطاع الإرهابيون ببضع مئات من آلاف الدولارات إحداث أثر مساوٍ، لأثر فيلم (**مشروع الساحرة بلير**). وكانت هجمات 11 سبتمبر/ أيلول أيضًا مميزة في قوة الصمود: مجموعة مفككة نوعًا ما، تنظيم القاعدة ألقت بكل ما كان لديها على الهدف، وأثبتت فاعليتها. التصفيق وطلب تكرار الحدث لم يكن مخططًا له في ذلك الوقت، مثلما هي النتائج الحتمية، فالعمل العسكري الواسع ضد الملاذات الآمنة، والعمليات شبه العسكرية القوية، جعلت الإعادة الحقيقية مستحيلة.

لسنوات عدة، لم تكن هناك حاجة لتكرار الأداء؛ لأن الإنتاج الأولي كان ناجحًا بامتياز، ولم يكن مطلوبًا من الجناة إظهار القدرة على التحمل، ولا الاستمرار في قرع طبول الهجوم. لقد شعر الجمهور بالرعب سنوات. المسرحية بكل مكوناتها هي التي فعلت ذلك، وليس استمرارية التهديدات الفعلية للحياة والحرية الأمريكية.

وهناك سمة أخرى مشتركة بين المسرح والعنف هي جودتها المتناهية: الطريقة التي يتم بها الأداء على حد سواء في المسرحيات وفي أعمال العنف، بعد أن تكون قد بدأت، يبدو أنها تصبح خارجة عن السيطرة. يمكن لأي شخص عمل في المسرح أن يعرف ذلك، ويمكن للأداء أن يبدو ساحرًا، فأنت تتمرّن على المسرحية أسابيع، وتغدو

ضجرًا ومتعبًا من حبكتها ونكاتها، ومعتادًا تمامًا على مفاجآتها، وعلى الرغم من ذلك تقف في ليلة الافتتاح مبهورًا من سماع ردود فعل الجمهور من البهجة والدهشة. وتغدو مفتونًا من السحر من جديد مع انطلاق المسرحية لأول مرة، وتصبح ما يفترض أن تكون: واقعًا مختلفًا.

عندما تأتي مثل هذه اللحظات، يصبح مخرج المسرحية خارج المشهد وعاجزًا؛ ومجرد مراقب من بعيد. الجهات الفاعلة وتفاعلاتها تصبح حقيقية، يقودها مصمم الحركات والألحان المتحكم في الوضع. وتبدو أجزاء المسرحية المرسومة كما لو أنها تتحرك من تلقاء نفسها.

يحدث الأمر نفسه مع الحملات العسكرية أو الثورات، أو تنفيذ العقوبات البدنية أو عملية الإعدام. يبدو أن أجهزة العنف في بعض الأحيان تتحرك من تلقاء نفسها، فالإجراءات والأحداث يمليها زخم التاريخ والنشاط البشري خارج نطاق سيطرة الأفراد. وضع تولستوي هذه الفكرة في رواية (**الحرب والسلام**) في نقاشه حول غزو نابليون لروسيا، حيث قال: إن تراجع الإمبراطور الفرنسي كان نتيجة لسلسلة لا نهائية تقريبًا من قرارات ليست صادرة عن الجنرالات، ولكن من قِبل الجنود في مراكز متواضعة أو حتى من الفلاحين أنفسهم. إنها فكرة عظيمة. إن نتيجة الحرب تبدو في كثير من الأحيان مصيرية أو لا مفر منها، ودور القادة يتضاءل.

لعل هذا مجرد وهم، ولكنه وهم يمكن أن يكون حقيقيًا. كنت في باكستان خلال العمليات العسكرية الرئيسة ضد طالبان في أواخر عام 2001م، وشعرت بشبح الحتمية هذا في الأيام الأولى من الحرب. كان الجميع يتدفقون: سيارات الشرطة مسرعة حتى الحدود الأفغانية، التي منها تدفق اللاجئون الجدد. أذكر قيادة السيارة من إسلام آباد إلى بيشاور. كان يومًا مخيفًا: كان الهواء مغبرًا والسماء سوداء، وضوء النهار مجرد خفوت شاحب على الأرض، كل الألوان في العالم استحالت إلى لون رمادي شاحب رقيق،

ولم يعد هناك لون سواه. أتذكر أننا سافرنا إلى بيشاور، ورأيت شبانًا أفغانًا - من الواضح أنهم طالبان سابقون - يتسكعون في محطة للحافلات، والشرطة الباكستانية تدفع الناس دفعًا. وكانت سيارات الشرطة وسيارات الجيب تمر مسرعة من وقت لآخر، وصفارات الإنذار تدوي. والجميع يبدون في حالة عصبية.

كان هناك شيء من السريالية في الأحداث الجارية في كل مكان حولنا. كانت هجمات 11 سبتمبر/ أيلول قد وقعت قبل أسابيع فقط، وصدرت تصريحات عن القادة، واتخذت قرارات، وتصريحات من رئيس الولايات المتحدة، وكانت الملايين من الناس في حالة من الجيشان، ويندفعون في كل مكان، فهنا تكمن المفارقة. من جهة، يمكن لحتمية الحرب، في بعض الحالات، أن تشير إلى أن الجانب التواصلي الأساسي موجود مع حرب وشيكة، تشعر بأن العنف الخالص على وشك أن يحدث، وأن الحوار لم يعد له وجود. على الجهة الأخرى، العنف بحد ذاته، في أوضاع معينة، يشكّل حوارًا، فعرض القوة يمكن أن يكون، بطريقة أو بأخرى اللغة التي تستخدمها الجماعات المتحاربة في التواصل مع بعضها: كانت المسيرات السوفييتية، والمناورات العسكرية، وحشد القوات البحرية، عرضًا للقوة المدفعية، حتى ضرب هيروشيما وناغازاكي بالقنابل الذرية، بمعنى من المعاني، كلها من أشكال التواصل، الرئيس هاري ترومان يبرق برسائل تقول: إن الدمار يمكن أن يستمر على قدم وساق طالما أرادت اليابان ذلك. فلماذا نخوض حربًا واسعة النطاق إذا كانت تلميحات عنيفة منفردة يمكن أن تفي بالغرض؟ لماذا ننهي الحرب بالاستنزاف عندما يمكن للفعاليات الاستعراضية أن تنبئ بالمستقبل؟

العنف التواصلي- الذي أطلق عليه زميلي سام ظريفي التفسير **الحركي** كان منذ مدة طويلة جزءًا من الحرب والدبلوماسية. الروايات التاريخية عن المعارك، من العصور القديمة وحتى الوقت الحاضر، مليئة بالأمثلة: القصف المدفعي كان يعني فقط الإبلاغ عن وجود جناح دفاعي، وقادة يتقدمون أو يتراجعون وفقًا للتصورات عن قوة العدو وقدراته، وليس عن واقع القوة. كان هذا بالضبط الهدف الرئيس للصدمة والرعب

في العراق، على الرغم من أنها كانت معيبة في التنفيذ، بمعنى أن الانتقادات المحمومة للمذهب لم تفهم بصورة جيدة. إذا ما وضعنا الأحداث الفعلية في العراق جانبًا، (فقد فُهمت الإستراتيجية العسكرية الأمريكية بالتأكيد خطأً)، فإن فكرة العنف المسرحي ليست مدعاة للانتقاد بطبيعتها: بضعة أسابيع جهنمية من العنف المسرحي جزئيًّا التي تؤدي إلى استسلام أفضل من عام من صراع عادي مطول.

لقد أوضح علماء الإنثروبولوجيا السوابق التاريخية للحرب المسرحية. في العهود السابقة، ساعد استخدام العروض المسرحية بين القبائل مثل يانومامي في منطقة الأمازون والماوري في بولينيزيا على منع أسوأ آثار الصراع الفعلي، فالرقصات التي صورت المعركة تجسد نظريات لورنز لعدوان الحيوان والخضوع. وفي الأيام الحديثة، المناورات العسكرية المقررة إستراتيجيًّا من كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية وحلفائهما يبدو أنها تحقق نالنتيجة نفسها. على الرغم من التوتر الناجم عنها، فإن العدوانية تتعزز، ويسمع صوت أسلاك التفجير؛ لذلك فإن هذه الاستعراضات الملحمية لها جانب تواصلي قد يسهم جزئيًّا في منع الصراع المباشر من الحدوث.

لكن الجانب التواصلي للحرب، مع ذلك، عمل خطير جدًّا، فسياسة حافة الهاوية الدعائية يمكن أن تأتي بنتائج عكسية في غاية السهولة، وتؤدي إلى الصراع، ويمكن القول: إن هذا ما حدث جزئيًّا في الأشهر التي سبقت الحرب العالمية الأولى: استعراضات ألمانيا، وصربيا، وروسيا أوجدت سلسلة لا يمكن السيطرة عليها من الأحداث العسكرية. انتهت الاتصالات، وتبع ذلك حرب شاملة: وجهت الأطراف المتحاربة انتباهها فقط نحو العمل الفعلي المنهك للعدو. هذا التصعيد في المواقف المؤدية للحرب أثار اهتمام الرئيس جون كيندي في أثناء أزمة الصواريخ الكوبية عام 1962م. كان كيندي قد قرأ جيدًا عن تاريخ الحرب العالمية الأولى، وأمر أعضاء حكومته بقراءة كتاب باربرا توكمان (**بنادق أغسطس**)، عن تاريخ بداية الحرب العالمية الأولى. رأى كيندي تشابهات بين الأزمة الكوبية وعام 1914م: الاحتمالات الرهيبة لأن تتحول الاستعراضات العسكرية

إلى حرب حقيقية، وتصرف وفقًا لذلك، مذكرًا مستشاريه بوزارة الدفاع الأمريكية أن الأعمال البحرية لحصار كوبا كانت لمنع الحرب، وليس لبدئها.

تقول قصة غير مؤكدة عن تلك الأحداث: إن مشادة كلامية وقعت بين الأدميرال جورج أندرسون ووزير دفاع كيندي، روبرت ماكنمارا، في ذروة الأزمة، فقد تفجرت مشادة كلامية صاخبة بين الرجلين نتيجة لسوء فهم حول قواعد الاشتباك، وتحديدًا في حال أطلقت القوات البحرية النار على السفن السوفييتية. يقال: إن الأدميرال أندرسون، الذي كان تحت تأثير الغضب مما اعتبره اهتمام البيت الأبيض بأقل التفاصيل خلال الحصار البحري، فطالب ماكنمارا بأن يتنحى جانبًا، ثم قال شيئًا مثل: «السيد الوزير، اسمحوا للبحرية أن تقوم بعملها، نحن نفرض الحصارات البحرية منذ أيام جون بول جونز (أول قائد للبحرية الأمريكية في حرب الاستقلال عن بريطانيا)» عندها فقد ماكنمارا أعصابه ورد بقوله: إن أندرسون لم يفهم ما كان يقوم به الرئيس كيندي. كلماته الحقيقية لم توثّق للأجيال القادمة، لكن أعيد تصوير اللحظة في فيلم (**ثلاثة عشر يومًا**) وفيها يصرخ ماكنمارا قائلًا: «جون بول جونز، أنت لا تفهم شيئًا، أليس كذلك يا أدميرال؟ هذا ليس حصارًا! هذه **لغة** تخاطب»- مشيرًا إلى المخططات التي تظهر السفن السوفييتية والأمريكية «مفردات جديدة، لم يرَ العالم مثلها من قبل أبدًا! هذا هو الرئيس كيندي يتواصل مع الرئيس خروتشوف».

لكن الشيء المربك عن الاستعراضات الحربية المسرحية، مع ذلك، هو أنها يمكن أن تتداخل مع الجانب الحديث من (العلاقات العامة) أو الدعاية الحربية، على نحو أدق، جانب البروباغندا الذي يهدف منه العسكر تحطيم معنويات العدو. كلما فكرت في البروباغندا، أتذكر أمسية قضيتها في متابعة محطة الـ بي بي سي على القنوات الفضائية مع زميلي سام في كابول في غرفة معيشة حقيرة عام 2004م. لا أذكر الموضوع المحدد، ولكن كان البرنامج حول كوريا الشمالية، و ظهرت فيه ترجمة للقطات طويلة من فيلم دعائي كوري شمالي. أظهر المونتاج مشاهد للتهديد بالحرب: الجنود يزحفون

والدبابات تتحرك، والصواريخ تنطلق. عند نقطة ما، أظهر شريط الفيديو رجلًا يحطم كتلة من الخرسانة فوق رأسه. ثم انتقلت الكاميرا إلى صالة كاملة للألعاب الرياضية، وكان كل من فيها من الرجال يلتقطون كتلًا من الخرسانة، ويكسرونها فوق رؤوسهم. ثم شاهدنا بعد ذلك خيّالة ينطلقون إلى الأمام، والحراب مثبتة في رؤوس البنادق، وصيحات، وما يمكن أن يوصف بأنه إطلاق زخّات صواريخ، ووابل هائل من القذائف وآلاف الدبابات والسيارات المدرعة تتسابق إلى الأمام، نحونا، الجبهة. كوريا الجنوبية. في كل الأحوال، كان الفيلم مرعبًا، وفي نهاية الفيلم بقيت أفواهنا فاغرة.

قال سام معلقًا: «لقد تفوّقوا علينا تمامًا»، وأضاف: «عليك أن تعترف لهم بذلك. كانت هذه دعاية مؤثرة حقًّا». وافقته الرأي. كان -ذلك مؤثرًا لحظة. وفي هذا الصدد، كان له تأثير أكثر بكثير من تأثير جهود سينمائية مماثلة من قِبل الجماعات الإرهابية. على مر السنين، كنت قد شاهدت عددًا كبيرًا من أفلام الفيديو عن التجنيد في القاعدة وطالبان حتى أشرطة قطع الرؤوس، على الرغم من أن بعضها كان شنيعًا. عدد قليل منها كان مؤثرًا من حيث إخافة المشاهد. كان بعضها مجرد سخافة: شباب يركض مع البنادق، ويقفز فوق الإطارات. فيديو كوريا الشمالية، على النقيض من ذلك، كان أكثر تعقيدًا، وعرض صورًا للعنف من نوع أكثر فاعلية، وهو فيلم دعائي كان المقصود منه العنف لتخويف المشاهد.

بطبيعة الحال كان دعاية فقط، ومع أن الجيش الكوري الشمالي حقيقة قائمة، إلا أن التهديد بحشده للقتال كان كاذبًا في كثير من النواحي، لكن المحاولة كانت فاعلة. التجربة جعلتني أدرك أنه في نهاية المطاف كل الجماعات العنيفة، من الجيوش إلى قوات الشرطة إلى الإرهابيين، يعيشون حياة مزدوجة. فمن ناحية، الكيانات العنيفة تستعد للعنف الحقيقي، ومن ناحية أخرى، فإنهم يعتمدون على الخوف الذي يزرعه استعدادهم في نفوس أعدائهم أو معارضيهم. إن أي قوة عسكرية أو شرطية، سواء كان ذلك الإسكندر ونابليون وستالين، وهتلر، أو مجرد عمدة المدينة ومعه قوات شرطة، لا

يمكنه أن ينجح أبدًا في إخضاع التهديدات الحقيقية والمحتملة عن طريق العنف وحده. الخوف مطلوب أيضًا. ومطلوب **دائمًا**. لا توجد قوة مهما كانت قوية، تستطيع أن تمارس فعل العنف ضد كل مواطن وكل عدو، لو أن هؤلاء المواطنين أو الأعداء أنفسهم ظلوا غير خائفين. عروض القوة والعنف، في نهاية المطاف، هي **عروض**؛ إنها صورة خدعة جزئيًّا. ولكنها بطبيعة الحال مؤثرة بصفتها خدعة، تترك معظم الناس خائفين. من دون شك، الأفراد وحدهم لا يستطيعون كشف زيف الخدعة، التي يمكن أن تنكشف فقط إذا ما اتفق الجميع في وقت واحد على أنها كذلك.

هذه النقاط حقيقية بالنسبة إلى الحرب، وكذلك بالنسبة إلى الحياة المدنية – القانون والنظام. التهديد باستخدام القوة من جانب الشرطة والمدعين العامين والقضاة وهيئات المحلفين، والسجون هي أيضًا جزئيًّا مجرد خدعة. في الواقع، إن عدد السكان المدنيين في أي بلد معين يزيد أضعافًا على الشرطة، وبنسب عالية، فعندما يقرر السكان الشغب، مرة واحدة، فإن من الصعب جدًّا وقفهم. ما يمنعهم من الفعل في المقام الأول– هو ما يعطي الدولة سيادة لا جدال فيها، هو ما يسمى احتكار القوة – هو اعتقاد المواطنين في قدرة السلطات على البقاء في السلطة: تصورهم أن الشرطة ستقف، وتقبض على هؤلاء الذين بدؤوا انتهاك القانون.

فقدان الخوف – كشف الخدعة – يجعل الكفة تميل إلى الفوضى أو الثورة، فعندما انهار النظام في العراق، كان فقدان الخوف جزءًا من السبب. ولكن الخط الفاصل بين الخدعة والثورة خط غامض وغير مرئي، وهو خط رفيع موجود بين النظام والفوضى، بل هو فرق غامض تقريبًا. لقد شهدت التوتر القائم في هذا الخط. لقد رأيت الفوضى من سوء الحكم في الأراضي الوعرة في منطقة البلقان وشمال إفريقيا، وجنوب الفلبين، والهند. لقد رأيت الحشود في باكستان على حافة العنف الغوغائي، وكانت الشرطة تتراجع، ثم يستعيدون السيطرة. لقد رأيت الحشود يجري صدهم بالهراوات والغاز

المسيل للدموع، والفوضى العنيفة يجري تجنبها بالعنف المحتوى، فالوقوف على ذلك الخط هو تجربة مدهشة.

في الولايات المتحدة، ربما نفكر في التمييز بين العنف والفوضى في سياق حالات الطوارئ المدنية، مثل إعصار كاترينا عام 2005م أو انقطاع التيار الكهربائي الذي ضرب الساحل الشرقي بأكمله من الولايات المتحدة في أغسطس/ آب 2003م. فمن السهل للسكان ممارسة الفوضى إذا تهيأت الظروف لذلك. إن انقطاع الكهرباء في أغسطس/ آب 2003م هو مثال صارخ على ذلك، فقد وقع في الوقت نفسه الذي كان فيه الوضع في العراق يخرج عن نطاق السيطرة. كنت في الولايات المتحدة في ذلك الوقت، بعد أن عدت أخيرًا من جنوب آسيا. عندما انقطعت الكهرباء ركبت القطار من واشنطن إلى نيويورك. انتهى بي الأمر مع الذين تقطعت بهم السبل في ضواحي نيوآرك بولاية نيو جيرسي. أول شيء اختفى، قبل انقطاع الكهرباء، كان الإشارات. تباطأ القطار، ثم توقف، الأرجح أن الإشارات جميعها تحولت إلى حمراء، بعدما تحولت إلى طاقة البطارية. ثم، بعد حين، انقطع تكييف الهواء، ثم الأضواء العلوية، وساد صمت مفاجئ.

أتذكر أنني أخذت أفكر: **كيف ستكون النهاية؟ تمامًا مثل هذا. الضجيج الأبيض سوف يتوقف، وسوف يعم الهدوء بعض الوقت. وبعد ذلك سوف يبدأ الجنون.** شاحنة ديزل صغيرة سحبتنا بضع مئات من الياردات إلى محطة نيوآرك. ساعدت امرأة مسنة بسحب حقيبتها حتى المصعد المتوقف، ثم أجلستها في غرفة الانتظار. عبثت بهاتفي الخلوي بعض الوقت، لكن لم تكن هناك شبكات متاحة. الشائعات انتشرت بين الناس عن انقطاع التيار الكهربائي من بوسطن إلى فيلادلفيا. خرجت من المحطة، وبدأت المشي، وسرعان ما وجدت نفسي في شوارع شمال نيوآرك.

أول شيء لاحظته أن الجميع كان يشرب الكحول، كان الناس في الشوارع وسيارات الشرطة تسير بسرعة في كل الاتجاهات، وكانت الأجواء توحي بأن الفوضى قادمة.

وقفت مجموعات من الرجال والفتيان في زوايا الشوارع، وآخرون يتسكعون، العيون تنظر في اتجاهات مختلفة. أصحاب المخازن أنزلوا أغطية الأبواب بعصبية، ووضعوا الأقفال على الأبواب والبوابات. باعني رجل في محل للساندويتشات شايًا مثلجًا. ولكسر جو الصمت، راح يتطلع إلي صعودًا وهبوطًا من رأسي حتى أخمص قدمي، فقد لاحظ بذلتي الداكنة وربطة عنقي، وسألني: من أين أنا؟ وإلى أين كنت ذاهبًا؟ تحدثنا قليلًا، فسألته: ما الطريق المؤدي إلى الشمال، نحو هوبوكين، فلربما تكون هناك سيارات إلى مانهاتن، كما اعتقدت؟ «نعم، عليك أن تغادر» قال لي، وحدّق في حذائي المصقول. وقال: «عندما تغرب الشمس، سوف يسوء الوضع». بعد الظهر، أخذت الشمس تميل إلى الغروب بقرصها،البرتقالي الساخن، فتذكّرت سطرًا من قصيدة ألاس ستيفنز (صباح يوم أحد): «**نحن نعيش في فوضى الشمس الأزلية**».

واصلت السير متجهًا للشمال، وبدأت التفكير في العراق وأفغانستان، حيث تنقطع الكهرباء إلى حد كبير كل يوم، ففكرت في تفجير مقر الأمم المتحدة في بغداد، الذي وقع قبل بضعة أسابيع، والعنف خارج نطاق السيطرة. كانت المقارنات مستحيلة، ولكن لا مفر منها. نعم، في العراق يحدث انقطاع التيار الكهربائي كل يوم، وكان الوضع أسوأ في أفغانستان. مناطق كثيرة لم يكن فيها كهرباء لتنقطع، كانت فكرة المقارنة الرئيسة هي الأمن، وكانت الولايات المتحدة تعتمد على الكهرباء، وعدم وجود ذلك قد يتسبب في حالة من الفوضى، ففكرت في جميع مدن الولايات المتحدة التي انقطعت عنها الكهرباء في ذلك اليوم، وقوات الشرطة المشتركة في مختلف المدن والولايات. في المجموع، حُشد مئات الآلاف من الشرطة؛ لضمان عدم خروج الأحداث عن السيطرة. الحرس الوطني، والحكومة الاتحادية، ونصف مليون من قوات الأمن، إن لم يكن أكثر، سيادة لا جدال فيها للأمة. رأيت سيارة إسعاف مسرعة، تتبعها سيارة للشرطة. «هذه خدعة»، قلت لنفسي. **ما زلنا نفوقهم عددًا. يمكننا أن ننهب إذا أردنا**، ولكن بكل هذه القوات الكثيرة، فهي خدعة فاعلة، فربما سوف يحدث نهب قليل اليوم، كنت أعتقد.

وفي الوقت نفسه، في العراق أُطيح بالحكومة، وحل محلها نحو مئة ألف من قوات التحالف، معظمهم في أدوار الدعم. فقط عدد قليل من تلك القوات قد تقوم بأعمال الدوريات- نحو 25 ألفًا، وهم لا يتكلمون العربية، اعتقدت. هذه ليست خدعة، مع أرقام من هذا القبيل، لا يمكنك حتى محاولة الخداع. الخدعة سوف تنكشف، وهذا ما كان.

العراق تدمّر، فكرت وأنا أغذ الخطى. تركيز الجيش المنصب على إظهار الهيمنة الأساسية على أرض المعركة - عقيدة الصدمة والرعب - غيّب الحاجة الأساسية لمشروع وجود شرطة ضد الفوضى. تذكرت كلمات سام: «لا خطة».

أخذ الظلام يعم المكان، حاولت استخدام هاتفي الخلوي مرة أخرى. إنه يعمل. هاتفت الشخص الوحيد الذي أعرفه في هوبوكين؛ عمار ديب سينغ، عمار، كما يناديه الجميع. عملنا معًا في هيومان رايتس ووتش، فوافق عمار على أخذي بسيارته إلى العبارة. بعد ساعة كنا في شوارع مدينة جيرسي - لا إشارات مرور تعمل، متجهين نحو هدسون. عمار من السيخ، لكنه لم يكن يرتدي عمامته كاملة، ربط شعره بالمنديل. كان يجلس باستقامة تمامًا وإلى الأمام في مقعد السائق، وهو ينظر يمينًا ويسارًا؛ لتجنب الحوادث. بدا أنه قلق من حالة الفوضى، وعند التقاطعات انحرفت سيارتان تجاه بعضهما، فانطلقت الأبواق، فقد كانت على وشك الاصطدام.

قال عمار: «هذا جنون!»، وعبرنا نهر هدسون إلى مانهاتن. كان خط أفق المدينة مظلمًا، واشتعلت نيران عدّة في المباني شاهقة الارتفاع. كان المشهد مروعًا، مثل بداية فيلم (**الهروب من نيويورك**). وبينما كنت أنزل بالقرب من موقع مركز التجارة العالمي المدمّر، رأيت رجل أعمال في حالة سكر نائمًا على عشب الحديقة، والركاب الذين قدموا عالقين في المدينة، ومديرو التموينات يقيمون حفلات الشواء المرتجلة؛ للاستفادة من اللحوم المعلبة قبل فسادها، والناس يرقصون في الشوارع. وكان هوبز ضباط الشرطة يتكئون على سياراتهم، ويدردشون مع السياح الألمان.

الفصل السادس

تعريف العنف

في مراحل عدّة بعد عام 2001م، وخاصة في السنوات الأولى، بدا وكأن العالم كان يئن من وطأة الغدر اللغوي. كان عصر لغة فضفاضة. تصرفت الكلمات كرصاص خفي أطلق في انفجارات الصيغ. كلمة **الحرية**، على سبيل المثال، بُشِّرَ بها في أعقاب هجمات 11 سبتمبر/ أيلول. كنا نقاتل من أجلها في حرب الإرهاب ضد الحرية، وتكدّس الأعداء في (معسكرات) و(كهوف) وتجمعوا في (مجمعات سكنية) كانت النساء الأفغانيات (محجبات)؛ وكذلك كانت أرواحهن، وتعليمهن، وقوّتهن، وخياراتهن وحريتهن. المقالات الصحفية حملت عناوين، **وراء الحجاب، تحت الحجاب، ما وراء الحجاب**[1]. النساء والفتيات الأفغانيات غالبًا ما يملكن عيونًا (شرسة) أو (أخاذة)[2]. قيل: إن الحياة أصبحت أفضل منها في عهد طالبان، على الرغم من أن المقياس يفتقر إلى القيمة. نظريًّا، كان هذا مثل قولنا: إن حياة اللاجئين أصبحت أفضل مما كانت عليه قبل اللجوء. السخافة تبدو أحيانًا في الغالب غير واعية، لكنها في أحيان أخرى ليست كذلك. وعام 2003م أصدر البيت الأبيض وثيقة بعنوان (**الإستراتيجية الوطنية لمكافحة الإرهاب**).

في مقدمة تلك الوثيقة فقرة تصف هجمات 11 سبتمبر/ أيلول بأنها أعمال حرب، ولاحظت أن «الحرية والخوف باتا في حالة حرب. العدو، مع سبق الإصرار، هو الإرهاب

– العنف بدوافع سياسية»[3] العنف هو العدو. ووصفت الوثيقة معركة (ضد قوى الفوضى والعنف) بأنها حرب ضد العنف.

بطبيعة الحال كان هناك هراء قبل سبتمبر/ أيلول 2001 مصوّره جوزيف هيلر في روايته الشهيرة (كاتش- 22). كان لدينا مسلسلات وبرامج هزلية ومسرحيات تمتد حتى عهد المسرحي الإغريقي أرسطوفانيس. كانت اللغة الفضفاضة والأفكار الغامضة هي السمة المميزة للدعاية خلال الحرب العالمية الأولى- الصراع الذي وصفه ذات مرة الكاتب ستيفن أوشي باسم (أم كل الهراء) مناسبة لملايين من الأكاذيب «نسجها عمدًا العسكر والحكومات وصحافتها، أو الحالمون الكسالى في خنادقهم»[4].

لقد ظلت العسكريتاريا الأرض الخصبة للتلاعب باللغة، ويبدو أن وزارة الدفاع الأمريكية منجذبة إليها، وقد فضحت أعمال فرانسيس فورد كوبولا وستانلي كوبريك السينمائية الرائعة عن حرب فيتنام الخداع اللفظي الذي استمر دون توقف حتى 10 سبتمبر/ أيلول؛ أي قبل 24 ساعة من الهجوم على مركز التجارة العالمي، عندما ألقى وزير الدفاع دونالد رامسفيلد خطابًا رئيسًا عن أخطار البيروقراطية المفرطة، ودعا إلى (حرب ضد البيروقراطية). وقال رامسفيلد في خطابه الناري عن (العدو):

الموضوع اليوم هو عدو يشكل خطرًا وتهديدًا خطيرًا لأمن الولايات المتحدة الأمريكية. هذا الخصم يبذل محاولات لفرض مطالبه عبر المناطق الزمنية، والقارات والمحيطات وخارجها، بإصرار وحشي، يكتم الفكر الحر، ويسحق الأفكار الجديدة. إنه يعطل الدفاع في الولايات المتحدة ويعرّض حياة الرجال والنساء الذين يرتدون الزي العسكري للخطر... إنه يهدد أمن الولايات المتحدة الأمريكية، إنها مسألة حياة أو موت؛ لذلك نحن اليوم نعلن الحرب على البيروقراطية[5].

أول الأسئلة التي سألها الصحفيون للقادة السياسيين والعسكريين في اليوم اللاحق بعد الهجمات كان: «هل تَعدّون الهجمات أعمال حرب؟»[6] أن نصف هذا السؤال بأنه

افتراض كاذب غير مبرر، فهذا بخس له، فقد كان يتردد طوال تسعة أشهر، وكان على القادة السياسيين الإجابة بـ (نعم) أو أنهم يخاطرون بأن يظهروا أنهم جبناء. لقد كانت لحظة الحقيقة. سبتمبر/ أيلول. نعم، قال الزعماء: حرب. حرب حقيقية. اختطاف طائرات مدنية وصدمها بمبانٍ شكلت الحرب، وبعد خطاب الرئيس بوش الموجه إلى الأمة يوم 13 سبتمبر/ أيلول، أعلن (الحرب على الإرهاب)، ولم يكتفِ بهلام اللغة، ولكن يوجد أيضًا تحوير للمعنى، وأصبح من الصعب تحليل المجازي من الحرفي. كانت اللغة فعلًا حقيقية ووهمية في الوقت نفسه؛ في بعض النواحي حرفية، وفي حالات أخرى غير ذلك. الحرب ضد أفغانستان ضد الدول التي تؤوي الجماعات الإرهابية. هناك نوع جديد من الحرب. ساحات قتال جديدة. القنابل تسقط على بلخ وقندهار، ولكن سيحدث أيضًا تسليم للمتهمين لدول أخرى من أجل التحقيق، والتنقيب عن البيانات، والحرب الإلكترونية. وسوف تسمى الجهود التي تبذلها جماعات حقوق الإنسان فيما بعد ضد الانتهاكات (الحرب القانونية).

كذلك قدمت الحرب على العراق أيضًا مفارقة بجرعات عالية. قبل بدء النزاع، تحدث الرئيس بوش عن أخطار (تتجمع) وخطر «يقترب أكثر فأكثر»[7] وقدم تقريره الشهير للكيل بمكيالين بأن «الولايات المتحدة الأمريكية لن تسمح للأنظمة الأكثر خطورة في العالم بتهديدنا بالسلاح الأكثر تدميرًا في العالم»[8] وفي وقت لاحق، عندما ساءت الأمور في العراق، سمعنا عن جهود «لمعالجة التحديات الإستراتيجية»[9] وقد تم اختيار الكلمات التي جعلت مفهوم المساءلة يبدو مستحيلًا، كلمات مثل «**اللا مفر منه**، **والمؤسف**، وغير **المتوقع**»[10] لم يكن ذلك بكل تأكيد كلامًا مواربًا مخادعًا، وهو الخطر الذي حذر منه جورج أورويل. بدلًا من ذلك، كان رذاذًا متواصلًا من الإسهاب الذي لا طائل منه والبلاغة المبالغ فيها أو غير المنطقية، مع جرعات خفيفة فقط من هراء صريح. إنه يلسع، ولكن دون ألم، أو غير مؤلم تقريبًا. إنه يخدّر، ويتركك ضبابيًّا، مشوشًا.

في العادة كان يجري تجنّب الوضوح التام، فلم يكن هناك عدم مصداقية بشكلها الصارخ، فنظام صدام حسين في العراق كان (يبحث بنشاط) عن الأسلحة النووية [11] كانت لدى صدام (نيات) ذهنية يصعب التحقق منها على الرغم من نفي العراق امتلاك أسلحة دمار شامل[12]، الحرب لم تذكر صراحة كإنذار. بدلًا من ذلك كانت هناك بيانات مفتوحة كان من المستحيل أن نختلف معها: «نحن لا نريد لدليل دامغ أن يكون سحابة فطر»[13]، لا، في الواقع، لم نفعل ذلك. في خطاب حالة الاتحاد في يناير/ كانون الثاني 2003م، جزم الرئيس بوش:

أدلة من مصادر استخباراتية واتصالات سرية، وبيانات من أشخاص رهن الاعتقال حاليًّا تكشف عن أن صدام حسين يساعد الإرهابيين ويحميهم، بما في ذلك أعضاء من تنظيم القاعدة. سرًّا، ودون أن يترك دليلًا، يمكنه أن يوفر واحدة من أسلحته الخفية للإرهابيين، أو مساعدتهم على تطويرها من تلقاء أنفسهم. قبل 11 سبتمبر/ أيلول، كثيرون في العالم اعتقدوا أن صدام حسين من يمكن احتواؤه، لكن العناصر الكيميائية والفيروسات القاتلة والشبكات الإرهابية الغامضة لا يمكن احتواؤها بسهولة.

تخيل هؤلاء التسعة عشر من الخاطفين ومعهم أسلحة وخطط أخرى - وهذه المرة يكون صدام حسين هو الذي سلَّحهم. إن الأمر سيتطلب قارورة واحدة، علبة واحدة، صندوقًا واحدًا ينزلق في هذا البلد ليجلب يومًا مشهودًا من الرعب الذي لم نرَ له مثيلًا من قبل[14].

ليس فقط (مصادر استخباراتية) ولكن أيضًا (اتصالات سرية). من يستطيع أن ينكر أن «الشبكات الإرهابية السرية لا يتم احتواؤها بسهولة»؟ أو أن «الأشخاص رهن الاعتقال» كانوا عملاء مزدوجين؟ في الواقع، إن المعلومات التي جرى تقديمها في معظمها ذات طبيعة مشكوك فيها. الإشارة إلى معلومات استخباراتية من المعتقلين، على سبيل المثال، كانت معلومات عن شخص واحد، رجل يدعى علي محمد الفاخري،

المعروف أيضًا باسم ابن الشيخ الليبي، الذي كان قد اعتقل في أفغانستان، وسلّمته وكالة المخابرات الأمريكية إلى مصر في أواخر عام 2001م، حيث تعرض للتعذيب في القاهرة بإشراف الولايات المتحدة. علمت الكثير عن هذه الحالة من خلال عملي مع منظمة هيومان رايتس ووتش. وعام 2003 وضع الليبي في منشأة سرية لوكالة المخابرات المركزية في غوانتانامو، ثم إلى مركز للوكالة في أوروبا. كشفت تقارير الكونغرس في وقت لاحق والوثائق الحكومية الأخرى أنه في أثناء استجوابه في مصر عام 2002م، كان قد ذكر في الواقع أن أعضاء من تنظيم القاعدة قد ذهبوا إلى العراق، وتلقوا تدريبًا على استخدام الأسلحة البيولوجية والكيميائية.

وهذا لم يكن صحيحًا، كما اعترفت وكالة المخابرات المركزية في وقت لاحق. وأكد تقرير للجنة المخابرات الخاصة بمجلس الشيوخ أن تصريحات الليبي عام 2002م كانت ملفقة وبلا مصداقية، وكانت وكالة المخابرات المركزية ووكالة استخبارات الدفاع قد أعربتا عن شكهما فيها»[15] والليبي نفسه لم يكن عضوًا في تنظيم القاعدة، وكان يعدُّ في نهاية المطاف غير مهم، لدرجة أنه نُقِل إلى الحجز الليبي عام 2006م. وعام 2007م حاولت أنا وزملائي أن نقنع سيف الإسلام القذافي، ابن الزعيم الليبي معمر القذافي، بالسماح لنا بالسفر إلى طرابلس لزيارة الليبي وغيره من المحتجزين. وإضافة إلى انتهاكات حقوق الإنسان التي كان قد تعرض لها، كان الليبي شخصية محورية في منعطف مهم في تاريخ العالم، وسنحت الفرصة لزملائي أخيرًا بإجراء مقابلة معه عام 2009م، ولكن على الرغم من أنه جلس معهم، واستمع لهم، وهم يعرّفون بأنفسهم، إلا أنه سرعان ما نهض واقفًا، ورفض إجراء المقابلة معه، قائلًا: «أين كنتم عندما تعرضت للتعذيب في غوانتانامو؟» فأخذه الحراس بعيدًا.

بعد أسابيع قليلة من هذه الحادثة، أعلنت السلطات الليبية أنه قد مات – أنه قتل نفسه. بعد سقوط القذافي، قابلت هيومان رايتس ووتش أسرة الليبي (الذين كانوا قد زاروه في السجن)، إضافة إلى السجناء الآخرين الذين اعتقلوا معه وكل منهم قال: إنه

من غير المعقول أنه انتحر؛ نظرًا لأنه كان (شديد التدين) وأنه كان قد عاش بالفعل مدة طويلة في الاعتقال[16].

ومن المستحيل أن نبالغ في الأهمية التاريخية لقصة الليبي ودلالتها، فالمعلومات التي تم الحصول عليها منه عن وجود صلة مفترضة بين تنظيم القاعدة والنظام العراقي استخدمها الرئيس بوش بالتحديد، ليس فقط في خطابه عام 2003م، ولكن في كلمة ألقاها في أواخر عام 2002م. وزير الخارجية كولن باول أيضًا استخدم المعلومات الواردة في عرضه الشهير حول العراق أمام الأمم المتحدة قبل بضعة أسابيع من الحرب[17].

وفي وقت قريب من خطاب باول، وصلت الكذبة إلى ذروتها. قال الرئيس بوش يوم 17 مارس/ آذار 2003م: «إن النظام العراقي لا يزال يمتلك، ويخفي بعض الأسلحة الفتاكة» وبمساعدة العراق «يمكن للإرهابيين تحقيق طموحاتهم المعلنة، وقتل الآلاف أو مئات الآلاف من الناس الأبرياء في بلادنا، أو أي شيء آخر»[18].

الأدلة التي ظهرت في وقت لاحق أثبتت أنه من المستحيل تغطية هذا الخداع، فأصبح واضحًا في جلسات الاستماع في الكونغرس أن مسؤولي إدارة بوش تلاعبوا بالمعلومات، وجرى الاستفادة مما يعرفونه. كان هذا فضيحة للمخابرات كما ثبتت عندما قدموا أدلة على برامج العراق التسليحية وروابط العراق المزعومة مع تنظيم القاعدة. وبحلول عام 2005م، مع نشر الوثيقة البريطانية المسمّاة مذكرة داوننغ ستريت، التي احتوت على تسجيلات لوزراء الحكومة قبل الحرب البريطانية نقلًا عن تقارير استخباراتية بريطانية ثبت بشكل لا لبس فيه أن إدارة بوش لم تهتم بما ذكرته تقارير المخابرات بشأن العراق، ولم تكن لديها النية للسماح للدبلوماسية أو للأمم المتحدة بأن تُمارس دورًا في الأزمة. تلك كانت الحقيقة التي لا تقبل الإنكار[19]، لكن في عصر لي أعناق الحقائق، لا أحد يبدو أنه يهتم كثيرًا، فكثير من الصحفيين والسياسيين فشلوا في أن يقولوا بوضوح ما الذي جرى: إنهم قد كُذب عليهم، فالصحفيون أشاروا إلى المعلومات الكاذبة بأنه

«ادعاء متنصل منه الآن» أو «تأكيدات غير معتمدة من قبل وكالة المخابرات المركزية» وكان التركيز على توصيفات مثل **معيبة، وخاطئة، ومستبعدة، وفقدت مصداقيتها، والمتنازع عليها، والملوثة، والمشتبه بها، وقابلة للتساؤل، ومشكوك فيها**، فهي التي جعلت من المعلومات الاستخباراتية الخاطئة هي الجاني، وليس أولئك الذين اختلقوها أو استخدموها، وهم يعلمون أنها كانت مزيفة[20]، وكان هناك استخدام قليل لكلمة لاذعة، مثل **كذب** أو **خداع**، بدلًا من ذلك سمعنا كلمة مصداقية[21] وأحيانًا ذكرت **الأكاذيب**، ولكن في كثير من الأحيان كانت **الأخطاء، وأوجه القصور، والتشوهات، والشكوك والهفوات** من الكلمات المفضلة **للرئيس بوش**[22] كانت العبارات الملطفة من الحزبين الجمهوري والديمقراطي. السناتور جوزيف بايدن آنذاك، عندما سئل عما إذا كان بوش قد كذب، كان يكتفي بالقول : «لقد لُفِّقت له»[23] وتحدث السناتور كارل ليفين عن «قرار مقلق للغاية لإيجاد انطباع زائف حول خطورة حدوث الخطر وقربه الذي يمثله العراق لأمريكا[24].

قال السناتور جاي روكفلر عن تصريحات بوش: «يحتمل أن تكون مضللة»[25]، وقال السناتور ريتشارد لوغار: إن «الافتراضات الأساسية. كانت غير كافية قبل كل شيء»[26] نعم، هكذا.

وشجعت فوضى ما بعد الحرب في العراق على لغة فضفاضة، وقد سمعنا عن (مخاض) الديمقراطية[27] هذا التراخي امتد لوصف الوضع المتدهور في أفغانستان كذلك. أنا وزملائي، زرنا المسؤولين في البنتاغون ومجلس الأمن القومي للحديث عن القضايا الأفغانية؛ على الرغم من أن بعض المسؤولين كانوا متعقلين بما فيه الكفاية، في حين تحدث آخرون بعبارات لا معنى لها حول (إستراتيجيات التنمية الأمنية) أو تحدثوا لنا، بنعومة، بلهجة متعاطفة يستخدمها المرء مع الأطفال، عن أن التطورات الرئيسة لا يمكن أن تتم «بين عشية وضحاها».

وعام 2007م نشر الموقع مكسويني إنترنت تندنسي مشاركة بعنوان (كليشيه حرب العراق أو التلطيفية الجديدة من أجل ارتكاب حماقة)! بقلم كيفن غريفيش، جاء فيها:

إعطاء التمرد وقتًا لينجح، وانتهاج إستراتيجية للخروج،

وتحديد جدول زمني للانسحاب للكر والفر لنشر الديمقراطية[28].

وفي نهاية المطاف انتشرت الرخاوة في كل مكان، وكل سنة في أفغانستان والعراق كانت (حاسمة)، حتى أصبح لدينا عقد كامل من اللحظات الحاسمة، وكلها مرت مع بعض التحسينات، وعادة ما تكون مجرد جمود أو تدهور تدريجي[29].

وفّرت فضائح تعذيب السي آي أيه وفضائح سجن أبو غريب مفردات فضفاضة أيضًا، عبارات مثل: **تعزيز الاستجواب وإدارة النوم** كانت العبارات الملطفة لحبس الناس في صناديق صغيرة أو ربطهم بالجدران، وإبقائهم دون نوم من خلال إرغامهم على الوقوف أو تعريضهم لدرجات حرارة باردة، وبالصوت العالي للموسيقا والأضواء الساطعة[30].كان (إغراق الرأس بالماء) -إغراقًا عمدًا لقتل أي شخص تقريبًا. الكلمات غالبًا ما تحجب الأفعال الأساسية. قال مسؤول عسكري لزملائي في هيومان رايتس ووتش عام 2003م: إنه لا يريد لموظفيه (عبور الخط)، لكنه يريد منهم (الالتزام بقوانين التعذيب) الصحفيون أربكوا أنفسهم عند استخدام كلمة **تعذيب**. في الحرب العالمية الثانية، كانت قوات الحلفاء والمحور تستخدمان أيضًا عبارات ملطفة للتعذيب، ولكن لم يحدث ذلك بمثل هذه الشمولية.

ومع جهود مكافحة التمرد في كل من العراق وأفغانستان، تحدث مسؤولون عسكريون عن (عمليات المطاردة)، (الفرص الحركية)، وفيما بعد، (مفترق الطرق)[31] في وقت لاحق ذكروا «الزيادات في قدرة المخابرات على التصرف واتخاذ الإجراءات»، و«المقاييس»، و«اتخاذ القرارات الموجهة نحو تحقيق النتائج» و«عقيدة مكافحة التمرد»، أو «كُويْن COIN»[32] مكتبة كاملة من المؤلفات الأكاديمية تفجرت حول هذا المصطلح،

بعضها مُعادٌ تدويره من عهد الاستعمار البريطاني، والأفكار اختزلت إلى كلمات يسهل تذكّرها، مثل «clear، hold and build أي نظّف المنطقة من المتمردين، وتمسّك بالأرض إلى حين وصول المساعدة، واجمع المعلومات، واحصل على دعم السكان»[33] وعام 2011م، تحدثت هيلاري كلينتون عن «fight، talk ، build؛ أي حارب، وحاور، وابنِ»[34] وسمعنا عن «بيئات غير متسامحة» وعن «إعادة مراجعة إستراتيجية» دورية، و«الأدوات في صندوق الأدوات، و«الجهود الرامية إلى المصالحة القبلية» واختبارات مكافحة التمرد، و«حكومة جاهزة»، وكلها إعادة قولبة غير واعية للحكم الاستعماري[35]. سُمع من أحد زملائي في كابول عبارة «تتحرك بسرعة على قدر أهميتها». وعام 2008م، لسبب ما بدأ الناس يقولون: «الدم والمال» في كل وقت[36]، وتحدث مسؤولون عن (تمكين) الميليشيات القبلية في أفغانستان؛ أي إعطاء المال لأمراء الحرب أو العصابات، وهي الفكرة التي جُرّبت أكثر من عشر سنوات، ثم أُلغيت، ثم جُرّبت مرة أخرى ليتم التخلي عنها مرة أخرى، وأعيدت مرة أخرى عام 2010م تحت عنوان برنامج (الشرطة المحلية الأفغانية)[37]. أخبرونا في إحدى السنوات أن مفتاح التمرد الأفغاني، كان وادي كورانجال[38] وفي سنة أخرى: إنه بلدة مرجه[39] ببساطة لم يكن لديهم وعي ذاتي إلى أي مدى بدا كل ذلك غير مقنع.

سمعنا عن جهود (غير حركية) عندما أصدر الجيش الأمريكي الدليل الميداني الجديد لمكافحة التمرد (عقيدة مكافحة التمرد counter–insurgency doctrine–COIN) في أواخر عام 2006م، وهو جهد بقيادة الجنرال ديفيد بترايوس. أثيرت قضية عقيدة مكافحة التمرد في كثير من الأحيان بعد أغسطس/ آب 2009م، عندما تولى الجنرال ستانلي ماكريستال قيادة القوات العسكرية في أفغانستان وتسليم تقييم أولي للوضع هناك إلى الرئيس أوباما (تم تسريبه بعد شهر واحد)، وهو تقييم انتقد هذه العقيدة[40] مذكرة ماكريستال، اقتطفت كثيرًا عن دليل بترايوس مرارًا وتكرارًا، وتضمنت قسمًا بعنوان (إعادة تعريف القتال)، الذي كتب فيه ماكريستال عن «صراع على مدار السنة،

وغالبًا ما يجري بقليل من العنف الواضح، للفوز بدعم الشعب». وأشار إلى أنه لا يمكن أن نركز على «إستراتيجية الاستيلاء على الأرض أو تدمير قوات المتمردين. يجب أن يكون هدفنا السكان». وقد تميزت المذكرة بالسذاجة والارتباك، والاستعارات الخرقاء، والابتذال، والمختصرات العسكرية. ومع ذلك، فإنها اُختتمت بتوصيات حكيمة لتغييرات في سياسة قواعد القوات الأمريكية في الاشتباك. مقطع واحد جاء على النحو الآتي: وصف كثيرون الصراع في أفغانستان بأنه حرب الأفكار، التي أعتقد أنها صحيحة. ومع ذلك، فهذه بيئة معلومات (مبنية على الأفعال) التي تستمد فيها التصورات من الإجراءات، مثل كيف نتفاعل مع السكان ومدى سرعة تحسين الأمور. مفتاح تغيير التصورات يكمن في تغيير الحقائق الأساسية. يجب علينا ألا نخلط بين الوضع كما هو عليه مع الوضع الذي ننشده؛ لئلا نخاطر بمصداقيتنا.

كان رد فعلي الأولي غير مريح، عندما قرأت هذه الكلمات عام 2009م. ولكن مذكرة أفغانستان تكشف عن نقطة واحدة: الجيش الأمريكي يعترف أنه بعد سنوات عدة في أفغانستان، فإن الأفغان أنفسهم هم الذين يعملون على التقدم من خلال التحسن في جودة حياتهم، وليس من خلال النيات المعلنة للقوة العسكرية الأجنبية.

تقرير آخر أعدّته هيئة الأركان المشتركة في مايو/ آيار 2012م، بعنوان (عقدٌ من الحرب)، أكد ما هو واضح: بعد عشر سنوات في أفغانستان، كان الجيش الأمريكي يتصالح مع حقيقة أن عملياته في الثلثين الأولين من العقد تميزت بسوء التخطيط والتنفيذ السيئ، ما أدى إلى نتائج سيئة. فقد جرى التخطيط على أساس (التوقعات) بدلًا من أن يكون مبنيًّا على واقع (الدولة المضيفة ورسالتها). على سبيل المثال، لاحظ التقرير، «كان يجري تصور الحالة النهائية المقررة للدولة في أفغانستان بأنها يجب أن تكون حكومة مركزية قوية على الرغم من عدم وجود سجل لمثل هذه الحكومة في تاريخها وعدم وجود دعم شعبي واسع لنظام الحكم»(41).

لقد اعترف التقرير بأن البدء في تنفيذ عقيدة محاربة التمرد قد نجح في وقف أسوأ الآثار المترتبة على عدم الكفاءة- ولكن هل كان الوقت متأخرًا؟ دون شك، لقد كان كذلك، فبحلول عام 2012م لم تعد إدارة أوباما تحتمل الوضع، فتوقف الاندفاع، وبدأ انسحاب القوات.

عندما سمعت لأول مرة عن عقيدة محاربة التمرد عام 2007م، لم أستطع تخيّل أن القوات الأمريكية في أفغانستان، وبعضهم من قدامى المحاربين الصلبين ممن قاتلوا في العراق، سوف يتقبلون المطالب الجديدة التي فُرضت عليهم. في السنوات التي أعقبت عام 2007م، ظهرت تقارير من القوات تقلل من أهمية هذه العقيدة، قائلة: إن عقيدة محاربة التمرد كانت (للأوغاد)، كما كان المسؤولون الأمريكيون يتمازحون في بعض الأحيان. وهكذا بدا الموقف. مثلًا، كان العقيد هاري تانيل، قائد لواء (سترايكر) سيئ الذكر من فرقة المشاة الثانية في الجيش، إحدى الوحدات التي كُلّفت عام 2009م بتنفيذ توصيات الجنرال ماكريستال بشأن عقيدة مكافحة التمرد. وحدةٌ من هذا اللواء تورطت في وقت لاحق في جرائم حرب، وقضايا متعددة قتلت فيها قوات الجيش المدنيين الأفغان، وقامت بتشويه أجسادهم، وتصورت معهم وهم قتلى، ثم وضعت أسلحتها على جثثهم؛ للادعاء أنهم كانوا مقاتلين.

وقد نشرت صور هذه الفظائع على الإنترنت عام 2011م، فأشار الصحفيون بسرعة إلى أن قائد اللواء، العقيد تانيل، كان معاديًا لعقيدة مكافحة التمرد. تانيل سبق له أن قاتل في العراق عام 2003م، وكتب في وقت سابق أن (الإرهابيين) (كما كان يصف العدو المتمرد الرئيس) لا يمكن (إقناعهم) بأي شيء، إلا فقط بقتالهم وقتلهم[42]، ثم عاد في وقت لاحق، وكتب بيانًا تحت القسم لجنرال كان يحقق مع لوائه بعد الفظائع عام 2010م، قائلًا: إن القوات الأمريكية المقاتلة «غير منظمة وغير مدربة أو مجهزة» لتنفيذ عقيدة مكافحة التمرد. وذكر أن الأمريكيين لم يكونوا «مستعدين ثقافيًّا لقبول الممارسات التكتيكية والاستعمارية والتشغيلية السائدة[43]، ولأنه لا يحتمل الثقافة

الوطنية، ربما كان محقًّا لو كان يتحدث عن ثقافة وحدته، فكثير من أعضاء اللواء كانوا من قدامى المحاربين المتمرسين في العمليات القتالية في العراق قبل إعلان عقيدة مكافحة التمرد، وهكذا يمكن القول: إنهم لم يكونوا ملائمين لمزيد من عمليات مكافحة التمرد الأكثر دقة. وبغض النظر عن الأوامر، فإن بعضهم ربما كانوا مشوشين ومضربين عقليًّا من خلال عملهم في العراق. أحد أفراد اللواء، ويدعى براندون باريت هرب من الجيش، بينما كان في إجازة في ولاية يوتا في سبتمبر/ أيلول 2010م، وذهب إلى فندق في سولت ليك سيتي بكامل عتاد المعركة، مع بندقية آلية، ومسدسين، ونحو 1000 طلقة ذخيرة، كان يخطط لاتخاذ موضع قناص على السطح لقتل المدنيين بشكل عشوائي. وقد قتل على يد الشرطة[44]، روبرت بيلز، وهو رقيب من لواء آخر في نفس القسم والقاعدة، الذي خدم ثلاث جولات في العراق قبل إرساله إلى أفغانستان عام 2012م، غادر قاعدة قندهار يوم 11 مارس/ آذار 2012م، وقتل ستة عشر مدنيًّا أفغانيًّا على الأقل في منازلهم، وكثير منهم من الأطفال الصغار، وأشعل في جثث بعضهم النار[45].

مثل هذه الحالات طرحت السؤال بشكل صارخ: إذا كانت هذه العقيدة هي الخطة، فهل يمكن لقوات مدربة على القتال مع قوة متحركة، وبعضهم أصيبوا في المعارك، أن تتعود على (التفاعل) مع الشعب الأفغاني وتغيير (الحقائق الأساسية)؟ وماذا يعني القيام بذلك، (بقليل من العنف الظاهر)، كما كتب ماك كريستال؟

وعام 2011م، نشرت زميلتي السابقة فاطمة أيوب، الأفغانية التي تعيش في لندن، مقالًا على الفيسبوك حول الإستراتيجية العسكرية الأمريكية في أفغانستان بعنوان (التقدم المتحقق) مع عنوان يقول: إن «البلاد تقف على مفترق طرق محفوف بالأخطار»، فاطمة أشارت بسخرية: «نحن على مفترق طرق خطير آخر ونقطة تحول ومنعطف حاسم في أفغانستان». وقد تلقت بعد ذلك فيضًا من التعليقات الساخرة. كتب أحد الأصدقاء أنه تعبير (الفرصة الأخيرة) الممل طالما سمعناه في أفغانستان منذ 2003م. سام ظريفي كتب يقول: «الأشهر الستة القادمة حياة أو موت» (وكان هذا السطر

قد استخدمه توماس فريدمان كاتب الزاوية المعروفة في جريدة (**نيويورك تايمز**) مرارًا وتكرارًا في وصف العراق، كل ستة أشهر أو كذا[46]، ومارتين فان بجليرت، المحلل للشؤون الأفغانية، كتب يقول: «سوف تزداد الأوضاع سوءًا قبل أن تتحسن» وأضفت أنا معلقًا: «تذكر أن المكاسب هشة وقابلة للانتكاس عكسيًّا»، في إشارة إلى وصف الجنرال ديفيد بتريوس الذي غالبًا ما كان يكرره. أنهت فاطمة هذا الحوار قائلة: «تقدم كبير. استعادة الزخم. الأفغان يقودون».

كنا قد أصبحنا شيئًا أكثر من مجرد ساخرين. لقد تخلينا عن اللغة.

بدأت المتاعب، كما أعتقد، في 11 سبتمبر/ أيلول نفسه، فالردود على الهجمات خلطت المجازي بما هو حرفي في اللغة، وعلى وجه التحديد، كلمة **حرب** التي انتزعت من المنطقة التقليدية لاستخدامها. لقد تحدثت **الإستراتيجية الوطنية لمكافحة الإرهاب** عام 2003م عن الحرب مجازًا ثم حرفيًّا، وأحيانًا بالتبادل. وفي إحدى المراحل، أعلنت الولايات المتحدة أنها سوف «تركز على القوة العسكرية الحاسمة والمصادر الاستخباراتية المتخصصة لهزيمة شبكات الإرهاب على الصعيد العالمي»، ولكنها أيضًا سوف «تشن حرب أفكار لتوضيح أن جميع أعمال الإرهاب غير شرعية» .

قبل ظهور القمم الأولى من هذه الموجة من الخطاب البلاغي المحموم، أصدر الكونغرس قرارًا رئيسا، سيكون بمنزلة مبرر قانوني لاستخدام القوة العسكرية لأكثر من عقد من الزمن: التفويض باستخدام القوة العسكرية (the Authorization for Use of Military Force–AUMF) يوم 14 سبتمبر/ أيلول 2001م[48]، ومن المثير للاهتمام أن القرار لم يصف الهجمات بالأعمال الحربية، وإنما بـ «أعمال عنف غادر». والجزء الرئيس من القرار، نص على، أن «الرئيس مخول باستخدام كل القوة اللازمة والمناسبة» – بما فيها القوة العسكرية – «ضد تلك الدول والمنظمات أو الأشخاص الذين يُحدّد بأنهم خططوا للهجمات الإرهابية التي وقعت في 11 سبتمبر/ أيلول 2001م،أو أجازوها،

أو ارتكبوها، أو ساعدوا عليها سبتمبر/ أيلول، أو تلك التي تؤوي مثل هذه المنظمات أو الأشخاص، من أجل منع أي أعمال إرهابية عالمية في المستقبل ضد الولايات المتحدة من قِبل هذه الدول أو المنظمات أو الأشخاص».

وصدر هذا القرار بالإجماع تقريبًا، وكان العضو الوحيد في الكونغرس الذي صوت ضده هي باربرا لي، التي وصفته - بدقة تمامًا كما اتضح لاحقًا - بأنه «شيك على بياض للرئيس بمهاجمة أي شخص متورط في أحداث 11 سبتمبر/ أيلول، في أي مكان، في أي بلد، دون النظر إلى السياسة الخارجية على المدى الطويل لأمتنا، ولمصالحها الاقتصادية ولأمنها الوطني، ودون تحديد مدة زمنية»[49]، وبعد أكثر من عقد من الزمن، لم يخضع القرار لكثير من النقاش العام، ومع ذلك فقد بقي التفويض هو السلطة القانونية التي بموجبها جرى تبرير قدر كبير من العمليات العسكرية وشبه العسكرية. بالتأكيد أن القرار أثار جدلًا وخلافًا، فقد ثار جدل، في إحدى المرات حول فرض الأمر الواقع للنموذج العسكري لبريطانيا في سياق مستعمراتها كذلك في أيرلندا وفي وقت لاحق في أيرلندا الشمالية. في السنوات العشر بعد عام 2001م، الكتب مقالات مراجعة لقانونية كثيرة حول الجملة الرئيسة الوحيدة من القرار، فضلًا على آلاف الرسائل بالبريد الإلكتروني والمشاركات في القوائم البريدية على الإنترنت بين واضعي السياسات والمدافعين عن حقوق الإنسان، وأساتذة القانون.

ساعات من النقاش والجدل مرت في المؤتمرات مع الأكاديميين والمسؤولين الحكوميين، فتبلور فهم جماعي واتفاق بأن، جملة واحدة مكتوبة بعد ثلاثة أيام من الهجمات لا يمكن أن تكون إلى ما لا نهاية السلطة القانونية لتنفيذ جميع أعمال العنف ما وراء البحار خدمة لمكافحة الإرهاب. فالعدو الرئيس، تنظيم القاعدة، كان دائمًا كيانًا غير متبلور وغير متجانس: عام 2001م، كان هذا التنظيم بعضوية فضفاضة من بضع مئات من الرجال، وبحلول عام 2011م، كان جميع قياداته العليا تقريبًا إما قتلى أو معتقلين، فأصبح ناديًا يمكن لأي شخص أن ينتمي إليه بصفته مهنة شخصية.

لقد سمح قرار التفويض للولايات المتحدة بخوض حرب ضد أي جماعة قد تطلق على نفسها (تنظيم القاعدة) – تنظيم القاعدة في المغرب الإسلامي (المجموعة الإفريقية الشمالية التي هوجمت من قِبل القوات الفرنسية في مالي عام 2013م)، تنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية (مجموعة بشكل رئيس في اليمن)، أو تنظيم القاعدة في العراق – حتى لو لم تكن بين أعضاء مجموعته وبين تنظيم القاعدة الأصلي المتورط في 11 سبتمبر/ أيلول سوى القليل من القواسم المشتركة.

ومع ذلك، فإن هذا القرار استمر في دوره بوصفه علامة فارقة ميزت هذا العقد. عندما بدأت الولايات المتحدة بتكثيف العمليات شبه العسكرية والغارات بطائرات من دون طيار ضد (أهداف) القاعدة في اليمن والصومال عام 2011م، لم يعترض سوى عدد قليل داخل الحكومة حول مشروعية العمليات بموجب قانون الولايات المتحدة، على الرغم من أن الزعماء الجمهوريين أثاروا في وقت لاحق القضايا حول ليبيا (على ما يبدو بدافع من حاجة لتشكل المعارضة السياسية للرئيس أوباما أكثر منه ولاء لحكم القانون). أصبح قرار التفويض جزءًا من المشهد القانوني والسياسي للولايات المتحدة؛ فعلى الرغم من أنه كان مثيرًا للجدل، إلا أنه ظهر أن كثيرين من أساتذة القانون وأعضاء الكونغرس والصحفيين تقبلوا فكرة أن الحكومة احتفظت بالسلطة لاستخدام القوة العسكرية ضد (تنظيم القاعدة وحركة طالبان والقوات المرتبطة بها) في أي مكان في العالم. واعتبرت القضايا المتعلقة بعملية تحديد وتعريف أعضاء تنظيم القاعدة والجماعات المرتبطة مسائل تقنية.

كيف حدث أن يقر الكونغرس هذه الشروط مفتوحة النهايات في صنع الحرب، وهي شروط مائعة لكي تبقى سارية المفعول لأكثر من عقد من الزمان بعد الهجمات؟ ما الشيء الخاص عن أواخر عام 2001م الذي جعل هذا ممكنًا؟ أم أن شعور الضحية الوطني الذي ساد في أعقاب الهجمات سوف يثبت بطريقة أو بأخرى أنه سيظل أبديًا ؟

هل من الصعب أن نتذكر مع مرور السنين كيف أن ردود الفعل كانت مبالغًا فيها في أواخر عام 2001م، وكيف كان الجميع غاضبًا وصامتًا، وكيف أن كثيرين وصفوا الهجمات بأنها (غير مسبوقة) في المدى وحتى في التاريخ، أو كيف أنهم تحدثوا بأنها (غيّرت كل شيء). نائب الرئيس ديك تشيني، أكثر من أي شخص آخر، كان الرائد في هذه الأقوال. وكرر رأيه مرارًا وتكرارًا كيف أن الهجمات غيّرت كيف قيّمت الولايات المتحدة الأخطار، واعتبارًا من تلك اللحظة على الحكومة أن تفترض، مهما كانت التفاصيل التي تجمعها الاستخبارات، احتمال وقوع هجوم آخر من هذا النوع.

كلمة (**لم يسبق لها مثيل**) على وجه التحديد، كانت واحدة من أكثر المصطلحات المضللة المستخدمة: توحي بالتنصل من المساءلة من خلال الادعاء أن أسلوب الهجوم كان غير متوقع كليًّا وفريدًا من نوعه. كانت هذه إهانة عابرة لضحايا الهجمات الإرهابية الأخيرة، وأصبحت حجر الزاوية في خطاب إدارة بوش البلاغي، كان مسؤولون حكوميون، وحتى الرئيس نفسه، يشيرون مرارًا وتكرارًا إلى أنه لا يمكن لأحد أن يتصور مجموعة تختطف الطائرات وتصدمها بمبانٍ. وقالت كوندوليزا رايس في مايو/ آيار 2002م: «أنا لا أعتقد أن أحدًا كان يمكنه أن يتوقع أن هؤلاء الناس سوف يأخذون طائرة ويرتطمون بها في مركز التجارة العالمي، ويأخذون طائرة ثانية ويضربون بها وزارة، أو أنهم سيحاولون استخدام طائرة كصاروخ، طائرة مخطوفة وكأنها صاروخ»[(50)].

كان واضحًا أن هذا الزعم غير صحيح، فقد كان الجيش الياباني يدرب الطيارين على استخدام الطائرات لتفعل ذلك خلال الحرب العالمية الثانية: هجمات الكاميكازي كانت هجمات انتحارية سيئة ومؤذية، بحيث أصبحت تستخدم في قواميس اللغة الإنجليزية بعد وقت قصير من الحرب. لكن كانت هناك سوابق أكثر تحديدًا، فقبل بضع سنوات فقط من هجمات 11 سبتمبر/ أيلول، علمت حكومة الولايات المتحدة أن رمزي يوسف، مشارك - متآمر أدين في أول هجوم على مركز التجارة العالمي عام 1993م، قد خطط قبل اعتقاله ليجعل أحد رفاقه يقود طائرة خفيفة محملة بالأسلحة

الكيميائية إلى مقر السي آي أيه في فيرجينيا، أو يرش مقر الوكالة بالغاز السام. وتقرير 1999م المقدم إلى مجلس الاستخبارات القومي من قِبل شعبة البحوث الاتحادية بمكتبة الكونغرس، يشير إلى أن مؤامرة رمزي يوسف، أثارت احتمال وقوع هجمات في المستقبل من النوع نفسه: «انتحاريون ينتمون إلى الكتيبة الاستشهادية لتنظيم القاعدة يمكنهم السقوط بطائرات محملة بالمتفجرات فوق البنتاغون، ومقر وكالة المخابرات المركزية، أو البيت الأبيض»[51]، وفي الوقت نفسه، وجد مكتب التحقيقات الفيدرالي بعد الهجوم على مدرسة كولومبيا عام 1999م، مذكرات إريك هاريس، أحد اثنين من المسلحين المهاجمين، كُتب فيها عن مثل هذا السيناريو: «إذا استطعنا عن طريق شيء من الحظ الغريب أن ننجو، ونظل على قيد الحياة، فسوف نهرب إلى بعض الجزر في مكان ما أو ربما إلى المكسيك،أو نيوزيلندا أو إلى أي مكان غريب، حيث لا يكون الأمريكيون قادرين على اعتقالنا. وإذا لم يكن هناك مثل هذا المكان، فسوف نجمع الكثير من القنابل، ونحطم طائرة في مدينة نيويورك ونحن بداخلها، ونطلق النار ونحن نمضي إلى أسفل»[52] . وقبل سنة، عام 1998م، أعلنت السلطات التركية أنها أحبطت مؤامرة من جانب أتباع جماعة إسلامية متشددة مقرها في ألمانيا لصدم طائرة محملة بالمتفجرات في قبر كمال أتاتورك في أنقرة[53]. الهجمات الانتحارية الجوية جُربت من قبل، فعشية عيد الميلاد عام 1994م، خطفت جماعة جزائرية متمردة طائرة الخطوط الجوية الفرنسية، وكشفت المخابرات في وقت لاحق أن المجموعة خططت لصدمها ببرج إيفل، وداهمت القوات الخاصة الفرنسية الطائرة، بينما كانت تتزود بالوقود في مرسيليا، فقتلت الخاطفين[54]، وقبل بضعة أشهر في ليلة 11 سبتمبر/ أيلول 1994م، سرق فرانك كوردر، وهو رجل مضطرب من ماريلاند طائرة من طراز سيسنا 150، وحاول صدمها بالبيت الأبيض في وقت مبكر من صباح اليوم المقبل، وأخطأ بخمسين ياردة، وضرب الحديقة الجنوبية من المبنى[55]. وكانت القضية الأكثر غرابة من كل حادثة، التي لفتت انتباهي إليها والدتي بعد هجمات 11 سبتمبر/ أيلول، كانت هذه أقل خطورة من الحوادث أعلاه، وأكثرها طرافة، فعام 1979م، استأجر رجل أسترالي يدعى روبرت

بودان، في الواحدة والستين من العمر، طائرة صغيرة من شركة الطيران المحلية، وطار نحو مانهاتن. كان بودان مدانًا سابقًا بالتزوير، وقد ألّف كتابًا عن مكاسبه من التزوير، فأخذ يدور بالطائرة فوق مكاتب ناشر كتابه في نيويورك، هاركورت بريس جوفانوفيتش، مهددًا بضرب الطائرة في المبنى؛ لخلافات بشأن تحرير الناشر لكتابه وتسويقه لطبعة الولايات المتحدة من كتابه الذي حمل عنوان (**اعترافات مزور منحل**). ولما كانت مكاتب هاركورت مجاورة لمقر الأمم المتحدة، اعتقدت السلطات هناك أن مبنى الأمانة العامة في خطر. الأمين العام للأمم المتحدة - آنذاك - كورت فالدهايم، أمر بإخلاء المبنى، وهي المرة الأولى في التاريخ التي تُخلى فيها الأمم المتحدة، وآخر مرة أيضًا حتى هجمات 11 سبتمبر/ أيلول.

سلّم بودان قبل إقلاعه بيانًا لمحرري صحيفة **نيويورك بوست**، موضحًا الأسباب التي دفعته لهذا الفعل، وسرد مطالب محددة، تضمنت جدولًا زمنيًّا للتعديلات الجديدة على الطبعة الثانية من كتابه، وشروطًا جديدة للطبعة الورقية، وطلب مأدبة غداء في مانهاتن مع رئيس التحرير، وجاء في البيان:

هذه الطلعة الجوية موجهة ضد الناشرين هاركورت وبريس وجوفانوفيتش، وكان ينبغي لم أن يتوقعوها في ضوء معاملتهم البائسة للمؤلف، فالتصرف بهذه الطريقة يمكنني من تخطي محاميهم باهظي التكلفة والوقت الطويل الذي تستغرقه المحاكم وتصعيد النزاع إلى المستوى الذي أختاره بنفسي، فإن رؤية طائرة مجهولة النيات على مقربة من نوافذ مكاتب إدارتهم العليا يجب أن يكون له تأثير أكبر بكثير من أي إجراءات قانونية طويلة كان يمكنني أن أباشر بها، وعندما أفكر في الطريقة التي كذبت بها هذه الشركة عليّ، وكيف أضاعوا جهد ثلاث سنوات من عملي لأن ما قاموا به يتناسب مع طريقتهم في إعداد ميزانياتهم، فإني أعترف بأن الأفكار راودتني بالطيران مباشرة من خلال نافذة جناح مجلس الإدارة.

إني أُعلن [المطالب المدرجة] بوصفها (طلبات)، لكن الإدارة العليا للشركة يمكنها أن تَعدّها مطالب وبحكمتهم، قد يتوصلون حتى إلى استنتاج مفاده أنه إذا لم أحصل على ما أريد، فإنني قد أطير من خلال نافذة مكتب رئيس مجلس الإدارة، وأهبط بالطائرة على مكتبه. [لكن] لا بد لي من التأكيد على نقطة أن إخلاء مبنى الشركة لن يخدم أي غرض مفيد، وإذا ما وجدت نفسي في أي لحظة من رحلة الطيران غير قادر على السيطرة على مشاعري وعلى الطائرة بسلام، فسوف أعطي إنذارًا مبكرًا بما فيه الكفاية لتنفيذ الإخلاء بطريقة منظمة[56].

ظهر خلال الحادثة التي استغرقت ثلاث ساعات أن بودان كان قد نفذ حيلة مماثلة قبل عشر سنوات في سيدني، حيث كشف تقرير **نيويورك تايمز** عن حادث نيويورك ما يُذكّر بحقبة أكثر براءة.

«لا أعرف ما يمكننا القيام به» قال أحد المسؤولين في الشرطة، مشيرًا إلى أن الشرطة (ليس لديها التسهيلات) لإسقاط طائرة السيسنا 172 التي استأجرها السيد بودان مقابل 16 $ للساعة الواحدة[57].

بعد أن بدأ الوقود اللازم للتشغيل بالانخفاض، هبط بودان بالطائرة في مطار لاغورديا القريب، نحو الساعة الواحدة بعد الظهر. «الآن كتابي سوف يباع جيدًا» قال، وهو يُقتاد إلى الحجز[58]. سمحت الشرطة له بعقد مؤتمر صحفي في المطار، حمل فيه بشدة ضد استغلال المؤلفين وعلى دور النشر المتغطرسة الشحيحة جدًّا، واقتيد في الحال للمحكمة الفيدرالية بتهمة الابتزاز، لكن بُرّئ في وقت لاحق، واعترفت لجنة التحكيم في المقابلات بعد صدور الحكم، أنها قد توصلت إلى استنتاج أنه كان مجرد باحث عن لفت الأنظار[59].

كما هو الحال مع أسلوب الهجوم، فإن نطاق القتل لم يكن سابقة، فالآلاف من المدنيين كانوا قد قُتلوا من قبل، دفعة واحدة وفي هيروشيما، وفي هامبورغ ودريسدن،

وفي أثناء الإبادة الجماعية في رواندا وكمبوديا، آلالف من المدنيين قتلوا في **اليوم الواحد**، والذين يعيشون في أفغانستان يمكنهم أن يتذكروا صيف عام 1992م في كابول، عندما خرج عشرات الآلاف من المدنيين، وقُتلوا في قصف من قِبل قوات قلب الدين حكمتيار[60].

الولايات المتحدة شهدت مثل هذه الأحداث من قبل: حمام الدم في الحرب الأهلية، على سبيل المثال، شهد 23 ألف إصابة في يوم واحد، في معركة أنتيتام[61]. كان العنف المحلي على نطاق واسع أيضًا سمة مشتركة في الأراضي التي احتلتها الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر، مثل بورتوريكو والفلبين. كانت أعمال العنف شديدة أيضًا في الفلبين المحتلة في بداية القرن العشرين التي استدعت مثول الحاكم الأمريكي أمام القضاء - واحدة من المرات القليلة التي يتم فيها اتخاذ مثل هذا الإجراء في مناطق الولايات المتحدة[62].

علاوة على ذلك، لم تكن عمليات القتل الجماعي الإرهابية أيضًا جديدة على الولايات المتحدة، ففي سبعينيات القرن التاسع عشر، قامت عصابة الكو كلوكس كلان بقصف عشرات المراكز الحكومية والعشرات من تجمعات السود في جميع أنحاء جنوب أمريكا، واغتيل قادة الحزب الجمهوري، وأُرهب السكان المحليون بجرائم قتل مرعبة في عمليات إعدامات وحرق[63]. كانت تلك المرحلة فعلًا عصر إرهاب[64] منذ نهاية الحرب الأهلية حتى أوائل القرن العشرين، بثت عصابات الجريمة المنظمة الرعب في (الغرب المتوحش) وكذلك في المناطق الحضرية في نيويورك وبوسطن وشيكاغو ومدن أخرى، قصفت مخازن ومنازل عندما لم يدفع أصحابها الإتاوات، ونفذت المجموعات العمالية والسياسية المتطرفة كثيرًا من التفجيرات ضد أهداف مدنية وحكومية، ففي أحداث الشغب الشهيرة في شيكاغو عام 1886م، فجّر الفوضويون قنبلة قتلت سبعة من ضباط الشرطة، ما أدى إلى أعمال عنف أدت إلى مقتل العشرات، فعام 1899م، خلال العنف العمالي اختطف اتحاد عمال المناجم قطارًا في ولاية إيداهو، وملؤوه بالمتفجرات،

وفجروا موقع تعدين غير تابع الاتحاد، وهو العام نفسه الذي أرسل فيه الرئيس ماكينلي قوات عسكرية إلى ولاية إيداهو، وسمح لهم باستخدام الأحكام العرفية لاعتقال أعضاء النقابة المتشددين والمؤيدين.

وفي غضون عشرين عامًا اُغتيل اثنان من رؤساء الولايات المتحدة: عام 1881م، أطلق عامل مختل النار على الرئيس جيمس غارفيلد، وعام 1901م، اغتال فوضوي الرئيس ماكينلي. واحتدم العنف السياسي في العشرينيات من القرن الماضي، فعام 1910م، اُشتُبه في وقوف نقابيين راديكاليين وراء تفجير مكاتب **لوس أنجليس تايمز**، ما أسفر عن مقتل أكثر من عشرين شخصًا، وفي مايو/ آيار ويونيه/ حزيران من عام 1919م، اشتبه بوقوف الفوضويين وراء سلسلة تفجيرات متزامنة في مدن متعددة في جميع أنحاء الولايات المتحدة، وعام 1920م، اُتهم الفوضويون في تفجير وقع أمام مبنى شركة جي. بي. مورغان في وول ستريت الذي قتل فيه ثمانية وثلاثون شخصًا، وأصيب مئات آخرون، وهي الحادثة التي سمّتها صحيفة **واشنطن بوست** (عملًا من أعمال الحرب). وطوال هذه المرحلة واصلت عصابات كو كلوكس كلان ارتكاب أعمال إرهابية وحشية، وأعمال شغب عرقية، ومجازر في ولايتي ديلاوير ولويزيانا، أما في غرب البلاد، فقد هاجمت مجموعات من البيض، وقتلت العمال الصينيين وأسرهم، وحتى في عقد الستينيات والسبعينيات كانت هناك لحظات من الرعب: فقد نفّذت الجماعات المسلحة، مثل وِذَرمِن والفهود السود تفجيرات وهجمات مسلحة ضد أهداف حكومية وتجارية في جميع أنحاء الولايات المتحدة.

كل هذه الأحداث التاريخية لم تؤخذ في الحسبان في الولايات المتحدة في أعقاب 11 سبتمبر/ أيلول، فقد انتشر رأي على نطاق واسع واصفًا الهجمات بأنها تطرف فظيع، مع توقع تهديدات مستقبلية أكثر سوءًا.

بعضهم قارن تنظيم القاعدة بخطر النازية، واستمر الحال على ذلك سنوات على الرغم من انتشار معلومات استخباراتية بعد الهجوم تشير إلى أن هجمات 11 سبتمبر/ أيلول كانت ضربة حظ للمخططين، ومن غير المرجح إعادة إنتاجها مرة أخرى، وخاصة مع اعتقال هذا العدد الكبير من الأعضاء التشغيليين للمجموعة عامي 2002 و2003م. وبعد أكثر من ست سنوات، واصل الرئيس بوش استخدام هذا الوصف، مشيرًا إلى أن تنظيم القاعدة الجديد في العراق كان امتدادًا للأصل، وبقدرة مماثلة له. وفي 15 مايو/ آيار 2008م، ألقى خطابًا أمام الكنيست الإسرائيلي، بمناسبة الذكرى الستين لقيام دولة إسرائيل في فلسطين، حيث قال ما يلي:

«يبدو أن بعضهم يعتقد أننا يجب أن نتفاوض مع الإرهابيين والمتطرفين، وكأن بعض الحجة البارعة ستقنعهم أنهم كانوا على خطأ طوال الوقت، سمعنا هذا الوهم الأحمق من قبل، فعندما عبرت الدبابات النازية إلى بولندا عام 1939م، أعلن عضو في مجلس الشيوخ الأمريكي: «يا إلهي، لو أنني تمكنت فقط من التحدث مع هتلر، لكنا قد تجنبنا كل هذا».

إن لدينا التزامًا بأن نسمي الأشياء بأسمائها- راحة الاسترضاء الكاذب، الذي أثبت التاريخ عدم مصداقيته»(65).

أجرت جوديث ميلر مقابلة معي عام 2007م لمقالة كانت تكتبها عن زيارتها إلى غوانتانامو، كان لديها تقييم مماثل عن أهداف الجماعات الإسلامية المتطرفة، لكنها خلال المقابلة ادعت ادعاءً هزني. عندما قالت: «إنهم يريدون تفجير سلاح نووي في مدينة نيويورك» أتذكر أنني ذهلت من هذا التعليق، فالمسؤولون في إدارة بوش يدعون ادعاءات من هذا القبيل، ولكنني أبدًا ما التقيت في الواقع أي شخص يعتقد مثل هذا النوع من الاعتقاد، لكن ليس من الغريب أن تقوله جوديث ميلر، الصحافية التي كتبت

مقالات سيئة السمعة على الصفحة الأولى من صحيفة **نيويورك تايمز** عن خطر أسلحة الدمار الشامل العراقية في ضمن جهود الإعداد للحرب على العراق.

قلت: إنه لا توجد أدلة تشير إلى أن هذه الجماعات لديها أي قدرات من هذا النوع، بل على العكس من ذلك، فتنظيم القاعدة يجد صعوبة في تنفيذ شيء أكبر من التفجيرات الانتحارية في باكستان وأفغانستان (وحتى تنظيم الدولة الإسلامية الأخير، لم يكن قادرًا على شن هجمات على المستوى الدولي، على الرغم من فاعليته العسكرية).

معظم المراقبين كانوا مهتمين أكثر بتهديدات أساسية، مثل الضربات الأصغر في أوروبا والهند، والتهديدات من الخلايا المستقلة، والجماعات الناشئة الجديدة.

- «ولكنهم يمكنهم أن يفعلوا ذلك» قالت، عائدة مرة أخرى إلى احتمال سلاح نووي في مدينة نيويورك. ثم أضافت: «هذا هو ما يريدون القيام به».

أين كانت المشكلة في الواقع في هذا النوع من المزاعم؟

لقد بدا كما لو أن بوش وتشيني ومسؤولين آخرين في الإدارة الأمريكية، إضافة إلى المؤمنين بالفكرة، مثل ميلر كانوا يحملون استياءً عميقًا تجاه الأجيال السابقة بسبب التهديدات الأكبر والأكثر خطورة التي واجهوها - من النازيين والسوفييت - أو كما لو أنهم رأوا ضحالة في القرن الحادي والعشرين، وهي ضحالة، بالنسبة إلى تفكيرهم، صوّبتها أحداث 11 سبتمبر/ أيلول جزئيًّا، ولعل هذا هو ما يفسر الحماس في تبنّي رياء مكافحة الإرهاب في أعقاب الهجمات، كما لو أنها أعطت الحياة معنى جديدًا، ولماذا يبدو الناس مستمتعين بالحديث عن التهديدات؟ وماذا بوسع الولايات المتحدة أن تفعل في الرد عليها، ثم جاءت لحظة التحريض في أغسطس/ آب 1914م عندما بدا الاحتمال المفاجئ للحرب واعدًا بإعادة الحيوية إلى برجوازية أوروبا المتعبة، فكان العنف هو الرد على التفاهة.

الفصل السابع

التعذيب

جلست مرتجفًا من البرد في مدينة كازابلانكا في يناير/ كانون الثاني 2006م على شاطئ البحر في مقهى صغير في أحد الشوارع الخلفية الكئيبة؛ كي ألتقط أنفاسي، بعد أن أنهكني البحث عن معتقل سري تديره وكالة المخابرات المركزية في المغرب. كنت أعمل آنذاك باحثًا في الإرهاب ومكافحة الإرهاب مع منظمة هيومان رايتس ووتش، من أجل التحقيق في انتهاكات حقوق الإنسان التي ترتكبها الجماعات الإرهابية وقوات مكافحة الإرهاب الحكومية، ولا سيما وكالة المخابرات المركزية، التي كانت في ذلك الوقت تعمل سرًّا في تسليم المتهمين واعتقالهم، وبرنامج الاستجواب الذي استخدم على الأقل ستة مواقع اعتقال سرية موزعة في جميع أنحاء العالم.

في العام السابق، ساعدت هيومان رايتس ووتش على الكشف عن أدلة لاستخدام سجون سرية لـ CIA في أوروبا الشرقية، وفي ديسمبر/ كانون الأول كنا قد تلقينا معلومات حول مواقع ممكنة قرب الرباط، على ساحل المغرب، وكذلك في نواكشوط، العاصمة الساحلية لموريتانيا؛ لذلك كنت قد حددت بعد رأس السنة الجديدة اللقاء مع صحفيين محليين لهم علاقات بالمخابرات والمسؤولين الحكوميين، والموظفين العسكريين في مختلف السفارات ما عدا سفارة الولايات المتحدة.

في المغرب كنت قد التقيت مع صحفيين أكدوا لي أن مصادر استخباراتية محلية أخبرتهم بوجود سجن لوكالة المخابرات المركزية على التراب المغربي، على الرغم من أنني لم أعثر على شيء من التفاصيل حول مكان السجن، متى تم فتحه، وعن هوية المعتقلين الممكن وجودهم بداخله. ناقشت مع الصحفيين بعض التقارير عن منشأة جديدة في مدينة تمارة المجاورة، وأخرى على الساحل، وعملنا ترتيبات لوسطاء لإجراء مقابلات معهم من سكان القرى القريبة من المنطقتين للحصول على أي طرف خيط ما إذا كان لديهم أي ملاحظة بعكس المعتاد شاهدوها، مثل قوافل من السيارات ذات الزجاج المعتم؟ وجود للأمريكيين؟ التقيت مع الملحق العسكري في سفارة محلية، وهو مصدر صديق، ولكنني لم أحصل على أي معلومات ذات نفع، فقررت الانتقال إلى نواكشوط.

موريتانيا، بلد كبير بحجم مصر تقريبًا، ولكن بسكان أقل بكثير، نحو ثلاثة ملايين نسمة، جميعهم تقريبًا يعيشون في العاصمة، وقد شهد انقلابًا قبل بضعة أشهر من وصولي، وكان يقود الحكومة مجلس تصريف أعمال عسكري، وكان من المقرر إجراء انتخابات في وقت لاحق من ذلك العام. وبصفتي أمريكيًّا يعمل في مجال حقوق الإنسان، فقدأحسست بأني في ورطة في اليوم الثالث من وصولي، كان ضباط الاستخبارات المحليين يسألون موظفي الفندق عني؟ لذلك حاولت أن أتحرك بسرعة، ضاغطًا على الجميع ما بوسعي للحصول على معلومات من المسؤولين الحكوميين وزعماء القبائل، وملحق عسكري آخر. أجريت لقاءات في ردهات الفنادق، وفي مكاتب الأحزاب السياسية والمكاتب الصحيفة، وفي منازل زعماء القبائل، ومرة أخرى، لا أحد يبدو أنه يعرف أي شيء، وشعرت أن لا أحد كان يحجب المعلومات عني.

ومع قرب نهاية رحلتي، مُنحت لقاءً مع أحد القادة الرئيسين في المجلس العسكري، العقيد محمد وِلد عبدالعزيز، وهو الرجل الذي أصبح فيما بعد رئيسًا لموريتانيا؛ نظرًا لموقعه القيادي، فوجئت بأن عبدالعزيز وافق على الاجتماع معي، فقد كان هو في

الأساس الحاكم الفعلي للبلاد. كان هو وضابط آخر يدعى محمد فال هما اللذين قادا الانقلاب قبل بضعة أشهر، وتسلما السلطة من الرجل القوي معاوية ولد الطايع، الذي حكم البلاد أكثر من عشرين عامًا، فخلعه الانقلابيون في أثناء حضوره جنازة العاهل السعودي الراحل الملك فهد. أثبت عبدالعزيز أنه مهندس انقلابات، فعام 2007م، بعد عام من اجتماعنا وبعد أشهر من انتخاب أول رئيس منتخب ديمقراطيًّا للبلاد تم عزله من الخدمة الحكومية، واستولى عبدالعزيز على السلطة مرة أخرى، وعام 2009م، تم (انتخابه) رئيسًا في الانتخابات التي عدّها المراقبون مزورة.

جلسنا في المكاتب المجهزة جيدًا في القصر الرئاسي، وكان عزيز يرتدي زيًّا عسكريًّا أخضر، ويجلس وراء مكتبه، بينما جلست أنا والمترجم في كراسٍ بسيطة، مع أكواب من الشاي بيننا، فقد منحنا الكثير من الوقت كما كنا نريد، وهو متكئ على كرسيه، بينما كان يجيب على أسئلتنا، ويميل أحيانًا إلى الأمام عابثًا بهاتفه، كان مهذبًا، ولكنه لا يبتسم عمومًا.

بعد المقدمات والإيضاحات المختلفة، سألته مباشرة: هل أنشأت الولايات المتحدة، أو بشكل أكثر تحديدًا وكالة المخابرات المركزية، أي منشأة في البلاد لاحتجاز المعتقلين؟ هز رأسه لا، لا شيء من هذا القبيل هنا. لماذا يفعلون ذلك؟، وتساءل: عندما يكون لديهم غوانتانامو؟ ولماذا من بين جميع دول العالم، قد ترغب وكالة المخابرات المركزية في إقامة السجن هنا، في موريتانيا؟ سألت ما إذا كانت، ربما، وكالة المخابرات المركزية قد رتّبت اتفاقًا مع الحكومة السابقة، مع وِلد الطايع، وأغلقت المرفق بعد الانتقال من حكمه (تجنبت كلمة انقلاب). فهز العقيد رأسه مرة أخرى. لا، ثم قال: كُنا قد عرفنا ذلك.

تدبرت طرح السؤال الأساسي نفسه بخمسة أو ستة طرق مختلفة، على أمل على الأقل أن أحصل على إنكار مثير للاهتمام، ولكن دون جدوى. لم يقدم العقيد أي شيء،

وأشار إلى أن القوات الأمريكية قد تساعد على تدريب الجيش الموريتاني، واقترح، بأدب وبجدية، أن أسأل مسؤولي السفارة الأمريكية عن تلك المبادرات؟ انتهى الاجتماع في جو ودّي، ووعدته بالعودة إلى موريتانيا في يوم من الأيام، وقلت: إن الأمم المتحدة سترسل مراقبين للانتخابات، وأشياء أخرى. قضيت اليوم الثاني أتحدث مع عدد قليل من ضباط عسكريين آخرين وزعماء المعارضة؛ لرؤية إذا ما كانت طاحونة الشائعات قد تنتج أي شيء جديد، ولكن ذلك لم يحدث. أيام من الصيد، ولا أسماك.

في الحقيقة أن فشلي يتناقض بشكل ملحوظ مع مشهد شاهدته في آخر يوم لي، عند غروب الشمس، على شاطئ واسع على الحافة الشرقية للمدينة. وقفت على رصيف صغير، وشاهدت الشمس تتحرك إلى أسفل في المحيط الأطلسي، والصيادون السنغاليون يرسون، بقواربهم الخشبية الطويلة، ويحملون الصيد الكبير من الأسماك إلى الرصيف الملاصق للطريق إلى المدينة، ووقفت متأملًا الصيادين والبحر، ولاحظت أحد التجار يتطلع إليّ. اقترب، وسأل المترجم عني من أكون؟ سمعت كلمات **بالفرنسية**: **هل هو** من الأمم المتحدة؟ لا، أوضح المترجم أحمد، ثم قال له: إنني أمريكي، يعمل في مجال حقوق الإنسان.

وقال له أحمد: إنني كنت أحاول معرفة ما إذا كان الأمريكيون قد بنوا سجنًا سريًّا لمعتقلي القاعدة. ابتسم تاجر الأسماك، ثم ضحك، وقال: «الحمد لله»، ثم التفت إلي. أحمد ترجم لي قوله: «يتمنى لك حظًّا سعيدًا. كان يظن أنك مفتش من الأمم المتحدة تبحث عن الحيتان».

الحيتان؟ سألت.

أوضح أحمد أن شركات الأسماك اليابانية كان لها وجود كبير في سوق السمك، وأحيانًا، وسرًّا، فإنها تشجع الصيادين على صيد الحيتان- ممارسة محظورة بموجب معاهدة دولية - ويرسون باللحوم على أرض نواكشوط، حيث يتم تهريبها من قبل

اليابانيين من البلاد على متن طائرة خاصة. نظرت إلى الصيادين السنغاليين عريضي المناكب المنكبين على ترتيب الأسماك الكبيرة على الرصيف وهم يطوون شباكهم، فتخيلتهم كما لو كانوا عمالًا على متن سفينة من القرن التاسع عشر، وهم ينزلون حوتًا. اصطادوه، وقد لخص أحمد هذه الفكرة بإيجاز: «أعتقد أن الأمم المتحدة تهتم بالحيتان أكثر من هؤلاء السجناء لدى السي آي أيه».

«يبدو أن الأمر كذلك» قلت، وغادرت تلك الليلة، عائدًا إلى الدار البيضاء. كنت قد بدأتُ استقصاء برنامج التسليم والاحتجاز والاستجواب الذي تديره وكالة المخابرات المركزية عام 2004م وكانت هيومان رايتس ووتش قد أنشأت قسمًا مختصًّا بالإرهاب ومكافحة الإرهاب؛ للبحث وكتابة التقارير حول العنف الإرهابي والاستجابات المفرطة في مكافحته، وكان القسم مختصًّا بالتحقيق في التفجيرات المستهدفة للمدنيين وأعمال العنف الأخرى من قِبل جماعات مثل حماس والمتمردين العراقيين وحركة طالبان، وجماعة أبوسياف الفلبينية، فضلًا على انتهاكات الحكومات في محاربة هذه الجماعات، فنحن أيضًا نسعى إلى فهم القضايا التي تحفز هذه المجموعات، والدعوة إلى ضرورة تعريف الإرهاب على نحو أكثر دقة، حيث إن المصطلح يفتقر إلى تعريف قانوني بموجب القانون الدولي، وكذلك كثير من تعاريفه المحلية كانت فضفاضة بشكل مذهل.

كان برنامج وكالة المخابرات المركزية موضوع بحث مُلح، فالقليل جدًّا كان معروفًا عنه حينذاك، في ذلك الوقت، كان الكثير من الاهتمام منصبًّا على تصرفات الجيش الأمريكي في غوانتانامو، فمحامون من الشركات الكبرى بدؤوا يمثلون المحتجزين هناك، ووجهت منظمة العفو الدولية مواردها لتسليط الضوء على المشكلة، ولكن برنامج الاعتقال في وكالة المخابرات المركزية، الذي كان بطرق كثيرة يدعو للقلق من الناحية القانونية، ويحظى باهتمام أقل. لم يكن نطاق البرنامج كبيرًا، وكانت المخالفات القانونية نفسها غير مألوفة، وكثير من البلدان الأخرى، بما في ذلك مصر، والأردن، وباكستان، تشارك في ممارسات اعتقال مماثلة، كانت القضية الأكبر لجماعات حقوق

الإنسان هي الأضرار التي لحقت بنظام حقوق الإنسان في حد ذاته؛ لأنه على الرغم من أن الإدارة الأمريكية لم تكن تنفِي أنها تحتجز الناس في أماكن سرية، إلا أنها رفضت تأكيد التفاصيل، مثل أين كان يوجد المعتقلون وتحت أي ظروف. لسوء الحظ أن معتقل غوانتانامو لا يمكن الوصول إليه: لم يكن يُسمح برؤية المعتقلين هناك إلا للجنة الدولية للصليب الأحمر فقط، وليس لجماعات حقوق الإنسان والصحفيين، أو حتى أفراد أسر المعتقلين، ولكن الحكومة اعترفت، على الأقل، أنها ترسل المعتقلين إلى هناك، وتزعم أنها ترمي من وراء إجرائها هذا إلى أن يظلوا تحت نظام قانوني – هو قوانين الحرب. وبالنسبة إلى مراكز وكالة المخابرات المركزية، لم يكن هناك سلطة اعتقال بموجب قانون الولايات المتحدة، وكان الكثير غير معروف.

من حيث المبدأ، فإن جماعات حقوق الإنسان تظل دائمًا منزعجة من نظام الاحتجاز البديل أو الموازي الموجود خارج النظام القانوني للبلاد: تسهم هذه الترتيبات بالضبابية القانونية، وتعرقل الإجراءات القانونية الواجبة قانونيًّا، وتُوجِد (حالة استثنائية) تتجاهل القواعد القانونية.

في ذلك الوقت، كانت الولايات المتحدة بالفعل قد أقدمت على سوابق خطيرة في عدد من المجالات على المستوى المحلي، فمثلًا، التحديد النمطي لغير المواطنين المشبوهين للتحقيق معهم على أساس الأصل القومي. كان استخدام الاحتجاز السري دون محاكمة من قِبل وكالة المخابرات هو الأكثر فظاعة، وكنا نخشى أن الأنظمة الأخرى قد تشير بعد ذلك إلى المثال الأمريكي لتبرير انتهاكات أسوأ (كنا على حق أن نقلق، ففي السنوات اللاحقة برر بعض القادة المنتهكين لحقوق الإنسان، بما في ذلك رجل في زيمبابوي قوي هو روبرت موغابي، الذي ذهب إلى أبعد من ذلك بمقارنة القمع للمعارضين ببرامج إدارة بوش في مكافحة الإرهاب) وحتى من الناحية الإستراتيجية، يعتقد كثير منا أن الولايات المتحدة الأمريكية عقّدت جهود مكافحة الإرهاب، وانخرطت

في أنشطة غير مشروعة، ما يجعل من السهل على المتطرفين أن يشيروا إلى تكافؤ أخلاقي، من خلال إظهار أن الغرب كانوا مثلهم جبناء ومنفلتين.

كان العمل صعبًا، فقد أحيطت إجراءات وكالة المخابرات المركزية في ذلك الوقت بمنتهى السرية، وفي سنوات لاحقة، عرف العالم كل شيء عن طائرات وكالة المخابرات لتسليم المشبوهين، وعن السجون السرية، وعن (تقنيات الاستجواب المحسنة)، وخلاف ذلك، لكن في بداية عام 2004م كان الوضع أقل وضوحًا.

كنا نعرف منذ عام 2002م أن وكالة المخابرات المركزية كانت تعدُّ شيئًا على قدم وساق، ففي يناير/ كانون الثاني 2002م، فتح الجيش الأمريكي معتقل غوانتانامو، وكشفت تقارير إعلامية أن الوكالة كانت ترسل بعض المعتقلين الذين ألقت الولايات المتحدة القبض عليهم إلى دولة ثالثة للاحتجاز والاستجواب وفي إبريل/ نيسان 2002م، أقرت إدارة بوش بالقبض على المطلوب الأول لوكالة المخابرات، أبوزبيدة، في حين نفى المسؤولون الذين تحدثوا إلى الصحفيين بطريقة غير رسمية، وليس لغايات النشر أنه قد أُرسل إلى بلد ثالث للاستجواب أو إلى غوانتانامو. العواقب الأكبر لمثل هذه التصريحات الغريبة لم تناقش على نطاق واسع في ذلك الوقت، ولكن الحدث كان الأول من نوعه في سلسلة الحالات التي أعقبت تأكيدات بأن المعتقل لم يُرسَل إلى بلد آخر، **ولم** يُرسَل إلى غوانتانامو، ولم يُقدّم إلى المحاكمة. وعام 2003م، بدأت أنا وزملائي نفهم أن احتجاز الوكالة يتميز بمجموعة من السلبيات: أخذنا نخمّن أن الرجال **لم يكونوا** في غوانتانامو، **وليسوا** في مصر، **ولم** يُسلّموا إلى الولايات المتحدة، ويفترض أنهم **ليسوا** في أوروبا، ففي مارس/ آذار 2003م، بعد اعتقال خالد شيخ محمد في باكستان، نقلت الصحيفة عن مسؤول أمريكي لم يكشف عن اسمه في تقرير كتبه جيس برافن وغاري فيلدس في صحيفة **وول ستريت جورنال قوله**: «هناك سبب لماذا هو لن يكون بالقرب من المكان الذي يوجد فيه له حقوق بالتزام الصمت أو ما يعادلها؟ إنهم لن يكونوا في مكان مثل إسبانيا أو ألمانيا أو فرنسا، نحن لا نستخدم هذا لمحاكمته، هذا يعود إلى المخابرات،

والله وحده يعلم ما الذي سيفعلونه به، نذهب به إلى بعض البلدان الأخرى التي سوف تتيح لنا جلد هذا الرجل لجعله يعترف»[1].

في ذلك الوقت، بدا أن هذا التصريح غريب. في السنوات اللاحقة، وذُكر على نطاق واسع أن إدارة بوش تتحايل، وتلتف على النصوص القانونية، وشاركت في برنامج استجواب واحتجاز واسع النطاق انتهك القانون الدولي والاتحادي، لكن هذه الممارسات لم تكن عام 2003م معروفة للجميع. أصبت بحيرة شديدة وأنا أقرأ بقية المقالة التي كتبها بارفن وفيلدس، والتي ناقشت بإسهاب الإطار القانوني لاستجوابات وكالة المخابرات المركزية، وما أدهشني بصورة خاصة، البيانات القانونية الخاطئة التي أدلى بها مسؤولون حكوميون، والتي قدّموها على أنها حقائق موضوعية، إن أي محامٍ عاقل يمكنه أن يقول لك: إن القوانين الدولية التي تحظر إساءة معاملة المعتقلين لا تعتمد الأسس الجغرافية، فلا يمكن نقل شخص إلى مكان حيث ليس له حقوق، فالغرض من النظام العالمي لحقوق الإنسان قد وُضع لمحاربة هذه الفكرة، وأحد المسؤولين وصف اتفاقية مناهضة التعذيب وغيره من أشكال المعاملة أو العقوبة القاسية أو اللاإنسانية أو المهينة، كما لو أنها منعت فقط التعذيب الصريح، ولكن ليس أي شيء شبيه بذلك، وأشار إلى أنه على التعذيب أن يسبب «ألمًا أو معاناة شديدة» وذكرت المقالة خطأً أنه «طالما أن الألم والمعاناة ليست شديدة الخطورة»، فإنه يجوز استخدام القوة البدنية وإحداث (عدم راحة)، كما يحلو لبعض المحققين الأمريكيين أن يقولوا. من بين التقنيات:

جعل الأسرى يرتدون أقنعة سوداء، وإجبارهم على الوقوف في (أوضاع مجهدة مدة طويلة وتعريضهم للاستجواب الدائم في جلسات تستغرق 20 ساعة. واستشهدت المقالة بالاتفاقية، كما لو أن أثرها القانوني أصبح واهيًا، مشيرة بغرابة إلى أنها «لا تزال سارية حتى بعد هجمات 11 سبتمبر/ أيلول» (كما لو أنها تقترح بديلًا لها) ونقلت صحيفة **وول ستريت جورنال** عن ضابط أمريكي مسؤول عن تطبيق القانون قوله: إن الاتفاقية ليست عملية: «لأنه لا يوجد لها آلية إنفاذ، فأنت من الناحية العملية مقيّد بخيالك فقط» أتذكر

ذلك السطر والشعور بعدم الارتياح الذي أثاره في نفسي: استجوابات وكالة المخابرات المركزية غير مقيّدة قانونيًّا بل بـ (الخيال فقط) لا أحاسيس، لا خجل أو الشعور بالكرامة إنما مجرد خيال.

يجدر التذكير بأن هذه المقالة قد نشرت في مارس/ آذار 2003م، قبل سنة كاملة من انفجار فضيحة سجن أبوغريب، وقد نشرت مجلة **تايم** مقالة مماثلة، كما هو الحال مع مقالات سابقة عن غوانتانامو ومدى انطباق اتفاقيات جنيف، بدت الحكومة مخادعة، وبياناتها عن المعايير القانونية كانت كاذبة. نتيجة لتزايد قلقنا، تولّد لدينا إحساس بأن الحقيقة أسوأ مما كانت تتناقله التقارير، فنحن نعرف بالفعل أن المعتقلين كانوا لا يعاملون بشكل جيد، فحتى في يناير/ كانون الثاني عام 2002م، بعد أسابيع فقط من انهيار حكومة طالبان في كابول، سمعنا من الأفغان الذين كانوا محتجزين بطريق الخطأ من قِبل القوات الأمريكية عن الضرب الذي تعرضوا له، والكثير منا من المشتغلين بحقوق الإنسان بات مدركًا أنه مهما كان حجم المعاملة السيئة المسموح أو غير المسموح بها، فإن حقيقة أن الحماية التي توفرها اتفاقية جنيف كانت موضع شك ترقى إلى سوء المعاملة. إن الجنود المتطوعين – الذين بعد كل شيء، ليسوا محلّفين وخبراء في القانون الدولي – قد يفترضون أن المعتقلين (غير محميين) بالقواعد القانونية، فيقومون بضرب المحتجزين، أو ما هو أسوأ من ذلك.

بقي تركيزي منصبًّا على وكالة المخابرات المركزية، فقد كان عليّ أن أجد المعتقلين، فلو استطعنا تحديد أين كانوا، سنمتلك الدليل، ونعلن ذلك، وسوف يستمع إلينا الناس عندما نتحدث عن عدم شرعية البرنامج، ولكن مع عدم وجود وقائع جديدة لتقديمها، كنا دعاة مجرد دعاة حقوق الإنسان نولول حول القضية، وبحلول نهاية عام 2003م، تراكمت حالات إضافية من المعتقلين المفقودين، ولكن، أين هم؟ لا بد أن (السجناء الأشباح) **في مكان ما**، ما إن، (اختفوا)، لم يمضِ وقت طويل حتى بدأ بعض المدافعين عن حقوق الإنسان باستخدام هذا المصطلح.

الاختفاء مصطلح مقلق في مجتمع حقوق الإنسان، ويجسد كما هو الحال شبح الشرطة السرية، والأوامر النازية باعتقال كل النشطاء السياسيين في المناطق المحتلة، ومعسكرات العمل السوفييتية، وطغاة أمريكا الجنوبية، مثل أوغستو بينوشيه، الذي صعّد الاختفاء إلى ذروته التشغيلية (عُرفت قواته بخطف المعارضين، وزجهم في طائرات هليكوبتر، تُقلع بهم بعيدًا عن الشاطئ، ثم تلقي بهم في البحر) جرى تعريف المصطلح من الناحية القانونية، بموجب الاتفاقية الدولية لحماية جميع الأشخاص من الاختفاء القسري، مثل «الاعتقال أو الاحتجاز أو الاختطاف أو أي شكل آخر من أشكال الحرمان من الحرية، وما يتبع ذلك من رفض الاعتراف بحرمان الشخص من حريته أو إخفاء مصيره أو مكان وجود الشخص المختفي» ينطبق المصطلح القانوني في سياق وكالة المخابرات المركزية ومكافحة الإرهاب، ولكن قليلًا من الناس، حتى النشطاء الحقوقيين الأكثر تشددًا، يمكنهم أن يشيروا إلى أن البرنامج مروع ومنتشر على نطاق واسع، مثل أهوال الماضي المرعبة، والباحثون منا في برنامج الوكالة كانوا مقتنعين أن الوكالة اعتقلت، في الحد الأقصى، بضع عشرات من الأفراد.

شككنا أيضًا- دون الاعتراف بذلك علنًا - أن قليلًا من المعتقلين كانوا ضحايا يمكن التعاطف معهم، وكنا نعلم أنه قد يوجد عدد قليل من الضحايا الأبرياء، وحالات الاحتجاز الخاطئ (لقد تبيّن أننا كنا على حق) إلا أن معظم الضحايا كان معظمهم من جماعة لا يمكن التعاطف معها. لم يكونوا مثقفين وكتّابًا مسرحيين، مثلًا ، أو شعراء كرسوا أنفسهم لمعارضة العنف.

كان التركيز الرئيس لعملنا على أفغانستان، حيث كنت أعمل بالفعل. كانت صحيفة **واشنطن بوست قد ذكرت** في أواخر ديسمبر/ كانون الأول عام 2002م أن وكالة المخابرات المركزية تحتجز بعض المعتقلين في قاعدة باغرام الجوية شمال كابول، حيث يوجد للجيش الأمريكي أكبر سجن منفصل للمعتقلين المسجلين، الذين زارتهم اللجنة الدولية للصليب الأحمر الدولي، وقد أُفرج عن كثيرين منهم، وفي ذلك الوقت

حدثت مشكلات تتعلق بسوء معاملة العسكر للمعتقلين، حيث توفي اثنان من المعتقلين في السجن العسكري في قاعدة باغرام في ديسمبر/ كانون الأول 2002م، وفي مارس/ آذار، ويونيه/ حزيران 2003م، قابلت كثيرًا من المعتقلين السابقين الذين وصفوا عمليات الضرب، والتمارين الإجبارية، والحرمان من النوم، والتعرض للبرد الشديد، كانت الروايات موثوقة ومتسقة، وتبيّن أن الجيش الأمريكي استخدم تقنيات الاستجواب المسيئة، فهل انتقلت أساليب وكالة المخابرات المركزية إلى القاعدة بهذه السرعة؟ ربما لوجود مركز للوكالة في باغرام.

ولكن ظل من الصعب للغاية تحديد ما كان يجري، إلا أن مسؤولًا في اللجنة الدولية للصليب الأحمر، مع التزامه بسياسة السرية التامة للمنظمة، أكد لي بشكل غير رسمي في أوائل عام 2003م أن الموقع موجود، ولكن اللجنة لا تعرف شيئًا عنه، بما في ذلك الذين كانوا موجودين فيه. وفي منتصف عام 2003م، قابلت أحد قادة المجاهدين السابقين في كابول الذي كان محتجزًا لدى وكالة المخابرات المركزية بعد أحداث عام 2001م، لكنه لم يعرف الكثير عن برنامج الاعتقال الرئيس لوكالة المخابرات. (لقد عومل بطريقة جيدة، وقد سلم نفسه، وتعاون؛ علاوة على ذلك، كان يتمتع بصلات قبلية مع المسؤولين الحكوميين. وقد وُضع في غرفة بسرير).

استطلعنا مصادر محلية، ووثّقنا وجود كثير من المجمعات السكنية حول كابول تستخدمها الحكومة الأمريكية، ولكنها كانت قطعًا غير عسكرية، وليست مناطق حكومية تابعة لوزارة الخارجية: وكانت تخضع لحراسة مشددة، وكان أمريكيون غير نظاميين بالزي المدني يدخلون ويخرجون بسيارات رباعية الدفع لا تحمل أرقامًا. باختصار: كانوا مثيرين للشك. ذهبت تقديراتنا إلى أن لوكالة المخابرات بعض المكاتب في السفارة الأمريكية، ولكننا استبعدنا ذلك بوصفها منطقة حساسة؛ لأنها كانت في منطقة مفتوحة. في نهاية المطاف، وبمساعدة من الصحفيين المتعاطفين والمسؤولين المحليين، توصلنا إلى أن وكالة المخابرات تدير موقعًا في إحدى ضواحي كابول، على طول الطريق

غير المستخدمة إلى حد كبير بالقرب من التلال الترابية شمال شرق المطار، وعلمنا أيضًا أن للوكالة منشأة أخرى في وسط المدينة في ضاحية أريانا تشوك المجاورة- مجمع سكني بجدران عالية مع كثير من نقاط الحراسة وأكياس الرمل من حوله، فهل كان المحتجزون في هذين المرفقين؟ وهل سنتمكن من اكتشاف ذلك؟ قابلنا المزيد من المعتقلين السابقين، وعلمنا المزيد عن الانتهاكات في السجن العسكري، ولكننا لم نعلم شيئًا عن وكالة المخابرات المركزية.

في مارس/ آذار 2004م، قبل نحو شهر من اندلاع فضيحة سجن أبوغريب، كتبت التقرير النهائي الذي يلخّص بحثي منذ 2003م إلى أوائل عام 2004م، الذي تركز في معظمه على قضايا الاحتجاز المتعلقة بالجيش الأمريكي. هيومان رايتس ووتش أعطت التقرير عنوانًا ساخرًا: (الحرية الدائمة). سلط التقرير الضوء على روايات عدة من سوء المعاملة في أفغانستان، تتراوح من الضرب في قندهار في أوائل عام 2002م، إلى الحرمان من النوم والإجبار على الوقوف في باغرام، إلى وفاة المعتقلين في أواخر عام 2002م. وضمّنّا التقرير جزءًا قصيرًا حول الاشتباه في عمليات الحجز والاعتقال التي تُنفّذها وكالة المخابرات.

حظي التقرير بشيء من الاهتمام المحدود من وسائل الإعلام، وما لبث أن تلاشى في غضون بضعة أيام، ومع ذلك، بعد أسابيع عدّة من صدور التقرير، تلقيت مكالمة هاتفية، وأنا في مقر هيومان رايتس ووتش في نيويورك من الصحفي الأسطوري سيمور هيرش، فلم نكن قد تحادثنا من قبل، وإن كنا في السنوات الأخيرة كثيرًا ما التقينا لتناول القهوة في واشنطن، وكنت قد سمعت عن، طريقته المميزة والممتعة في التواصل.

«أنا سيمور هيرش علمت أنك الشخص المناسب للتحدث معه عن المعتقلين في أفغانستان. اسمع، أريد أن أعرف ما تعرفه عن باغرام، ماذا يفعلون مع المعتقلين هناك؟ الأشياء المهمة، وهكذا فقد سمعت أنك الرجل الممكن التحدث معه».

تابع على نحو سريع، بصراخ تقريبًا، وسألني أسئلة حول أفغانستان، قال لي: كم أصبحت سعة نظام الاحتجاز في العراق؟ كنت أدون من حين لآخر كي أجيب عن بعض أسئلته، أوضحت أنني وزملائي قابلنا كثيرًا من المعتقلين الذين كانوا قد وصفوا الضرب والحرمان من النوم والبرد، وما إلى ذلك، تحدثنا مدة ثلاثين دقيقة، وعلمت بوجود تحقيق في العراق بقيادة جنرال في الجيش يدعى أنطونيو تاغوبا الذي أكد الاعتداءات على المحتجزين على نطاق واسع، وعلمت أن البيت الأبيض كان يعرف عن الفضيحة لشهور، وربما نرى أن تقريرنا عن أفغانستان في شهر مارس/ آذار لم يكن سوى رفرفة طفيفة مقارنة مع التداعيات المحتملة من أبوغريب.

-سوف تنتشر الأخبار في غضون أسابيع، وربما أيام، قال هيرش، لكن سيكون التركيز بشكل رئيس على أبوغريب، مع أن القصة الأكبر كانت عن جعل ارتكاب انتهاكات ضد المعتقلين في تحقيقات الجيش ووكالة المخابرات عملية عادية. سألت هيرش إذا كان يمكنه مساعدتي على الجانب المتعلق بـوكالة المخابرات؟ لنعرف أين كانت السجون السرية، فقال: إنها خارج أفغانستان، وإنه سيحاول.

هيرش والصحفيون في شبكة سي بي إس نيوز فجروا الفضيحة بعد شهر، وترددت أصداؤها في جميع أنحاء العالم، وظهر الرئيس بوش على التلفازات العربية، معتذرًا للشعب العراقي نيابة عن الولايات المتحدة، وفي الوقت نفسه تقريبًا، قال وزير الخارجية كولن باول: إن نزاهة النظام القضائي الأمريكي سوف تغسل وصمة العار الناجمة عن تلك الانتهاكات.

وأضاف وهو يتحدث إلى جمهور في ولاية كارولينا الشمالية أنه أبلغ الزعماء الأجانب: «راقبوا أمريكا، وشاهدوا كيف نتعامل مع هذا، شاهدوا كيف أن أمريكا ستفعل ما هو صواب».

في أعقاب الكشف عن هذه الفضيحة، أُخضع برنامج وكالة السي آي إيه فجأة إلى مراقبة دقيقة، ومنذ شهر مايو/ آيار ويونيه/ حزيران 2004م خاضت كثير من وسائل الإعلام في المزيد من النقاش عن برنامج الاعتقال والاستجواب، وكتبت تقارير إخبارية عن التحقيق مع معتقلين، معظم هذه التقارير كررت ببساطة المزاعم التي نشرتها صحيفتا **واشنطن بوست** و**نيويورك تايمز** قبل نحو سنة.

ومع ذلك، فقد تكشّفت بضع حقائق جديدة، منها أن فريق تلفاز سويديًّا في أوسلو تتبع واحدة من طائرات وكالة المخابرات المركزية- تابعة لشركة جلف ستريم رقمها N379P - وربطها ببرنامج التسليم في الوكالة الممتد من ستوكهولم إلى القاهرة، ما شكل تطورًا مهمًّا أصبحت له تداعيات وخيمة في السنوات اللاحقة، حيث تبيّن أن طائرة الجلف ستريم كانت طائرة السي آي أيه الغامضة المذكورة في تقرير صحيفة **واشنطن بوست** في مارس/ آذار 2002م، الذي وصف برنامج الترحيل السري لوكالة المخابرات المركزية مع بعض التفاصيل. من بين جميع أحدث ما كُشف عنه، خلص كثيرون منا في أوساط حقوق الإنسان إلى أن وكالة المخابرات المركزية قد توقفت عن تسليم المعتقلين إلى دول ثالثة للاستجواب والاحتجاز، وهي الآن تقوم بالاحتجاز والاستجواب مع عدد منهم بنفسها. افترضنا أن الوكالة كانت تستخدم الطائرات نفسها- طائرات التسليم - لنقل السجناء السريين، لذلك أولينا اهتمامًا شديدًا للبلاغات الجديدة عن التسليم، وفي هذا الوقت أيضًا بدأت التقارير تتحدث بأن وكالة المخابرات المركزية لا تمارس الاستجوابات ارتجاليًّا، بل بدأت باستخدام مجموعة (معتمدة) خصيصًا من أساليب الاستجواب بوصفها جزءًا من جهد هواة مبتدئين للتحايل على القانون الفيدرالي الأمريكي عن التعذيب، بما في ذلك كثير من التقنيات التي كانت وزارة الخارجية الأمريكية وجماعات حقوق الإنسان قد أطلقوا عليها أساليب التعذيب لسنوات: الحرمان من النوم، والإجبار على الوقوف، وطريقة الإغراق بالماء - إلى درجة قريبة جدًّا من الموت.

أتذكر بالضبط متى سمعت لأول مرة عن الإيهام بالغرق، بعد وقت قصير من معرفتنا بالأهوال في سجن أبوغريب، اتصل بي صحفي - أعتقد أنه كان مايكل هيرش من مجلة **نيوزويك** - وسألني إن كنت قد سمعت عن طريقة تنطوي على صب الماء على رأس المعتقل وفمه، نوع من أسلوب محاكاة الغرق؟ أتذكر أني أجبته أني سمعت عن المعتقلين العسكريين في قندهار، حيث يجري صب الماء عليهم وهم عراة، بوصفه جزءًا من أساليب تعريضهم للبرد الشديد. «استخدمت تقنيات مماثلة في غوانتانامو: تركت المعتقلين عراة في غرف بمكيف للهواء يعمل بدرجة حرارة تظل تنخفض حتى تجعل المعتقلين يصلون إلى رجفات الموت». لكن في 12 مايو/ آيار 2004م، ذكرت صحيفة **نيويورك تايمز** أن هذه التقنية استخدمت ضد خالد شيخ محمد، فدخل المصطلح في معجم وسائل الإعلام، وصحيفة تايمز أعادت ذكر تفاصيل ما كنا نعرفه منذ سنوات، وفي خبر في صحيفة **واشنطن بوست** كانت قد نشرته قبل أكثر من عام ذكرت أن المعتقلين يتعرضون للتعذيب من قِبل وكالة المخابرات المركزية.المستوى الجديد من التقارير جعلنا نشعر بإلحاح الحاجة للحصول على المعلومات: بصفتنا جماعة مدافعة عن حقوق الإنسان، كنا نعرف أننا يمكن أن نستجلب الغضب إذا عرضنا وقائع برنامج الاعتقال، لكن التكتم الشديد على الوضع كان يشي بأن الانتهاكات كانت أسوأ مما ذكر، وبالنظر إلى ما عرفناه عن الاحتجاز في أفغانستان، بقينا نشك في أن بعض المعتقلين قد لا يكونون من المشتبه بهم من مستوى عالٍ، وإنما من المستوى الأدنى من المؤيدين سياسيًّا أو حتى من المارّة الأبرياء، وبمرور الوقت، ظهرت المزيد من الإفصاحات، فتكشف أن مكتب الاستشارات القانونية في البيت الأبيض قد شارك في عملية اختيار واعتماد تقنيات احتجاز يجري استخدامها، وكان المكتب قد أعدّ مجموعة من المذكرات عام 2002م (عندما اعتقل أبوزبيدة، المعتقل الأول للسي آي أيه) تحتوي على كثير من الحجج القانونية الملتوية من جانب واحد (كانت خاطئة لدرجة أن المكتب نفسه اضطر إلى دحضها في وقت لاحق من إدارة بوش). وفّرت المذكرات نوعًا من الغطاء القانوني

المعقد لأنشطة وكالة المخابرات المركزية التي كانت قد قررت بالفعل استخدامها ضد المعتقلين، والتي بدأت باستخدامها فعلًا على الأقل مع معتقل واحد.

«في السنوات اللاحقة كشفت الوثائق المفرج عنها أن الهدف من المذكرات لم يكن توفير تفسير موضوعي أو حتى معقول للقانون، ولكن لتوفير غطاء قانوني لغير المحامين، الذين يمكنهم في وقت لاحق الإشارة إلى المذكرات، ويقولون: إنهم كانوا قد اعتمدوا على ضمانات قانونية. أما بالنسبة إلى المحامين أنفسهم، فإنهم لن يكونوا متورطين في التعذيب الفعلي نفسه، وستكون مسؤوليتهم القانونية قليلة» وتبين أيضًا أن مذكرات مماثلة كانت قد أعدت في أواخر عام 2002 م وأوائل عام 2003م للسماح بالتحقيقات المسيئة في غوانتانامو، وأن التقنيات قد انتشرت من هناك إلى العراق في أكتوبر/ تشرين أول 2003م. بعد ذلك، خضعت مذكرات المكتب القانوني من عام 2002م ولاحقًا إلى مراجعة من خبراء القانون، وكلهم تقريبًا حددوا أن الادعاءات القانونية في المذكرات كانت خاطئة، وعام 2005م، دعت هيومان رايتس ووتش إلى إجراء تحقيقات مع دونالد رامسفيلد ومدير وكالة المخابرات المركزية جورج تينيت، مع التركيز على المعلومات المباشرة التي تربطهم بالتعذيب.

وعام 2011م انتُقِدت هيومان رايتس ووتش من بعض المعلقين من أقصى اليسار؛ لعدم دعوتها لإجراء تحقيق مع الرئيس بوش نفسه في هذه النقطة السابقة، ولكن على الرغم من أن قليلين منا كانوا يشكون في أن الرئيس كان على اطلاع بما يجري، إلا أنه لم يفرج عن معظم الوثائق الصعبة التي ارتبطت بالتعذيب أو نشرها حتى عام 2008م إلى عام 2010م، وكان من الأكثر واقعية في البداية ملاحقة كلٍّ من رامسفيلد وتينيت سواء من وجهة نظر المدافعين عن حقوق الإنسان ومن وجهة نظر الأدلة المقبولة المتاحة، التي كانت عام 2004م ليست قوية بشكل خاص. بوش نفسه لم يحضر الاجتماعات الرئيسة التي اعتمدت فيها التخويلات القانونية، ولم نتوصل إلى وثائق موقعة منه، فالحكومة لم

تعترف حتى بوجود مراكز احتجاز تابعة لوكالة المخابرات، لذلك فمهما كان التعذيب باديًا للعيان، فإن أي دليل قد نستشهد به كان يمكن أن يكون ظرفيًّا.

إلا أن الذي لم ندركه تمامًا حتى أواخر عام 2004م، هو أن برنامج وكالة المخابرات المركزية، والمذكرات، والنقاش حول تعذيب معتقلي السي آي أيه، وفضيحة أبوغريب لم تكن سوى قمة جبل الجليد، وبحلول عا 2005م، كنت أنا وزملائي قد جمعنا التقارير المتعلقة بمخالفات الاستجواب القاسية ليس فقط في مراكز السي آي أيه، ولكن أيضًا في مراكز الاحتجاز العسكرية العادية في جميع أنحاء العراق وأفغانستان، وعلاوة على ذلك، فقد استخدم المحققون كثيرًا من أساليب الوكالة: الإجبار على الوقوف، والتعريض للحرارة أو البرد الشديدين، والحبس في صناديق صغيرة، والتكبيل في أوضاع مؤلمة أسابيع عدة، وغيرها.

وحدثت عمليات ضرب وعمليات إعدام وهمية كذلك، وفي تقارير لاحقة، بما في ذلك تقرير شامل من قِبل لجنة الخدمات المسلحة في مجلس الشيوخ الأمريكي عام 2008م، توافرت أدلة من وثائق حكومية ومقابلات مع ضباط الجيش ووكالة المخابرات بأن معظم أساليب وكالة المخابرات المسيئة امتدت إلى الاستخدام العام في العراق وأفغانستان، حيث استخدمت على الآلاف من المعتقلين.

وتبيّن بعد ذلك أن أساليب التعذيب تسهم في شعور عام بالإفلات من العقاب من جانب الموظفين الأمريكيين، الذين شاركوا في أشكال إضافية من سوء المعاملة غير المسموح بها، مثل الضرب والاعتداء الجنسي، ففي وثائق حكومية نشرت بموجب قانون حرية المعلومات، علمنا عن حالات عدّة تعرّض لها أبرياء ومتمردون من مستوى منخفض منذ عام 2002م حتى عام 2005م، عندما قبض الأمريكان على المدنيين العراقيين والأفغان، وتعرضوا للتعذيب بمعظم الأساليب نفسها: إجبارهم على أن يظلوا مقنّعين، وتجريدهم من ملابسهم، وإجبارهم على الوقوف أيامًا عدة، وإجبارهم على الركض

في المكان، وتعريضهم للحرارة أو البرد الشديدين، وتعرّض المئات من الرجال والفتيان العراقيين والأفغان إلى الضرب من خلال نظام يشبه نظام الاحتجاز والاستجواب لأي دولة فاشية أو استبدادية.

لم يكن هذا التشابه من قبيل المصادفة، ففي ربيع عام 2005م، كشف الأستاذ في كلية الحقوق في جورج تاون، جريج بلوتشي، والمحامي البريطاني جوناثان ماركس، عن معلومات حول الاستخدام الروتيني لعلماء النفس في التحقيقات فى خليج جوانتانامو، وكان بعض علماء النفس موظفين في الوحدة المشتركة لإنقاذ الجنود الأمريكيين خلف خطوط العدو، وهي الوحدة التي استجوبت أسرى الحرب السابقين، ودرستهم، وساعدت أيضًا على إدارة مدارس التدريب في برنامج الهروب ومقاومة الوقوع في الأسر للوحدات العسكرية الخاصة، وخاصة الطيارين الذين يتعرضون لخطر إسقاط طائراتهم فوق أراضي العدو، وفي المدارس التابعة لهذا البرنامج، أُخضع المتدربون لمحاكاة استجواب استنادًا إلى الأساليب التي ذكرها أسرى الحرب السابقون. وعلماء النفس العاملون مع الوحدة المشتركة تعلموا كيف استجاب المتدربون للأساليب المختلفة، وأجرى بلوتشي وماركس مقابلات عدّة مع علماء النفس المشاركين في البرنامج، وفي أوائل عام 2005م ومنتصفه نشرا مقالاتهما في مجلة **نيو إنغلاند الطبية** التي أثارت المخاوف العرقية من استخدام العاملين في المجال الطبي في الاستجواب، وأضاف نيل لويس من صحيفة **نيويورك تايمز** إلى ذلك معلومات من مقابلاته الخاصة.

جين ماير، وهي صحفية في مجلة **نيويوركر**، تابعت القضية، إلى أبعد من ذلك في منتصف عام 2005م، فأظهرت على وجه التحديد كيف أن مختلف أساليب الاستجواب التي تستخدمها قوات الولايات المتحدة استُمدت مباشرة من الدراسات والبحوث التي أجريت من قِبل علماء النفس في الحدة والبرنامج سالفي الذكر، وأظهرت ماير أن معرفة الوحدة المشتركة المستمدة من استخلاص المعلومات من الضحايا، التي هدفت مبدئيًّا للمساعدة على تدريب أسرى الحرب المحتملين على التعامل مع الأسر مستقبلًا،

قد أعيدت هندستها لمساعدة المحققين على تعريض المعتقلين لأوضاع معينة، وذكرت ماير تحديدًا اثنين من علماء النفس السابقين من مجموعة البرنامج، بروس جيسين وجيمس ميتشل اللذين أصبحا من المتعاقدين مع وكالة المخابرات المركزية، وشاركا مباشرة في عمليات الاستجواب التي أجرتها الوكالة. «قال الصحفيان آدم جولدمان ومات أبوزو لاحقًا: إن ميتشل هذا شارك فعليًّا في التعذيب، مثل سكب الماء على أفواه المعتقلين خلال جلسات الإيهام بالغرق»[2]، وكما ذكرت ماير، وتحققت منه تقارير لجان مجلس الشيوخ في وقت لاحق بعمق، فإن وكالة المخابرات المركزية والجيش استشاروا علماء النفس في الوحدة المشتركة، وإنهم في نهاية المطاف صمموا معظم أساليب الاستجواب التي انتشرت من خلال برنامج الاعتقال الأمريكي في بداية عام 2002م. المفارقة الأساسية هي أن الأساليب القائمة على برنامج تجنب الوقوع في الأسر لم تكن من اختراع الوحدة المشتركة، بل كانت مجرد تقنيات صينية قديمة وتقنيات سوفييتية تعلمتها هذه الوحدة من استخلاصها المعلومات من أسرى حرب سابقين.

إن (خبرة) الهروب ومقاومة الوقوع في الأسر، إذا جاز التعبير، كانت في معرفة الكثير عن كيفية استجابة الجنود الأمريكيين للأساليب، سواء في الاعتقال الفعلي أو التدريب[3].

لا غرابة في أن البرنامج لم يلتزم به المحققون جميعًا، فمع انتشار الأساليب، كذلك انتشر الإفلات من العقاب، حيث إن استجوابات كثيرة لم تقتصر على تقنيات البرنامج، وإنما شملت الضرب البدني الصريح، وأحيانًا المميت منه. عشرات المعتقلين قتلوا في نهاية المطاف في العراق وأفغانستان في أثناء الاحتجاز: بعضهم توفي من انخفاض حرارة الجسم، وبعضهم من فشل في الجهاز التنفسي بسبب جلطات الدم في الرئتين الناجمة عن الضرب، وبعضهم الآخر من إصابات فشل القلب أو الدماغ عن طريق التعرض القسري للبرد[4] ضمن الدراسة التي أجريناها، حللت أنا وزملائي شهادات الوفاة وتقارير التحقيق الجنائي للقتلى، وفي بعض الحالات، كان الأفراد الأمريكيون

المسببون للوفيات أو الضرب يُحالون إلى المحكمة العسكرية، ولكن التحقيقات في كثير من الأحيان أغلقت من دون محاكمات، أو صدرت بحق مرتكبيها عقوبات طفيفة فقط، في حالة واحدة شنيعة من أفغانستان، ضرب بضعة حراس اثنين من الأفغان حتى الموت في أواخر عام 2002م، ووضعوا رهن الاحتجاز أشهرًا قليلة، وحكم على آخرين بغرامات بلغت في الحقيقة خصومات الراتب الشهري.

يبدو أحيانًا، وكأن الويلات المادية المحضة للتعذيب قد اختفت من الأحداث المخزية لذلك الوقت: كان هناك الكثير من الحديث عن التعذيب، ولكن الكلام عن التفاصيل قليل. مع ذلك، فقد كانت التفاصيل مروعة، فالإيهام بالغرق كان إغراقًا، تجربة لا مثيل لها في إحداث الرعب والألم، وتعليق الناس بالسلاسل، والضرب، والإجبار على الوقوف – سمعنا عن صدمات شديدة للمعتقلين لم يتمكنوا حتى من وصف ألمها، حتى الحرمان من النوم، الذي قد يبدو لبعض الناس غير مؤذٍ، فقد ثبت في نهاية المطاف أنه الأكثر شيوعًا، ووفقًا للمحتجزين، من أكثر الأساليب المدمرة، وبحسب الروايات، فإن الحرمان من النوم أيامًا عدة في معسكرات العمل الشاقة السوفييتية تُعدُّ واحدة من أسوأ أشكال التعذيب، حيث يبدأ الدوخان في التشكل في رأس السجين الذي يخضع للاستجواب، وتصبح روحه منهكة حتى الموت، وساقاه غير ثابتتين، ويكون لديه رغبة واحدة وحيدة هي: النوم، والنوم قليلًا. أي شخص لديه خبرة بهذه الرغبة يعرف أنه حتى الجوع أو العطش لا يضاهيانها. «في **أرخبيل الغولاغ**، يركز الروائي ألكسندر سولجينتسين على (الأرق) بوصفه وسيلة تعذيب، ويلاحظ بأسى، أن أولئك (في العصور الوسطى) فشلوا في إدراكها: عدم فهمهم للحدود الضيقة التي يمكن للإنسان فيها المحافظة على شخصيته متماسكة»[5]. دون شك، لم تكن كل تجارب معتقلي وكالة المخابرات في التعذيب متشابهة: بعضهم صمد، وعاش، وروى انتهاكاتها بإيجاز في السنوات اللاحقة، وعلى الرغم من معاناتهم إلا أنهم معافون، بينما آخرون دمرتهم تجاربهم نفسيًّا. طبيبة نفسية من الولايات المتحدة، سوندرا كروسبي، أجرت

مقابلات مع معتقل سابق يدعى سليمان بعد خروجه من الاعتقال عام 2008م أبرزت الآثار المترتبة على (سلسلة من الانتهاكات) التي تعرض لها في أكثر من خمس سنوات من الحجز لدى السي آي أيه، معظمها في أفغانستان، بما في ذلك «الضرب المبرح والحبس الانفرادي مددًا طويلة، والعري القسري والإذلال والاعتداء الجنسي وحبسه عاريًا في تابوت وإجباره على الاستلقاء على حصيرة رطبة، عاريًا ومكبل اليدين، ثم يُطوى مثل جثة»[6]. وكان أيضًا قد تعرض للحرمان من النوم، والحرمان من الطعام، والاعتداء الجنسي (الاغتصاب الشرجي واللواط) وأُعطي الدواء عن طريق الوريد في أثناء الاستجواب الذي اعتقد أنه قد يكون (مصلًا حقيقيًّا)، علاوة على التكبيل المؤلم[7]وتواصل الطبيبة:

في (غرفة الماء) حاولوا إدخال صنبور إبريق الماء في دبره، وأفاد أنهم ربطوا ذراعيه إلى أنابيب المجاري العامة، وجعلوه يظل واقفًا مدة 4 أيام بحسب تقديره. لم تكن قدماه تلامسان الأرض ما سبب له آلامًا شديدة في الظهر والكتفين، ولم يسمح له باستخدام المرحاض، بينما كانت الموسيقا الصاخبة تعزف طوال الوقت.

- إنه الموت بعينه، قال، ومضى يصف حبسه عاريًا في (نعش) ولم يكن يستطيع أن يتحرك، وكان من الصعب عليه أيضًا أن يتنفس. وفي مرحلة معينة خلال احتجازه، بدأ جسده يتعفن تحت جلده، ولم يهتم به أحد مدة طويلة جدًّا[8]، ولاحظت الطبيبة كروسبي الاكتئاب على سليمان و(مشاعر النقص والعار) وهو يعاني ليصف ما مر به: كانت تجربة قاسية وصعبة للغاية، ففي بعض الأوقات أجهشنا جميعًا بالبكاء- الأطباء، والمريض[9] كانت آثار التعذيب شديدة: وتضمنت أعراضه الظاهرة اضطرابًا شديدًا في النوم والحزن، وفقدان الشهية مع فقدان كبير في الوزن، وصعوبة في التفاعل مع الآخرين (بما في ذلك الأسرة والأصدقاء) ما أدى به إلى عزلة عميقة. قال لي راشد: إنه يستيقظ في الثانية فجرًا، ثم يمشي. (أشعر أن رأسي فارغ، مثل صندوق فارغ) حياته تداعت منذ عودته من الحجز في الولايات المتحدة، فهو غير قادر على العودة إلى

مستواه السابق في العمل والعودة مرة أخرى إلى أسرته ومجتمعه، وتنطبق عليه المعايير التشخيصية لاضطراب قلق ما بعد الصدمة والاكتئاب الشديد، ولكن تلك التشخيصات القائمة على المعايير الغربية لا تصف بشكل كافٍ معاناته الواضحة.

ومع ذلك، كانت الحالات المثيلة لحالة سليمان نادرة في العشر سنوات التي أعقبت هجمات 11 سبتمبر/ أيلول؛ لأن معظم سجناء وكالة المخابرات ظلوا في الاحتجاز إلى أجل غير مسمى، ولم يتمكنوا من التحدث إلى أي شخص باستثناء محاميهم، الذين اعتبرت الملاحظات التي يسجلونها وحالات التعذيب لموكليهم مصنفة على أنها سرية من قبل الحكومة الأمريكية، وهي ممارسة استمرت وقتًا طويلًا في إدارة أوباما.

وفي أواخر عام 2004م، حققتُ إنجازًا طفيفًا في بحثي خلال لقاء مع (كورت)، وهو مصدر مطلع على نظام الاعتقال الأمريكي في باغرام والمعتقلين السابقين الذين كانت تحتجزهم وكالة المخابرات المركزية. (لقد غيرت اسم المصدر لحماية هويته) أحضرت معي إلى الاجتماع قائمة بأسماء المعتقلين المفقودين: أكثر من عشرين شخصًا من الذين كانوا معروفين بأن الحكومة الأمريكية قد اعتقلتهم في الخارج، ولم تعرف مصائرهم بعد. كورت وأنا التقينا في غرفة صغيرة في مجمع في كابول في عصر يوم سبت هادئ، فقد كنت أعرف أنني لا يمكن أن أبدأ ببساطة بطرح الأسئلة الحساسة، وأن أي معلومات سوف أحصل عليها لن تكون للنشر، وعلى الأرجح بطريقة حذرة إلى حد ما؛ لذلك بدأت بتبادل بعض المعلومات العامة حول قضايا الاحتجاز، ورويت لكورت بعض القصص عن السجناء السابقين الذين كنت قد قابلتهم، وناقشنا الوضع القانوني العام في غوانتانامو، والدعاوى القضائية والتطورات الجديدة من الجانب الأمريكي، وبعد مدة، أثرت قضية الاعتقال السري، وقدّمت له قائمة كنت قد أعددتها، وسألته إن كان يستطيع تأكيد ما إذا كان أي من المعتقلين على القائمة قد اعتقل من قِبل الولايات المتحدة؟ أخذ كورت القائمة، وانحنى إلى الخلف في كرسيه.

«انتظر لحظة، لحظة فقط» قال لي، ثم استدار، والتقط ملفًّا من رف المكتب، وفتحه، أخذ ينظر إلى، قائمتي وملفه، ويقارن بينهما، ويقلب الصفحات في بعض الأحيان.

– «هل يمكنني التأشير على هذا؟» سألني، وخط بقلم رصاص على قائمتي.

– «دون شك»، قلتُ.

– هذه قائمة غير رسمية، أليس كذلك؟ سوف أقوم بالتأشير على أسماء الذين شوهدوا.

سار اللقاء أفضل مما كنت أتوقع، وبقيت ساكنًا تمامًا في مقعدي، محاولًا عدم إظهار انفعالي.

– وهكذا، فالمعتقلون في باغرام رأوا بعضهم؟ سألتُ صراحة.

– «رأوهم من قبل»، قال كورت. قبل وجودهم في قاعدة باغرام.... أنت تفهم؟ يقولون: «أنا لا أعرف، في مكان ما» هل فهمت، نعم؟ في مكان ما – هنا، في أفغانستان، ومكان قريب، ليس في حاجة لركوب الطائرة، في مكان ما قريب، نحن لا نعرف أين؟، ولكننا نفهم. أنت تفهم. وتابع: أنت تفهم، وكالة حكومية أخرى، نعم؟ OGA؟

– «نعم»، قلتُ، CIA وكالة المخابرات المركزية.

–«وهكذا، فبعض الرجال الذين هم هنا، أو كانوا هنا، قالوا لنا: إنهم رأوا بعض الرجال، رجالك أنت. سوف أؤشر عليهم بـ (x) رجالي أنا».

وهكذا جلس كورت مرة أخرى في كرسي مكتبه، وأخذ يراجع القائمة ببطء، ويعود إلى ملفه، وأخذ يؤشر على قائمتي. وبعد نحو ثلاث دقائق، أعادها إليّ، وقد أشار إلى أسماء عدد من المعتقلين ومعظمهم من المعروفين، بما في ذلك خالد الشيخ محمد.

«–لكن... لا أحد من هؤلاء الرجال لا يزال هنا، أليس كذلك؟» سألتُ،» هنا في أفغانستان، الآن، هل هم موجودون؟ «كنا نسمع منذ شهور أن معظم معتقلي وكالة المخابرات المركزية قد نُقلوا إلى بلد آخر. هز كورت رأسه، وقال:

– «لا، ولكن من الصعب أن نقول: متى تم نقلهم. بعضهم كان هنا لوقت قصير فقط» .

أوضح كورت أن بعض السجناء الجدد في قاعدة باغرام عام 2004م قالوا: إن المعتقلين الآخرين الذين شاهدوهم في سجن الوكالة القريب قد نُقِلوا، وربما يصل عددهم إلى اثني عشر معتقلًا، وبعد ذلك أضيف إليهم عدد قليل في إبريل/ نيسان هذا، يقصد إبريل/ نيسان 2004م، حالما صدر قرار مهم من المحكمة العليا بمنح المعتقلين في جوانتانامو الحق في الطعن في قضاياهم بتقديم طلب إحضار أمام المحكمة. قبل شهر واحد فقط من اجتماعنا، نقلت الولايات المتحدة نحو عشرة معتقلين إلى السجن العسكري في غوانتانامو، ومعظمهم كان في عهدة وكالة المخابرات المركزية، كما علمت في وقت لاحق، افترضت أن بعض هؤلاء هم الرجال الذين رأوا المعتقلين الذين ما زالوا مفقودين، فلم نكن نعرف في ذلك الوقت، ولكن وكالة المخابرات المركزية كانت تنقل الكثير من المعتقلين من مكان إلى آخر في سبتمبر/ أيلول 2003م وإبريل/ نيسان 2004م، وفي الوقت الذي كنا نعرف فيه فقط خمسة مراكز منفصلة، في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وأوروبا الشرقية.

وبعد أسابيع قليلة من لقائي مع كورت، كتب صحفي بريطاني يدعى ستيفن غراي مقالًا في صحيفة التايمز اللندنية، كشف فيه عن تفاصيل جديدة من برنامج نقل السجناء، وقد حصل على بيانات أكثر شمولًا عن رحلة طائرة جلف ستريم، وربطها بكثير من عمليات التسليم الإضافية، افترضت أن وكالة المخابرات المركزية استخدمت الطائرة أيضًا لنقل السجناء في نظام الاحتجاز الخاص بها.

وفي فبراير/ شباط 2005م، عندما كنت في الولايات المتحدة، تلقيت اتصالًا من مايكل هيرش من مجلة **نيوزويك**، أراد هيرش أن يعرف إن كنت أستطيع أنا وزملائي الحضور إلى مكتبه في واشنطن لمناقشة بعض المعلومات التي بحوزته عن برنامج الاعتقال لوكالة المخابرات المركزية. دون شك وافقنا على الفور بعد أن جعل هيرش الأمر يبدو مهمًّا، وجلست أنا وزميل لي مع هيرش وزميله مارك هوزنبول بعد بضعة أيام في مكتب **نيوزويك**، الذي يبعد بضع بنايات عن البيت الأبيض، ولدهشتي، كان الاثنان قد حصلا من الصحفي المستقل ستيفن غراي، على بيانات أشمل من سجلات الرحلة، ليس فقط بالنسبة إلى رحلات جلف ستريم سيئة السمعة، ولكن أيضًا لطائرة بوينغ 737 أخرى رقم تسجيلها: N313P عندما تفحصت البيانات، سألني هيرش إن كنت قد توصلت إلى شيء أيضًا من المواقع؟

«الكثير من التوقف في المغرب» قلتُ، «وفي الأردن أيضًا».

-«نعم، رأيت ذلك»، قال هيرش، وسأل إن كانت أي من الرحلات لها علاقة بحالات معينة من عمليات وكالة المخابرات للتسليم السري أو الاعتقالات. لاحظت معلومة في أواخر يناير/ كانون الثاني عام 2004م عن توقف واحدة من الطائرات، N313P، في سكوبي، في مقدونيا، وتاريخها وتوقيتها يتفقان مع تقارير تحدث عن نقل محتجز سابق ألماني الجنسية، يدعى خالد المصري، جوًّا من أوروبا إلى كابول، كانت هذه الحالة في الواقع قضية خطأ في تحديد الهوية، حيث تبين في وقت لاحق أن المصري كان بريئًا، وأن أحد ضباط وكالة المخابرات المركزية المتحمسين هو الذي أصدر أمرًا باعتقاله وتسليمه إلى سجن سري للوكالة في كابول، حتى بعد أن أعرب الضباط المكلفين باحتجازه عن شكوكهم في هويته لم يُعرف سوى القليل من هذا في ذلك الوقت، لكن الحكومة الألمانية عام 2004م ضغطت على الحكومة الأمريكية للإفراج عنه، وحتى المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل كانت طرفًا في هذه القضية.

وأخيرًا، وفي منتصف عام 2004م أُعيد المصري إلى ألبانيا، وتركوه في طريق ناءٍ إلى أن أخذه ضباط المخابرات الألبانية بوصفهم سعاة عند وكالة المخابرات المركزية، كما كانوا كذلك في الماضي، ومن ثم وُضع على رحلة العودة إلى ألمانيا. كان هيرش يعرف هذه القضية، فمحامي المصري الألماني مانفريد جنيديك، كان قد تحدث علنًا عن ذلك، ورفع شكوى جنائية لدى السلطات الألمانية؛ لإجبارها على فتح قضية جنائية. (جرى التحقيق لسنوات، في السر، لكنها لم تؤدِّ إلى أي تسريبات علنية). أكدت من جانبي أن التواريخ في البيانات متلائمة مع ما فهمته من التواريخ التي جرى فيها نقل المصري جوًّا إلى كابول لأول مرة. قلتُ لهيرش ما كنت قد سمعته في كابول عن السجناء الذين يجري نقلهم من مكان لآخر في سبتمبر/ أيلول 2003م وإبريل/ نيسان 2004م. وبدأت بتدوين ما يمكنني تدوينه. هيرش فهم أن للسجلات قيمة كبيرة من منظور جمع الأخبار، ورفض إعطاءنا نسخة أصلية، وبعد ذلك بوقت قصير، كتب هيرش وهوزنبول مقالة في **نيوزويك** عن البيانات، اُستُهلت بوصف لقضية المصري، وأوردت أقوالًا نقلًا عني وعن محامي المصري.

أخذت الملاحظات، وأعدتها إلى مكتبي، وشرعت أدرس المعلومات التي أشّرتُ عليها من قبل عن رحلات عدة أخرى في سبتمبر/ أيلول 2003م وإبريل/ نيسان 2004م، والتي بدت مثيرة للاهتمام: رحلات من كابول إلى مكان ما في أوروبا، والرحلات الجوية من غوانتانامو وإليه،وراجعت التواريخ في دفتر ملاحظاتي، وأعدت قراءة البيانات من جديد وفقًا لملاحظاتي. كتبت نقاط توقف كثيرة فقط كرموز مطارات من أربعة أحرف، وليس الوجهة النهائية. مثلًا،(KIAD) لواشنطن و(MUGM) لجوانتانامو، وكان بعضها غير مألوف تمامًا بالنسبة إليّ. تضمن أحد البيانات المُدخلة، عن رحلة مثيرة للاهتمام كنت قد لاحظتها في سبتمبر/ أيلول 2003م، الرمز والوجهة (EPSY) سزيماني.

أدخلت (EPSY) و(رمز المطار) في باحث جوجل، فظهرت جميع النتائج المذكورة (مطار سزيماني/ بولندا). حمّلت خريطة بولندا، وبحثت عن Szczytno وكانت بلدة

صغيرة في الشمال تحيط بها البحيرات. وبدت منطقة ريفية، وكانت مكانًا غريبًا لهبوط طائرة فيه، وكان واضحًا أنه ليس توقفًا للتزود بالوقود بين موقعين، وإنما هو الوجهة المقصودة بحد ذاتها: بعد توقف قصير جدًّا أقلعت الطائرة إلى الجنوب، وتوجهت إلى المغرب. مشيت عبر القاعة للعثور على زميلتي جوانا يشلر، التي كانت ممثلة هيومان رايتس ووتش في الأمم المتحدة في ذلك الوقت، وكانت جوانا بولندية المولد وداعية حقوق إنسان مخضرمة مع خبرات يعود تاريخها إلى أيام هلسنكي ووتش (السابقة لهيومان رايتس ووتش التي وثقت قضايا حقوق الإنسان في الكتلة الشرقية في أواخر السبعينيات من القرن الماضي، في أعقاب اتفاقات هلسنكي في العام 1975م). أريت جوانا نسخة مطبوعة من البيانات وخريطة بولندا، مع دائرة بخط اليد حول Szczytno.

«Masuria، في أقصى الشمال في مقاطعة البحيرة» قالت، ثم أضافت: «إنه لأمر غريب للغاية» ثم قالت لي بعد ذلك: إنها سوف تتصل بصحفي في وارسو تعرفه قد يكون لديه المزيد من المعلومات عن الموقع. عدت إلى مكتبي، فاتصلت بي بعد ذلك بوقت قصير، قالت: إنها تحدثت مع صديقها عن Szczytno التي تقع بجوار قاعدة تسمى Stare Kiejkuty، وإنها تُستخدم من قبل وكالة الاستخبارات البولندية لأغراض التدريب. كانت القاعدة في الحرب الباردة موقعًا لعمليات من نوع ما.

«حسنًا، هذا أمر مثير للاهتمام» قلت لها ذلك، وطلبت منها تهجئة الأسماء لي، كانت جوانا أكثر سخرية، حيث قالت: إنه لأمر غريب، لكن مع هؤلاء الناس؛ تعني السلطات البولندية «كل شيء ممكن».

علمت لاحقًا أن هذه القاعدة لها إرث طويل في الجيش والاستخبارات في العالم، وليست لأغراض نبيلة، فبعد الغزو الألماني لبولندا عام 1939م، كانت المقر المحلي لأجهزة الاستخبارات الموحدة للرايخ الثالث، وكانت تُستخدَم أيضًا من قِبل الاتحاد السوفييتي خلال الحرب الباردة، واستخدم الجيش السوفييتي القاعدة الجوية في

سزيماني عام 1968م خلال (ربيع براغ)، عندما غزا الاتحاد السوفييتي وحلف وارسو تشيكوسلوفاكيا؛ لإنهاء المظاهرات، وبحلول صيف عام 2005م، عندما بدأت تتكشف قصة برنامج الهروب والمقاومة والبقاء حيًّا - بتنا أكثر اقتناعًا بأن معتقلي وكالة المخابرات المركزية كانوا محتجزين في بولندا، وكشف اثنان من زملائي في هيومان رايتس ووتش، وكانا على صلة بمصادر حكومية أننا كنا نقترب من شيء ما: فالأسئلة حول بولندا قوبلت بالصمت غير المريح أو النفي المريب، وسمعت حلقة صغيرة جدًّا من الصحفيين شائعات، وأخذت تطرح الأسئلة، ومراسلة **واشنطن بوست** دانا بريست بدأت بجمع معلومات محددة من مجموعة متنوعة من المصادر الاستخبارية، وتوجهت سرًّا إلى وارسو؛ لجمع معلومات إضافية في ذلك الصيف-. لم تكن الرحلة معروفة إلا لعدد قليل من الناس في ذلك الوقت، وفي وقت لاحق من ذلك العام، نشرت بريست مقالًا كشف أن مراكز الاحتجاز التي تشرف عليها وكالة المخابرات المركزية كانت موجودة في (أوروبا الشرقية). كان البيت الأبيض قد أقنع محرري الصحيفة بعدم تسمية بلدان معينة[10]، ولكن لا أحد منا في هيومان رايتس ووتش كان يملك دليلًا جازمًا. كان واضحًا أن بولندا قد ظهرت في سجلات الرحلة لسبب ما، ولكن ذلك لم يكن كافيًا لإثبات وجود السجن.

علمت هيومان رايتس ووتش في مارس/ آذار 2003م من التقارير المسربة أن عددًا صغيرًا من المعتقلين احتجزوا في مكان ما في تايلند، وعرفنا أيضًا أن اثنين من الماليزيين وإندونيسيًّا المشتبه بهم باسم الحنبلي قد ألقي القبض عليهم بالقرب من بانكوك عام 2003م. وفي يونيه/ حزيران 2005م، زرت بانكوك خلال اجتماع إقليمي لموظفي هيومان رايتس ووتش، وحاولت استثمار وقتي هناك لمعرفة المزيد، التقيت مع الصحفيين المحليين، بما في ذلك المراسلون لمختلف الخدمات ومجلة **جينز ديفنس ويكلي**، وتحدثت مع مصدر تايلاندي له علاقة بجهاز المخابرات المحلية، وعرفت من اتصالاتي التايلاندية الكثير عن اعتقال الحنبلي في أغسطس/ آب 2003م، وهي عملية

مشتركة شملت وكالة المخابرات المركزية ووكالات المخابرات التايلاندية والسنغافورية، لكنني لم أعرف سوى القليل عن سجن الاحتجاز الذي تديره وكالة المخابرات المركزية، بخلاف أنها أغلقته في أواخر عام 2002م. أما من الصحفيين، فلم أعرف شيئًا تقريبًا. بدا لي أن الجميع يعرفون عن وجود وكالة المخابرات المركزية عام 2002م، ولكن لم يكن أحد يعرف أي تفاصيل. قال بعضهم: إن المنشأة كانت بالقرب من بانكوك، ثم سمعت أنها قد تكون في قاعدة جوية قديمة للولايات المتحدة، ثم سمعت مرة أخرى أنها كانت بالقرب من بانكوك، وكانت كلها همسات وظنونًا. أنعمت النظر في خرائط القواعد التي يستخدمها الجيش الأمريكي.

خلال الزيارة، دعا سفير الولايات المتحدة في تايلاند، رالف بويس، الوفد الزائر لحقوق الإنسان من موظفي ووتش آسيا للسفارة لاجتماع غير رسمي.

-«هل يمكنني أن أسأل عن سجن السي آي أيه؟» سألتُ رئيسي في العمل، براد أدامز الذي أجابني:

- «بالتأكيد»، ثم أضاف «ولكن كن لطيفًا معه إنه دبلوماسي محترف، وليس أداة لبوش».

انتهى الأمر بنا بالجلوس في غرفة الرسم المزخرفة في مقر السفارة الفخمة، نشرب الشاي من أكواب صينية، وندردش مع الدبلوماسي الودود ذكرتني أكواب الشاي الحمراء بوردة بيضاء كثيرًا بأكواب جدتي الإنجليزية التي كانت تستخدمها لشاي بعد الظهر، قلتُ ذلك للسكرتير الأول في السفارة، الذي رد بالقول ساخرًا: «هذه الأكواب هي الأفضل التي تُقدّم لكم يا شباب».

خلال اللقاء سألت السفير بويس، وبأفضل طريقة دبلوماسية استطعتها: هل سيظل الاحتجاز من قِبل السلطات الأمريكية «داخل تايلاند» مصدر قلق لهيومان رايتس ووتش، فاعترف السفير بجهله بالموضوع، وأخذ وهو يضحك بطريقة ودية يقول:

- «هذا النوع من الأشياء أعلى من اختصاصي».

كان هذا اعترافًا مذهلًا من السفير الذي بحسب القانون الاتحادي هو مبعوث مباشر من الرئيس والمسؤول الأمريكي الأعلى رتبة في الأراضي التي أرسل إليها، ولكن هذا ما حدث. كنا نعرف أننا لن نحصل على مزيد من المعلومات، لذلك قمنا بتغيير هذا الموضوع إلى موضوعات أخرى يمكن للسفير أن يكون مفيدًا فيها: وضع اللاجئين البورميين، وحملة الحكومة التايلاندية على الصحفيين. عرفت فيما بعد أنه، بينما كنا نجلس لشرب الشاي مع السفير بويس وموظفيه، كان يوجد في مكان ما على أرض السفارة نفسها، وفي مكتب رئيس محطة وكالة المخابرات المركزية مايكل فينوغراد، خزانة كبيرة تضم تسجيلات الفيديو استجوابات أجرتها الوكالة في مكان قريب، وفي ذلك الوقت، كان البيت الأبيض ووكالة المخابرات المركزية والمحامون يتجادلون حول ما إذا كانت سجلات الفيديو يمكن تدميرها، وهذا ما حدث في نهاية المطاف، بعد بضعة أشهر، على ما يبدو دون إذن رسمي من البيت الأبيض، وسمعت من صديق صحفي كان يتمتع بمصادر ممتازة داخل وكالة المخابرات المركزية أن فينوغراد نفسه هو الذي دمر سجلات الفيديو في السفارة بجهاز الحرق والتقطيع الكبير الذي يسحق المواد، ويحيلها إلى (غبار) بدلًا من أن يعهد بهذه المهمة إلى الموظفين العاديين.

بدأنا ندرك بعد ذلك بوقت قصير أن تركيزنا على وكالة المخابرات المركزية حرف الانتباه بعيدًا عن الصورة الأكبر: انتشار انتهاكات ممنهجة إلى مواقع عسكرية في العراق وأفغانستان، حيث كان الآلاف من المعتقلين، وليس عشرات فقط، محتجزين. لقد عزز التركيز على وكالة المخابرات المركزية رواية كاذبة عن تعذيب المحتجزين، أنه كان محدودًا، وشمل عددًا صغيرًا من السجناء. بدأنا العمل بجد لتوثيق الطبيعة الممنهجة لسوء المعاملة التي يمارسها الجيش والوكالة. حاولنا أيضًا التركيز أكثر على الحصول على شهادة من الجنود أنفسهم هؤلاء تقريبًا شهود لا يرقى إليهم الشك مقارنة مع الضحايا-، فأصدرنا تقريرين مبنيين على شهادات الجنود حول سوء المعاملة في

العراق. وعام 2006م، عملت أنا وزملائي من جماعات حقوق أخرى على تجميع تقرير أشمل عن تعذيب الولايات المتحدة للمعتقلين، وأدخلنا الحالات الموثقة إلى قاعدة بيانات واحدة، وحلّلنا القضايا التي جرى التحقيق فيها والتي تم تجاهلها. وثّق التقرير الذي حمل عنوان (بالأرقام) طبيعة التعذيب المنتشر علىنطاق واسع وفشل الحكومة الأمريكية في تحميل الجناة المسؤولية: أدى كثير من حالات سوء المعاملة إلى عقوبة مخففة، وفي حالات أخرى لم يعاقب أحد. ولكن هل فات الأوان؟ لم تترك فضيحة سجن أبوغريب صدًى دائمًا في الولايات المتحدة. وكان كثير من الصحفيين يسخرون من تقاريرنا التي لم تحركهم كثيرًا.

لم نعثر مطلقًا على الموقع المحدد لمحطة وكالة المخابرات المركزية في بولندا، على الرغم من شكّنا بأنها كانت في قاعدة قرب سزيماني. بعد سنوات، وفي عام 2009م، حدد ماثيو كول، مع الزملاء في محطة **أيه بي سي نيوز**، موقعًا لمحطة في ليتوانيا[11]، وبحلول عام 2011م، قال صحفيون آخرون: إن السجون موجودة في المغرب ورومانيا. وأخبرتني سعاد مخنِت من صحيفة **نيويورك تايمز** في إبريل/ نيسان 2011م أنها اصطحبت اثنين من السجناء السابقين في غوانتانامو لرؤية الموقع بالقرب من مدينة تمارة، جنوب الدار البيضاء، ولكن الحراس المغاربة طردوهم بعيدًا قبل أن يتمكنوا من الاقتراب. وقد اكتشف آدم جولدمان من وكالة الأسوشيتد برس، وبالتعاون مع صحفيين ألمان، السجن في رومانيا في العام نفسه، وفي بوخارست تحديدًا[12]، وأخيرًا، في يوليو/ تموز 2014م، بعدما يقرب من تسع سنوات من تقاريرنا، وجدت المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان أن وكالة المخابرات المركزية كانت في الحقيقة تستخدم موقعًا للاعتقال في بولندا بعلم حكومتها[13].

لكن يبدو أن الأمر لم يعد يعني سوى عدد قليل من الناس، وبحلول نهاية ولاية الرئيس أوباما الأولى، كانت هذه القضايا لا تستحق النشر، وعام 2011م، عندما أصدرت هيومان رايتس ووتش تقريرًا شاملًا عن الانتهاكات في عهد بوش، وهو تقرير يحمل

اتهامًا صارخًا، مبنيًّا على حقائق، ويدعو للتحقيق مع الرئيس بوش نفسه ومحاكمته، فإن هذا التقرير لم يكن حتى ليستحق مقالًا في صحيفة **واشنطن بوست** أو صحيفة **نيويورك تايمز**. وفي أواخر عام 2014م، عندما أصدرت لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ الأمريكي تقريرًا مدمرًا، حظيت انتهاكات وكالة المخابرات باهتمام أكبر من وسائل الإعلام، ولكن ساد شعور ضعيف للغاية بأن أي شيء سيتغير، وأبرز التقرير، الذي وجد أن تكتيكات التعذيب لوكالة المخابرات المركزية كانت غير مجدية إلى حد كبير، حالات جديدة مقلقة للغاية من العزل مددًا طويلة والحرمان من النوم والضرب والتكبيل المؤلم، والغمر في المياه، وكذلك حالات مثيرة للاشمئزاز مثل عقوبة (التغذية من الشرج) و(تعويض السوائل من خلال الشرج).

مدير الوكالة جون برينان عقد مؤتمرًا صحفيًّا محزنًا بعد أيام قليلة من نشر التقرير قال فيه: «من غير المعلوم» ما إذا كانت المعلومات التي تم الحصول عليها عن طريق أساليب التعذيب كان من الممكن الحصول عليها بوسائل أخرى. بعد ذلك، سأله الصحفيون أسئلة قاسية حول التقرير، فقال برينان: إنه لن يكون قادرًا على إعطاء أي تأكيدات بأن وكالة المخابرات المركزية قد لا تستخدم تكتيكاتها السابقة مرة أخرى في مواجهة حوادث مماثلة في المستقبل، قد تكون بخطورة هجمات 11 سبتمبر/ أيلول: «أنا أُحيل ذلك لواضعي السياسات في الأزمنة المقبلة» باختصار، قد تلجأ وكالة المخابرات المركزية للتعذيب مرة أخرى يومًا ما. وفي الأسبوع نفسه، اعترف الرئيس البولندي السابق الكسندر كفاشنيفسكي أخيرًا بدور بلاده في أنشطة الوكالة لمكافحة الإرهاب. ولكن مرة أخرى، جاء هذا التأكيد بعد أن كانت المواقع قد أغلقت منذ أكثر من عشر سنوات.

صيدنا لم يكن سوى مطاردة فقط، فنحن لم نقبض على الحقيقة عندما كنا نحتاج إليها. يمكن مقارنة عملنا بصيد الحيتان، فالإبحار عبر المحيطات الشاسعة بحثًا عن سمكة مراوغة؛ أي اصطياد الصيادين، وكان في هذه الحالة بلا جدوى. لقد فشلنا،

فنحن لم نؤمِّن أي حقوق أو حريات للمعتقلين، وبعضهم لم يكونوا مذنبين جنائيًّا وأفرجت عنهم الوكالة لاحقًا، بهدوء من تلقاء نفسها. ونحن لم نحصل حتى على رواياتهم. لم تكن الحكومة تمتلك المعتقلين فحسب، بل القانون أيضًا: لقد كتبوا الرواية والقانون كذلك، وصاغوا مذكرات مكتب المستشار القانوني لجعل محاكمتهم على جرائمهم مستحيلة. نحن مجتمع حقوق الإنسان، بدأنا بلا شيء، وانتهينا بلا شيء: لا المعتقلون، ولا القانون، حتى ولا الحقيقة. هناك جزء لا ينسى في رواية **موبي ديك** يناقش فيه المؤلف هرمان ملفيل الفرق بين الأسماك الطليقة؛ أي الحيتان الطليقة، وبين الأسماك المصطادة، السمكة المصطادة تكون مصطادة إذا كانت مربوطة بسفينة أو قارب بأي وسيلة على الإطلاق يسهل السيطرة عليها من قِبل محتل [السفينة] أو شاغليها الصاري، المجذاف، كابل تسع بوصات، وسلك التلغراف، أو حبل مجدول، فكلها الشيء نفسه. جميع الأسماك الأخرى هي الطليقة. ميلفيل ينتقد مقولة: إن «الحيازة هي نصف القانون». تعبير عادة ما يعرف باسم (تسعة أعشار القانون). إنه يعارض مقولة: إن «الحيازة تكون في كثير من الأحيان القانون كله» ويدافع عن الحقوق والحريات للبشرية في وجه الإمبريالية والاحتلال في صيغة استعارة: «أليست أعصاب وأرواح الأقنان الروس وعبيد الجمهوريين سوى سمكات مصطادة، مصداقًا لمقولة الملكية هي القانون كله؟» ويقول في مكان آخر: «ألسيت حقوق الإنسان وحريات العالم سوى أسماك مصطادة؟» بلى. وإذا ما أعدنا صياغة ما قاله ميلفيل: أليس هؤلاء السجناء لدى وكالة المخابرات المركزية وحقوقهم، سوى أسماك مصطادة وأسماك سائبة أيضًا؟

* * *

الفصل الثامن

عنف اللاعنف

عام 1991م، عرضت نجمة الإباحية لونا ستالير، الهنغارية المولد التي كانت أيضًا عضوًا في البرلمان الإيطالي، جسدها على الرئيس العراقي صدام حسين إذا سحب جيشه من الكويت؛ لإحباط ما عُرِف لاحقًا باسم حرب الخليج الأولى، لونا قد كانت في ذلك الوقت متزوجة من فنان البوب الجديد جيف كونز المعروف بالاسم الفني، لا سيسيولينا، كانت قد انتخبت للبرلمان قبل سنوات قليلة بعد حملة كشفت فيها ثدييها في المسيرات، وتعهدت بهز المياه الراكدة، والفساد في المشهد السياسي الذكوري في إيطاليا. (وفي الوقت نفسه، كان زوجها يعمل معها لإنتاج عمل فني مكوّن من تماثيل كريستال ناعمة وصور فوتوغرافية ملونة لاتحاد إباحي بين الاثنين).

جددت لونا عرضها لصدام في أكتوبر 2002م، عندما كانت حرب العراق الثانية تلوح في الأفق: «أنا مشتعدة لأن أفعل ذلك وأنا مغلقة العينين»، قالت للصحفيين: «أود أن أفعل ذلك من أجل السلام»[1]. دون شك، الزعيم العراقي لم يرد على هذا العرض.

قرأت عن عرض لونا في صحيفة بعد بضعة أسابيع، حين كنت أجلس في الطائرة على مدرج مطار دبي في رحلة من أفغانستان. في ذلك الوقت، كان بعض الناس لا يزالون يعتقدون أن الحرب ليست حتمية، ولم تكن لونا الوحيدة التي كان لديها أفكار لتفادي ذلك. في فبراير/ شباط 2003م، عرض صدام حسين، خلال مقابلة مع الصحافي في

شبكة CBS دان راذر في بغداد، مناظرة الرئيس الأمريكي جورج بوش في برنامج تلفازي مباشر، واحد لواحد. أدى ذلك إلى تعليقات ساخرة قالت: إن المناظرة ستكون مباراة ملاكمة. ووراء الكواليس، قيل: إنه عرض على صدام الذهاب إلى المنفى في المملكة العربية السعودية مقابل بليون دولار، وهو العرض الذي أصبح معروفًا فيما بعد نشر محضر اجتماع خاص عام 2002م بين بوش ورئيس الوزراء الإسباني خوسيه ماريا أثنار. خلال الاجتماع، قال بوش لأثنار: إن منفى صدام غير ذي صلة بخططه مهما حدث، ورد أنه قال: «سنكون في بغداد بنهاية مارس»[2] عند تلك النقطة، لم يكن بالإمكان تجنّب تلك الحرب، لا من الدبلوماسيين، أو الوكالة الدولية للطاقة الذرية، أو نجوم الإباحية الإيطاليين.

وتضمنت المقالة عن لونا صورة لها في سترة ضيقة مع جدائلها الشقراء المميزة. العنوان الرئيس قال شيئًا مثل: «البرلمانية الإيطالية، النجمة الإباحية السابقة، تعرض جسدها لصدام مقابل السلام»، أو كلمات بهذا المعنى. الرجل البريطاني المسن الذي يجلس بجواري كان ينظر إلى المقالة من فوق كتفي. طائرتنا تتهيأ للإقلاع.

- «ليس بالضبط اقتراحًا متواضعًا» قال ضاحكًا.

-«لا أعتقد ذلك» قلت له.

«أتساءل كيف يمكن أن يكون موقف غاندي» قال.

كنا نتحدث عن الهند قبل بضع دقائق. الرجل سافر في الآونة الأخيرة إلى هناك. توقفت، وفكرت أكثر في سؤاله، ثم قلت:

«من المحتمل أنه لن يعارض هذا العرض، ألا تعتقد ذلك؟» فقال ببرود.

«من الصعب أن تحكم» ثم طوى صحيفته، أودعها مكانها المخصص وتهيأ للإقلاع، ثم انحنى مرة أخرى في مقعده في وضع الاسترخاء.

- «طريقتها لا تعالج القضايا الأساسية».

ابتسمت، وقلبت الصفحة. مع ذلك، عندما بدأت الطائرة تقلع، انتابني شعور بالازدراء. غاندي. لا سيسيولينا. هل وصلنا إلى هذا الحضيض؟

تبدأ مناقشات اللاعنف اليوم، سواء النبيلة منها أو الوضيعة، تقريبًا ودائمًا بذكر المهاتما غاندي. وهي محقة في ذلك. اللاعنف السياسي له تاريخ محدود، ولكن غاندي هو الشخصية المحورية في ذلك. إنجازاته أسطورية. لقد واجه الإمبراطورية البريطانية، إحدى أعتى الإمبراطوريات في التاريخ، وانتصر عليها؛ أساليبه في اللاعنف جلبت لشعبه إعجاب العالم. لكن إرث غاندي تم تشويهه إلى حد ما، وكثيرًا ما دمجت أفكاره في الاحتجاج السلمي والنشاط الثوري ضد دولة ظالمة أو محتل مع الأفكار العامة عن السلمية والدبلوماسية، وصنع السلام، ومع ممارسات أكثر دنيوية في العصيان المدني (مثل طلاب يحتجون ضد رفع الرسوم الدراسية). وقد تطورت أفكار غاندي في اللاعنف إلى غاندية عامة للسلام والمحبة والتفاهم امتدت إلى حالات مغايرة، ووصلت إلى حد أن أحدنا يستطيع بسهولة مقارنة إنجازات غاندي، لنقُل: باستعراض نجمة إباحية تتعرى للدفاع عن السلام. لقد أصبحت هذه مشكلة واسعة الانتشار، والسلمية، من جانبها، كثيرًا ما يجري الخلط بينها وبين الدبلوماسية، كما لو كان العمل الدبلوماسي في جوهره سلميًّا، وهذا نقيض للواقع: كثير من الحائزين على جائزة نوبل للسلام، من وودرو ويلسون إلى باراك أوباما، كانوا بالكاد دعاة سلام. لذلك، توجد مشكلة في نظرية اللاعنف تميل نحو الفهم المشوش.

ربما يكون أحد أسباب الارتباك، ولأثر غاندي الطاغي على معتقدات اللاعنف، هو أن تكتيكاته كانت ناجحة تمامًا في الهند في سياق النضال ضد السلطة الإمبريالية البريطانية، وهو النجاح الذي شجع الناس على افتراض أن نظرياته يمكن أن تمتد إلى جميع السياقات، وكل أشكال المقاومة، وكل الجهود الرامية إلى تجنب الظلم. ربما يوجد

سبب آخر، وهو أن صورته الشعبية قد شُوّهت. يُعدّ غاندي في الخيال الشعبي رجل حكمة أسطورية تقريبًا، ونقاء، معارضًا للحرب والعنف بكل أشكاله وجميع سياقاته، وعلى الرغم من أنه لم يظهر معارضة كبيرة لعنف قوات الشرطة في حالات حفظ القانون والنظام الأساسي، وتنازل لدرجة ما، فيما يتعلق بمسألة القوة من جانب جيوش الحلفاء ضد دول المحور في الحربين العالميتين، وفي الهند في نزاع عام 1947م مع باكستان حول كشمير. يُنظر إليه على أنه رجل مبدئي، على الرغم من أنه في بعض الأحيان قدم تنازلات عن تلك المبادئ مع الزعماء السياسيين البريطانيين والهنود.

وإن الفهم الخطأ شوّه أيضًا دوره بصفته رائدًا لنظرية اللاعنف، فهو لم يكن، على أي حال، المنظِّر الأول للاحتجاج السلمي والتغيير الاجتماعي اللاعنفي، فالنساء في الولايات المتحدة، مثلًا، استخدمن كثيرًا من الأساليب نفسها في العقود السابقة للحصول على حق التصويت. ومع ذلك، غاندي يقف اليوم بوصفه المعارض المتفرد للعنف، بينما يُصنّف الثوار غير العنيفين الآخرين بوصفهم تلاميذ له فقط.

الحقيقة هي أن غاندي نفسه كان تلميذًا، فقد تأثر كثيرًا بكل من هنري ديفيد ثورو وليو تولستوي، الذي توفي في الوقت الذي بدأ فيه غاندي الاحتجاجات المنظمة، عندما كان مواطنًا بريطانيًّا هنديًّا في جنوب إفريقيا. وفي الواقع أن إحدى إلهاماته الرئيسة كانت مقالة لتولستوي قرأها في إحدى الصحف الهندية في المنفى كانت تصدر في سان فرانسيسكو عام 1910م، بعنوان (رسالة إلى هندوسي)، انتقدت استخدام المتمردين الهنود القوة ضد الحكم البريطاني في الهند.

قصة مقال تولستوي قصة غريبة من نوعها. ما الذي جعل الروائي الشهير يدلي برأيه في حركة الاستقلال الهندية؟ كان الكونت تولستوي الأرستقراطي قد تحول فلسفيًّا في أواخر حياته، وتبنّى مبدأ السلمية، وأصبح نباتيًّا ومتصوفًا مسيحيًّا متطرفًا. وإذا ما وضعنا ما حدث له ضمن سياقات العصر الحالي، فقد أصبح نوعًا من الهيبيز أو عضوًا

في الحركة المسيحية السلمية. ونظرًا لمكانته الفكرية المرموقة، كانت تصريحاته السياسية الغريبة عادة ما تنشر في الصحف في جميع أنحاء العالم. رد عليه شاب هندي قومي كان يدرس في جامعة ستانفورد، اسمه تاراكناث داس من أصول بنغالية الاسم، برسالة طويلة وتحداه أن يبرر الأساليب الثورية غير العنيفة ضد عنف وقسوة الإمبراطورية البريطانية، التي كانت تهيمن على شعوب شبه القارة الهندية. تولستوي قرأ الرسالة، ورأى لزامًا عليه أن يرد عليها، وأخذ هذه المهمة على محمل الجد. كانت المهمة صعبة حتى إنه قضى أشهرًا في كتابة الرسالة وإعادتها.

عندما تلقّى تاراكناث داس، الرسالة وهو في سان فرانسيسكو، نشرها في صحيفته المحلية، ومن هناك شقت طريقها إلى غاندي في جنوب إفريقيا. «داس نفسه تبنى في نهاية المطاف المسالمة، وأصبح أستاذًا في جامعة كولومبيا، لكن ليس قبل أن يقضي عقوبة بالسجن قصيرة عام 1917م لعلاقته بـ (المؤامرة الألمانية -الهندوسية)، كما كانت تسمى، لتهريب الأسلحة إلى القوميين الهنود خلال الحرب العالمية الأولى، في محاولة لجعل الأمور أكثر صعوبة بالنسبة إلى البريطانيين» غاندي، من جانبه، تبادل رسائل عدّة مع تولستوي في العام الذي توفي فيه الكاتب، وطلب منه السماح له بطبع الرسالة، مع مختلف التعديلات التي اقترحها. وقد أصبحت أفكار تولستوي فيما بعد محورية في فكر غاندي.

كانت رسالة تولستوي الأصلية لاذعة تمامًا، وهي ميزة يحترمها غاندي، فقد كتب تولستوي فيها يقول:

«إذا كان الإنجليز قد استعبدوا شعب الهند، فذلك لمجرد اعتراف الأخير، ولا يزال يعترف بالقوة بوصفه مبدأ أساسيًّا للنظام الاجتماعي. وانسجامًا مع هذا المبدأ سلّموا أمرهم إلى المهراجات، ونيابة عنهم قاتلوا ضد بعضهم، وحاربوا الأوروبيين، والإنجليز، ويحاولون الآن القتال معهم مرة أخرى». كانت هذه عبارات قاسية: شركة تجارية (شركة

الهند الشرقية) استعبدت أمة تضم مئتي مليون إنسان، وإذا قلت هذا لرجل عاقل فلن يفهم ما تعنيه هذه الكلمات، فماذا يعني أن ثلاثين ألف رجل (بريطانيًّا)، ليسوا رياضيين، ولكنهم ناس ضعفاء نوعًا ما، وعاديون، قد أخضعوا مئتي مليون شخص أقوياء، وأذكياء، وقادرين، ومحبين للحرية؟ ألا تجعل الأرقام من الواضح أنه ليس الإنجليز هم الذين استعبدوا الهنود، ولكن الهنود هم الذين استعبدوا أنفسهم؟ إذا استعبد العنف الناس في الهند فذلك فقط لأنهم أنفسهم يعيشون، وعاشوا من العنف، وعدم الاعتراف بالقانون الأبدي للحب المتأصل في الإنسانية[3].

هل كانت هذه الأفكار جديدة؟ كلا، كثير من الناس يعتقدون خطأ أن أصل معتقدات اللاعنف جاءت من تعاليم المسيح، الذي قيل: إنه قال في عظته على الجبل: «أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لَا تُقَاوِمُوا الشَّرَّ، بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَاصِمَكَ، وَيَأْخُذَ ثَوْبَكَ فَاتْرُكْ لَهُ الرِّدَاءَ أَيْضًا. وَمَنْ سَخَّرَكَ مِيلًا وَاحِدًا فَاذْهَبْ مَعَهُ اثْنَيْنِ». في الواقع لقد عُثر على أقدم التفاصيل المعروفة للاعنف بوصفه عقيدة قبل قرون عدة في تعاليم رجلين، من قبيل المصادفة، عاشا بالتزامن في شمال شبه القارة الهندية، نحو القرن السادس قبل الميلاد، أكبرهما سنًّا كان يدعى فاردهامانا Vardhamana، وعرف فيما بعد باسم جاين، وهذا يعني الفاتح، وأتباعه أطلقوا على أنفسهم الجاينيين (كانت لا تزال موجودة بأعداد صغيرة في الهند) الثاني، والأصغر سنًّا كان سيدهارتا غوتاما، الذي أصبح يعرف باسم بوذا المستنير.

السؤال الأكبر ليس هو من الذي بشر باللاعنف بالضبط أولًا - يكفي أن نقول: إن الأفكار كانت موجودة على الساحة منذ ألفي سنة - ولكن السؤال هو: لماذا اللاعنف بوصفه عقيدة أو فكرة لم ينتشر حقًّا حتى أوائل القرن العشرين؟ هذه واحدة من أكثر الظواهر الغريبة في تاريخ الفكر الديني والسياسي الحديث، وهي تتطلب نوعًا من المراجعة لتاريخ العقائد في كلٍّ من آسيا والغرب، من أيام جاين، وبوذا، والمسيح حتى الوقت الحاضر.

كان جاين وبوذا معلمين مختلفين إلى حد كبير، ولكنهما يشتركان في كثير من الصفات: ولدا على حد سواء لأسرتين موسرتين، لكنهما عاشا سنوات كالزاهدين في الخلوات الانفرادية من التأمل. جاءا على حد سواء بوصفهما معلمين روحيين وحوّلا أعدادًا كبيرة من الهندوسية، الدين السائد في المنطقة، وكلاهما بشّرا بممارسات أو أساليب روحانية تركز على السلوك الصحيح، والممارسات الصحيحة. أكد كلاهما على ممارسة واحدة بعينها، وركز عليها جاين أكثر من بوذا، وهي: أهمسا ahimsa، وهي تحريم قتل البشر والحيوانات.

من المهم أن نفهم التحريم في سياق المعتقد الهندوسي الذي نشأ ضد العنف سواء على البشر أو الحيوانات. حقيقة أن **أهمسا** ينطبق على كل من الإنسان والحيوان يتعلق بالاعتقاد السائد على نطاق واسع في كثير من الديانات الآسيوية التي تؤمن بالتناسخ، وبأن الأرواح الخالدة تنتقل بين الحيوانات والبشر. التحريم قد يذكّرنا أيضًا بوقت كانت فيه الأنماط الاجتماعية للعنف المنظم ضد الحيوانات (الصيد) أكثر ارتباطًا بالعنف المنظم ضد البشر (صنع الحرب)، وهو الوقت الذي تطور فيه الصيادون بوصفهم محاربين أيضًا.

نتيجة لأفكار **أهمسا**، فقد ارتبطت (النباتية) وعدم أكل اللحوم منذ زمن طويل بعقيدة اللاعنف. أتباع مذهب جاين تخلوا عن أكل اللحوم، وحتى يومنا هذا، فإن أكثر الجاينيين ورعًا في الهند يرتدون أقنعة بيضاء على أفواههم؛ لتجنب استنشاق الجراثيم أو الحشرات والتسبب في قتلها، وهم يحملون أيضًا المكانس لإبعاد الحشرات من طريقهم، وهم يسيرون؛ حتى لا يدوسوها، ويلتزم بـ (النباتية) طوائف بوذية عدّة، وكذلك الجاينسسن من أتباع الهندوسية. كان غاندي نفسه نباتيًّا، وكان تولستوي في وقت متأخر من حياته، وحتى اليوم، يوجد نباتيون من بين المعلقين على اللاعنف في الغرب، مثل كولمان مكارثي. وفي القرون الماضية، تبنّى بعض المسيحيين اللاعنف إلى أقصى الحدود، وسمحوا للحشرات والقمل وحشرات أخرى بالعيش على أجسادهم دون

عائق، وربما أكثر مؤشرًا على التقوى والتفاني في اللاعنف: هذه الممارسة أثبتت قدرة الفرد على تجاهل الألم الجسدي للحياة البشرية الفانية والتطلع نحو الحياة الروحية، ويشاع أن الرهبان الذين شاهدوا أسقف كانتربري المضطرب توماس بيكيت، بعد مقتله عام 1170م، قد أعجبوا بالحشرات والهوام التي وجدوها تزحف على جسده، ولم يكونوا يعرفون أنه كان قدّيسًا لهذه الدرجة، كما كتب الباحث ناثان سودربلوم (كان نفسه رئيس أساقفة، وأقل شراسة من بيكيت، حصل على جائزة نوبل للسلام 1930 م لجهوده المسكونية لتوحيد مختلف الأديان)[4].

لم يزدهر مفهوم **أهمسا** على مدى الألفي سنة الماضية. أما الجاينية المتشددة، فعلى الرغم من بقائها في القرن الحادي والعشرين، فقد ظلت أقلية دينية صغيرة في الهند، وعلى الرغم من أن التعاليم السلمية للبوذية أثرت في العوالم الروحية لملايين من الأتباع في آسيا وحتى في الغرب، إلا أن **أهمسا** بوصفها عقيدة لم يكن لها أثر اجتماعي وسياسي. يُذكر دون شك أنه ليس من الحكمة التعميم عن الدين إلى هذا الحد، فأي محاولة لبلورة الأطر التاريخية للبوذية في آسيا قبل أكثر من ألفي سنة محكومة بالفشل. وسيكون من المستحيل، حتى في الكتاب كله، شرح الدين في جميع السياقات الاجتماعية والسياسية في آسيا وتحليل وجوه التمييز بين الطوائف أو الأشكال المختلفة. ومع ذلك، فإننا يمكن أن نقول شيئًا واحدًا في البوذية في آسيا عمومًا، وهو أنه لم يكن لها حياة سياسية حقيقية تتماشى مع مبادئها، فلقد مال أنقى أتباع البوذية أو الأكثر ورعًا إلى الفرار من العالم السياسي أو على الأقل الصدام معه، في حين مال أتباعها (السياسيون) إلى مقاومة الأفكار السياسية، وبقدر ما كان أتباع البوذية أوفياء، فقد تحاشوا العالم السياسي، وبقدر ما تبنوا الخط السياسي (والعنف الذي لا مفر منه للقانون والحرب)، فقد تنازلوا عن دينهم أو فقدوه. لذلك، ليس من المستغرب، على الرغم من التأثير الهائل للبوذية، أن الحكومات والقادة السياسيين في آسيا ظلوا على استعداد كالآخرين لاستخدام العنف.

ويمكن رؤية التوتر في العلاقة بين **أهمسا** والسياسة في حالة الرجل الذي كان أول من نشر البوذية في آسيا: الملك أشوكا، الذي، قبل أن يعتنق البوذية، غزا في القرن الثاني قبل الميلاد معظم شبه القارة الهندية من أفغانستان إلى بورما، وكان أشوكا هو الذي نشر الدين على امتداد هذه الإمبراطورية، مدعومًا بالقوة العنيفة الكاملة للدولة من ورائه. إن التحولات الدينية لم تحدث بحد السيف، لكن سرعتها كانت نتيجة لما غزاه السيف، فقدرة أشوكا على نشر الدين بالفعل جاءت من السلطة والقوة التي تمتع بها بعد سفكه الدماء.

كانت معتقدات أشوكا الخاصة منغرسة في سياق العنف البشري، وتحكي أسطورة بين البوذيين أن تحول أشوكا بدأ في أعقاب حملة كبيرة، عندما رأى رجلًا يمشي بين الأنقاض والجثث في ساحة المعركة، وهو غير معني بمشهد الدم، والجروح، والتعفن، والدمار. «أود أن أتحدث إليه» قال أشوكا، المعجب برباطة جأش الرجل الذي كان راهبًا بوذيًّا.

بعد اعتناق أشوكا للبوذية، تبنّى مبدأ اللاعنف البوذي (**أهمسا**)، وفرض على البلاد قانون النباتية والسلوك السلمي، لكن الأتباع اللاحقين، مع ذلك، ولا سيما الذين كانت لهم قدم في عالم السياسة والدولة، خففوا من تركيز المذهب، ربما بعدما استشعروا التهديد الخفي الذي يمثله لجوهر فن الحكم وإدارة الدولة. وبعد قرون من وفاة بوذا، ذهب كثيرون من أتباعه إلى أبعد من التوجه الرئيس للتعاليم البوذية - السلوك السوي، والتفكير السليم، والممارسات الصائبة - وعبدوا بوذا نفسه على أنه كائن إلهي.

وفي الصين حرّف الأباطرة وأمراء الحرب في بعض الأحيان البوذية، لدرجة أصبح من الصعب التعرف إليها. إحدى مظاهر البوذية في الصين، كانت تشان (التي أصبحت زِن في اليابان)، تبنّت في بعض الأحيان فنون العنف بوصفها وسيلة للأتباع لممارسة التصرف السليم. (هذا لا يعني أن عقيدة زِن كانت في الغالب حول فنون الدفاع عن

النفس، بل على العكس من ذلك، كانت مجرد واحدة من كثير من الفنون التي يمكن أن تمارس من خلالها). وتوجد ارتباطات غريبة بين طرق تشان وحياة المحاربين.

كان أحد البوذيين السود الأجانب، ربما من بلاد فارس، أول من أدخل عقيدة التشان إلى الصين، كان اسمه بوديدارما. وكثيرًا ما يصور في الفن الصيني بأنه شخص مضطرب كثيف الشعر، ذو لحية سوداء، فتن تلاميذه بجسارته وغرابة أطواره. ومع ذلك، فمن المحتمل أن عقيدة التشان، بكل استخفافها وعفويتها، تدين بطابعها إلى كثير من التعاليم الصينية المحلية من القرن السادس قبل الميلاد؛ أي من أيام لاو تزو، والد الطاوية الصينية، وكذلك إلى تعاليم البوذية المتمحورة حول الهند، وكان لاو تزو، مثل بوديدارما، استفزازيًّا وشريرًا إلى حد كبير.

واحدة من الخصائص الرئيسة لفلسفة تشان وزِن، هي أنهما يتطلبان جهدًا عقليًّا منضبطًا لاكتساب العفوية والالتزام المنضبط بالحركة - بمعنى آخر، خصائص المحاربين. لذلك، فمن المستغرب أن ممارسي فنون الدفاع عن النفس قد أدخلوا البوذية في تدريباتهم. فالفكرة من وراء ذلك لم تكن مجرد أن تكون منضبطًا من أجل الانضباط، وإنما المهم هو أن يهدم الإنسان السجن الموجود في عقله ويتبنى السلوك الصحيح والتفكير الصائب، وتجاوز التلاوة الميكانيكية للعبادات. في كثير من أشكال فلسفة زِن، فإن هذه الجوانب غير ذات الصلة والأساسية بالنسبة إلى البوذية تُعدُّ ثورة ضد بنية العقل والأشكال الاجتماعية، وقد أشار الفيلسوف والتر كوفمان إلى أن التشان وزِن كانتا «تمردًا ضد الإسهاب والحشو في النصوص البوذية (الهندية)» التي رأى بعضهم أنها تضمنت كثيرًا من الأنشطة الاحتفالية الطائشة[5].

ويمكن رؤية العنف المجازي في زِن على أوضح ما يكون في فرعها الأكثر تشددًا، والمعروفة باسم مدرسة لينجي Linji أو (رينزي Rinzi في اليابان)، حيث يصدم المعلمون طلابهم بالتناقضات لتحدي الأفكار المسبقة، ويصرخون بهم وحتى يضربونهم. هنا

يجري التركيز الشديد على ممارسة العنف ضد الجدران في عقل الإنسان. يحكي المؤرخ كينيث ما يعتقد أن والد هذه المدرسة، ينشيان لينجي Linji Yixuan، قد قال: «اقتل كل شيء يقف في طريقك. وإذا كان يجب عليك أن تقاتل بوذا، فاقتل بوذا، وإذا كان عليك أن تواجه رجال الدين، فاقتلهم، إذا كان عليك أن تواجه الراهب البوذي الكامل، فاقتله أيضًا»(6). دون شك، فليس المقصود شيئًا من هذا حرفيًّا، ولا تنتهك عقيدة (الأهمسا) بأي شكل من الأشكال، فالفكرة هي تحرير العقل من معتقد طائش، كما قال أستاذ آخر من مدرسة لينجي:

«لا يوجد بوذات ولا بطاركة. كان بوديدارما مجرد عجوز بربري ملتحٍ، وكان ساكياموني و(مختلف المعلمين المرموقين الآخرين) مجرد عمال أكوام الروث. التنوير والنيرفانا ليست سوى جذوع ميتة لتربط حميرك بها. الأقسام الاثنا عشر للتعاليم المقدسة ليست سوى قوائم أشباح، رزم من الورق لا تصلح إلا لمسح القيح من دمامك»(7).

إن هذا الكلام المجازي المستمد من عالم الصراع والعنف - هذا الحديث عن القمامة الدينية - يمكن أن يكون مربكًا، وربما ليس من المستغرب أن الأفكار قد خرجت عن مدلولاتها في وقت لاحق، وعندما انتشرت فلسفة التشان في اليابان، وأصبحت تسمى زِن (بعض أشكال البوذية الأقل عقلانية انتشرت هناك منذ قرون خلت). وجدت مدرسة لينجي (رينزي) على وجه الخصوص مشجعين بين مقاتلي الساموراي الياباني المتحاربين، الذين تحولوا إلى الروحانية في ممارساتهم الطقوسية في الذاتي والانضباط. ومثلما كتب كوفمان: «أحب الساموراي دمج الانضباط الصارم والعفوية في ضبط النفس المثالي مع الحيوية الهائلة»(8) غني عن القول: إن حالة بوذية الساموراي، مثل بوذية أمراء الحرب الصينيين، لم تكن نقية، فإضاءة الشموع في أضرحة العبادة قبل قتل الأعداء لم تكن فكرة بوذا للتسامي بعد المجاهدة.

دون شك، فإن البوذية لم تفقد (**أهمسا**) تمامًا، فعلى الرغم من أن الساموراي والأباطرة، وأمراء الحرب شوهوا البوذية، وحكموا بالعنف، إلا أن الناس في جميع أنحاء آسيا مارسوا الطرق السلمية من البوذية، وأزيلت طوائف عدّة كليًّا من السياسة والعنف. مثلًا، طائفة في الصين، خلطت لقرون عدَّة البوذية مع تعاليم المعلم الصيني الأول مو تزو، الفيلسوف المتجول الذي بشر بـ (الحب العالمي) وكتب أبياتًا من الشعر الصيني مثل: «عندما يلقي أحدهم الخوخ في وجهي، أرد عليه بالبرقوق» وهو ما يسبق قول المسيح: «أدر له الخد الآخر أيضًا» قبل مئات عدة من السنين. مثل هذا النهج، مع ذلك، تم الحفاظ عليه في عقائد الناس، وليس في دين الأمم والقادة.

الأمور لم تكن أفضل بكثير بالنسبة إلى تعاليم السيد المسيح، فكما هو الحال مع بوذا، لم يصمد سوى عدد قليل من تعاليم المسيح عن اللاعنف على المستوى الاجتماعي والسياسي في القرون التي أعقبت وفاته. (كان استخدام غاندي لنصوص الأناجيل مع الجمهور الغربي مثار سخرية دائمًا: إظهار الإعجاب بدروس المسيح ويتساءل في الوقت نفسه: لماذا لا يلتزم المسيحيون بها؟) لقد وجد المسيحيون أن من الصعب العيش مع عقيدة اللاعنف، مثلما فعل البوذيون، فعلى الرغم من أن زعماء مثل مارتن لوثر كينغ، وغيرهم يَعدّون المسيحية مركزية في نظرية اللاعنف، إلا أن فكرة اللاعنف تبدو كما لو أنها فكرة طارئة على كثير من الفكر المسيحي على مدى الألفي عام الماضية.

البوذية والمسيحية مختلفتان جدًّا بطبيعة الحال؛ لذلك من الخطورة بمكان خلط (**الأهمسا**) مع تعاليم المسيح في المحبة والتواضع، وكانت بعض تعاليم المسيح مجرد امتدادات للوصفات الأبكر في القوانين اليهودية التي تحث على الإحسان وعمل الخير: أوصى موسى في سفر الخروج، مثلًا: «إذا رأيت ثور عدوّك أو حماره تائهًا، يجب عليك إعادته إليه»، إضافة إلى التحريم الواضح للقتل في الوصايا العشر. قال المسيح: إنه جاء لتوضيح هذه القوانين: على أتباعه أن يديروا الخد الآخر لأعدائهم، وحتى أن يصلّوا لهم، ويباركوهم، ومع ذلك لم يكن المسيح نفسه مسالمًا تمامًا: بنفس تعاليم

بعض أنبياء اليهود وتعاليم زرادشت غير المسيحي (أول الموحدين الذي تحدث عن العقاب في الآخرة)، كان من بين تعاليم المسيح المركزية أن أرواح الذين لم يؤمنوا، ولم يُعمّدوا سوف تعذب في جهنم بكل أنواع العنف والألم، وهذا امتداد لما بعد الموت لانتقام سريع لإله العبريين، الذي كان يدمر شعبه تدميرًا مبرمجًا أو يهدد بتدميرهم لذنوبهم: الطوفان، وسدوم وعمورة ونينوى. أخذ المسيح الأمور إلى أبعد من ذلك قائلًا: اللعنة الأبدية، الأبد العذاب، النار والكبريت.

بوذا، على النقيض من ذلك، لم يقل مثل هذه الأنواع من الحكايات. في البوذية، لا وجود لجهنم كعقوبة بعد الحياة على هذا النحو، ولم يجرِ التبشير بالأهمسا كشكل من أشكال اللطف من أجل اللطف، بل كانت الفكرة أن العنف كان قضيبًا آخر في زنزانة سجن عقولنا. كان الهدف هو تجاوز عالم الكد والغضب والأسباب والنتائج العاطفية للمعاناة. مع ذلك، كانت الاتجاهات المسيحية عن التفاعلات بين البشر مشابهة لاتجاه بوذا، كانت صفات المسيح تحديات للأفكار المسبقة، وإلحاح على التخلص من العبء العاطفي، وفي بعض الأحيان، يبدو المسيح وكأنه الأب النابغة لكل من زِنوينشيان لينجي:

«لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا على الأرض، ما جئت لألقي سلامًا، بل سيفًا، فإني جئت لأفرّق الإنسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها، والكنه ضد حماتها». (متّى 10: 34-36) كما في زِن، الحدث العنيف هو كناية عن الحدث الداخلي الذي يخترق الكذب أو العادات التي لا طائل من ورائها والوصول إلى الحقيقة. ويلاحظ وجود الأمثال والاستعارات عن موضوعات عنيفة أيضًا في إنجيل لوقا. في السلوك البشري الفعلي، قدّم المسيح مثالًا سلميًّا لتلاميذه، وهو الطريق إلى السلوك الصحيح، كما فعل بوذا. باستثناء فورة غضب في المعبد في القدس، عندما طرق على طاولات الصرافين، وتوبيخه لتلاميذه أحيانًا، علّم المسيح إلى حد كبير الحلم الكبير من سوء النية، بطريقة توحي كما كان يفعل بوذا، أن الغضب ليس سيئًا أخلاقيًّا كما الحال مع حرف الانتباه عن الحقيقة.

إذا كان الحال كذلك، فلماذا يبتعد كثيرون من أتباع المسيح، مثل أتباع بوذا، عن مسار اللاعنف؟ لم يكن الحال هكذا دائمًا، فقد كان كثير من المسيحيين الأوائل مسالمين - وشخصيات غريبة: الغنوصيون، والصوفيون، وأعضاء الجماعات الدينية تقريبًا الذين كانت لهم رؤى رهيبة وطقوس سرية توجهوا نحو العالم الأبدي أكثر من الدنيوي. كانوا يحتقرون العالم المعيش، ولمدة ثلاثة قرون، أنكرت كثير من طوائفهم العنف تمامًا.

ثم بدأت الأمور تنزلق، فمنذ القرن الرابع الميلادي أو نحو ذلك، أصبحت المسيحية الكاثوليكية دين الدولة في الإمبراطوريات الرومانية الغربية والشرقية، وتطورت إلى كيان سياسي. إن أي مؤسسة لا يمكن أن تقوم على فكرة أن الحياة البشرية الدنيوية عابرة، وأن العالم على وشك الانتهاء؛ لذلك فإن المسيحية الصوفية - الروحية للغاية الروحية، والفوضوية، والأخروية - لم تقدّم الحل، فكان على الدين أن يتجاوز تعاليم مؤسسه إلى تبجيل المعلم نفسه. أكدت الكنيسة الرومانية الجديدة على الجانب الجاهز من حياة المسيح على أساس مكانته بصفته (ابن الله) وأنه ضحى بنفسه من أجل خطايا الآخرين، وأنشأت كنيسة لتعليم عظاته، وجرى مواءمة تعاليم المسيح لتكون متوافقة مع وظيفة الحكم، وإدارة شؤون الدولة، والقوانين، والإمبراطورية. كان هذا يعني أنه لا بد من تحديد عقيدة الكنيسة، وجعلها عالمية - **كاثوليكية**. وكان لا بد من إدخال غير المسيحيين، والطوائ فذات العقيدة المختلفة، في العقيدة الكاثوليكية، وبالقوة إذا لزم الأمر.

خلال هذه المدة وجه القديس أوغستين، أحد علماء الدين الأكثر تأثيرًا في الكنيسة الكاثوليكية المبكرة ضربة إلى مبدأ المسالمة في العقيدة المسيحية، ورسم حدود نظريات القوة المسموح بها - أو حتى (الحرب العادلة) في تبرير أخلاقي للعنف ضد أعداء الكنيسة. لكن أوغستين، وبحسب معظم الروايات، لم يكن مدفوعًا بالضرورات السياسية، بل كان لديه هدف روحي في الرغبة في تغيير النظام السياسي والاجتماعي

الوثني في عصره، ليجعل من السهل على المرء أن يكون مسيحيًّا، وأن يسهل إنقاذه والحفاظ على حياته. فبدلًا من تشجيع دين يبدو رافضًا للعالم، أو راغبًا في الهروب منه، سعى إلى نشر دين يفهم العالم المعيش أكثر مما تفهمه المذاهب الوثنية، بل قد ينظر إلى عمله على أنه مشروع شخصي، وما ورائي على حد سواء، على الرغم من أنه مهد الطريق للعبة السلطة في روما.

كيف تعامل أوغستين مع رفض المسيح الواضح للعنف؟ في كثير من الكتابات، أوضح أوغستين كيف أن تعاليم المسيح - على وجه الخصوص، إدارة الخد الآخر - خاطبت الأخلاق الروحية المعنية، وارتبطت بالعالم السماوي (مدينة الله)، وليس ممالك البشرية (مدينة البشر) التي فهمها المسيح بأنها مليئة بالعنف والخطيئة.

لم يقل المسيح، بحسب أوغستين: إنها خطيئة أن يستخدم شخص العنف الشخصي في العالم الدنيوي، أو إن من الخطيئة المشاركة في حرب لهزيمة معتدٍ آثم. من منظور أوغستين، كان المسيح يدرك أن العنف أمر مسلم به في العالم الفاني، وأنه حتى الشخص المؤمن قد يضطر إلى الانخراط لكبح الخصوم الظالمين وإحلال السلام أو معاقبة المسيئين، فعالم العنف يمكن أن يتعايش مع الإيمان، لكن القضية الأكثر أهمية هي الإيمان نفسه.

هل كان الأمر كذلك حقًّا؟ من بين القضايا الرئيسة في مطابقة مذهب أوغستين مع الأناجيل هو تفسير سطر غامض واحد في العهد الجديد واصفًا حدثًا وقع قبل صلبه، عندما جاء رجال رؤساء الكهنة للقبض على المسيح. وروي في إنجيل متّى، في تلك اللحظة استل أحد تلاميذ المسيح سيفه فقطع أذن أحد الرجال، فالتفت المسيح إلى التلميذ، وقال شيئًا مثل: «ردّ سيفك إلى غمده!، فإن الذين يلجؤون إلى السيف بالسيف يهلكون» بالنسبة إلى أوغستين وعلماء دين آخرين دافعوا عنه، فإن هذا هو المسيح الذي

لا يدين العنف، ولكنه يتغاضى عن ذلك، ويكتفي بالتحذير من آثاره في أثناء الحياة الفانية: المسيح ينصح، ولا يضع القانون.

إن علينا عدم تجاهل الأهمية التاريخية والفلسفية لهذه اللحظة: مواءمة أوغستين للعنف مع تعاليم المسيح عن الحب مرتبطة باستيلاء الكنيسة على سلطات الدولة – روما، وقد سخر نيتشه في وقت لاحق من حجج أوغستين، واصفًا إياها بالحيلة الماكرة: استيلاء على السلطة يبرره ميل كهنوتي لاستعباد الآخرين في سياق أزمة روحية شخصية، وقد جعل فيودور دوستويفسكي (اللحظة الأوغستينية) في تاريخ الكنيسة تبلغ ذروة مرعبة في تصوير إيفان كارامازوف لـ (المحقق الكبير) في (**الإخوة كارامازوف**)، والشجب الصريح للكاثوليكية. المحقق الإسباني يلقي بغضب محاضرة على المسيح، العائد إلى الأرض في ذروة محاكم التفتيش، ساخرًا من تعاليمه واصفًا إياها بالمستحيلة من الناحية العملية وغير قابلة للتطبيق كأساس للكنيسة، ومعترفًا بأن الكنيسة رفضت المسيح في أواخر القرن الرابع، وهذا هو على وجه التحديد وقت أوغستين:

لزمن طويل حتى الآن – ثمانية قرون بالفعل – نحن لم نكن معك، ولكننا كنا **معه**. بالضبط قبل ثمانية قرون أخذنا منه ما رفضته أنت بسخط، تلك الهبة الأخيرة التي عرضها عليك [في أثناء لحظات] عندما أظهر لك كل ممالك الأرض: **أخذنا روما وسيف قيصر منه**، وأعلنا أنفسنا حكام الأرض الوحيدين، والحكام الوحيدين فقط[9].

استثناء أوغستين، على الرغم من مأساويته أصبح القاعدة، سواء داخل الكاثوليكية أو خارجها، ففي القرون اللاحقة، شابت المسيحية التبريرات المتكررة عن الحرب والاضطهاد، واستخدمت مبادئ الإيمان للتبرير والتحريض على الحملات العسكرية، والحروب المقدسة، والمذابح من فرنسا إلى القدس، ومن الحروب الصليبية إلى حروب الإصلاح الديني. على الرغم من أن الإيمان استمر في إلهام ملايين الأعضاء للتصرف بمحبة ورحمة، وعلى الرغم من أن الكنائس والتجمعات الدينية في جميع أنحاء العالم

عملت بأشكال مختلفة على التخفيف من المعاناة بين ملايين الناس، إلا أن العقيدة المسيحية، أو المختلفين معها، عملت أيضًا بصورة منتظمة على تأجيج العنف. من دون مبالغة، يمكن القول: إن المسائل الدينية في قرون عدة كانت بمنزلة الوقود الرئيس للحروب وأعمال الاضطهاد في الشرق الأوسط، وأوروبا، وفي السنوات الأخيرة، في الأمريكيتين، وآسيا، وإفريقيا.

ربما كانت الحروب الصليبية أسوأ مثال على ذلك: الحروب التي شنها المسيحيون الأوروبيون لإعادة تنصير الأراضي التي تحولت إلى الإسلام في القرنين الثامن والتاسع، عندما حقق الإسلام أكبر مكاسبه، والحروب اللاحقة التي شنتها القوات الكاثوليكية ضد الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية. حدث خلال المرحلة الأولى، في نهاية القرن الحادي عشر أن البابا أوربان الثاني أعلن الحرب المقدسة كانت في معظمها بالمعنى المباشر، حربًا لطرد القوات الإسلامية من القدس.

بدأت الحملة الصليبية الأولى بعرض جانبي معادٍ للسامية، من خلال مذبحة في وادي الراين في شتاء عام 1095م التي ربما ذبح فيها عشرة آلاف من اليهود، وقد أشار إليها اثنان من المؤرخين البارزين في تلك المرحلة، جوناثان رايلي سميث وجوناثان فيليبس، بـ (الهولوكوست الأولى)[10]. بعد أربع سنوات استولى الصليبيون على القدس، وارتكبوا مذبحة فيها ضد اليهود والمسلمين، التي وصفها مؤرخ آخر، إرنست باركر، بكلمات مرعبة: «كان الذبح فظيعًا. سال دم الضحايا في الشوارع، وكان الدم يبلل الرجال، وهم يمتطون الخيول[11]. تذكر روايات مختلفة عن تلك المرحلة أن «الدم وصل إلى الأكعاب»[12] وتحدثت إحداها عن الجثث «في أكوام، كما لو كانت منازل مهدمة... وكانت محارق الجثث ترتفع مثل الأهرام، ولا أحد يعرف عددهم إلا الله وحده»[13] لا يُعرف العدد الدقيق للقتلى (وقد أُبقي على بعض المسلمين واليهود أحياءً، وهؤلاء نُفوا أو بيعوا عبيدًا)، لكن لا أحد يشكك في العدد الهائل للقتلى: يقدّر المؤرخون أن ما بين 30 و70 ألف شخص قد ذُبحوا، وهذا عدد ضخم بالنسبة إلى عصر كان القتل يجري فيه من

خلال الأسلحة اليدوية. وقد كتب ريمون دا غيليه Raymond D’Aguilers، وهو رجل دين صليبي من الذين شهدوا الواقعة عن ذلك:

بعض رجالنا (وهذا كان أرحم) قطعوا رؤوس أعدائهم، آخرون أطلقوا عليهم السهام، بحيث سقطوا من الأبراج، وآخرون عذبوهم وقتًا أطول بالإلقاء بهم في لهيب النيران المستعرة. كانت أكوام من الرؤوس والأيدي والأقدام تشاهد في شوارع المدينة. وكان من الضروري أن تشق طريقك على أجساد الرجال والخيول، ولكن هذه الأمور كانت صغيرة بالمقارنة مع ما حدث في موقع المسجد الأقصى حاليًّا. ماذا حدث هناك؟ إذا قلت الحقيقة، فلن تصدق ذلك؛ لذلك أكتفي بالقول: إن الرجال، على الأقل، امتطوا خيولهم والدم يصل إلى حد ركبهم وإلى الأرسان. في الواقع كان حكمًا عادلًا ورائعًا من الله أن هذا المكان يجب أن يمتلئ بدماء الكفار؛ لأنه عانى كفرهم مدة طويلة، فلقد امتلأت المدينة بالجثث والدم(14).

أكرر ما قاله: إن **المدينة** قد عانت كفر سكانها - المكان هو الذي عانى، وليس الناس - ولذلك كان من العدل والروعة أنها غسلت بدمائهم. واختتم ريمون روايته: «هذا اليوم، أقول: سيكون يومًا مشهودًا في كل العصور المستقبلية؛ لأنه حوّل حزننا ومعاناتنا إلى فرح وابتهاج. هذا اليوم، أقول: يمثل خلاصًا من الخطايا للمسيحية كلها»(15).

كان الحادث الشائن الآخر هو نهب القسطنطينية في 1204م، خلال الحملة الصليبية الرابعة، التي ركزت ليس على الإسلام، ولكن على الكنيسة الشرقية. (كانت كنيستا الروم الكاثوليك والكنيسة الأرثوذكسية الشرقية منقسمتين انقسامًا حادًّا في ذلك الوقت بسبب قضية لاهوتية رئيسة متعلقة بالثالوث والأساس الوجودي للروح القدس، وهي القضية التي لا تزال تناقش في المؤتمرات المسكونية حتى يومنا هذا) نيكولاس زرنوف Nicholas Zernov، منظّر لاهوتي ومؤرخ أرثوذكسي شرقي من القرن العشرين، يصف سقوط المدينة:

يُعدُّ نهب القسطنطينية من الكوارث الكبرى في التاريخ المسيحي، فالمدينة كانت تحتوي على كنوز لا تُعدُّ، ولا تحصى، ولا يمكن تعويضها من العصور الكلاسيكية القديمة، والفن المسيحي والتعلم. كل ما فيها أفضل ما يمتلك عالم البحر الأبيض المتوسط. لمدة ثلاثة أيام، حشد متوحش من الجنود السكارى والمتعطشين للدم، فعاثوا في المدينة قتلًا واغتصابًا، فالقصور والكنائس، والمكتبات والمجموعات الفنية، كلها دمرت بخسّة، واستباحوا الأديرة والمستشفيات ودور الأيتام. ووضعت عاهرة في حالة سكر على كرسي البطريرك في كاتدرائية القديسة صوفيا، وغنت أغنيات غير لائقة وسط تصفيق من الصليبيين، في حين أن الفرسان كانوا مشغولين بتحطيم المذبح العالي المصنوع من الذهب والمزين بالأحجار الكريمة وسرقته[16].

معظم المناقشات الخاصة بنهب القسطنطينية تشير إلى أن الخيول البرونزية التي تزين كاتدرائية القديس مرقص في البندقية حاليًّا قد سُرقت في الواقع من ميدان سباق الخيل في القسطنطينية خلال عمليات السلب والنهب، وأقل ما ورد ذكره في روايات المؤرخين هو مأساة فقدان المكتبة، التي أحرقت فيها مخطوطات هوميروس، ومختلف نتاج الفلاسفة الرواقيين، وعدد لا يحصى من كتب الرياضيات والهندسة (أعلى خسائر فئة «مآسي المعرفة الضائعة» حدثت في تدمير مكتبة الإسكندرية في مصر) مرت ثمانية قرون، قبل أن تعتذر الكنيسة الكاثوليكية رسميًّا عن هذه الحادثة، وعام 2004م، شارك البابا يوحنا بولس الثاني - أول بابا منذ أكثر من ألف سنة يزور الأراضي الأرثوذكسية مثل اليونان ورومانيا - في قداس مشترك في الفاتيكان مع برتلماوس الأول، بطريرك القسطنطينية، بالضبط بعد 800 سنة من الحادثة.

كانت الحروب الصليبية شقًّا واحدًا من عنف الكنيسة، وكان الشق الآخر هو محاكم التفتيش. إينوسِنت الثالث، البابا الذي أشرف على نهب القسطنطينية، أطلق أيضًا حملات صليبية مصغرة في جنوب فرنسا ضد شعب اعتبر أنه زنادقة - بداية افتتاح محاكم التفتيش استمر الاضطهاد خلال بابوية غريغوري التاسع وإينوسِنت الرابع، الذي

أصدر المرسوم البابوي الذي أذن لأول مرة باستخدام التعذيب في حالات الهرطقة، كما هو الحال مع كثير من أفكار الكنيسة، اعتبر ذلك من باب الإنسانية: التعذيب سوف ينتزع الحقيقة من الزنادقة - اعترافاتهم- وينقذ أرواحهم.

كان العنف في العصور الوسطى المتأخرة مروعًا، حيث عاش كثيرون في رعب. إينوسِنت الثالث سمح لليهود بالبقاء في أوروبا، ولكنه أجبرهم على ارتداء شارات صفراء على ملابسهم لتحديد الهوية؛ بينما أحرق غريغوري جماهير اليهود والهراطقة في المحارق في روما، ووضع السابقة الأولى للحكم الشمولي في أوروبا- مع استخدام الاعترافات القسرية والوشاية بالآخرين، والشك أسبابًا للإدانة، والجيران يتهمون الجيران، كانت كلها من أسس الإرهاب الاجتماعي الشامل.

دون شك كانت هناك استثناءات في الخطط، فكثير من أنظمة الأديرة كانت تنبذ العنف تمامًا (حتى مع أن بعضها تمتع بثمار ذلك العنف) في القرن الثالث عشر، شدد القديس فرنسيس من مدينة أسيزي الإيطالية على أن الرهبان يجب أن (لا يتشاجروا) وأن يكونوا «مسالمين، متواضعين، رحيمين»، وأن «يُكنّوا المحبة لأعدائهم، والذين يضطهدوننا، والذين يلعنوننا، والذين يهاجموننا»[17] وفي وقت لاحق، أدت حركة الإصلاح الديني إلى حروب بين الأديان في جميع أنحاء أوروبا-، ولكن أيضًا أدت إلى ظهور الطوائف البروتستانتية التي تبنت مواقف أكثر مسالمة، ولعل حركة الكويكرز أفضل مثال على ذلك. لم يتغير الوضع لمئات السنين، فقد ظلت الكنيسة الكاثوليكية، وكذلك معظم الدول البروتستانتية، متجذرة في عالم العنف، لم يبدأ الوضع بالتحسن حتى نحو عام 1648م، عندما أنهت معاهدة ويستفاليا الحروب داخل أوروبا بين الكاثوليك والبروتستانت، مع ذلك، ظلت الطوائف البروتستانتية المسالمة مثل الكويكرز على خلاف مع القوى الاجتماعية والسياسية. (كانت النتيجة السياسية الرئيسة الوحيدة والمهمة لحركة الكويكرز، هي مستعمرة بنسلفانيا عام 1682م). والكنيسة الكاثوليكية، من جانبها، لم تتخلص من أعمال العنف المنظم تمامًا حتى جرى عام 1870م دمج

الولايات البابوية أقاليم في إيطاليا كانت تحت سلطان الكنيسة السياسي والمادي- في إيطاليا الحديثة.

ومع ذلك، سيكون كذبًا وعدم إنصاف القول: إن المسيحية وحدها سببت، واقترفت عنفًا أكثر، أو أسوأ، من أي دين أو أيديولوجية دولة أخرى على المشهد التاريخي العالمي، فقد كانت الحملات الصليبية والحرب الضروس، والتطهير، والإرهاب سمات مألوفة في التاريخ البشري، سواء داخل المسيحية أو خارجها، فلم يكن انتشار الإسلام من دون دم أيضًا، فقد مارست الإمبراطورية العثمانية العبودية. دون شك الأيديولوجيات غير الدينية في القرنين التاسع عشر والعشرين، من الاشتراكية الوطنية الألمانية إلى شيوعية الخمير الحمر في كمبوديا، كانت أسوأ من ذلك. في نهاية المطاف، لم يكن الإيمان الديني المذنب الأكبر في العنف العالمي على مر العصور، على الرغم من أن بعض ما يسمى الملحدين الجدد في بعض الأوقات قالوا أكثر من ذلك، بمن فيهم كريستوفر هيتشنز، وريتشارد دوكينز، وسام هاريس، ودانييل دينيت.

كان السبب الأكبر للعنف الجماعي دائمًا شيئًا أكثر بساطة وشمولًا: إيمان الحكام، سواء كانوا دينيين أو علمانيين بأن رؤيتهم هي الأفضل، وبأن أهدافهم هي الأسمى، وبأن كل الوسائل يمكن وينبغي أن تمارس لتحقيقها. في النهاية، عندما تم اكتشاف النهاية النقية للوجود الإنساني، فمن الطبيعي أن نفترض أن أي وسيلة يمكن استخدامها لتحقيق ذلك. ومثلما قال أشعيا برلين عن مقولة استفزازية للينين: إذا كنت تريد عمل العجة فعليك أن تكون مستعدًّا لكسر بضع بيضات. هذه نقطة مفارقة ساخرة أساء فهمها بصورة خاصة سام هاريس، مؤلف الكتاب المناهض للدين الذي يحمل عنوان **نهاية الإيمان** The End of Faith؛ لأن مثاله التجريدي لحكم الملحدين البراغماتيين يبدو وكأنه منحدر زلق نحو ديكتاتورية العلمانيين المستنيرين على المؤمنين الجهلاء.

إن ما جعل المسيحية تحديدًا في تناقض مع الأيديولوجيات والأديان الأخرى، بما فيها الإسلام، هو أن حمامات الدم التي ارتكبت باسمها استمرت على الرغم من التعاليم الصريحة لمؤسسها، الذي، رأى الأشياء بصورة مختلفة، كما هو الحال مع البوذيين، فقد عاش المسيحيون قرونًا عدة في حالة من النفاق، واضعين السيف لأعدائهم، الذين غالبًا لا يستحقون تلك التسمية، فيما يبدو أنه مخالفة صريحة لتعاليم المسيح.

مع ذلك يبدو أنه يوجد شيء خطأ في تبني البديل: السلمية غير العنيفة دون استثناء، فهل كان المسيح أو بوذا حقًّا سيخطّئان أي شخص لاستخدامه القوة في إطار محدود لتحقيق العدالة الحقيقية؟ أم أنهما كانا سيتغاضيان عن ذلك، ولكنهما يذكراننا بممارسة التواضع في فهمنا للعدالة؟

شيء واحد على الأقل يبرز من تاريخ البوذية والمسيحية وعلاقة هذين الدينين بالعنف: هو أن قدرة الإنسان غريبة في تبريره لأفعاله، للأفضل أو للأسوأ، في مواجهة مبادئ واضحة تحظر هذه الأفعال.

يوجد شيء محير بخصوص عدم التطابق: بابا مسيحي يعلن الحرب المقدسة، وساموراي ممتشقًا سيفه يشعل البخور ساجدًا بنفسه أمام ضريح، وراهب يبارك سفينة حربية دُشّنت حديثًا، وجندي يركع مع بندقيته، حاملًا الصليب، ويصلي للمخلص له، يبدو أن العقل البشري قادر على أي شيء.

الرجل الذي درس التاريخ العنيف للمسيحية، وقضية السلمية، والعمل المعقد من الخلط بين المبادئ المسيحية والعالم الحقيقي كان اللاهوتي الأمريكي في القرن العشرين رينولد نيبور، جدي لأمي.

يُعدُّ نيبور اليوم أحد مؤسسي (الواقعية المسيحية) وهي فلسفة دينية تتبنى إنجيل الأمل والحب، ولكن مع التبصر والشك في التعامل مع العالم، ويرى بعض العلماء والمعلمين أن أفضل مؤلفات نيبور المعروفة، **مفارقة التاريخ الأمريكي والإنسان**

الأخلاقي والمجتمع اللاأخلاقي، من بين أكثر الكتب تأثيرًا في العلاقات الدولية في القرن العشرين.

كتب نيبور هذه الأعمال في وقت الحروب العالمية، والكساد الاقتصادي، والنظم الشمولية، والشيوعية، لكن أفكاره استمرت بعد وفاته عام 1971م، فبعد هجمات 11 سبتمبر/ أيلول، استشهد به الجمهوريون المعتدلون مثل ديفيد بروكس بوصفه مثال المفكر الليبرالي الذي لم يكن خائفًا من الدفاع عن استخدام القوة لمحاربة الشر - مجرد نوع الكلام الذي كان بعض الأمريكيين يحبّون سماعه في ذلك الوقت - والذي قاتل من أجل العدالة الاجتماعية، لكن من دون تبني الإباحية العلمانية لمعظم الليبراليين[18].

في الواقع كان نيبور من دعاة السلام عندما كان شابًّا، وربما كان سيصاب بالصدمة من الغلو فى الوطنية والدعوة إلى الحرب في عهد جورج بوش. كانت أعماله نتاج رحلة فلسفية وروحية شخصية بدءًا من المثالية والاشتراكية العملية وصولًا إلى الواقعية الناضجة التي تعامل فيها مع الشرور الرهيبة التي اجتاحت العالم في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين.

ولد نيبور عام 1892م في ولاية ميسوري، لأبوين ألمانيين مهاجرين، ونشأ في ولاية أيلينوي، وكان والده قسًّا في المجمع الإنجيلي والإصلاحي، وهو تيار ألماني- أمريكي هجين من اللوثرية والكالفينية، والتحق بكلية اللاهوت في جامعة ييل، ثم عاد إلى الغرب الأوسط بعد وفاة والده ليتولى منصبه الكنسي. وعام 1915م، أرسلته الكنيسة إلى أبرشية في ديترويت التي كان معظم رعاياها من- الطبقة الوسطى والعاملة من أصول ألمانية، حيث خدم حتى عام 1928م خلال سنوات خدمته انخرط في كثير من القضايا الاجتماعية والسياسية، وغالبًا ما كان يعمل منسقًا اجتماعيًّا، مثل العمل مع القيادات النقابية لتحسين ظروف العمل في مصانع هنري فورد، فقد كان في تلك المرحلة من دعاة السلام، وعززت التزاماته مجازر الحرب العالمية الأولى، وكان اشتراكيًّا.

وعام 1928م، انضم إلى هيئة التدريس في كلية الاتحاد اللاهوتي في نيويورك، وفي الوقت نفسه تقريبًا تقلد منصبًا قياديًّا في جماعة سلام مسيحية كبرى، تدعى زمالة المصالحة، ولكن بحلول عام 1933م، وفي خضم الأهوال المتزايدة من جراء العدوان الفاشي في أوروبا وآسيا، انشق عن دعاة السلام: توصل إلى قناعة بأن توصياتهم كانت ساذجة وغير مسؤولة، ودعا بدلًا من ذلك إلى شكل جديد من الواقعية السياسية تسترشد بالمثل المسيحية – الواقعية المسيحية.

كما لاحظ اللاهوتي رونالد أوزبورن والمؤرخ أندرو باسيفيتش، فإن الواقعية المسيحية تنقسم إلى أربع (حقائق) رئيسة يجب على القادة المسؤولين أن يتذكروها، وهي قاسية إلى درجة يصعب تقبُّلها[19] أولًا، يجب على المرء أن يدرك الأبعاد (المأساوية) و(التهكمية) للتاريخ والطبيعة البشرية، فالتاريخ، كما كتب نيبور، يقاوم جهودنا للسيطرة على النتائج، ويقلب بانتظام نضالاتنا الطوباوية، ومثلما عبّر أوزبورن عن تلك الفكرة بأسلوب أنيق، فإن مأساة التاريخ هي أن الشر يجب أن يحدث في بعض الأحيان من أجل الخير. أما السخرية في التاريخ فهي أنه نتيجة للاعتزاز البشري والغطرسة، فإن جهودنا لتحقيق الخير يمكن أن تؤدي إلى الشر، والجهود المبذولة لتجنب الشر يمكن بدلًا من ذلك أن تؤدي إليه.

النقطة الثانية، المتصلة بالأولى، هي أن البشر غالبًا ما يكونون شريرين أو بالأحرى، خاطئين. تبنّى نيبور أفكار القديس أوغستين، ولوثر وكالفين عن الخطيئة البشرية الأولى، أو (السقوط) بوصفه عوامل حتمية تُوجد الصراع في العالم، ورفض فكرة أن الصراع العالمي قد ينتهي من خلال تغيير الطبيعة البشرية عن طريق التعليم أو الإصلاح؛ لذلك، يتعين على الحكومات تقبُّل حقائق الشر والمصلحة الذاتية في العالم الحقيقي، وتقبُّل أن أعمال الدولة من بين مظاهر الإثم البشري.

ثالثًا، أصر نيبور على أن الواقعية المسيحية لم تكن **واقعية بالمعنى الدقيق للكلمة**، وإنما هي عملية شد بين الواقعية والمثالية، وقال: إن الواقعية وحده اتؤدي إلى التشاؤمية والشك في وجود الخير في الإنسان: يجب الحفاظ على المثالية؛ «حتى لا نصبح قساة قلوب تجاه أهوال الحرب» أو «ننسى غموض أفعالنا الخاصة»[20].

كانت النقطة الرئيسة الرابعة من الواقعية المسيحية التمييز الواضح بين الأخلاق الشخصية وأفعال الدولة. كتب نيبور عام 1951م أن «الدين يتعامل مع الغايات والمعاني النهائية للحياة، بينما يتعيّن على السياسة أن تسعى حتمًا لتحقيق غايات متقاربة للحياة، ويجب أن تستخدم وسائل غامضة لتحقيقها». لذلك قال: «فمن الخطورة بمكان ادّعاء القدسية المطلقة للغايات والوسائل السياسية»[21] كان سيسخر من كل من بوش وبن لادن؛ لطرحهما مثل هذه الادعاءات، لم تتحقق البركة والخلاص من الأفعال في المجال السياسي، بل إن الجهود المبذولة لتحقيق الخلاص الشخصي هي التي حررت شخصًا «ليكون فاعلًا في التاريخ، وتكريس التزامه بالقيم العليا التي يعرفها، والدفاع عن قلاع الحضارة التي جعلته الضرورة والمصير التاريخي المدافع عنها»[22].

في الوقت الذي بدأ فيه نيبور بطرح هذه الأفكار، التقىجدتي الإنجليزية، أورسولا كيبل كومبتون في أواخر عشرينيات القرن الماضي، كانت طالبة في التاريخ واللاهوت في جامعة أكسفورد، ثم أصبحت رئيس قسم اللاهوت في جامعة كولومبيا، وقد تزوج الاثنان عام 1930م، وكان طفلهما الثاني والأخير هو اليزابيث، والدتي.

لم ألتقِ جدي، فقد توفي قبل ولادتي، لكن كان له وجود في طفولتي، أتذكر صورة له في مكتبه في بيت جدتي: تلك النظرة الفولاذية الثاقبة، التي تبرزها عيناه العميقتان وصلعة كبيرة. كان ظاهرًا من بين إطارات الصور الأخرى، من بينها صورة لجدتي، وهي تحمل كلبًا ألمانيًّا، ويقف بجانبها صديق جدي المقرب، الشاعر أودن الذي كانت ربطة

عنقه في تلك الصورة لافتة، وأذكر أنها كانت مربوطة بشكل رديء إلى حد ما، والذيل أطول من الربطة.

لم يكن صعبًا الانتقال إلى الوراء في الزمن في ذلك المنزل، وأن تتخيل جدي هناك، فبعض معاطفه لا تزال معلقة في الخزانات بعد عشر سنوات من وفاته، أتذكر كيف صُدمت من ضخامتها ومن صوفها الثقيل، كانت جدتي تتولى ترتيب بحوثه وكتبه التي كان كثير منها موجّهًا لمكتبة الكونغرس، ففي تلك الأيام المبكرة من حياتي، لم أكن أعرف الكثير عن أفكاره أو حياته، أو من كان هو في الواقع.

وعندما كبرت بعض الشيء، حكت لي جدتي عن حياته وأصدقائه من الكتّاب والصحفيين والقادة السياسيين.

وكانت له حياة سياسية ثرية للغاية، فقد أسس خلال الحرب العالمية الثانية مجلة نصف شهرية تسمى (**المسيحية والأزمات**)، حيث كتب مئات المقالات والافتتاحيات، وكتب أيضًا في مجلة (أتلانتيك) **الشهرية** وفي صحيفة (**الأمة**) وألّف كتبًا عدّة، وسافر كثيرًا، خاصة بعد الحرب. كان يعمل عن قرب مع الأشخاص الذين شاركوا في المفاوضات بشأن ميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، واستمر في تكريس وقته لكثير من الأنشطة الدينية، وأصبح نشطًا في المجال السياسي من خلال (أمريكيون للعمل الديمقراطي)، وهي جماعة سياسية ساعد على تأسيسها.

وفقًا لتاريخ الأسرة، عندما كانت والدتي شابة موظفة في وزارة الخارجية، دُعيت عام 1962م إلى مأدبة غداء رسمية في البيت الأبيض، فلم يكن لديها فكرة عن السبب، لكنها عرفت ذلك عندما قُدّمت إلى الرئيس كيندي الذي قال لدى سماعه وهو يصافحها: «أنا سعيد بلقائك والدك عمل لنا الكثير في نيويورك، كانت تلك إشارة إلى عمل والدي خلال الانتخابات في تنظيم الزعماء الدينيين المحليين لمكافحة شوفينية معارضي كيندي المعادين للكاثوليكية تمشيًا مع اتجاهاته (الواقعية)، كان كيندي يهتم

بالأصوات أكثر من مثل جدّي المسيحية، وقد حظي نيبور لاحقًا بشعبية - لأسباب أخرى - من باراك أوباما، الذي قرأ كتبه عندما كان منظِّمًا ومنسّقًا لحملات مجتمع الشباب في شيكاغو، وعام 2007م، وخلال حديث في وقت متأخر من الليل على متن حافلة حملة الانتخابات الرئاسية، سأله ديفيد بروكس، وهو من المعجبين بطريقته الخاصة، إن كان يعرف نيبور؟ السيناتور أوباما، الذي قال بروكس: إنه كان متعبًا، نشط فجأة، وأجاب: «أنا أحبه، إنه أحد الفلاسفة المفضلين لديّ».

طلب بروكس من أوباما شرح ما الذي استفاده من عمل نيبور، فأجاب: «أنا أخذت الفكرة المقنعة التي تقول بوجود شر خطير في هذا العالم»، وأنه «يجب علينا أن نكون متواضعين في اعتقادنا أن نتمكن من القضاء على هذه الأشياء، ولكن لا ينبغي لنا استخدام هذا الاعتقاد مبررًا لنكون متشائمين ولا مبالين». وأكمل قائلًا: «علينا أن نبذل هذه الجهود مع معرفتنا بأنها صعبة»، وأضاف: «وألا ننحرف من المثالية الساذجة إلى الواقعية المريرة». وعلّق بروكس على ذلك بالقول: «بالنسبة إلى شاب قضى بضعة الأشهر الأخيرة يجمع التبرعات للحملة. كان هذا تلخيصًا رائعًا لكتاب نيبور **مفارقة بالتاريخ الأمريكي** «The Irony of the American History» [23].

وبعد مرور أكثر من عامين، عندما فاز الرئيس أوباما بجائزة نوبل للسلام، تضمنت كلمته قبوله للجائزة، التي يقال: إن أوباما صاغها بنفسه، متضمنة الكثير من أفكار نيبور، وقد أشار عدد من المعلقين، ومنهم رونالد أوزبورن، بأنها تناولت الموضوعات الرئيسة كلها[24] مأساة التاريخ؟ أوباما اعترف بـ «الحقيقة المرة أننا لن نقضي على الصراع العنيف»، وأن «حركة اللاعنف ما كانت لتستطيع أن توقف جيوش هتلر»[25]، وأنه تحين أوقات عندما يكون فيها «استخدام القوة ليس ضروريًّا فحسب، بل له ما يبرره أخلاقيًّا، فأن نقول: إن القوة في بعض الأحيان ضرورية ليست دعوة تشاؤمية، بل هي اعتراف بالتاريخ وعيوب البشر وحدود العقل».

مفارقة التاريخ، والإثم من البشر؟ وعن ذلك قال: «نحن عرضة للخطأ، نحب نرتكب أخطاء، ونقع ضحايا لإغراءات الزهو والقوة، والشر في بعض الأحيان، حتى الذين لديهم أفضل النيات سيخفقون في بعض الأحيان في تصحيح الأخطاء التي أمامنا» .

جدلية الواقعية والمثالية؟ تحدث أوباما عن الحاجة إلى التوفيق بين «حقيقتين يبدو التوفيق بينهما غير ممكن، هما أن الحرب تكون ضرورية أحيانًا، وأن الحرب إلى حد ما تعبير عن حماقة الإنسان»، وأضاف: «إن من الضروري أن نرفض الخيار الواضح بين المسعى الضيق من أجل المصالح أو شن حملة لا نهاية لها لفرض قيمنا» بمعنى آخر، الواقعية البحتة أو المثالية البحتة، وأن أساليب غاندي ومارتن لوثر كينغ السلمية هي تعابير لـ (قانون الحب)، ويمكن لمُثُلهما أن تكون بمنزلة «نجم الشمال المرشد لنا في رحلتنا» على الرغم من أنها ليست «عملية أو ممكنة في كل الظروف».

التمييز بين الأخلاق الشخصية وتصرفات الدولة؟ «أنا شهادة حية»، قال أوباما، «للقوة المعنوية للاعنف» من خلال إرث مارتن لوثر كينغ «ولكن بصفتي رئيس دولة أقسمت على حماية بلدي والدفاع عنها، لا يمكنني أن أهتدي بأمثلة غاندي [وكينغ] وحدهما، فأنا أواجه العالم كما هو، ولا يسعني الوقوف لا مباليًّا في وجه الأخطار التي تهدد الشعب الأمريكي».

إنه انتقاد مقبول القول: إن إستراتيجيات اللاعنف للنضالات المحلية – من أجل الاستقلال السياسي، والتمثيل، والحقوق المدنية، وحقوق الإنسان – لا تترجم بشكل جيد في سياق الحرب أو الثورة ضد نظام مسلح ووحشي؛ لهذا، لم يكن أوباما بالتأكيد أول من طرح مثل هذه الانتقادات، فقد سبقه جورج أورويل في نقد غاندي عام 1949م:

«لقد آمن بـ (إثارة العالم)، وهذا ممكن فقط إذا أتيحت الفرصة للعالم لسماع ما تقوم به. إن من الصعب أن نرى كيف يمكن تطبيق أساليب غاندي في بلد يختفي فيه المعارضون للنظام في منتصف الليل، ولا تسمع أبدًا عنهم من جديد. ومن دون صحافة

حرة والحق في التجمع، فمن المستحيل الاكتفاء بمناشدة الرأي الخارجي فقط، ولكن لا بد من تشكيل حركة جماهيرية وإخراجها إلى حيز الوجود، أو حتى جعل نياتكم معروفة لخصومكم. هل يوجد غاندي في روسيا في هذه اللحظة؟ وإذا كان يوجد، فما الذي ينجزه؟[26].

لا يعالج العصيان **الحرب الخاطفة**، وعندما يكون النظام بلا رحمة تمامًا في قمعه للمعارضة - ليبيا أو سوريا حالتان واجههما أوباما بعد خطابه هذا - فإن أساليب التعبير غير العنيف وحدها تبدو غير فاعلة. من المسلم به أن الخطوط ليست دائمًا واضحة، ولكن بحلول عام 2011م ظهرت خلافات معقدة ومحددة السياق في التمييز بين أحداث الثورة المصرية السلمية إلى حد كبير والانتفاضات الأكثر عنفًا بكثير في ليبيا وسوريا التي جرت بعد ذلك. كافح أوباما لفهم هذه الاختلافات، ويمكننا أن نفترض أن نيبور، وكينغ، وغاندي كانوا من بين مرشديه الفكريين. عندما ظهرت أدلة في أغسطس/ آب 2013م تزعم أن النظام السوري استخدم الأسلحة الكيميائية ضد المدنيين، جرى اختبار عملية أوباما في اتخاذ القرار إلى أقصى حدودها - خصوصًا منذ ظهرت عند هذه المرحلة أن فكرة استخدام أساليب غير عنيفة لمعالجة الوضع بدت سخيفة. من المأساوي، وفي انعطافة غير معقولة ومنافية للعقل تقريبًا، لم يرتقِ (خطه الأحمر) إلى مستوى الاستهداف المتعمد أو العشوائي لعشرات الآلاف من المدنيين؛ مع ذلك، فقد لفت الانتباه في خطاب متلفز مساء يوم 10 سبتمبر/ أيلول 2013م، واصفًا الهجمات بالأسلحة الكيميائية وملاحظًا مع تركيز مثير للاهتمام أن «**هذه الأمور حدثت**، ولا يمكن إنكار الحقائق. والسؤال الآن هو ما الذي يمكن للولايات المتحدة الأمريكية، والمجتمع الدولي، أن تفعله حيال ذلك»[27].

عندما قرأت خطاب أوباما لجائزة نوبل عام 2010م، بدا لي أن ثمة خطأ ما، ليس في فهمه لأفكار جدي، ولكن في معالجته لأساليب غاندي وكينغ. كان على حق، دون شك:

العمل السلمي لا يستطيع هزيمة كثير من أكثر أشكال الشر قسوة، ومع ذلك كان هناك شيء من التبسيط حول استبعاده الأساليب غير العنيفة.

وسرعان ما أدركت حقيقة الأمر: لقد وقع الرئيس في الفخ القديم نفسه - فخ لونا ستالر - وهو النظر إلى عقيدة اللاعنف بوصفها مهرجانًا للتعبير عن الحب، فلقد بدا أن أوباما لم يفهم كيف كان كينغ وغاندي، إلى حد ما، متصالحين مع فكر نيبور، ولم يفهم الارتباط بين العنف واللاعنف.

كان كينغ قد قرأ أعمال جدي عندما كان طالبًا في كلية كروزر للعلوم اللاهوتية في أواخر أربعينيات القرن الماضي، وتبادل الرسائل مع نيبور في أثناء إعداده أطروحة الدكتوراه، التي ركزت على اللاهوتيين بول تيليش وهنري نيلسون ويمان، وتراسلا أيضًا بانتظام في سنوات لاحقة، ودعا كينغُ نيبورَ للمشاركة في المسيرة من سلمى إلى مونتغومري عام 1965م، ولكن جدي كان مسنًّا ومريضًا ما حال دون حضوره، وأرسل برقية بالاعتذار: «جلطة دماغية حادة تمنعني من قبول الدعوة، آمل خروج مظاهرة ضخمة لجميع المواطنين ذوي الضمائر لمصلحة حقوق الإنسان الأساسية في التصويت وحرية التجمع»[28].

كتب كينغ أنه قبل تعرّفه إلى نيبور أنه كان سابقًا «مقتنعًا تمامًا بالطيبة الطبيعية للإنسان وبالقوة الطبيعية للعقل البشري، ولكن نيبور هز أفكاره عن المثالية الأخلاقية بوصفها مسارًا للعدالة الاجتماعية»[29] في مقالته بعنوان: (الحج إلى اللاعنف) Pilgrimage to Nonviolence، وصف كينغ كيف أن قراءة نيبور قد نبهته إلى أخطار (التفاؤل السطحي المتعلق بالطبيعة البشرية) و(المثالية الكاذبة).

«مع أنني كنت لا أزال أعتقد في قدرة الإنسان على فعل الخير، إلا أن نيبور جعلني أدرك أيضًا قدرات هذا الإنسان على الشر كذلك. علاوة على ذلك، ساعدني نيبور على

تعرُّف تعقيدات مشاركات الإنسان الاجتماعية للبشر والواقع الصارخ للشر الجماعي، واعتقدت أن كثيرين من دعاة السلام فشلوا في رؤية هذا»[30].

كتب مارتن لوثر كينغ أوراقًا عدّة عن نيبور في أثناء إعداده لرسالة الدكتوراه في جامعة بوسطن، فوجد أن فكر نيبور كان «التصحيحية الضرورية من نوع الليبرالية التي استسلمت بسهولة كبيرة للثقافة الحديثة»[31]، وقد أهدى كينغ إلى جدّي روايته (قفزة إلى الحرية) Stride toward Freedom التي تحكي عن احتجاجات السود على التمييز في حافلات النقل العام عام 1958م التي دامت 13 شهرًا، وانتهت بالحكم بعدم دستورية هذا التمييز، واصفًا إياه باللاهوتي ذي (الرؤية الاستشرافية العظيمة)، مع «التزام راسخ بالمثل العليا للحرية والعدالة»[32].

للوهلة الأولى، قد يبدو من الغريب أن نيبور كان ملهم كينغ داعية السلام، فنيبور لم يكن داعية سلام بالتأكيد على الرغم من أنه، مثل كينغ، عارض حرب فيتنام في وقت لاحق، وعلى النقيض مما قد يعتقد كثيرون بأنه فلسفة كينغ، فقد رفض فكرة أن التغيير قد حدث عن طريق الحجج العقلانية والإقناع الأخلاقي. لقد آمن بأن هذه المفاهيم ساذجة وفي غير محلها، وركز بدلًا من ذلك على المحركات الحقيقية للتغيير. وفي مناقشته لقضايا العنصرية في كتاب (**الإنسان الأخلاقي والمجتمع اللاأخلاقي**) Moral Man and Immoral Society **المنشور عام** 1932م، يقول: «مهما بلغت ضخامة عدد الرجال البيض الأفراد الذين يؤيدون، والذين سوف يؤيدون قضية السود، فإن العرق الأبيض في أمريكا لن يعترف بحق الزنجي في المساواة في الحقوق إذا هو لم يُجبَر على ذلك»[33]. قد يبدو هذا منسجمًا مع فلسفة مالكولم X (الحاجّ مالك الشباز، أكثر القادة السود تأثيرًا في حركة مناهضة العنصرية الأمريكية) أكثر منه مع فلسفة مارتن لوثر كينغ، ولكن مع بروز كينغ على الساحة الوطنية، فقد استمر في استخدام فلسفة نيبور بوصفها أساسًا لاهوتيًّا للاحتجاج غير العنيف من أجل الحقوق المدنية. كيف كان ذلك؟

يمكننا أن نفهم تقدير كينغ لنيبور إذا ما أدركنا المدى الذي كان فيه كينغ متقدمًا إستراتيجيًّا في موضوع القوة في الخيال الشعبي. لقد فهم كينج ما فعله جدي عام 1932م، في كتاب (**الإنسان الأخلاقي والمجتمع اللاأخلاقي**)، حيث شرح المصطلحات المتباينة (العنف)، و(اللاعنف)، و(الإكراه)، و(القوة)، مشيرًا إلى أنه عندما كان اللاعنف يهدف إلى التغيير الاجتماعي، فإنه بالضرورة انطوي على إكراه من نوع ما. وكان يرى أن من الضروري التخلي عن (السلمية الخالصة)، وقبول «مبدأ الإكراه والمقاومة بصفته ضرورة للنضال الاجتماعي»[34]. لم تكن القضية العنف مقابل اللاعنف، ولكن فهم أن التغيير الاجتماعي يحتاج إلى (القوة) ليحدث؛ أي قوة اللاعنف.

في كتاب (**الإنسان الأخلاقي والمجتمع الاأخلاقي**) قال جدي: «إنه (لا أمل) في أن يحقق الأمريكيون السود» التحرر من خلال التمرد العنيف «لكنه اقترح اللاعنف بديلًا، فهو إذا ما استمر بنفس الصبر والانضباط الذي حققه غاندي وأتباعه، سوف تُحقّق درجة من العدالة التي لا يمكن أن تتحقق من خلال الإقناع الأخلاقي أو العنف»[35].

من الواضح أن كينغ وافق على هذا الطرح، لكنه اعتقد أيضًا أن جدّي قد بسّط غاندي (وهي تهمة وجهها آخرون غيره) فقد كتب لاحقًا في (الحج إلى اللاعنف) عن بعض (العيوب) في مواقف نيبور الناقدة والمفرطة في التبسيط للاعنف:

كشفت كثير من تصريحاته أنه فسر السلمية على أنها نوع من عدم المقاومة السلبية للشر معربًا عن ثقة ساذجة في قوة الحب، ولكن كان هذا تشويهًا خطيرًا. لقد أقنعتني دراستي لغاندي أن السلمية الحقيقية ليست عدم المقاومة للشر، ولكن المقاومة غير العنيفة للشر. بين الموقفين، يوجد فرق شاسع. لقد قاوم غاندي الشر بالقوة والحماسة مثلما يفعل المقاوم العنيف، لكنه قاوم بالحب بدلًا من الكراهية.

إن السلمية الحقيقية لا تعني الاستسلام غير الواقعي لقوة شريرة، كما يدعي نيبور، بل هي مواجهة شجاعة للشر من قِبل قوة الحب، من منطلق الإيمان أنه من الأفضل أن

تكون ضحية للعنف من أن تكون من يمارسه على غيره؛ لأن هذا الأخير يضاعف فقط وجود العنف والمرارة في الكون، في حين أن الأول قد يجعل الخصم يشعر بالعار، ويؤدي بالنتيجة إلى تحوُّل وتغيير في القلب[36].

مع ذلك، فإن خلاصة القول هي: إن كينغ وافق جدّي في أن التغيير الاجتماعي، حتى التغيير الاجتماعي غير العنيف، اشتمل على القوة أو الإكراه، وأن حركة الحقوق المدنية كانت (تجبر) الولايات المتحدة على التغيير. ويشير مقطع من (رسالة من سجن برمنجهام) حيث كان يقضي مدة سجن عام 1963م إلى أن «الأفراد قد يرون النور المعنوي، ويخلون طواعية عن موقفهم الخطأ. ولكن، كما يذكرنا رينولد نيبور، فإن المجموعات تميل إلى أن تكون لاأخلاقية أكثر من الأفراد»[37]، وفي مناقشة كينغ الدعوات للتفاوض، أشار في الرسالة، بمكر إلى حد ما، إلى أن الاحتجاجات كانت تهدف فقط إلى تعزيز المفاوضات، مع اعترافه أيضًا بأنها كانت في الواقع تثير أزمة، وقد صاغ كينغ الفكرة على هذا النحو:

يسعى العمل اللاعنفي المباشر إلى إيجاد مثل هذه الأزمة وتعزيز مثل هذا التوتر الذي أجبر مجتمعًا كان رافضًا للتفاوض باستمرار على مواجهة هذه القضية. إنه يسعى إلى تهويل القضية، بحيث يصبح من غير الممكن تجاهلها، وعليّ أن أعترف بأنني لا أخشى كلمة (توتر). لقد عارضت بجدية التوتر العنيف، ولكن يوجد نوع من التوتر السلمي البنّاء، وهو أمر ضروري للنمو. ومثلما شعر سقراط أن من الضروري إيجاد التوتر في العقل ليتخلص الأفراد من عبودية الخرافات وأنصاف الحقائق، ويرتقوا إلى عالم بلا قيود في التحليل الإبداعي والتقييم الموضوعي، يجب علينا أن ندرك حاجة الأشخاص السلميين المزعجين لإيجاد هذا النوع من التوتر في المجتمع، وهذا لن يساعد الرجال على الارتفاع من الأعماق من التحيز والعنصرية المظلمة إلى قمم الفهم والأخوة المهيبة.

إن الغرض من برنامجنا للعمل المباشر هو إيجاد وضع متفجر سوف يؤدي حتمًا إلى فتح الباب أمام التفاوض[38].

أساليب الاحتجاج السلمي هذه كانت كلمة وضع متفجر إشارة إلى المتظاهرين الذين يُضربون في الشوارع. كانت هذه الإستراتيجية إستراتيجية قوة – قوة غير مباشرة، وكانت على وجه التحديد أن المتظاهرين كانوا يتعرضون للضرب والقتل ما أدى إلى الوضع غير المقبول الذي كان لا بد من حله عن طريق التغيير الاجتماعي. لم يكن أسلوب كينغ في اللاعنف (سلميًّا خالصًا) بل كان صداميًّا وحماسيًّا وشجاعًا، (وليس أسلوبًا للجبناء) كما كتب في (الحج إلى اللاعنف)[39] وفي (رسالة من سجن برمنجهام)، مشيرًا إلى أنه: لا يوجد شيء جديد حول هذا النوع من العصيان المدني، وقد تجلى في رفض بعض رجال الدين الانصياع لقوانين الانحناء إلى نبوخذ نصر، على أساس أن القانون الأخلاقي السامي كان على المحك. لقد مُورس العصيان المدني بطريقة رائعة من قِبل المسيحيين الأوائل، الذين كانوا على استعداد لمواجهة الأسود الجائعة والآلام المبرحة من التقطيع إلى كتل بدلًا من الخضوع لبعض القوانين الظالمة للإمبراطورية الرومانية[40].

إن عظمة هذه الأمثلة تتدفق مباشرة من العنف: إنه العنف الذي يجعل الشهيد شهيدًا.

لم يتحدث كينغ بصراحة عن هذه القضايا أو إلى أي مدى كانت أفكاره إستراتيجية أكثر منها أخلاقية وعام 1964، مثلًا كان خطاب قبوله جائزة نوبل للسلام خطبة ملتهبة عن اللاعنف بوصفه واجبًا أخلاقيًّا «الحضارة والعنف هي مفاهيم متناقضة، يجب على البشر أن يتطوروا ويتبنوا طريقة ترفض الثأر والعدوان والانتقام»[41]. كثير من خطبه العامة كانت مشابهة.

ومع ذلك، كان كينغ في نهاية المطاف إستراتيجيًّا، فقد فهم أن الولايات المتحدة لن تكون قادرة على تحمّل استخدام العنف ضده وضد رفاقه المتظاهرين، تمامًا مثلما أصبحت بريطانيا، بسبب أساليب غاندي (في إيجاد أوضاع متفجرة) برمة احتلالها للهند.

عُرف عن كينغ أنه كان يعترف بالحقائق الإستراتيجية خفية، وأنه في إحدى المرات صرح إلى زعيم الحقوق المدنية أندرو يونغ أن معتقداته عن الاحتجاج اللاعنفي كانت مجرد «خدعة نيبورية للسلطة»[42]، وفي خطاب ألقاه في مدينة أتلانتا بولاية جورجيا عام 1967م، أكد على الطابع الإستراتيجي اللاعنفي، وهو ينصح النشطاء الجدد، مثل الذين انضموا إلى حركة أمة الإسلام، الذين كانوا يؤيدون دور العنف والقوة في حركة الحقوق المدنية:

لم تنجح أي ثورة داخلية أبدًا في الإطاحة بالحكم عن طريق العنف إلا إذا كانت الحكومة قد فقدت بالفعل الولاء والرقابة الفاعلة على القوات المسلحة. إن أي عاقل يعلم أن هذا لن يحدث في الولايات المتحدة، وفي أي اضطرابات عنصرية عنيفة، فإن الشرطة المحلية وقوات الولايات، والحرس الوطني، وأخيرًا الجيش، التي سيجري استدعاؤها- غالبيتها من اللون الأبيض.

علاوة على ذلك، فإن العدد القليل جدًّا من الثورات العنيفة لم تكن لتنجح إلا إذا كانت الأقلية العنيفة تحظى بتعاطف وتأييد الأغلبية غير المقاومة....

...من الواضح تمامًا أن أي ثورة عنيفة من جانب الأمريكيين السود لن تجد أي تعاطف ودعم من السكان البيض، ولن يؤيدها سوى عدد قليل جدًّا من غالبية الزنوج أنفسهم[43].

كان هذا الجانب الآخر عند كينغ الأكثر حكمة وحذرًا، وهو الجانب الذي التزمه حتى زميله مالكوم X في سنواته الأخيرة، عندما أخذ يبتعد عن حركة أمة الإسلام، والتحدث عن القانون الدولي لحقوق الإنسان، وتبنى دور المقاومة السلمية.

مما لا شك فيه أن غاندي قد فهم كل هذا، ويلاحظ في كثير من الأحيان أن كلمة فلسفة غاندي في اللاعنف، **ساتياغراها** satyagraha، يمكن أن تترجم بشكل عام بأنها (حقيقة- قوة)، وهكذا، بالتعريف، فإنها تنطوي على (القوة) وقد أشار كينغ إلى ذلك كثيرًا كما في كتاب (الحج إلى اللاعنف)[44]، ومن المثير للاهتمام النظر إلى فكرة (القوة) كما تتجلى في ضرب المتظاهرين السلميين خلال مسيرة الملح التي قادها غاندي عام 1930م، أو في الحادثة سيئة السمعة للقوات البريطانية في إمريتسار عام 1919م عندما تم حصد المتظاهرين السلميين الهنود من النساء والرجال بالرشاشات المحمولة، وكانت هذه الحوادث، بطريقتها الخاصة ارتدادات قوية ضد الإمبراطورية البريطانية، وهي ارتدادات عنيفة تسببت فيها بنفسها. وقد استخدم غاندي الحقيقة لامتصاص قوة المستبد وإعادتها إليه- في شكل من أشكال المصارعة اليابانية السياسية، حيث يخفف متلقي الضربة، من خلال حركة خادعة، اندفاعة المهاجم، ويستخدمها لطرحه أرضًا، وهي حيلة من الطراز الأكثر تطورًا.

في سياقات خارج الهند البريطانية قد يجعل احتضان غاندي العنيد لهذه الأفكار يبدو ساذجًا لدرجة تجعله يبدو معتوهًا. فخلال الحرب العالمية الثانية، مثلًا، أشار إلى أن يهود أولروبا يمكن أن يستخدموا أساليب اللاعنف ضد النظام النازي[45] الصحفي لويس فيشر سأل غاندي عن ذلك بعد الحرب؟ وكان عند رأيه:

- «كنت تعتقد»، قلت له. «إن اليهود كان يجب أن يقدموا على انتحار جماعي؟» فردّ غاندي:

- «نعم، كان هذا يمكن أن يكون بطولة، كان يمكنه أن يثير العالم والشعب الألماني على كثير من شرور عنف هتلر، وخاصة عام 1938م، قبل الحرب. حيث إنهم استسلموا على أي حال بالملايين»[46].

ومع ذلك، كان غاندي إستراتيجيًّا ومحللًا سياسيًّا ماهرًا، فالدهاء السياسي كان واضحًا في التنازلات التي قدمها مع بريطانيا لمصلحة الحلفاء في الحربين العالميتين، وفي وقت متأخر من حياته، أدلى باعترافات كثيرة مذهلة ومتناقضة حول العنف في سياق كشمير، مشيرًا إلى أنه كان يناشد الجماهير السياسية الداخلية، وذكر أنه على الرغم من معارضته الشديدة للحروب كلها «فأنا لا أبرر الحرب تحت أي ظرف من الظروف»، إلا أن العنف كان جزءًا من حياة الإنسان وأحيانًا لا مفر منه:

العنف هو في كل الأحوال أفضل من العجز الجنسي، يوجد أمل لأن يتوقف الإنسان العنيف عن العنف، ولكن لا يوجد أمل من هذا القبيل للعاجز جنسيًّا.

إن الانتقام أفضل من الاستسلام العاجز، فالإنسان الذي لا يستطيع حماية نفسه أو الأقربين والأعزاء، أو شرفهم من خلال مواجهة الموت بلا عنف يجب أن يفعل ذلك عن طريق التعامل مع الظالم بعنف. إن الذي لا يمكنه القيام بأحد هذين الخيارين يُعدُّ عبئًا. أنا أنتمي إلى عالم قائم جزئيًّا على العنف، والصحيح أننا ربما لن نكون قادرين على الاستغناء عن العنف تمامًا. أنا أؤيد التدريب على السلاح للذين يؤمنون بأساليب العنف، وأنا أفضل أن تلجأ الهند إلى السلاح من أجل الدفاع عن شرفها، بدلًا من أن تظل بطريقة جبانة، أو أن تصبح شاهدًا لا حول له ولا قوة على عارها[47].

ويمكن أيضًا ملاحظة نزعة غاندي الإستراتيجية في حقيقة أنه درّس نظرياته في الهندوسية، التي كانت ترحب بها، في حين كان يستخدم المسيحية عند مناقشتها مع الغربيين، ونادرًا ما كان يذكر بوذا الهندي المولد أو جاين، اللذين يُعدّان أول معلمي العالم الأوائل في اللاعنف؛ لأن فعل ذلك كان سيسبب ضررًا سياسيًّا؛ لأن البوذية

والجاينية ظلتا أقليتين دينيتين صغيرتين في الهند، وكان من شأن الاستشهاد بهما أن يجعل معظم الهندوس يعتقدون أن غاندي كان رجلًا غريب الأطوار، أو ما هو أسوأ من ذلك.

كانت هذه هي الجوانب الأكثر تطورًا لدى كينغ وغاندي، التي غابت عن خطاب الرئيس أوباما في أوسلو لقبول جائزة نوبل. وما أزعجني هو تأكيد أوباما ضمنيًّا على أن الجغرافيا السياسية كانت إما عنيفة أو غير عنيفة: إن المرء تعامل إما مع المدافع أو مع السفراء، في تعبير عن (الحمائم) و(الصقور). كان أوباما قد قدّم تمييزًا صارخًا جدًّا بين الواقعية الأخلاقية النيبورية المتطورة والمثالية اليائسة لكل من كينغ وغاندي. وفي الواقع أنهما كانا (أصلب) مما عرفهما أوباما، لقد كانا، في نهاية المطاف، أبناء عالم الصراع، وكلاهما كان يعرف ما الذي كانا يفعلان في الساحة السياسية، حيث واجها السلطة بعنفها المتأصل.

لم تكن أوسلو، مع ذلك، مناسبة لأوباما لإعادة كتابة التاريخ عن نظرية اللاعنف. كان يمكن أن يكون من غير المألوف لأوباما التحدث بشكل استفزازي، مثل الاستشهاد بقول غاندي: إن العنف كان أفضل من العجز الجنسي، أو الحديث بسذاجة عن تغيير القلوب بـ (قوة الحب) فالخطاب كان يجب أن يكون سياسيًّا، وقد مُنحت هذه الجائزة في ذروة ولاية أوباما الأولى.

مع ذلك كان بإمكان أوباما أن يستخدم فقرة مختلفة من أقوال كينغ، وهو الرجل الذي كان، في النهاية، من المؤمنين بفلسفة نيبور، كان يمكن أن يقتطف الجزء الآتي من خطاب كينغ عام 1967م، الذي كان ذا صلة مباشرة بما كان يحاول أن يقوله:

لا يوجد عيب في السلطة إذا ما اُستخدِمت بصورة صحيحة، لكن المطلوب هو إدراك أن القوة من دون حب طائشة وتعسفية، والحب من دون قوة وجداني وفقر دم.

السلطة في أفضل حالاتها حب ينفذ مطالب العدالة، والعدالة في أفضل حالاتها سلطة تصحح كل شيء يقف ضد الحب(48).

مع ذلك، سنكون مضلَّلين، إذا ما قسنا فهم أوباما الفكري للقوة بالإشارة فقط إلى خطابه في أوسلو عام 2010م، ويمكننا العثور على أفضل القياسات لأفكاره ليس في كلماته المنطوقة، ولكن في تصرفاته بوصفه رئيسًا للولايات المتحدة. في السنوات التي أعقبت خطاب أوباما، أظهر في حالات عدة تفضيله لاستخدام أساليب أخرى غير القوة على الساحة الدولية، مثل سوريا عام 2013م، ولكن من الملاحظ أكثر أنه بدا قادرًا على شحذ القدرة على استخدام شبح العنف- التهديدات والمواقف، والإشارة إلى صور الضحايا- بوصفها جزءًا من الجهود الإستراتيجية لتجنب المزيد من العنف. كثير من الناس انتقد خطاب أوباما الرئيس حول سوريا في سبتمبر/ أيلول 2013م، بقولهم: إنه كان متناقضًا ذاتيًّا: التهديد باستخدام القوة، ثم القول بتفضيله لعدم استخدام القوة. في ذلك الوقت، أعترف أنه بدا لي غير متناسق، لكن كلماته، وإن بدت في تناقض مع بعضها، لخّصت احتدام النقاشات حول السلطة والعدالة. خاتمة خطابه، على الرغم من أنه في البداية كان خلطًا بين الأفكار بدت عند تحليلها ثانية أنها تلخص إستراتيجيته:

أمريكا ليست شرطي العالم، أشياء فظيعة تحدث في جميع أنحاء العالم، ولا نملك كل الوسائل لتصويب كل خطأ، ولكن عندما نستطيع، بجهد متواضع ومخاطرة محسوبة، منع قتل الأطفال بالغاز السام، ومن ثم جعل أطفالنا أكثر أمانًا على المدى الطويل، أعتقد أن علينا أن نتصرف(49).

بالتأكيد أن هذه ليست مجموعة أفكار عظيمة، ولكنها بدهية بما فيه الكفاية.

الشيء الوحيد الذي فهمه أوباما، وكينغ، وغاندي، الذي كان يمكن أن يتفقوا عليه، هو أنه لا يوجد شيء اسمه اللاعنف النقي، فالمبادئ الأساسية للسلمية، في أصعب حالاتها، تنهار عندما نعترف بأن البشر موجودون في عالم سياسي واجتماعي، ومع

أنه من السهولة البَدء بالمبدأ الأول المتجذر في الدين أو بعض القواعد الأساسية في الفلسفة السياسية – لا عنف، أدر الخد الآخر أيضًا – فإن العالم الاجتماعي والسياسي، وإدراك أن العنف قد يكون موجودًا على الأرض لبعض الوقت، يدعو فورًا إلى استثناء لهذه القاعدة. إن العالم كما هو موجود هو عالم سوف يسعى فيه الناس، في ظل غياب الضوابط والموانع، إلى ممارسة سلطة على الآخرين وممارسة العنف ضدهم. لا بد من وجود مبدأ بقاء، مع استثناء للدفاع عن النفس، والحاجة إلى قوة شرطة لفرض القوانين العادلة، واحترام التطبيقات العملية للقانون والنظام، وحقيقة أن حفظ الأمن والنظام العام يتطلب قوة، وهكذا، قبل أن تخطو القاعدة الأساسية في اللاعنف خطوة واحدة، فقد جرى إدخال العنف في المعادلة.

العنف، على ما يبدو، أمر لا مفر منه، ولا توجد سلمية نقية وحتى السلمية المتقوقعة للذين يعيشون بالكامل في العالم الروحي لإيمانهم، مثل البوذيين الرهبان أو المسيحيين، فهؤلاء المتعبدون غير مفصولين تمامًا عن العالم: على الرغم من أنهم يعزلون أنفسهم عن العالم في الخلوات، والصوامع، والأديرة، إلا أن هذه الكيانات يجب في نهاية المطاف أن تتمتع بالدعم والحماية من المجتمعات السياسية التي توجد فيها.

شيء آخر كان يمكن لأوباما، وكينغ، وغاندي أن يتفقوا عليه هو أن العنف لا يمكن إبطاله وإلغاؤه. إن العمل الصعب **للتعامل** مع العنف مسألة معقدة أكثر بكثير من إنهائه.

في أسوأ الأحوال، يتطلب التعامل مع العنف مواجهته مباشرة بالعنف، وفي أحسن الأحوال، فإنه ينطوي على الحيل والتلاعب، والتهرب، والمصارعة اليابانية السياسية لغاندي، ومسرح الخدع والمناورات، أو إعادة التوجيه المخادع للغضب أو الرغبة، ونقيض طريقة لونا ستالر – مثل كوميديا أريستوفانيس حيث تمتنع النساء عن معاشرة أزواجهن في أثينا؛ لجعلهم ينهون الحرب.

إن من الأفضل التعامل مع العنف وإخضاعه أو توجيهه بدلًا من الاكتفاء بتمني زواله. إن العنف، مثل الكتلة والطاقة في الفيزياء، لا يمكن تجاهله، يجب مواجهته، مباشرة، وإعادة توجيهه، أو امتصاصه، فهو، مثل كثير من العوامل في حياة الإنسان: الحياة، والموت، والوعي لا يمكن تجنّبه.

* * *

الفصل التاسع

الغضب

وارسو 2009م كان المطر يتساقط رذاذًا في صباح يوم بارد. سيارة الأجرة تنحدر إلى شارع ألجي ياروزولمسكي (شارع القدس) مرورًا بالبرج البرونزي لقصر الثقافة والعلوم في اتجاه شارع مارزالوسكا، ثم عبر الشوارع الجانبية الصغيرة التي تؤدي إلى البلدة القديمة. المسّاحات تحاول مسح قطرات المطر الصغيرة المتساقطة على الزجاج الأمامي القذر لسيارة الأجرة. لوحات الإعلانات تحمل أسماء المشروبات، والجرائد، والسجائر، والسيارات: لافتات باللغة البولندية، وأحيانًا باللغة الإنجليزية، والأسعار باللغة المحلية (الزلوتي).

رطوبة بولندا سببت لي الكآبة. تراجعت في مقعدي لوقف رأسي عن التأرجح في كل مرة تتحرك فيها سيارة الديزل، وتتوقف مع حركة المرور، وأنا لا أتوقف عن السعال. دخان سجائر السائق زاد من الغباش واحمرار عينيّ من رحلتي الطويلة من نيويورك، مع توقف في الصباح الباكر في فرانكفورت. إرهاقي تحول إلى سؤال: لماذا أنا هنا؟ مع وميض الاكتئاب البطيء في عينيّ أجبت: لا سبب وجيه، إنه السبب نفسه الذي جعلني أذهب إلى أي مكان في السنوات الثماني الماضية، كما أعتقد بعض الرحلات المتصلة بذلك اليوم اللعين، 11 سبتمبر/ أيلول 2001م. الكثير من أحداث الحياة أصبحت محددة ومحكومة منذ ذلك الحين بذلك اليوم، بطريقة أو بأخرى، وتغطية الحرب في

أفغانستان، والسفر في بعثات بحث تركز على عمليات مكافحة الإرهاب في جميع أنحاء العالم، إجراء مكالمات هاتفية أو كتابة بيانات وتقارير ومذكرات، أو نشرات صحافية، أو السفر إلى دول مثل المغرب وموريتانيا، أو سنغافورة؛ للعثور على مراكز وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، فكل هذه لأن خالد شيخ محمد، الذي بعد اعتقاله وُضع مؤقتًا، لسبب غير مفهوم، هنا في أوروبا الوسطى.

كنت قد تركت هيومان رايتس ووتش في أواخر عام 2007م بضع سنوات، وأخذت أعمل محققًا خاصًا، كنت لا أزال أعمل على قضايا جوانتانامو التي تتعلق بالمعتقلين الذين كانوا في سجن المخابرات المركزية قبل نقلهم إلى كوبا، وفي الواقع، أني عملت بعض الوقت مع فريق الدفاع عن خالد شيخ محمد نفسه، وكان ذلك هو ما جعلني آتي إلى وارسو، كان ذلك هو ما وضعني في هذا التاكسي بمعطفي الرطب، وأنا منهك، وأشعر بقليل من الخدر.

قبل أربع سنوات، توصلت أنا وزملائي في هيومان رايتس ووتش إلى قناعة بأن وكالة المخابرات قد استخدمت مركز اعتقال في بولندا، في شمالي البلاد، في نوفمبر/ تشرين الثاني 2005م، نشرت صحيفة واشنطن بوست دليلًا على وجود مواقع الاعتقال في بولندا ورومانيا، وقالت في مقال كتبته دانا بريست: إن وكالة المخابرات المركزية قد أنشأت مراكز في (أوروبا الشرقية). هذه اللغة، بدلًا من (بولندا ورومانيا)، هي التي كان البيت الأبيض قد طلب من محرري مقالة دانا بريست استخدامها على الرغم من أن الكاتبة والمحررين كانوا يعرفون المواقع المحددة لهذه المراكز، وبعد أيام من نشر تقرير الصحيفة، قررت أنا وزملائي إصدار بيان علني أوضحنا فيه أن بولندا ورومانيا كانتا الدولتين المعنيتين، وأضفنا تفاصيل عن مجموعة من المراكز في أفغانستان، وبعد إصدار البيان، سارع مسؤولون في الاتحاد الأوروبي والمجلس الأوروبي إلى فتح تحقيق في الأمر. وكما هو متوقع، كان وجود منشأة الاعتقال خارج نطاق القضاء على التراب الأوروبي مثيرًا للجدل، وسبب إحراجًا لبولندا ورومانيا اللتين أغضبتا قادة أوروبا

الغربية من خلال إقامة علاقات وثيقة مع إدارة بوش خلال مرحلة الإعداد التي سبقت الحرب على العراق.

لذلك، بدا أن المسؤولين من بلدان أوروبا الغربية، التي كانت تهيمن على المؤسسات في بروكسل، كانوا سعداء تقريبًا بهذه الفضيحة التي كانت فرصة للحديث عن مؤامرات الوكالة الأمريكية. بلغت الفضيحة ذروتها في ديسمبر/ كانون الأول عام 2005م، وبدت أنها أعطت اليد الطولى لمستشارة بوش المقربة، كوندوليزا رايس- مستشارة الأمن القومي في رئاسته الأولى، ثم وزيرة الخارجية في مناقشاتها مع نائب الرئيس ديك تشيني، التي أقنعت فيها الرئيس بوش بإفراغ سجون وكالة المخابرات المركزية ونقل معظم المعتقلين إلى غوانتانامو سيئة السمعة للمحاكمة أمام لجنة عسكرية.(ظهر أن مبادرتها لم تأتِ بدافع دعم قانوني أو أخلاقي للبرنامج، التي كانت قد أشرفت مباشرة عليه بوصفها مستشارة للأمن القومي، ولكن لإدراكها أنه بحلول عام 2005م أصبح البرنامج مشكلة دبلوماسية. في سبتمبر/ أيلول 2006م، اعترف الرئيس للمرة الأولى بوجود برنامج الاعتقال الذي تديره وكالة المخابرات المركزية، وأعلن أنه أمر بنقل أربعة عشر معتقلًا لدى الوكالة، بمن في ذلك المشتبه بارتباطهم مباشرة بهجمات 11 سبتمبر/ أيلول، ونقلهم إلى خليج غوانتانامو، وقال الرئيس: إن مراكز الاحتجاز التابعة لوكالة المخابرات المركزية، كانت في تلك المرحلة فارغة، وهذا يعني وجود معتقلين آخرين يُعدّون فرضيًّا أقل أهمية أو يستحقون المحاكمة، قد سُلّموا إلى بلدانهم الأصلية أو نُقلوا إلى السجن العسكري في قاعدة باغرام.

لم يذكر الرئيس هؤلاء المعتقلين الآخرين على ما يبدو؛ لأن ذلك قد يلفت الانتباه غير المرغوب فيه إلى السجن في باغرام، الذي على الرغم من الغموض الذي يحيط به كان يتوسع أكثر من معتقل جوانتانامو، علاوة على ذلك، كان ذلك يمكن أن يكشف أن بعض المعتقلين لدى وكالة المخابرات المركزية لم يكونوا متورطين أو من ذوي (القيمة العالية) كما كانت الإدارة الأمريكية تقول للصحفيين سرًّا، لسنوات.

لكن الإغلاق المفترض لسجون وكالة المخابرات المركزية لم يوقف التحقيقات، فقد انطلقت التحقيقات من قِبَل المؤسسات الأوروبية على قدم وساق. وفي يونيه/ حزيران 2007م أصدرت لجنة برلمانية تابعة للمجلس الأوروبي تقريرًا مبنيًّا على تحقيقاتها الخاصة، يثبت تورط بولندا ورومانيا، ومشيرًا إلى أن أنشطة نقل المعتقلين وتسليمهم قد شملت أيضًا أنشطة غير مشروعة لوكالة المخابرات المركزية في إسبانيا، والبرتغال، وألمانيا، وإيطاليا، ومقدونيا، وألبانيا.

في أواخر عام 2007م زرت بولندا وألمانيا لحضور مؤتمر لحقوق الإنسان والمحامين، والصحفيين، والمسؤولين الحكوميين لمناقشة ما حدث والخطوات المقبلة المحتملة لإجراء المساءلة. في ذلك المؤتمر طُرحت أسئلة كثيرة، منها: هل يمكن إجراء تحقيقات جنائية في مختلف البلدان في أوروبا؟ وهل يمكن للباحثين استخدام قوانين حرية المعلومات لمعرفة المزيد حول ما حدث؟ عُقدت الاجتماعات الأولى للمؤتمر في وارسو، أما الجزء الثاني من المؤتمر فعقد في برلين في وقت متأخر من الأسبوع نفسه، وفي بولندا، التقيت صحفيين محليين تابعوا الوضع في بلدهم عن كثب، وأجريت مقابلات مع مسؤولين سابقين في الاستخبارات البولندية في محاولة للحصول على تفاصيل حول البرنامج، وحققت نجاحًا جزئيًّا، فقد قارنت ملاحظاتي مع ما لدى المحامين المحليين حول الأدلة المتاحة، حتى إنني واصلت الحديث مع واحد منهم على متن قطار من وارسو إلى برلين – الأراضي المعروفة في التاريخ بالعنف والخروج على القانون في أوروبا – وناقشنا الحقائق السياسية التي تواجه أعضاء النيابة العامة الأوروبيين الذين يحققون في أنشطة وكالة المخابرات المركزية. وفي برلين، التقيت أرماندو سباتارو، المدعي العام الإيطالي الذي حقق في نهاية المطاف مع اثنين وعشرين من ضباط وكالة المخابرات المركزية، وأدانهم في قضية خطفهم لمشتبه به يعمل لمصلحة تنظيم القاعدة، وهو مصري يدعى أسامة مصطفى نصر، المعروف أيضًا باسم أبوعمر. كان

سباتارو قد قدم عرضًا إلى المؤتمر حول القضية، وكما عرفت لاحقًا، فقد أثيرت القضية إلى حد كبير؛ لأن الوكالة اختطفت المتهم، بينما كان سباتارو نفسه يُحقّق معه.

وكما سمعت، فقد أعرب سباتارو، عن غضبه من تدخّل وكالة المخابرات المركزية في تحقيقاته، فأفسدتها، وقطعت تدفق المعلومات المخابراتية، فقضيته، مع ذلك، كانت رمزية أكثر منها حقيقية، فضباط وكالة المخابرات المركزية المتهمين، بطبيعة الحال، لم يعودوا موجودين في إيطاليا، كان الخاطفون قد فروا لتجنب القضية، لذلك كانوا يحاكمون في القضية غيابيًّا، فسعيت للقاء سباتارو في المؤتمر، وفي وقت لاحق تحدثنا على انفراد في مقهى في برلين. أردت أن أتحدث معه لأنني كنت أعرف أن أحد كبار الضباط الذي وجه إليهم تهمة الخطف، روبرت ليدي، الرئيس السابق لمحطة الوكالة في ميلانو، أجرى مقابلة حصرية مع صحفي يدعى ماثيو كول، الذي سبق له أن كتب مقالة في مجلة عنه وعن قضية ميلانو. سمعت من الآخرين، أن هذا الضابط كان غاضبًا من وكالة المخابرات المركزية؛ لعدم حمايته، وكان غاضبًا على رئيسه أيضًا، مدير محطة الوكالة في روما، جيف كاستيلي؛ لإصراره على عملية أبوعمر في المقام الأول، كان ليدي يعتقد أن استمرار مراقبة المتهم كانت إستراتيجية فاعلة أكثر من عملية التسليم، التي حاولت الوكالة استخدامها لـ (تحويل) أبوعمر إلى مخبر لها. بسبب لائحة الاتهام، لم يتمكن هذا الضابط من العودة إلى إيطاليا، حيث اشترى فيلا، وكان ينوي التقاعد، ولا يستطيع حتى السفر إلى أوروبا؛ لذلك ناقشت القضية مع سباتارو الذي سألني إن كنت أعتقد أن هذا الضابط قد يوافق على التحدث معه حول هذه القضية مقابل التساهل، وهل يمكن أن أنقل رسالة له؟ أجبته بأنني أستطيع ذلك من خلال وسيط، فقال سباتارو: إن مكتبه على استعداد لإسقاط جميع التهم الموجهة إليه ومنحه الحصانة إذا كان سيشهد في المحاكمة. قلت لسباتارو: إنني لا أعتقد أنه سيوافق على الشهادة، ولا سيما ضد زملائه.

– نحن لسنا في حاجة له للإدلاء بشهادته ضد ضباط الوكالة الآخرين، قال سباتارو: أريده أن يشهد ضد المتهمين الإيطاليين، في إشارة إلى كبار المسؤولين في جهاز المخابرات في إيطاليا، وأضاف:

– «سنسقط التهم حتى لو وافق على الحديث معنا. قد لا يحتاج إلى الشهادة، وإنما أن يتحدث إلينا» فقلت: إنني سوف أحاول إيصال الرسالة بقدر استطاعتي، ولكنها على الأرجح لن تؤدي إلى أي شيء، وقد مررت الرسالة، كما وعدت، ولكن لم ينجم عنها أي شيء.

الآن أنا في وارسو مرة أخرى، وهذه المرة للتحدث مع كبار المدّعين العاميّين البولنديين، الذين بناء على طلب من بعض أعضاء البرلمان البولندي، فتحوا تحقيقًا في انتهاكات القانون البولندي فيما يتعلق بالاعتقالات التي تجريها وكالة المخابرات المركزية، كان المدعيان العامّان روبرت مايوفسكي وجيرزي ميرزويسكي من كبار المسؤولين في قسم الجريمة المنظمة في مكتب الادعاء العام في بولندا، وكان اتحاد الحريات المدنية الأمريكية قد عيّنني مستشارًا ابتداءً من عام 2007م؛ للمساعدة على التحقيق في برنامج وكالة المخابرات المركزية فيما يتعلق بتمثيل الاتحاد القانوني لمعتقلي الوكالة السابقين، بما في ذلك الأسرى الأبرياء الذين أفرج عنهم في وقت لاحق، مثل المواطن الألماني خالد المصري وأعضاء تنظيم القاعدة المُعلنين، بمن فيهم خالد شيخ محمد ورمزي بن الشيبة. طلبت النيابة العامة معلومات من اتحاد الحريات المدنية، فأرسلتني النيابة العامة إلى بولندا للتحدث معهم ومعرفة المزيد عن التحقيق، وماذا يريدون.

أخذتني سيارة الأجرة إلى مكتب كامل مايشراك، وهو باحث بولندي شاب في مجال حقوق الإنسان عمل مع المركز الأوروبي للحقوق الدستورية وحقوق الإنسان، كامل كان سيساعدني على مهمة الاجتماع مع النيابة العامة البولندية، فقد جرى التنسيق بينه وبين

النيابة العامة المحلية نيابة عني – حيث إنهم لا يتكلمون الإنجليزية – ورتب من جانبه الأمور اللوجستية للقائنا، فقد كان مكتب كامل في مبنى كئيب يعود للحقبة الشيوعية في شارع جانبي. استقللت مصعدًا صغيرًا كي أصل إلى مكتبه، حيث استقبلني في مساحة ضيقة مكدسة بالكتب، ووضع حقائبي في زاوية في مكان ما، وعلّق معطفي، تبادلنا المجاملات. أنهى كامل كتاب رسالة بريدية إلكترونية إلى زميل له بينما كنت أغسل وجهي في الحمام الصغير الملحق بالمكتب. مشينا إلى مقهى قريب لتناول وجبة سريعة، حيث شربت فنجان قهوة بعد آخر محاولًا أن أستيقظ قبل لقائنا بالمدعين العامين. ناقشنا معظم ما أود أن أقوله مع كامل بصفته المترجم. قال كامل: إن النيابة العامة البولندية تركز على معرفة ما إذا كان مسؤولون بولنديون قد كسروا القوانين المحلية في عدم التشاور مع البرلمان البولندي قبل السماح لوكالة المخابرات المركزية بأن تعمل في قاعدة سزيماني، وكانوا أيضًا يناقشون كيف يمكن توسيع التحقيق، وتحدثنا عن مواصلة ثقافة الإنكار في المجتمع البولندي عمومًا، وحقيقة أن معظم البولنديين ليسوا فقط غير مهتمين بالمساءلة، ولكنهم حتى لا يصدّقوا ما يقال عن أن وكالة المخابرات المركزية احتجزت الناس على التراب البولندي.

«هل لي أن أسألك سؤالًا؟» سأل كامل، «هل تعتقد أن ثمة شيئًا ما سيحدث؟ إن أي شخص يمكن أن... «ناضل ليتذكر الكلمة المناسبة، قبل أن يتذكر» سيجري تسليمه، ومحاكمته هنا؟ أعني، أن هذا لن يحدث. ابتسمت، وهززت رأسي، لا دون شك.

– «إنه أشبه بـ...» توقفت قليلًا. «الكتابة إلى رئيس تحرير صحيفة...» ابتسم كامل، وهز كتفيه.

– «نعم»، قال، «من حيث المبدأ».

ساد الصمت بعض الوقت، إذ لم يكن هناك الكثير ليقال، فكلانا يعلم كيف سينتهي الأمر في نهاية المطاف. لقد حاكم سباتارو ضباط وكالة المخابرات مع علمه أن أحدًا

لن يقضي مدة عقوبته أبدًا، وأجرت الشرطة البرتغالية والإسبانية والألمانية بدورها تحقيقاتها عن نشاط وكالة المخابرات المركزية مع علمها أنه لن تجري محاسبة أي من ضباط الوكالة. من جانبنا، كنا قد كتبنا تقارير لمحاسبة المسؤولين الأمريكيين عن قضايا التعذيب، وحتى الرئيس بوش نفسه، ولكننا كنا نعرف أن المساءلة لن تحدث أبدًا. جرت هذه الجهود كلها ضمن الرسالة الأوسع لحماية المبادئ القانونية، وكان الكثير منها، في الواقع، رمزيًّا. وبالمحصلة، كانت انتهاكات وكالة المخابرات المركزية محددة، إذا ما نظرنا إليها ضمن الصورة الأكبر لانتهاكات حقوق الإنسان في جميع أنحاء العالم، فهي قد احتجزت نحو 100 شخص فقط. كان هذا العدد شيئًا لا يذكر مقارنة مع سجون روسيا أو الصين، والاختفاء القسري في ليبيا وسوريا، أو كوريا الشمالية، وحتى عندما، لغايات النقاش، نضيف جميع الانتهاكات الأخرى التي وقعت في السجن العسكري الأمريكي، بعد وصول بعض أساليب استجواب وكالة المخابرات المركزية إلى أفغانستان والعراق، فإنها تظل أقل فظاعة من التعذيب والانتهاكات في كثير من البلدان الأخرى، ففي السياق التاريخي، بطبيعة الحال، فإن الانتهاكات ليست فريدة من نوعها، فقد شهد التاريخ حالات لا تحصى من القتل والتعذيب وانتهاكات الحقوق لأسباب سياسية وعرقية ودينية وخلافها.

لكن الحكم على تلك القضايا متروك للتاريخ، أما متابعتنا لانتهاكات وكالة المخابرات المركزية، فشيء آخر.

لذلك، كان عملنا في مجال الدفاع نيابة عن المعتقلين في سجون وكالة المخابرات المركزية، الذين بلغ عددهم العشرات، لم يكن بالتأكيد عن حجم الانتهاكات، بل كان بهدف حماية مجموعة من المؤسسات التي أنشئت لتجعل من الصعب ارتكاب انتهاكات مثل تلك التي وقعت في بولندا في أربعينيات القرن العشرين، فلم يكن لدي أي شك في أن الانحطاط العام في تقييم الحياة البشرية، مثلما شوهد في أوروبا خلال النصف الأول من القرن العشرين، يمكن أن يحدث مرة أخرى. أعتقد أنه يمكن أن يحدث بسرعة كبيرة

عندما تتوافر الظروف الملائمة، وقد يحدث مرة أخرى في تاريخ البشرية. كان السؤال ما إذا كان يمكن الحفاظ على المؤسسات القانونية في سياق هذا الانحطاط، وأن تظل قوية بما يكفي لمنع الشر من الانتشار دون ضوابط وبطريقة كارثية.

لم تكن القضية في واقع الأمر أن الولايات المتحدة قد كسرت القوانين، فقد انتهك الحظر القانوني ضد التعذيب بصورة روتينية في السجون في الصين وبورما وباكستان وإيران والأردن وسوريا، وكان هناك، وكنا نعرف عالمًا من التعذيب. لم تكن القضية الحقيقية مجرد انتهاك بل شيئًا أكثر عمقًا: الجرأة على الجريمة. أمم أخرى في العصر الحديث نفت أنها مارست التعذيب. لقد مارست التعذيب، بطبيعة الحال، لكنها حاولت إخفاء جرائمها. في المقابل، فقد انتهكت إدارة بوش الحظر، ولكنها أصرت على أن أفعالها كانت قانونية. كان هذا هو جوهر المشكلة: لقد سنّت الولايات المتحدة سابقة تضعف الحظر، وجعلت من السهل على الحكومات في المستقبل تنفيذ التجاوزات، فمن الذي يمكنه التكهن بما إذا كانت انتهاكات المستقبل ستكون محدودة العدد؟ بطريقة أو بأخرى، بدا النفاق أخطر من العنف نفسه، فهل هذا هو السبب في أننا وجدنا أنفسنا نركز باهتمام على حكومة الولايات المتحدة؟ هل كان ذلك لأن الولايات المتحدة كانت قوة عظمى؟ أم كان هناك شيء أكثر جوهرية على أرض الواقع: إن حكومة الولايات المتحدة، في الرد على هجمات 11 سبتمبر/ أيلول، كانت تحاول تغيير مفهوم العنف – الحرب والجريمة والإرهاب والاستجواب، وحتى التعذيب؟ – كان يجري تغيير استخدامات الكلمات أمام أعيننا، وكان علينا أن نقاوم الإجراءات التعسفية و التراخي اللفظي المسموح به.

وكانت هذه الطريقة التي كان فيها العاملون في مجال حقوق الإنسان يفكرون في هذه القضايا، وكانت هذه هي الموضوعات التي ناقشتها أنا وكامل في وارسو، ونحن نشرب القهوة، وننتظر زيارتنا للنيابة العامة.

بعد ساعة، كنا في مكتبهم، فقد كان مكتبًا حديثًا صغيرًا ومفروشًا بالسجاد. وصلت صواني الكعك والبسكويت، كان الرجال مهذبين، وهادئين، واعتذروا لأن القهوة ليست جاهزة بعد، لكنهم وعدوا بتقديمها سريعًا.

طلبوا منا الجلوس على طاولة المؤتمر في مكتب مايوفسكي، وعلى الجانب الآخر جلس أعضاء النيابة العامة. وبعد مقدمات، ومجاملات، ومحادثة جانبية غير مفهومة بالبولندية حول مسألة أخرى، جاءت القهوة أخيرًا. مايوفسكي أغلق الباب المؤدي إلى القاعة، وبدأنا.

بدأ المدعيان العامان بشرح أن التحقيق كان محددًا وأن التركيز ينصب على المسؤولين البولنديين فقط، وأن المسألة القانونية لا تتعلق بالتعذيب بحد ذاته، ولكن ما إذا كان المسؤولون المحليون قد انتهكوا القانون عن طريق السماح لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية بإنشاء مركز دون استشارة البرلمان. أوضح مايوفسكي، مع ذلك، أن التحقيق يمكن توسيعه، إذا كان بإمكان المعتقل الذي احتجز في بولندا أن يقدّم إفادة K ثم سألوني:

هل كان أحد المعتقلين، أبوزبيدة، مثلًا، محتجزًا من قِبَل وكالة المخابرات المركزية هنا في بولندا؟ وهل يمكن أن يدلوا بشهاداتهم؟ وهل سيكونون على استعداد لإجراء مقابلات معهم في أثناء سير التحقيق؟ وماذا يمكنني أن أقول لهم، الآن، حول ما الذي سيتحدث عنه المعتقلون في مثل هذه المقابلات؟

من أين نبدأ؟ كان هذا هو السؤال الذي يواجهنا. كان الرجال أذكياء إلى حد كبير، ولكنهم لم يكونوا مطلعين على ما حدث لمعتقلي وكالة المخابرات الأمريكية في معتقل غوانتنامو الذي احتجزوا فيه منذ عام 2006م. هل كان أبوزبيدة في بولندا؟ أجل، لقد كان، فقد أبلغني عدد من الصحفيين في واشنطن عن مقابلات أجروها مع ضباط في

الوكالة ممن شاركوا في التحقيقات مع المعتقلين في بولندا، ولكن هل أستطيع إثبات أن أبوزبيدة كان هنا؟ كانت هذه مسألة أخرى.

هل يستطيع المدعون العامون إجراء مقابلة معه، في غوانتانامو؛ للحصول على إفادة منه عن قضيته؟ بالتأكيد أن هذا غير ممكن. أوضحت للمدّعين العامين أنه على الرغم من تولي باراك أوباما للرئاسة إلا أن المعتقلين سيظلون في معتقل غوانتانامو بعض الوقت، وأن زياراتهم ستظل مقيّدة، وحتى لو أنه جرى تقديمهم إلى محاكم مدنية (كان هذا احتمالًا في ذلك الوقت) إلا أن القيود على التواصل معهم ستظل مطبّقة. هل يستطيع المحامون الحصول على إفادات من موكّليهم؟ ربما، وقد درسنا هذه الاحتمالات.

عدنا ثانية إلى النقطة الرئيسة: هل يملك المحامون دليلًا محدّدًا على أن المعتقلين كانوا في بولندا؟ ومتى كانوا هناك بالضبط؟ دخلنا في عالم نظرية المعرفة والتأكيد والتثبت القانوني، وهو مجال أكرهه، وأنا محامٍ.

مثلما يعرف معظم المحامين، تشمل ممارسة المحاماة مسائل الحقائق والإثباتات. في حالات كثيرة، تشمل المحاماة تقديم الحقائق المعترف بها، ولكن المختلف عليه في التفاصيل، أو بسبب النيات السيئة. لهذا، فإن المحامين مضطرون إلى جمع إثبات الحقائق حتى تلك غير المختلف عليها موضوعيًّا. وكلما كانت الحقائق موضوع خلاف، حتى بنية سيئة، زادت الحاجة إلى مزيد من الإثباتات. هل كنت أعرف أن وكالة المخابرات المركزية كانت تحتفظ بمراكز في بولندا؟ نعم، بكل تأكيد. في الحالة الأولى بسبب جمع الإثباتات الظرفية: سجلات الرحلات الجوية، وتواريخ تنقلات المعتقلين والطبيعة الخاصة للوجهات النهائية. في كل الأحوال، وفي التحليل النهائي، لقد عرفت ذلك؛ لأنه لا أحد في الحكومة الأمريكية نفى ذلك، بل على العكس، لقد حاول مسؤولون كبار التعتيم على الحقائق. أبلغت المدّعين العامّين بما عرفته، من مصادر في واشنطن،

عن كيفية ضغط البيت الأبيض على صحيفة الواشنطن بوست لمنع نشر محاولة الحكومة الأمريكية لطمس الحقائق.

في أكتوبر/ تشرين أول 2005م، قلت لهم: طلبت الصحيفة من البيت الأبيض تعليقًا لنشره في العدد القادم. لكن ما حدث هو أن مستشار البيت الأبيض للأمن القومي، ستيفن هادلي، استدعى رئيس التحرير التنفيذي للصحيفة، لين داوني، ونائبه فيل بينيت، حيث التقيا الرئيس جورج بوش وقتًا قصيرًا ضغط فيه عليهما بعدم ذكر المواقع. بعد ذلك، اجتمع المستشار بهما مطوّلًا للتأكيد على هذه المسألة قائلًا: إن النشر سوف يضر بعلاقات الولايات المتحدة بالدول التي توجد فيها هذه السجون وبأمن تلك الدول وبأمن الولايات المتحدة نفسها. وقد توصل الجانبان إلى حل وسط تكتفي فيه الصحيفة بذكر أن المواقع كانت في (أوروبا الشرقية).

وقلت لهم: كيف أن البيت الأبيض، في ديسمبر/ كانون الأول 2005م، بعد مدة قصيرة من الاجتماع مع محرري الواشنطن بوست، قد ضغط على محطة إي بي سي نيوز بألا تكشف موقع سجون وكالة المخابرات المركزية، وأبلغتهم بأنه في الشهر نفسه تحدثت مباشرة إلى برايان روس، كبير مراسلي المحطة الذي أبلغني بأنه كان سيعلن – على الهواء – أن مصادر وكالة المخابرات المركزية أكدت له وجود معتقلين معينين في بولندا، لكن الخبر تغيّر في اللحظة الأخيرة بعد أن اتصل مسؤولون من البيت الأبيض برئيس المحطة، ديفيد ويستن، وجعلوه يوافق على تغيير الخبر ليقول: إن المزاعم التي ترددت عن بولندا لم تتأكد. وقلت لهم: إن مسؤولة كبيرة في منظمة هيومان رايتس ووتش، كارول بوغرت، اتصلت برئيس المحطة، واحتجت على ما حدث، وأنه أكد لها ذلك، وقال لها شيئًا مثل: «يداي مكتوفتان».

هل كانت هذه الأشياء ستحدث لو لم تكن التقارير صحيحة؟ ولماذا تجشمت الحكومة هذا العناء لو كانت التقارير كاذبة؟

في المحصلة، كانت لوكالة المخابرات المركزية سجون في بولندا ورومانيا، وقد عرفت ذلك عام 2005م وزادت قناعتنا مع مرور الوقت، فعام 2007م، عندما تركت منظمة هيومان رايتس ووتش، وأدرت مكتب تحقيقات خاصًّا بي سنوات عدّة، تمكنت من الحصول على المزيد من الأدلة: سجلات رحلات الطيران، ووثائق تحقيقات الشرطة البرتغالية التي تكشف أسماء ضباط وكالة المخابرات المركزية الذين سافروا إلى بولندا عبر مطار لشبونة أو بورتو. وتحدث صحافيون أعرفهم إلى محققين، مثل ضابط مكتب التحقيقات الفيدرالي علي صوفان الذي حقق مع أبوزبيدة في تايلند، وضابط وكالة المخابرات المركزية ديوس مارتينيز، الذي حقق مع خالد شيخ محمد في بولندا، وفي الوقت الذي سافرت فيه إلى بولندا عام 2009م، كان من المستحيل استبعاد فكرة أنه لم يكن لوكالة المخابرات المركزية سجون في بولندا ورومانيا، لكن العمل الصعب كان على سجون الوكالة في دول أخرى، مثل ليتوانيا، التي لم يكن يعرف عنها معلومات كثيرة. مع ذلك لم يكن لدينا دليل ثابت. كنت أعرف هذا، وقلت لهم ذلك، فالحقائق التي ذكرتها كانت ظرفية.

انتقل الحاضرون للتحدث بالبولندية، حيث أخذ المدّعون العامون وكامل يناقشون قضايا لوجستية تتعلق بكيفية إقناع محامي غوانتانامو بالقدوم إلى بولندا؛ لتقديم إفادات نيابة عن موكليهم، وما الذي يكفي ليقولوه؛ نظرًا لأن القيود الأمريكية تمنعهم من الحديث عن القضايا السرية التي عرفوها في أثناء القيام بواجباتهم.

تملكتني الحيرة؛ لأني لم أعرف ما الذي كانوا يناقشونه بالضبط. اعتقدت أننا قد دخلنا في ضبابية فلسفة ديكارت الذي شك حتى في حقيقة وجوده ليعرف إلى أين سيقوده الشك. الشك بالنسبة إليه كان نقطة البداية ومبررًا.

هذه هي النتيجة، فعندما تنكر الحكومات التقارير الصحيحة: نحن مضطرون للتظاهر بالشك في الحقائق؛ نحن مجبرون على التدليل على أن الحقائق يمكن إثباتها

بطريقة مستقلة. في هذه الحيرة، خطر ببالي مقطع شهير للفيلسوف النمساوي ويتغنستين في انتقاد الشك الديكارتي:

فكّر في العبارة: أعرف أن لي عقلًا، فهل أشك في ذلك؟ أسباب الشك غير موجودة! لا يوجد ما يدحض هذه العبارة.

لكن، من المتصور أن على جمجمتي أن تبدو فارغة، عندما تجري عليها عملية جراحية.

إن هذه الـ (لكن) هي التي أتت بي إلى هنا، لكن ضغط هذه الاجتماعات سبب لي إجهادًا، فما الفائدة من كل هذا؟ قلت لنفسي:

هل ستلاحق النيابة العامة البولندية شخصًا ما، جورج تينيت، أو جورج بوش، مثلًا.

غلبني النعاس، ولم أشعر إلا وأحد أعضاء النيابة يضع يده على كتفي قائلًا:

- «لقد أضعنا وقتك» قالها باللغة الإنجليزية.

أربكتني هذه العبارة لحظات، ثم غادرنا المكان. استرحت في أحد الفنادق، ثم التقينا النيابة العامة؛ لتناول العشاء بعد بضع ساعات، وتبادلنا الأنخاب، وتناولنا خبز الأرز، والسمك المملح، والملفوف والسجق والبطاطا البولندية الحلوة الرائعة من بولندا، التي أنا متأكد أن معتقلي وكالة المخابرات المركزية لم تتح لهم الفرصة أبدًا لتذوقها. كنت مرهقًا، لكني أكلت باستمتاع، وحاولت أن أظل على تواصل مع أعضاء النيابة العامة، بالدردشة باللغة الإنجليزية البسيطة، أو من خلال ترجمة كامل إلى البولندية. مرة أخرى أخذ النعاس يشوش أفكاري، وفقدت التركيز.

مرت ببالي عشر سنوات من الحركة منذ أحداث 11 سبتمبر/ أيلول 2001م، وأنا أفعل هذا وذاك، وها هي الأحداث تأتي بي إلى هنا لأتقاسم الخبز في وارسو مع الغرباء. كلا، فكّرت، وأنا أنظر إلى مايوفسكي: أنتم لم تأخذوا وقتي، لكن الإرهابيين أخذوه.

لم يكن (المبدأ) هو الذي يحفز العاملين في مجال حقوق الإنسان في سياق مكافحة الإرهاب، بل كانت السابقة. لقد تركز التفويض القانوني العام بعد سبتمبر/ أيلول 2001م إلى حد كبير على مسألة معينة: التعريف (أو عدمه) لكلمة (إرهابي) كمقاتل مشارك في نزاع مسلح.

كلما زاد تفكير المرء في العشر سنوات التي أعقبت سبتمبر/ أيلول 2001م، زاد اقتناعه بأن عقلية الحرب على الإرهاب بأكملها البارادايم (النموذج الفكري أو الإدراكي) كانت في الأساس خلطة من الكلمات والأفعال والآراء التي لم يكن فيها شيء أصعب وأسرع، فكل شيء كان ممكنًا. كانت كل حالة، وكلمة، وفعل مثل سمكة سائبة، وكان كل رأي شخصيًّا. لقد عُدّت هجمات سبتمبر/ أيلول 2001م أعمال حرب، ولكن من قِبَل الإرهابيين، وهو ما يعني أن كل شيء فعله الارهابيون كان إرهابًا، بطريقة أو بأخرى، حتى لو لم يكن إرهابًا.

هجوم مسلح على موقع عسكري في أفغانستان؟ إرهاب، وليس هجومًا عسكريًّا. إرسال نقود إلى عائلات الانتحاريين؟ دعم مادي للإرهاب، أو إرهاب باختصار. الانتماء لجماعة إرهابية؟ إرهاب بالتأكيد. لقد أصبح الخلط على جدول الأعمال اليومي. فعل محامو البيت الأبيض والبنتاغون ووكالة المخابرات المركزية ما يفعله المحامون دائمًا: إنهم يطوّعون اللغة على هواهم- مثل تفويض الكونجرس في سبتمبر/ أيلول 2001م لاستخدام القوة- ليسمح للولايات المتحدة بمهاجمة أي جماعة مرتبطة بتنظيم القاعدة، حتى عن بعد، ولأي عضو من أعضاء المجموعة، حتى لو لم يكن عملها مرتبطًا بالعنف مباشرة. كان المثال الذي أحببت استخدامه هو (الممولون) لتنظيم القاعدة؛ لأن المسؤولين في إدارة بوش كثيرًا ما نعقوا بذلك، فقد تعرض الرجال الذين نقلوا الأموال، لتنظيم القاعدة كما يزعمون، إلى الاعتقال أو القتل، ولم يجد كثيرون في حكومة الولايات المتحدة مشكلة في تصنيفهم على أنهم مقاتلون.

هل يمكنك أن تتخيل سألني زميل عام 2005م: إذا استهدف تنظيم القاعدة مكتب وزارة الخزانة الأمريكية لتعاملها مع حسابات البنتاغون أو وكالة المخابرات المركزية، قائلًا: إنهم (الممولون) للعمليات العسكرية الأمريكية؟ هل تعتقد أن أي شخص قد يعترف بشرعية هذا الادعاء، بموجب قوانين الحرب؟ كانت الحكومة تحاول توجيه استهدافها لهؤلاء الأشخاص بطريقة غامضة، ويمكن أن نقول الشيء نفسه عما يقوم به معظم الانتحاريين وسادتهم، الذين ربما قاموا بعمليات اغتيال مستهدفة، ولكنهم في التنفيذ عادة ما يتسببون في قتل أناس أبرياء. ولكن مصطلح الاستهداف كان فضفاضًا، بحيث إنه، أيضًا، أدى إلى أخطاء فظيعة.

استمر الحال هكذا حتى عام 2011م، بعد عقد من الهجمات وفي منتصف ولاية إدارة أوباما، عندما بدأ محامو البيت الأبيض محاولة وضع قيود على هذه المفاهيم، مثيرين تساؤلات، على سبيل المثال، عن الهجمات على الجماعات الصومالية التي لا يُعدُّ ارتباطها بتنظيم القاعدة وثيقًا، والتي لا تهتم كثيرًا بمهاجمة الولايات المتحدة أو حلفائها.

لكن الغموض استمر، وكان أحد المجالات المزعجة بصورة خاصة يتمثل في توسيع الدور المتزايد باستمرار لوكالة المخابرات المركزية بوصفها قوة شبه عسكرية مسلحة بطائرات من دون طيار، لكن المشكلة الحقيقية، التي أدركتها فيما بعد، هي أنه في نطاق الأهداف منذ هجمات 11 سبتمبر/ أيلول قد اتسع، وكانت الجهود المبذولة لتحديد العدو مؤقتة، ومتناقضة، أو غامضة للغاية. والأسوأ من ذلك أن كل محاولة لتصحيح الوضع كانت تزيد الأمور سوءًا، فعام 2006م، عندما أصدر الكونغرس قانون اللجان العسكرية، بزعم تحسين نظام القضاء العسكري في غوانتانامو، فإن المشكلة لم تحل، وجادل محامو حقوق الإنسان بشراسة حول ما إذا كان من شأن التشريع أن يؤدي فقط إلى زيادة الترسيخ (نموذج الحرب الفكري) الفضفاض. وعام 2011م، عندما قدم أعضاء الكونغرس تشريعًا جديدًا بهدف التحديد الأفضل لعضوية وخصائص الجماعات التي

يمكن للولايات المتحدة احتجاز أعضائها من دون إشراف قضائي، كانت التعاريف فضفاضة مرة أخرى بشكل مفرط، إلى درجة جعلت جماعات عدّة لحقوق الإنسان تتسابق لعرقلة التشريع، وفضلت الوضع الراهن على مزيد من ترسيخ التعريفات الفضفاضة المستخدمة.

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل وجدت أيضًا دائمًا قضايا معقدة تتعلق بتحديد أي الجهات الرسمية التي لديها السلطة لاستخدام القوة العسكرية. وقد أدى تورط وكالة المخابرات المركزية في استخدام القوة - مثل ضربات الطائرات من دون طيار - إلى جعل النقاش ضبابيًّا، فقد ركز بعض الناشطين في مجال حقوق الإنسان على الطائرات من دون طيار على وجه الخصوص، كما لو أن القضية الأساسية هي ما إذا كانت الطائرات من دون طيار أو بطيار، أو وكالة المخابرات المركزية مقابل الجيش. (كما ادعى بعضهم لو كانت الطائرات بطيارين عسكريين، فإن الأمور ستكون أفضل). كانت هذه مسائل جانبية: لا تعني شيئًا على الإطلاق بالنسبة إلى آباء الأطفال الباكستانيين الأبرياء الذين قتلوا بصواريخ هِلفَيَر، سواء كان الشخص المسؤول عن شن الغارة هو طيارًا حربيًّا أو ضابطًا في وكالة المخابرات المركزية. عند تحديد القضايا الأساسية في انتهاكات حقوق الإنسان، فإنه ينصب التركيز الرئيس على آثار العنف وهويات الضحايا، وليس هوية الجناة أو نوع السلاح المستخدم.

مع ذلك، كان التركيز على وكالة المخابرات المركزية كما لو أنهم قتلة وسجانون، مقابل الجيش، مبررًا، ففي كل الأحوال يُوجِد تمييز المفهوم بين عنف الحرب وعنف إنفاذ القانون في وقت السلم، وبين القوة المميتة المقيدة بصورة أقل في زمن الحرب والقوة المميتة المحدودة التي تستخدم عادة من قِبَل الشرطة أو المدنيين في حالة الدفاع عن النفس.

مما لا شك فيه أن الفرق شاسع، فالحرب تمثل القتل المتعمد للبشر، ليس لمجرد الدفاع عن النفس أو لمنع العنف ضد الآخرين، ولكنها بصراحة: في كثير من الحالات قتل مع سبق الإصرار. مع ذلك، فإن قوانين الحرب وضعت قيودًا محددة، لكن هذه القيود قليلة فيما يتعلق **بالأهداف المشروعة** في زمن الحرب. على النقيض من ذلك، فإن الشرطة مُلزمة بقيود كثيرة. لذلك، من المناسب وضع حد ذي معنى للتمييز بين هذين النوعين من العنف، فمن المنطقي أن المجتمع يتطلب اختيار الرجال والنساء الذين سيرسلون للحرب، وارتكاب جرائم قتل مع سبق الإصرار، وتمييزهم، وفصلهم عن بقية النظام بطريقة أو بأخرى، وتحديد وقتهم في القتل المسموح بوضوح. هذه المتطلبات من بين الإجراءات التي ترافق الالتحاق بالجيش: التدريب، والتقاليد، والجدية، وارتداء الزي الرسمي، وشكليات الشؤون العسكرية كلها.

أما بالنسبة إلى وكالة المخابرات المركزية، فالأمر على النقيض من ذلك، فلا وجود للزي العسكري، والرزانة قليلة، وكل ما هو مطلوب السرية، والغطرسة، والعجرفة. جاءت أكثر اللحظات سريالية في عملي على انتهاكات وكالة المخابرات المركزية عندما كنت أقرأ فواتير سفر فريق التسليم في الوكالة وإقامتهم في فندق من منتجع بالما مايوركا الإسباني. من بين النفقات كانت عشرات الآلاف من الدولارات أجرة الإقامة في فندق من فئة أربعة نجوم، والسفر بالطائرة، وصندوق شمبانيا من نوع كريستال، وكمية كبيرة من الثلج - ستة وستون جنيهًا - بحيث جعلتني الكمية الكبيرة أتساءل: إذا كان هذا للشمبانيا فقط، فماذا لبعض الأغراض الشريرة الأخرى؟

بعد هجمات 11 سبتمبر/ أيلول، اختفت الحدود القانونية بين القتل في الحرب والقتل في الإرهاب أو في مكافحة الإرهاب. في المقابل، حدث عدم وضوح في التمييز بين المدنيين والمقاتلين. وقد سببت فكرة الحرب على الإرهاب انهيار النظام برمته، فقد جرى خلط القتلة والسجانين، والضحايا معًا في عالم جديد من الوحشية، مع عدم وجود نهاية في الأفق.

الفصل العاشر

الإرهاب بصفة العدالة

عام 1633م، ولد المثقف الفرنسي تيوفراست رينودو، مؤسس صحيفة فرنسا الأولى، لا غازيت، التي بدأت استضافة المؤتمرات الفلسفية في صالون مكتبه الأدبي في باريس، التي كان يحضرها المفكرون الفرنسيون البارزون[1] رينودو، المعروف اليوم بالجائزة الأدبية الفرنسية التي تحمل اسمه، كان شخصية مؤثرة، ولكن غريبة. خدم في ديوان الملك لويس الثالث عشر، بصفته الطبيب الخاص للملك وأحد المقربين من المستشار القوي للملك، الكاردينال ريشيليو، لكنه أدار أيضًا عيادة طبية مجانية للفقراء وما يشبه وكالات التوظيف الحديثة. كانت المؤتمرات الأسبوعية، والمناقشات متعددة التخصصات بين الفنانين الموهوبين الفرنسيين في المجالات العلمية والإنسانية والسياسية التي تجري أمام جمهور، وليس في الغرف الأكاديمية المغلقة أو في الكنيسة، هي الأولى من نوعها في أوروبا من جوانب كثيرة، معلنة بزوغ فجر عصر التنوير. وعادة ما كانت هذه المناقشات تُعقد يوم الإثنين من الساعة الثانية إلى الرابعة بعد الظهر، وكانت تتناول موضوعًا محددًا، فيدلي مختلف العلماء البارزين بآرائهم ومقترحاتهم. أحد هذه المؤتمرات حمل عنوان (هل كان اختراع البنادق أكثر ضررًا أم نفعًا)[2].

لا يُعرف التاريخ المحدد الذي عُقِد الاجتماع فيه، لكنه بالتأكيد عُقِد في الوقت المناسب. كانت أوروبا في ثلاثينيات القرن السابع عشر في ذروة حرب الثلاثين عامًا،

فالممالك الكاثوليكية والبروتستانتية تمزق بعضها بعضًا إربًا في جميع أنحاء القارة الأوروبية، كانت البنادق قد ظهرت في ميادين القتال في وقت سابق منذ ثلاثة قرون، إلا أن استخدام المدفعية والجنود الشاهرين بنادقهم لم تصبح إحدى السمات الرئيسة للحرب إلا حديثًا، فبحلول عام 1618م، عندما بدأت الأعمال العدائية، شملت المعارك الميدانية القصف المدفعي ورشقات من نيران بنادق المشاة متبوعة بهجوم خاطف من سلاح الفرسان، وغالبًا ما كان يجري على طريقة الفرسان الفنلنديين الهاكبيليتا Hakkapeliitta (من صرخة الحرب الفنلندية hakkaa päälle: اقضِ عليهم!) تحت القيادة السويدية وبالتحالف مع القوات الألمانية اللوثرية. كان فرسان الهاكبيليتا يشنون على Hakkapeliitta العدو الكاثوليكي هجومًا بأقصى سرعة، ويطلقون طلقة واحدة من بنادقهم عند الاقتراب، وطلقة ثانية من مسافة قريبة، ثم يستلون سيوفهم، ويتلون جنود المشاة أو يدوسونهم تحت حوافر خيولهم، كان كل ذلك يحدث بعد تبادل القصف المدفعي[3]. لم يكن هذا كابوس الحرب الحديثة بعد، ولكنه كان على وشك.

كانت المعارك وحصار الحصون مشاهد دموية رهيبة، يغطيها دخان البارود، وذكر بعض المراقبين من ذلك الزمان أن استخدام البنادق من قِبَل الجنود في المعركة كان معيبًا، أو عملًا جبانًا، أو جعل المعركة سهلة جدًّا. على أي حال، اعتقد رينودو أن الموضوع الأوسع يستحق نقاشًا مهذبًا، بل وربما فقط في وقت مثل ثلاثينيات القرن السابع عشر، عصر غاليليو وازدهار البحث العلمي، كان من الممكن عقد مثل هذا المؤتمر الغريب الذي يستحق أن نذكره هنا تحديدًا؛ لأن المدفعية والمتفجرات أصبحت في القرون اللاحقة من حقائق الحياة؛ لذلك فإن استضافة مثل هذا المؤتمر اليوم، قد تبدو سخيفة.

لم تذكر السجلات التاريخية أسماء المشاركين في ذلك المؤتمر، ولكن أود أن أعتقد أن من بينهم كان توماس هوبز، الذي عاش في باريس في ذلك الوقت، وهو صديق لمفكر فرنسي شهير آخر، مارين ميرسين. وربما حضره رينيه ديكارت الذي كان يزور

باريس من حين إلى آخر في ذلك الوقت. ووفقًا لمحضر الاجتماع الذي احتفظ به رينودو نفسه، فقد افتتح المؤتمر أحد الضيوف البارزين، الذي تحدث بإسهاب عن أصول صناعة البنادق والمدافع وتاريخها واستخدامها، وقال: أعطى الله الوحوش البرية قرونًا، ومخالب أو أسنانًا؛ للدفاع عن نفسها، لكن الإنسان وُجد على الأرض عاريًا بالكامل ومن دون أي أسلحة أخرى، إلا من العقل؛ لإثبات أن كونه حيوانًا متعقلًا، فإنه لا يحتاج إلى أسلحة أخرى لحل خلافاته مع أبناء جنسه، ولكنه يحتاج إلى العدالة والتفكير السليم، ومع ذلك، فلأن الضرورة أجبرته على الدفاع عن نفسه، وسلم من الوحوش، واللصوص، والأعداء الظاهرين، فقد استغنى عن أسلحته الأولى من قبضة اليد والحجارة والهراوات، وعظام الحيوانات، واستفاد من الحديد، مشكّلًا منه السيوف والفؤوس والرماح، إلى أن ازداد شرًّا للإيذاء من مسافة أبعد، فاخترع المقاليع والمنجنيق [الصواريخ]، ثم معدات الحصار المتنقلة لدخول الأماكن، وهدم أسوار المدن.

واستخدمت النار أيضًا، والعدسات الحارقة، وبراميل الزفت المشتعلة، ولكن كل هذا كان لا شيء، مقارنة بالمدافع[4] وصف المتحدث المدفعية بأنها (اختراع مؤذٍ وشيطاني)، مبينًا بدقة غريبة أنها اخترعت عام 85 بعد الميلاد في مملكة الصين، حيث بدأت معظم الاختراعات الأخرى، ولم تظهر في أوروبا حتى عام 1350م تقريبًا. كانت الـ (مدافع) تصنع في بلد الشمال، حيث يؤكد الإنجيل لنا أن كل الشر سيأتي منها. (ربما إشارة إلى Hakkapeliitta؟) ثم يتطرق المحاضر بعد ذلك إلى تفاصيل الاستخدام المبكر للمدفعية في أثناء الحصارات في إيطاليا في القرن الرابع عشر، الذي جرى فيه إعادة تمتين القلاع وإعادة تجهيزها لتصمد أمام المدافع الأكثر قوة، إلا أن حرفية الحصار فاقت التطورات التقنية لتصميم التحصينات. وكان المدفع أقوى من الجدار. وبحلول القرن السابع عشر، كانت المدافع تستخدم في المعارك، وكان: الذين يحصلون على أكثرها وأفضلها يسيطرون على المعركة، ويضمنون النصر، وخاصة ضد الخصوم المتخلفين، مثل الموجودين فيما وراء البحار أو في الشرق الأدنى.

في هذا السياق، تجدر الإشارة إلى أن أحد المشاركين في مؤتمر باريس، على ما يبدو أنه كان فيلسوفًا، وربما جون هوبز، وجد في المدفعية قوة إلهية، مسببة للرعب أكثر من أي سلاح في الماضي، مقارنًا ذلك بالبرق والرعد الإلهي: «ولأن الملوك يسمّون بالآلهة في الكتاب المقدس»، يبدو منطقيًّا أن يكونوا مسلحين بالرعد، الذي قد يجعلهم مرهوبين من قِبَل الآخرين، فلا توجد وسيلة أفضل للحفاظ على جلال الملك، أكثر من الرعب.

لا توجد وسيلة أفضل للحفاظ على جلال الملك، أكثر من الرعب. لقد رأى الضيف البارز شيئًا فريدًا من نوعه في المتفجرات؛ شيء كان يغيّر الطريقة التي يُفهم الحكم والسلطة، ويبدو فيلسوف آخر على اتفاق معه، حيث يشير إلى أن إحدى علامات الرعب من قوة الانفجار كانت تفوُّقها على أشكال القتال السابقة، كلها: «إن أقوى وسيلة للتغلب على [العدو] يجب أيضًا أن تكون الأكثر جدوى وضخامة».

وهذا ما جعل المدفعية علامة من علامات السيادة، وكانت «تحظى باحترام الملوك، لدرجة أنهم أودعوها في الترسانات ومخازن الذخيرة مع كنوزهم، وأوكلوا مهمة الحفاظ عليها إلى مسؤولين كبار، وموظفين رئيسين في القصر، الذين كانوا يستعرضونها أمام الأجانب. وردًّا على ما يبدو أنه انتقاد للمدفعية؛ لأنها قوية جدًّا ومدمرة للغاية، قال الفيلسوف: إن (تميز) السلاح «يتمثل في القتل والرعب». فالغرض الرئيس، كما يقول: «هو إبادة الأعداء، وكلما قل عددهم، انتهى القتال أسرع، والهدم السريع لحصونهم، يمثل تدمير اعتزازهم وثقتهم» وهذه حجج مماثلة لأقوال الكيميائي فريتز هابر عن عمله لإنتاج الأسلحة الكيميائية في الحرب العالمية الأولى، وتبريرات هاري ترومان لاستخدام الأسلحة النووية بعد ثلاثين سنة لاحقة، وتتلخص هذه الحجج في أن أسلحة الدمار الشامل يمكن أن تكون إنسانية، إذا كانت تهدف لإنهاء الحرب.

ثم يستخدم الفيلسوف التورية في لعبة الكلمات: من خلال قانون (المدفع). يجرى الآن حل النزاعات السيادية كلها قبل قرون من مقولة الخبير العسكري الألماني كلاوزوفيتز: «الحرب استمرار للسياسة»، يصف المدفعية بـ «آخر السفراء التي تحمل أوامر الإعدام»، ويشير إلى أن «أفواه المدافع تجعل الأعداء المصابين بالصمم يسمعون، ومثلما تلقى موسى الوصايا على جبل سيناء في خضم الرعود والبروق، فإن الأمراء اليوم يضعون قوانينهم بقوة رعود مدافعهم».

هذا يذكّرنا بمقولة شكسبير: «كل العالم خشبة مسرح» في مسرحيته (**كما تحب**)، واصفًا مراحل عمر الإنسان السبعة، حيث يصف الجندي بأنه «غيور على الشرف، مفاجئ وسريع في القتال، باحثًا عن شهرة زائفة، وحتى في فم المدفع». في المؤتمر، وافق فيلسوف ثانٍ على الطبيعة الإلهية للمدفعية، مشيرًا إلى أن «لا شيء يضاهي الرعد؛ ومن ثم قوة الله»، وأن الوثنيين في العصور القديمة خصصوا مختلف الأسلحة لآلهتهم: «رمح بثلاث شعب، منجل، قوس، خوذة، حربة، هراوة، سيف».

أحب أن أعتقد أن هذا الفيلسوف الثاني هو ديكارت، وأنه توصّل إلى هذه النتيجة الساخرة المحتملة:

لأن الفلسفة هي أنبل ممارسة للإنسان، فإن الأخلاق هي الجزء الأكثر عدلًا في الفلسفة، وأن الجزء الأكثر روعة من الأخلاق هو السياسة، وأنبل جانب فيها هو الفن العسكري، والميكانيكا هي أنبل جزء من هذا الفن. لقد كان القيصر دقيقًا في وصف بناء الجسور، والآلات الأخرى، أكثر من وصف غنائمه الحربية. لذلك، فإن البندقية منذ ذلك الحين هي دون نزاع ألطف جزء من الميكانيكا، ويترتب على ذلك أن المدفع واختراعه هو ألطف شيء في العالم.

قد يكون هذا مجرد مزحة، وإذا لم يكن كذلك، يمكننا أن نفترض أن معظم الفلاسفة اليوم سوف يقولون: إن ذلك مثير للسخرية. يسمّي معظم الفلاسفة هذا النوع

من الأشياء (السفسطة)، أو التفكير في الأمر على أنه مثال على ذلك النوع من المنهج الفلسفي المتطرف الذي كان سقراط يلزم طلابه به، أو نوع من (هراء) الفلاسفة اللغويين المعاصرين، مثل فيتجنشتاين وأوستن في النقد، وهي نقاط منطق جوفاء يجري التوصل إليها من خلال حساب التفاضل والتكامل، حيث تُحدّد الكلمات والفئات بدقة، وتُربط بفرضيات، وتعامل المفاهيم مثل الأخلاق والسياسة على أنها مثلثات ومربعات، وتطبّق على المعادلات الهندسية.

مع ذلك، سواء أكانت نكتة أم لا، فإن الفكرة الأوسع التي طُرحت في مؤتمر باريس لأول مرة – قدسية المدافع – قد انتشرت في بعض الفلسفات المعاصرة، وأهمها السياسة الواقعية، وهي المجال الذي كتب عنه جون هوبز في وقت لاحق في كتابه (**الليفياثان**) Leviathan (الوحش البحري المنقرض)، وهي فكرة تقول: إنه من الضروري للأخلاق أن يسود النظام، وأن نتجنب حرب الإنسان ضد الإنسان. وهذه الدعوة مبررة، فقد كانت أوروبا في مطلع القرن السابع عشر تغرق في الفوضى والدم؛ لذلك فقد كان الهدف البسيط لإعادة (النظام) يحظى بحماسة شديدة بالنسبة إلى فلاسفة مثل هوبز، فقد وفّر لهم منطق الاستدلال والرياضيات مخرجًا، فباستخدام استدلال الهندسة الإقليدية (التي كان هوبز مهووسًا بها) يمكن للمرء أن يستنتج فعلًا أن النظام السياسي كان أكبر قضية في الأمور الإنسانية، وأن الحفاظ عليه كان واجبًا مقدسًا تقريبًا بالنسبة إلى السلطة الحاكمة. ويترتب على ذلك أن التكنولوجيا الأنسب للحفاظ عليه – المدفع – تستحق التقدير.

أما بالنسبة إلى الحريات الفردية والعدل والمساواة – أفكار جان جاك روسو وجون لوك – فلم تكن مطروحة بعد.

لكن العصر الحديث وصل في نهاية المطاف، فقد انتهت حرب الثلاثين عامًا، ووضعت معاهدة ويستفاليا عام 1648م حدًّا لأزمة القرن السابع عشر، وانتهى كل شيء.

بعد ذلك، تعزز مفهوم الدولة الحديثة في أوروبا: فكرة أنه لم يعُد ممكنًا لأي دول التدخل في الشؤون الداخلية لدولة أخرى، وخاصة في القضايا الأيديولوجية والدينية، وتعززت حركة التنوير، وطرح المفكرون مثل لوك وروسو أفكار الحقوق والحريات، وعلى الرغم من الانتكاسات (إرهاب الثورة الفرنسية وحروب نابليون)، إلا أن مبادئ الحرية والمساواة أخذت تزدهر، وإن لم تكن واقعية، إلا أنها أصبحت واقعية إلى حد ما على الأقل لكثير من الشعوب عبر العالم. ومثل قصة الأطفال (الأرنب المخملية) التي يتحول فيها الأرنب إلى أرنب حقيقي لأن الطفل الصغير أحبه، فقد أخذت الحقوق تتحول إلى واقع، وجرت نقاشات وحوارات عميقة عن جذور الحقوق التي تراوحت بين طبيعية (إلهية) وصناعة بشرية من خلال المراسيم أو الإجماع، كما يقول أنصار المذهب الوضعي. وفي الحقيقة أن الأصول الفلسفية لواقعية الحقوق - سماوية أو قوانين وضعية - لم تكن مهمة على المستوى العملي مثل شعبيتها، فقد أحب الناس الحقوق التي أصبحت حقيقية على أرض الواقع.

بطبيعة الحال، فقد وُجدت مطبات على طول الطريق، خاصة في القرن العشرين. كانت مطبات كبيرة، لكن مفهوم التقدم استمر: انتصرت الأفكار الأفضل، عام 1945م، ثم عام 1989م، وقد اتُّفق على أن النظام لم يكن كل شيء، وظهرت أمنيات أخرى: الحقوق الطبيعية، وحقوق الإنسان والكرامة، ومهما قلنا، فإن عنف السياسة الواقعية الذي لا يرحم، الذي نوقش في مؤتمر باريس في ثلاثينيات القرن السابع عشر، كان مساويًا على الأقل للغة الحرية والحقوق، فقد أصبحت الحقوق سياسية، فكل واحد إما أحبها أو التمسها، من هتلر إلى حكمتيار.

مع نهاية القرن الحادي والعشرين، لم يكن أحد يجرؤ على الحديث عن (قدسية) المدفعية. ولم يكن أحد يستطيع أن يقول: إن قانون موسى كان صالحًا؛ لأنه كان مصحوبًا بالرعد، وكذلك قانون الملك أو القانون السيادي. لم يقل أحد: إن المدافع كانت ألطف الأشياء في العالم.

على الرغم من ذلك، ظلت الحقيقة الصادمة: مزيد من السلاح، ومزيد من الأنواع، أكثر من أي وقت مضى.

في سنتي الأولى في كلية الحقوق، كان أحد الموضوعات المفضلة لي هو قانون الملكية، فأنا أستمتع بالأجزاء الأساسية للموضوع؛ مثلًا، القضايا الإنجليزية في القرن السابع عشر في بداية الكتاب التي تتعلق بملكية الحيوانات البرية.

ماذا يعني أن (يمتلك شخص ما) حيوانًا بريًّا أمسكه أو قتله؟ متى تبدأ الملكية؟ وقد ناقشنا حالات صياد يصيب غزالًا بجروح، لكنه يهرب أو يموت بالقرب من صياد آخر: فمن الذي له حق ملكية الغزال في هذه الحالة؟ هل حقوق الملكية نتاج جهد وعمل، أو اكتشاف، أي مسألة من يجده أولًا يستطيع الاحتفاظ به؟ إلى حد ما، أعتقد أن قضايا الملكية الخاصة بدت لي متصلة بمسائل كل من الفلسفة اللغوية والسياسية، وأن قضايا (حقوق) الملكية كانت، نوعًا ما، مرتبطة بحقوق الإنسان. وقد فتنت بصورة خاصة بقضايا الأراضي والسيادة: مفهوم أن ملكية جميع الأراضي في الولايات المتحدة تعود إلى ملكية (التاج البريطاني)، أو كما في حالة ولاية لويزيانا، إلى حكومة فرنسا، وقد حيّرتني قضية المحكمة العليا في الحكومة الأمريكية - قضية جونسون ضد منتوش -: قضية منح ممتلكات معينة من قِبل الحكومة الأمريكية الجديدة مقابل هبات من قبيلة هندية قبل الثورة الأمريكية، التي اعترفت فيها المحكمة بـ (حقيقة) الغزو و(إطفاء) حقوق ملكية الهنود الحمر المواطنين الأمريكيين الأصليين. وقد بدا لي كما لو أن العنف يمتد عبر موضوعات كثيرة: إنشاء الملكية، والحفاظ عليها بوصفها مفهومًا (هذه لي، وليست لك)، وقضايا إنفاذ حقوق الملكية، والمفهوم القانوني لـ (المساعدة الذاتية في قانون الملكية)، حيث يمكن لمالكي العقارات اللجوء إلى القوة في بعض الحالات لاستعادة ممتلكاتهم الخاصة. هذه كلها ديناميات عنف.

توصلت إلى هذه الفكرة - أن العنف يحتل موقعًا مركزيًا في قانون الملكية - لأول مرة من عمل المنظّر القانوني، ويسلي نيوكومب هوفِلد، الذي كتب مقالتين قانونيتين في العامين 1913 و1917م حول ما يسمى العلاقات القانونية في قانون الملكية (لا يزال طلاب القانون في السنة الأولى يقرؤونهما حتى هذا اليوم[5]. افترض هوفِلد أن المحامين والحقوقيين في زمانه أساؤوا فهم هذا المصطلح الأساسي (حق) فيما يتعلق بالملكية، عن طريق استخدامه بالتناوب على أنه فكرة، سلطة، امتياز، قيمة، في أي قضية، بوصفه مفهومًا قانونيًا منعزلًا - بعبارة أخرى، شيء منفرد. أكد هوفِلد على أن الحق لا وجود له في المجرد، من تلقاء نفسه؛ بل يتعيّن أن يتمتع بمفهوم ارتباطي بين الأطراف الأخرى: واجبهم احترام هذا الحق. لذلك، ووفقًا لهوفِلد، عندما يمتلك شخص ما - الأزرق - حقًا في نزاعه مع شخص آخر - الأحمر - فإن الأمر مرتبط بواجب احترام الأحمر حق الشخص الأزرق.

البروفيسور آرثر كوربن، المعاصر لهوفِلد، الذي طوّر أفكاره لاحقًا، وصف الدينامية القانونية بقضية يستطيع فيها الأزرق، صاحب الحق، الذي يصطدم بانتهاك حقه من قِبل المترابط معه حامل الواجب، الأحمر، أن يطلب من الحاكم (العملاق) إنفاذ حقه[6]. أستاذ صفي في قانون الملكية، يوشاي بينكلر، استخدم هذا المصطلح باستمرار - (إيقاظ العملاق) - وهو يتحدث في سياق قضية أو أخرى. كان يسأل:

- هل يوجد حق هنا يجب إنفاذه؟ هل يمكن إيقاظ العملاق؟

يثير المفهوم سطرًا رئيسًا من كتاب هوبز (الليفيثان): «المواثيق، من دون سيف، تظل مجرد كلمات»[7].

تحليلات هوفِلد وكوربن وجدت طريقها في النهاية إلى الموضوعات الأكاديمية الخاصة بحقوق الإنسان، فقد قرأنا في كلية الحقوق في وقت لاحق، مؤلفات منظّري حقوق الإنسان الذين قالوا: إن حقوق الإنسان مرتبطة عمليًا بواجبات الحكومة في

احترامها. في حالة بعض الحقوق، كما تعلّمنا، فقد توسّع واجب الحكومة أكثر: لا ينبغي لها فقط أن تحترم الحق، بل أن تفرضه، وتعززه، فيما يتعلق بالكيانات الأخرى، بما في ذلك المواطنون الآخرون.

بعبارة أخرى، تم إلزام الحكومة بالعمل بدور المسؤولة عن أداء الواجب وبدور العملاق الذي يفرض واجبات الأطراف الأخرى.

ما أعجبني بخصوص كوفِلد وكوربين هو أنهما وصفا الحقوق كما كانت عليه حقيقة: ليس مفاهيم قانونية هوائية، مجرد كلام، ولكن إجراءات واقعية تشمل ممارسة القوة الجسدية – عنف العملاق، فالحق لا يكون حقًّا إذا لم يسنده شيء حقيقي: إنفاذه. لقد قصدا التأكيد على أن الحقوق مرتبطة بالأفعال؛ ولم تكن مجرد كلمات.

روبرت كَفر كان منظِّرًا قانونيًّا آخر ناقش هذه النقاط الرئيسة بتفصيل أكبر. كان روبرت أستاذًا في جامعة ييل في السبعينيات والثمانينيات من العقد الماضي، وقد عُقدت عليه آمال عظيمة، ولكنه توفي فجأة بنوبة قلبية عام 1986م، وهو في الثانية والأربعين من العمر، فقد كتب قبل وفاته مقالات عدّة في المراجعة القانونية، كانت أكثرها شهرة (العنف والكلمة Violence and the Word) التي طرح فيها رؤيته لممارسة قضائية تركز على (الألم) و(العنف) الملازمين لخصائصها التشغيلية[8]، وشدد على حقيقة أن القرارات القضائية كانت في الواقع (أوامر) نُفّذت، في نهاية المطاف، عن طريق استخدام القوة أو التهديد بها، وجاء أحد المقاطع المعروفة في مقالته:

«التفسير القانوني يحدث في ساحة الألم والموت، وهذا صحيح في كثير من الحواس، فالأعمال القانونية التفسيرية تعطي السبب، وتؤذن بفرض العنف على الآخرين: القاضي ينطق بفهمه للنص، ونتيجة لذلك، يفقد شخص ما حريته، وممتلكاته، وأولاده، وحتى حياته، وتشكل تفسيرات القانون أيضًا مبررات للعنف الذي وقع بالفعل أو الذي على وشك الوقوع. وعندما ينهي المفسرون عملهم، فإنهم كثيرًا ما يتركون وراءهم الضحايا

الذين دُمرت حياتهم من خلال هذه الممارسات الاجتماعية المنظَّمة للعنف؛ لذلك فإنه لا يمكن فهم التفسير القانوني بصورة صحيحة بمعزل عن العنف الذي يحدثه».

في مكان آخر، كتب يقول:

«أعتقد بما لا يدع مجالًا للشك أن معظم السجناء في الولايات المتحدة يمشون إلى السجن؛ لأنهم يعرفون أنهم سوف يُجرّون أو يتعرضون للضرب إذا لم يسيروا إلى السجن بأنفسهم، وهم لا يقاومون سحبهم؛ لأنهم يعرفون أنهم إذا أظهروا هذا النوع من المقاومة، فإنهم سوف يخسرون، ربما يفقدون حياتهم». هزتني أفكار روبرت هذه بعمق، حيث من الواضح أنها تصيب كبد الحقيقة، وتتناول - التجسيد المادي الأساسي للقانون - العنف الذي ناقشه، وإن بعبارات مختلفة، ومن والتر بنيامين (العنف القانوني)، وهانا أرندت (السلطة ووسائل العنف المملوكة للدولة)، وسلافيتش زسكا (العنف الموضوعي) [9] كثير من الأكاديميين القانونيين ركزوا نقاشاتهم على النصوص والقضايا والقضاة، أو الأفعال الرئيسة للمدعين أو المدعى عليهم، لكن روبرت أشار **للآثار** الفعلية للقانون نفسه في العالم: الشرطة تطرق الباب لتنفيذ حكم قضائي، إسقاط حق رهن المنزل، استعادة متاع مسروق. وأعاد تركيز الانتباه على المُحضِرين والسجانين، والأسلحة على خواصرهم، والمباني المغلقة التي يحتفظون بمفاتيحها.

أبي كان قاضيًا؛ لذلك نشأت في أجواء المحاكم وكثيرًا ما لاحظت، عندما كنت صغيرًا، علاقة والدي الغريبة مع الشرطة؛ الرجال أقوياء البنية الذين يحرسون القضاة الفدراليين، ويجلبون السجناء إلى المحاكم، ويتسلمون المتهمين المدانين بعد صدور الحكم. أستطيع أن أتذكر كيف كان والدي لدى دخوله المحكمة التي يعمل بها يقف ليتحادث مع الحراس في بهو المحكمة حول المسائل اللوجستية، وخاصة في السنوات التي شغل فيها منصب كبير القضاة، الرئيس الإداري للمحكمة. كان المشهد يبدو غريبًا، وهو يتحدث إلى الحراس بصوت هادئ، وهو يحني رأسه الأصلع، ونظارته على أنفه، ويرتدي

بزته من ثلاث قطع المخيطة يدويًّا. كان يبدو مهذبًا حتى في هذه المحادثات القصيرة، لكن الحراس كانوا يهابونه مثلما يهاب الناس جميعًا رؤساءهم. قبل وصوله ربما كانوا يتمازحون عن شيء في نشرة الأخبار أو في مباراة الليلة الماضية، لكنهم يتوقفون فجأة عندما يقترب منهم. كانت هذه التفاعلات تبدو غبية، مثل تصرّف البحارة مع قبطان سفينة. «حسنًا، حضرة القاضي، لا مشكلة» كانوا يقولون، وبهدوء يستأنفون خفارتهم عندما يبتعد، ولكن على الرغم من بعد المسافة، يمكنني أن أستشف ارتباطًا أعمق، فقد كان ذلك واضحًا بعد انتهاء نطق أبي بالأحكام، أنه كان ينظر إلى الحراس لحظة، فكانوا يسارعون بصمت، ويصفّدون المدانين، ويأخذونهم بعيدًا. كانت تلك اللحظة السريعة تلخص كل شيء: الحراس والقاضي مرتبطون معًا؛ جزءان في المتصل الأكبر للقانون والعنف.

زارت الشرطة منزلنا في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي، عندما كان والدي ينظر في قضية تتعلق بالجيش الجمهوري الأيرلندي، وتلقى تهديدات بالقتل. في إحدى المرات، طلب والدي الشرطة في تسعينيات القرن العشرين، عندما هدده جار له في بروكلين، يعاني مرضًا عقليًّا، بقتله وقتل زوجته الثانية، والجيران الآخرين: وصلت الشرطة أسرع من شرطة دائرة نيويورك، وفي مؤتمر قضائي في واشنطن يوم 11 سبتمبر/ أيلول 2001م، جمعت الشرطة والدي ورفاقه على عجل، ونقلتهم إلى نيويورك، وجاءت الشرطة إلى منزله في أثناء حالة مرضية طارئة في الأيام الأخيرة من إصابته بمرض الرئة الذي أودى بحياته، آخر ما قاله والدي لزوجته: «اطلبي الشرطة»، ثم قال كلامًا غير مفهوم، إما إشارة إلى التعليمات الطبية، أو على نطاق أوسع، إلى المتهمين الذين كان قد حكم عليهم بالسجن طوال أكثر من ثلاثين سنة من مهنته: «قولي لهم أن يفرجوا عنهم جميعًا، الإفراج عن كل واحد منهم».

عند تنظيف مكتبه بعد وفاته، وجدت في الدرج العلوي من مكتبه نسخة قديمة من مقالة روبرت كَفر (العنف والكلمة) مع شروحات وملاحظات إعجاب. لم أفاجأ تمامًا

بالعثور على هذه المقالة؛ لأنه لم يكن سوى ذلك النوع من النصوص التي تخاطب مشاعر السخرية للرجل العجوز، ورأيه في كيفية خلط القانون للمنفعة مع الرعب.

كان والدي كثيرًا ما يكره إصدار الأحكام، وخاصة في حالات المتهمين الأقل جرمًا، مثل الذين يهرّبون المخدرات عبر الحدود لحساب أشخاص آخرين، الذين يحكم عليهم القانون بمدد طويلة حتى في الحالات التي قد يكونون فيها مجبرين على التهريب. كان ليبراليًّا، ولكنه كان أيضًا قاضيًا، وكان يقوم بما تملي عليه واجبات منصبه، وكان معارضًا، ولكن فقط إلى حد ما. (كان يعلم أيضًا أنه لا فائدة من محاولة التوصل إلى قرار أكثر عدلًا، وهو يعلم أن محكمة الاستئناف ستنقضه) وفي سياق الحكم، أتذكر الطريقة الرافضة التي كان يتحدث بها عن قضاة الدائرة الذين كانوا يستمعون فقط إلى الطعون، وينطقون بالأحكام، من دون أن يواجهوا المتهمين أو المدعين المتضررين. على وجه الخصوص أذكره، وهو يتحدث بسخرية عن أحد الأكاديميين الذي عُيّن قاضيًا للمحكمة الابتدائية في واشنطن، لكنه استقال من منصبه بعد بضع سنوات فقط، وعاد إلى التدريس (وعُيّن في وقت لاحق قاضيًا في محكمة الاستئناف) أبي لم يحب هذا القاضي بالذات، وأنا أتذكره يتذمر في كرسيه في مكتبه: «ليست لديه الجرأة للحكم على الناس، لم يكن يستطيع حتى ينظر إليهم» وتابع متنقلًا بعينيه، وقال: «ماذا كان يظن أننا كنا نفعل مع المجرمين؟ هل كنا ندردش معهم؟».

بعد وفاته عام 2009م ببضعة أشهر قال لي صديقي بيلي سوثرن، وهو محامي دفاع جنائي دافع بانتظام عن المحكوم عليهم بالإعدام: إن بعض (المحامين اليساريين) الذين كان يعرفهم، والذين دافعوا أمام والدي في قضايا الإرهاب في ثمانينيات القرن الماضي، أعربوا عن دهشتهم الكاملة بعد وفاة والدي عندما علموا، من بيلي، أن والدي كان ملمًّا بالفكر الماركسي، وأنه قرأ لكتّاب مثل فرانز فانون وإيما غولدمان، وكان متعاطفًا مع العدالة الاجتماعية والقضايا الثورية. لقد صدموا لسماع أنه قد كتب في كثير من الأحيان إلى بيلي؛ لتشجيعه في عمله في الدفاع عن المحكومين بعقوبة الإعدام،

مثلما شجعني في عملي في منظمة هيومان رايتس ووتش. «لقد اعتقدوا أن أي شخص يؤمن بتلك القيم كان سيمتنع عن محاكمة عملائهم»، كما كتب بيلي لي.

لكنه لم يمتنع. بهذا المعنى، كان والدي في التحليل النهائي، شخصًا غامضًا، مع علاقة مضطربة مع الدينامية التي وقفت عليها حياته المهنية- العنف. وقلت لصديقي بيلي: إنه يشبه شخصية الكابتن فير في رواية هيرمان ملفيل (**بيلي بود**) Billy Budd، الذي يحمل صديقي الاسم نفسه، وهو (القاضي وهيئة المحلفين، والجلاد).

(**بيلي بود**) قصة عن العنف. في رواية ملفيل، أعجب البحار بيلي المعروف بحبه للسلام بمحارب بريطاني، هو بيليبوتنت، ويغادر سفينته التجارية (حقوق - الإنسان)، ويقول: «وداعًا لك أيضًا يا حقوق الإنسان» وهو يؤدي التحية مجدِّفًا بعيدًا إلى السفينة الحربية البريطانية. وعلى الرغم من حب طاقم سفينته الجديدة له، فقد اتهم بالتمرد من قِبَل ضابط ساخط اسمه كلاجارت. الكابتن فير، المعجب ببيلي وبساطته ووسامته، يعلم أن كلاجارت قد شهَّر ببيلي، ولكن عندما تواجه بيلي مع كلاجارت في مكتب الكابتن فير، لم يقل بيلي البريء شيئًا للدفاع عن نفسه، لكنه يكتفي بتوجيه لكمة إلى رأس كلاجارت أردته قتيلًا. الكابتن فير يصرخ: «قتله ملاك الرب!» ومع ذلك، فإن الملاك يجب أن يشنق! معظم بقية الرواية تتحدث عن الكابتن فير وهو يشكّل بحماسة زائدة هيئة محلفين على ظهر السفينة وإقناعهم بأن عليهم الحكم بشنق بيلي بود، ثم يقول: «نحن لا نتحدث عن العدالة، نحن نتحدث عن القانون». وفي بعض المراحل في القصة، يبدو الكابتن فير مستمتعًا بالتناقضات والتوترات بين القانون والعدالة.

علمت لاحقًا أن نقاد الأدب - وكذلك روبرت كَفر، الذي كان من كبار المعجبين بكتابات ملفيل - يعتقدون أن ملفيل جسّد الكابتن فير على غرار والد زوجته، ليمويل شو، كبير القضاة في المحكمة العليا في ولاية ماساتشوستس الذي لا تزال آراؤه تستخدم في كتب القانون حتى يومنا هذا. وعلى الرغم من أن شو شخصيًّا كان من مؤيدي حركة إلغاء

الرق، إلا أنه طبّق الأحكام الخاصة بالعبيد الفارّين، ومن أشهرها قضية عام 1851م ضد توماس سيمز، وهو عبد من جورجيا هرب إلى الشمال المؤيد للإلغاء، وهي التي شغلت الرأي العام. وقد حكم القاضي شو بإعادة سيمز مرة أخرى إلى (مالكيه) في جورجيا. وتولى رجال البحرية حراسة القافلة التي كانت تقله من سجنه إلى ميناء بوسطن بسبب الحشود الضخمة للمؤيدين لإلغاء العبودية، الذين حاولوا وقف عمليات التسليم. في معالجة روبرت كَفر لهاتين المسألتين - شو يعيد سيمز، والكابتن فير يساعد على شنق بيلي بود - تبدو التوترات فيهما تصويرًا حيًّا لـ (كيف يمكن للتطبيق الحرفي لنص القانون أن ينتهي بنتائج بشعة).

عاودتني أفكار روبرت كَفر، بعدما عملت مع منظمة هيومان رايتس ووتش سنوات عدّة، فأخذت أُقدّرها في سياق قانون حقوق الإنسان والقلق المتكرر الذي يساورني حول أسسه. في اجتماعات الدفاع عن حقوق الإنسان، شبّهت عملي وزملائي بـ (إيقاظ العملاق) لممارسة العنف باسم حقوق الإنسان، فالعمالقة هنا هم قادة حلف شمال الأطلسي، أو أمراء الحرب الأفغان، ومديرو مجلس الأمن القومي، والسفراء. **نحن هنا نوقظ العملاق**، كان يخطر ببالي في بعض الاجتماعات.

في حقيقة الأمر أن العلاقات القانونية وحقوق الملكية، لا تترجم بطريقة جيدة في مجال حقوق الإنسان، فقد ساد خلاف مفاهيمي لحقوق الإنسان، حيث كان المسؤول عن نفاذ القانون والعملاق وجهين لعملة واحدة، فلقد كان المدافعون عن حقوق الإنسان يوقظون العملاق لفرض واجبه الخاص، أو إيقاظ جزء واحد من العملاق لمعاقبة جزء آخر، ففي كلتا الحالتين، بدا أن العملاق يعاني تعارضًا في المصالح. هذا غير منطقي؛ لأن كل عملاق يحتاج إلى عملاق آخر فوقه، أو في داخله؛ لإجباره على القيام بواجبه؛ فالنظام يحتاج إلى عملاق مستنير، من النوع الذي اقترحه توماس هوبز. خطر ببالي جوهر هذا الوضع الرخو عندما قدر عليّ أن أكتب جزء (توصيات) تقارير هيومان رايتس ووتش. كنت أقول لنفسي: لا يوجد عملاق هنا لنوقظه، فالعملاق نفسه هو الذي يرتكب

انتهاكات حقوق الإنسان! كان علينا أن نكتب توصيات تقول للعملاق أن يوقف انتهاكات الحقوق والتحقيق في الانتهاكات التي ارتكبها بنفسه، بعبارة أخرى، للتحقيق مع نفسه في ديسمبر/ كانون الأول 2007م، كتبت التوصيات الآتية (من بين توصيات أخرى) في تقرير عن التعذيب المنتشر في مصر، موجهة إلى الرئيس حسني مبارك:

«رفع حالة الطوارئ وإلغاء قانون الطوارئ في مصر» الطلب من وزارة الداخلية فتح تحقيق شامل ونزيه، وعلى وجه السرعة في مزاعم تعذيب المعتقلين ومحاكمة أو مساءلة المسؤولين الحكوميين المسؤولين عن الانتهاكات التي ارتكبت ضد المعتقلين.

التصريح علنًا بأن الحكومة لن تتسامح مع التعذيب وسوء المعاملة، وأن الانتهاكات التي يرتكبها الموظفون المكلفون بإنفاذ القانون، بما في ذلك ضباط مباحث أمن الدولة، وأنه سيتم التحقيق معهم ومحاكمتهم ومعاقبتهم.

ماذا يمكن أن نفعل غير ذلك؟ هل نطلب أن يغزو بلد آخر مصر، ويعتقل مبارك، ويُعدّ جدولًا زمنيًّا للانتخابات؟ كان مفهومًا أن أي توصيات مثل توصياتي كانت مجرد شكليات. كنا نوجه إنذارًا، ونلفت نظر مبارك.

كانت كل هذه مجرد التماسات بلا أفعال، وقد نجحت أساليبنا في الدفاع عن حقوق الإنسان، إذا كانت قد نجحت أصلًا؛ لأننا سببنا نوعًا من القلق في الحزب الحاكم، أو جعلناهم يشعرون بحرقة العار أمام المجتمع الدولي. وفي الحقيقة أن مجتمع حقوق الإنسان لم يستطع أن يفعل أي شيء لطغاة العالم. كانت هذه طريقة عمل المدافعين عن الحقوق، إلا في حالات نادرة عوقب فيها الطغاة، أو أزيلوا من السلطة من قِبَل بلدان أخرى؛ لانتهاكاتهم للحقوق- وتشمل الأمثلة النادرة حالات في غرب إفريقيا والبلقان وتيمور الشرقية، وليبيا، وفي معظم الحالات الأخرى، فهم إما يتشبثون بالسلطة، ولا يكترثون، أو أطاحت شعوبهم بهم أو عن طريق انقلاب، وليس عن طريق قوة خارجية.

لكن ربما كان عجز المدافعين عن الحقوق شيئًا جيدًا؛ لأن البديل يبدو مقلقًا: فكرة أن جماعات الحقوق قد تفعل أكثر، فإذا أمكن لهيومان رايتس ووتش استدعاء عمالقة بسهولة ليمارسوا العنف ضد غيرهم من العمالقة باسم حقوق الإنسان، فإننا سوف نلتمس العنف كل يوم، من أحد أطراف العالم إلى آخر، من طرابلس إلى كاتماندو، فهل يمكن لمنظمة حقوق أن تتسامح مع هذا الكم من المشاركة في العنف؟ هل يمكننا أن نواصل القيام بعملنا، ونحن غارقون في بحر الظلمة هذا؟

لم يعانِ روبرت كَفر من ظلمة عمله، فقد أخبرني صديقه أستاذ القانون ريتشارد ويسبيرج ذات مرة، عام 2011م، كيف كان سعيدًا، ومتحمسًا، ومفعمًا بالنشاط، ومليئًا بالتفاؤل والدهشة، وهو ينظر إلى العالم وتعقيداته، وفقًا لما قاله ويسبيرج، كان روبرت يحب الحديث عن الأدب والتقاليد الإنسانية القديمة، والقصص الإنسانية عن الحب والعنف والحكم والعقاب، وقال لي: إن مقالته (العنف والكلمة) لم تكن في الواقع الأطروحة المركزية لفكره، بل كانت، بالأحرى، إضافة إلى نظرية منفصلة ومركزية عن القانون والعدالة كان يؤمن بها، واحدة تركز على دور القصص والسرد (ومن هنا جاء عنوان أول كتاب رئيس له، (**القوانين والسرد** Nomos and Narrative). من وجهة نظره، كانت أعمال المحاكم والمحامين، عالم العدالة والقانون، تركز بشكل صحيح على السرد المجتمعي – القصص التي تروى عن حياة الإنسان التي أعطت مضمونًا لمفاهيم مثل العدالة والإنصاف والانتقام والعنف. ومثل فيتجنشتاين فيما يتعلق باللغة، آمن روبرت بأن النظم القانونية والاجتماعية استمدت معانيها الخاصة من الاستخدام الفعلي والأداء في الحياة الحقيقية. كانت مشروعية القوانين والمعايير موروثات الروايات المشتركة، سواء كانت قصصًا من الكتب الدينية، والمسرحيات التي كتبها سوفوكليس، والروايات والأساطير، أو التجارب المشتركة في الحروب في جميع أنحاء العالم. لقد كانت أفكار روبرت كَفر بمعنى من المعاني هي أفكار ريتشارد رورتي: كان دعاة القانون ليس أكثر من حفنة من رواة القصص، ودعاة الحقوق ليسوا أكثر من رواة حكايات لتعزيز التعاطف

بين العامة وإحراج المسؤولين الحكوميين العامين. لم يكن عمل مجموعات حماية حقوق الإنسان يتعلق بإيقاظ العملاق، بل بإحراجه لتغيير أساليبه.

هناك ميزة في هذا النهج. صحيح، أن المسؤولين الحكوميين الحديثين لا يحبون أن يشعروا بالحرج عندما يذهبون إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة، أو عندما تجري وسائل الإعلام مقابلات معهم. إنهم يغيرون سلوكهم لتجنب هذا الإحراج. كان لدينا اسم له في المذكرات الداخلية لمنظمة هيومان رايتس ووتش: الفضيحة وجلب العار.

العار، من بعض وجهات النظر، مسألة ثانوية، إذ لا يبدو أن المستقبل يبشر بأن العار وحده يمكنه أن يغير مجرى التاريخ. ولكن من يدري؟ قد يكون تولستوي محقًّا عندما قال: إن التغيير التاريخي أبعد من الفهم النبوئي، وهو محكوم بتدفق القوى الفردية التي تعمل متناسقة بطرق غير متوقعة، وهي معقدة لدرجة يصعب التنبؤ بها مسبقًا أو حتى فهمها لاحقًا - مسيرة التاريخ الصوفية. إن كل ما يستطيع المدافعون عن الحقوق أن يفعلوه، وهم يواجهون شبح التدفق التاريخي، هو تجميع الحقائق والروايات التي تحرج أو تلامس أحاسيس اللاعبين الرئيسين في أحداث التاريخ؛ الذين قد يكونون في وضع يمكنهم من تقديم بعض المساعدة والرحمة، أو العون لضحايا الفوضى. ليس هذا مطلبًا كبيرًا، ولكنه أفضل من لا شيء.

* * *

الفصل الحادي عشر

التغيير

الأخبار من القاهرة مساء يوم 25 يناير/ كانون الثاني 2011م، كانت مثيرة للأعصاب، فقد كان شيء غير عادي يحدث هناك، فلأيام عدّة، ظل الناشطون يرسلون إعلانات عبر تويتر والفيسبوك عن الاحتجاج الذي سيجري يوم 25 يناير/ كانون الثاني، يوم الشرطة المصرية الوطني، وهو موعد اختاره المتظاهرون لتسليط الضوء على قضية التعذيب والفساد في الشرطة. حدث ذلك بعد أحد عشر يومًا من الاحتجاجات التي أدت إلى سقوط الزعيم التونسي، زين العابدين بن علي، الذي كان فاتحة لانتفاضات الربيع العربي عام 2011م.

في البداية، لم تتوافر تقديرات دقيقة عن حجم الاحتجاجات المتوقعة، وكانت المؤشرات قليلة عن احتمال سقوط الرئيس المصري، حسني مبارك، ولكن ساد شعور بأن هذا ممكن. مساء 25 يناير/ كانون الثاني، نشر أحد النشطاء، حسام الحملاوي، صورة لميدان التحرير على موقع للمشاركات عبر الإنترنت، التقطت في نحو الساعة السادسة مساء بالتوقيت المحلي. كانت صورة ملتقطة من مكان مرتفع أظهرت حجم جماهير الشعب وأضواء الشوارع المتوهجة. إن مجرد بقاء حشود المتظاهرين في الساحة حتى غروب الشمس، دون مضايقات كان حقيقة مذهلة.

بطبيعة الحال، لقد سبق لميدان التحرير أن شهد احتجاجات من قبل. كان حسام قد شارك في كثير منها، حيث سمعت منه حكايات كثيرة عندما أجرينا معًا بحوثًا لمنظمة هيومان رايتس ووتش عام 2007م، وكانت هذه القصص تدور حول الجروح والكدمات، والاعتقالات، والتعذيب آنذاك، وكانت زميلتي المصرية هبة موررايف، الباحثة في هيومان رايتس ووتش عندما بدأت الانتفاضة عام 2011، قد غطت هذه الأحداث السابقة كذلك. كانت تلك المظاهرات تستمر في العادة ساعة واحدة فقط، وتنفض بحلول المساء تقريبًا، وهذه المظاهرات لم تدم طويلًا بسبب قمع الشرطة، والعنف الذي تعرض له المتظاهرون.

إلا أن الأمر كان مختلفًا هذه المرة، فعند منتصف ليل يوم 25 يناير/ كانون الثاني أخلت الشرطة الجزء الرئيس من ميدان التحرير، لكن المتظاهرين أعادوا تجميع أنفسهم، ودخلوا الميدان، وزاد عددهم في اليوم الثاني ما يدل على الفرق في ثقة المحتجين في هذه الاحتجاجات التي سبقتها. كانت لهجتهم مفعمة بالتصميم والتحدي، ولم يكن الغضب الثوري استفزازيًّا، فالوقت قد حان للتغيير. هتف المتظاهرون: «الشعب يريد إسقاط النظام»، ورددوا: «حرية... حرية».

يوم 28 يناير/ كانون الثاني، أول يوم جمعة بعد بدء الاحتجاجات، أغلق النظام الإنترنت وخدمة الهاتف، وأمر الجيش بالنزول وسط القاهرة، وألقى مبارك خطابًا متلفزًا، منوهًا بشكل مبهم إلى إصلاحات. لكن بعد ذلك، وبشكل مثير للدهشة، لم يتخذ الجيش أي إجراءات ضد المتظاهرين، بل إن بعض المتظاهرين استقبلوا القوات العسكرية بالهتافات، مثل: «الشعب والجيش هيغيّر الرئيس»، على الرغم من أن كثيرين كانوا حذرين لمعرفتهم بممارسة الجيش في محاكمة المعارضين أمام محاكم عسكرية، وكان الجيش المصري قد ترك مساحة بينه وبين مبارك، وكان مستعدًّا بالفعل لمرحلة الاستيلاء على الحكم في حال سقوط مبارك.

جاءت نقطة التحول تقريبًا يوم 2 و3 فبراير/ شباط، عندما شنت قوات مبارك هجومها المضاد الحقيقي والأخير. يوم 2 فبراير/ شباط، وهو اليوم الأول لما سيعرف لاحقًا بما يسمى (معركة الجمل)، اقتحم الآلاف من رجال الشرطة بملابس مدنية وموظفو الحكومة، المسلحون بالبنادق والسياط والعصي والسيوف، وسط القاهرة، وبعضهم كان يمتطي الخيل والجمال. كان من الواضح أنه سمح لهم على ما يبدو بالعبور من خلال نقاط تفتيش الجيش. اقتحمت هذه القوات ميدان التحرير وسط القاهرة، وأخلت جزءًا كبيرًا من الميدان، وتظهر صورة فوتوغرافية حزينة من ذلك اليوم أحد المحتجين مع كاميرته، يسقطه أرضًا رجل يمتطي جملًا، ويحمل سوطًا في يده. وفي أجزاء أخرى من الساحة، هاجم بلطجية الحكومة المحتجين بالعصي وزجاجات المولوتوف.

في البداية، بدا وكأن هذه الثورة توشك أن تفشل، ولكن المتظاهرين تمكنوا من استعادة السيطرة على جزء كبير من الميدان بعد الظهر، برمي الحجارة ووضع الحواجز وتحريكها، وهاجموا قوات مبارك، وردوها إلى الوراء. على الرغم من زعم الحكومة أن قوات راكبي الجمال والخيل كانت من المدنيين من مؤيدي مبارك المناهضين للمحتجين، إلا أنه سرعان ما أصبح واضحًا أن كثيرين منهم كانوا من الشرطة والبلطجية المستأجرين: كثير من هؤلاء تم ضبطهم من قِبل المتظاهرين، وكانت بطاقات هوياتهم صادرة من وزارة الداخلية، وقد صورها المتظاهرون، ووضعوها على الإنترنت. في المساء كانت قوات مبارك قد اندحرت من ميدان التحرير إلى الشوارع الخلفية والطرق السريعة خارج الميدان، بما في ذلك جسر 6 أكتوبر، وهو الطريق السريع المؤدي عبر نهر النيل إلى ميدان التحرير.

كان من الصعب أن نتصور حدوث ثورة في السنوات السابقة حالكة السواد. ذات ليلة من ليالي الصيف الحارة في القاهرة عام 2007م، أي قبل أربع سنوات تقريبًا، كنت في منزل أحمد سيف الإسلام، محامٍ مصري محترم يعمل في مجال حقوق الإنسان

(وبالمناسبة، والد اثنين من المدونين المصريين، علاء ومنى، اللذين أديا دورًا بارزًا في انتفاضة 2011م)، يرافقني حسام، الناشط الذي أرسل الصورة الأولى من ميدان التحرير في 25 يناير/ كانون الثاني. كنا نجري مقابلات مع اثنين من ضحايا التعذيب، ونعمل على إعداد تقرير عن تحقيقات أمن الدولة سيئة الصيت في مصر، أو مباحث أمن الدولة، ركز التقرير على اعتقالات مباحث أمن الدولة خارج نطاق القضاء وعلى الاحتجاز والتعذيب والاعترافات القسرية. كنا قد اجتمعنا مع أحمد سيف في وقت سابق من الأسبوع لنسأله عن عدد من موكليه، من الشباب الإسلاميين السلفيين المستهدفين بالاعتقال من قِبَل مباحث أمن الدولة بسبب لحاهم ولباسهم التقليدي؟ كان أحمد سيف قد طلب منا مقابلته في منزله ليلًا، في الجزء الغربي من المدينة، بالقرب من الأهرام، وإجراء مقابلات مع عدد قليل من موكليه، ولذلك التقينا.

كنا نجتمع في منزل أحمد سيف للحد من خطر المراقبة. كان أحمد سيف قد قضى وقتًا في السجن لعمله في مجال حقوق الإنسان، وتستدعيه مباحث أمن الدولة بشكل روتيني للاستجواب (الطوعي)، وهو إجراء كانت مباحث أمن الدولة تمارسه بانتظام ضد النشطاء والصحفيين. هذا المحامي شخص هادئ ومنفتح، ولم يكن لديه نية لإخفاء ما كنا نقوم به عن أي شخص: إذا طلبوا منه مباحث أمن الدولة معرفة إن كنا قد قابلنا بعض موكليه، فإنه سيقول لهم كل شيء عما جرى، دون تردد، فهو يعرف أن: الحكومة المصرية كانت استبدادية، ولكنها لم تكن دكتاتورية، وليس سرًّا أن هيومان رايتس ووتش وغيرها من الجماعات تجري بحوثًا في البلاد. مع ذلك، أراد أن يقلل من خطر استجوابه؛ لذلك قال: إنه لن يسمح لنا بالتحدث عن بعض الأمور في أثناء المقابلات؛ خوفًا من أن يكون المكان مزروعًا بأجهزة لتسجيل المقابلات. بدلًا من ذلك، قال: إنه سيكتب الملاحظات لحسام على قصاصات من الورق، ثم سيحرقها في منفضة السجائر بعد أن يكون حسام قد قرأها.

(إبراهيم) شاب طلب مني أن أغيّر اسمه؛ لحمايته من الانتقام. قال لنا: إنه نقل إلى أمن الدولة بالجيزة في الوقت نفسه تقريبًا الذي اعتقلت فيه مجموعة من السلفيين في أحياء عدة من القاهرة – طرة، وحلوان، والمعادي. كانت هيومان رايتس ووتش تحقق في هذه القضية. اتُّهمت مجموعة كامله من الشباب، بالاعتراف بمؤامرة إرهابية غامضة، ولكنها بشعة، وبعد بضعة أشهر أفرجت عنهم لسبب غير مفهوم دون ملاحقة. افترضنا أن التهمة ملفّقة ومن تأليف مباحث أمن الدولة؛ لترهيب السلفيين، وجعل المباحث تبدو ذات صلة بالمؤامرة، أو كليهما.

حدثنا إبراهيم عما سمع ورأى من محنة الشباب عندما اعتقل لأول مرة:

«خمسة وعشرون منهم حُشروا معًا في غرفة واحدة، مزدحمة جدًّا، وحارة، بلا هواء، وبالطبع كانوا كلهم يستخدمون المرحاض أمام الآخرين. هل يمكنك أن تتخيل الوضع مع 25 شخصًا؟ فما إن ينتهي الشخص الـ 25 من المرحاض، حتى يكون أول شخص في حاجة لاستخدامه مرة أخرى»[1].

انشغلت مباحث أمن الدولة بخمسة وعشرين معتقلًا، ولكن لأن إبراهيم كان مسجونًا في زنزانة قريبة من الغرفة التي كانت تجري فيها الاستجوابات، فقد استطاع أن يسمع ما يجري:

«ما سمعته لم يكن مجرد تعذيب؛ كان أكثر من الخيال. ما سمعته، لا يصدقه بشر، لدرجة بتُّ أعتقد أنهم ربما كانوا متورطين في شيء ما. بدأت أتساءل: لأنهم يتعرضون للتعذيب بهذا الشكل، فيجب أن يكونوا قد شاركوا في بعض المؤامرات. لا يمكنك تخيل مدى القسوة: سماع ذلك الصراخ بسبب قسوة التعذيب، بالكهرباء. سمعت بعض المعتقلين يصرخون عندما يعذبون بالكهرباء، كنت أيضًا أسمع حسيس جهاز الصعق بالكهرباء».

إلى جانب انتهاكات الاحتجاز، قال لنا إبراهيم - مثلما أخبرنا كثيرون غيره -: إن المضايقات مستمرة للسلفيين من قِبل مباحث أمن الدولة والشرطة خارج السجن أيضًا، في الشارع، خارج المساجد، في محطات القطار، في كل مكان تقريبًا، وما تبيّن لنا من المقابلات، وما توصلنا إليه كان في نهاية المطاف تقريرًا لهيومان رايتس ووتش، ملخصه أن مباحث أمن الدولة لم يكونوا محدودي المعرفة فحسب، بل وأغبياء إلى حد لا يوصف، فلأنهم يفتقرون إلى إستراتيجية متطورة لمكافحة الإرهاب، كانوا يعتقلون كل السلفيين للاستجواب الروتيني وأحيانًا تعذيبهم للحصول على معلومات عن مؤامرات غير موجودة، إما لغرض سياسي معيّن أو لتبرير استمرار وجودهم بوصفهم مؤسسة.

في الوقت المتبقي، كما يعرف موظفو هيومان رايتس ووتش في مكتب القاهرة جيدًا، كان الدور الأساسي لمباحث أمن الدولة هو العثور على المعارضين لاستمرار حكم الرئيس مبارك ومعاقبتهم، فقد ألقوا القبض على الطلاب والنقابيين الذين احتجوا ضد انتهاكات الشرطة، واقتادوهم إلى مراكز مباحث أمن الدولة، وكان المعتقلون يخرجون بعد أسابيع خائري القوى من التعذيب.

لكن هذه الاعتقالات والتعذيب لم تكن مطلوبة دائمًا، إذ كانت المكالمات الهاتفية لاستدعاء السلفيين والمعارضين السياسيين إجراءً شائعًا، وكنت قد سمعت عن هذه (المقابلات) من حسام والمحامين، مثل أحمد سيف، فبعض ضباط مباحث أمن الدولة قد يدعونك هاتفيًا للحضور في المساء، وهو عرض لا يمكنك رفضه. كان الذهاب لمركز أمني بعيد، وبعضها مكاتب حقيرة في أحياء نائية ومعزولة من العاصمة، وفي ساعة متأخرة من الليل مخيفًا، بطبيعة الحال، ويهدف إلى إيصالك رسالة بألا تفكر في أن تخفي شيئًا، فنحن يمكننا أن نأخذوك إلى غرف التعذيب هذه الليلة. في ذلك المكان يمكن أن ننتظر ساعات في غرفة فارغة قبل المقابلة التي يجري فيها استجوابك مدة ساعات عن الأنشطة الأخيرة، والاجتماعات، والسفرات. هي تجربة طوعية في الظاهر، ولكنها تجربة مرعبة بلا شك.

على الرغم من أن التعذيب ليس جزءًا من كل مقابلة، إلا أن التعاون معهم لا يضمن لك الهروب من المعاملة العنيفة. كان حسام أول من ذكّرني بهذا وهو يحكي تجاربه الخاصة مع مباحث أمن الدولة. بينما كان يقود سيارته عائدًا بنا إلى وسط القاهرة من منزل أحمد سيف في تلك الليلة، أصبح غاضبًا بشكل واضح في إشارة إلى تعذيبه على أيديهم قبل سنوات. أستطيع أن أتذكره، وهو يتحدث في السيارة في تلك الليلة. كان يسوق بيد واحدة وسيجارته في اليد الأخرى، والسيارة تسير بنا ببطء في زحمة حركة المرور على الطريق السريع.

«يجب ألا تعطيهم أي معلومات» قال حسام، وسحب نفسًا عميقًا من سيجارته، «فعندما تعطيهم معلومة، سيعذبونك أكثر؛ للحصول على المزيد من المعلومات أكثر وأكثر». سحب نفسًا آخر من سيجارته، وصوته يتوتر قليلًا بالغضب. «لا يمكنك أن تعطي أولئك السخفاء الأوباش أي شيء» قال، وهو في الحقيقة كما لو كان يصرخ. «الطريقة الوحيدة لوقفهم هي أن تتوقف أنت عن إعطائهم أي معلومات، فكلما أعطيتهم معلومات أقل، أسرعوا في إنهاء المقابلة، لهذا السبب يجب ألا نعطيهم أي شيء، على الإطلاق».

التعذيب المؤسسي من قِبَل مباحث أمن الدولة هو ما جعل الأحداث في ميدان التحرير استثنائية ولافتة للنظر. عرف المحتجون الأوائل في أواخر يناير/ كانون الثاني 2011م أنه إذا فشلت الثورة، فإن مراكز الاحتجاز في مباحث أمن الدولة تنتظرهم. كانت هناك لحظات كثيرة عندما بدت النتائج لا مفر منها، عندما بدا أن مبارك كان على وشك أن يضرب المحتجين، وينجح في تفريقهم، كانت ليلة الثالث من فبراير/ شباط واحدة من أكثر الليالي الرهيبة، كان متظاهرون كثيرون قد قتلوا في أعمال العنف في ساحة ميدان التحرير، بأعيرة نارية أو من إصابات بالرأس، بما في ذلك نيران القناصة. وألقي القبض على كثيرين، ذكروا في وقت لاحق التعذيب الشديد على أيدي قوات مباحث أمن الدولة، ولكن الجيش تدخّل في حالات كثيرة لمنع قوات مبارك من إيذاء المحتجين،

فوجد الجيش نفسه في لحظات من الفوضى العنيفة العارمة، وكانت واجباته فيها غير واضحة. المشاركات على موقع تويتر تحكي القصة في لقطات قاتمة:

محمد Y:

ما زلنا نحتفظ بميدان التحرير # Egypt# Jan25

arahussein:

أمي، في عيادة/ المسجد «يبدو مثل مسلخ. الدماء في كل مكان». Jan25# # Tahrir #Egypt

جيجي إبراهيم:

الوضع يتفاقم في هذه اللحظة، ونحن لن نستسلم أبدًا! يسقط مبارك وأتباعه!

فيلم النهر الجاف:

غادر الجيش شارع شامبليون. لدينا صف من الرجال والحشد من الجانب الآخر يقترب. # jan25

جيجي إبراهيم:

إطلاق نار من شارع طلعت حرب. نحن في ميدان معركة

القاهرة المحتلة:

غادر الجيش شارع شامبليون. الآن لا حد فاصل بين صفّين متقابلين من المتظاهرين المناهضين للحكومة والبلطجية # jan25

إيان لي:

إطلاق نار كثيف

وائل عباس:

شاهد عيان: وضع قائد دبابة مسدسًا في فمه موشكًا على الانتحار، جنوده منعوه من ذلك، فانفجر بالبكاء #Jan 25

بحلول ذلك الوقت، كان زميلي بيتر بوكارت قد وصل إلى القاهرة، وكنت أتبادل معه البريد الإلكتروني ومع الزملاء الآخرين. اندلع العنف خلال الليل. شعر المحتجون بأن لا بد من إجلاء قوات مبارك من المنطقة. في وقت لاحق من الليل اندفعوا لفتح الطريق باتجاه جسر 6 أكتوبر، وهي المنطقة الأخيرة التي يشغلها (البلطجية).

«حسام الحملاوي:

100 من البلطجية يسيرون الآن في الغردقة، مع السكاكين، والسيوف، وهم يحملون صور مبارك لترويع المواطنين # Jan25.

إيفان هيل، مراسل قناة الجزيرة الإنجليزية، أبرق برسائل سريعة: «إطلاق نار في الهواء بالقرب من المتحف المصري. الجنود يطلقون النار لتفريق حشد مبارك. الوضع يزداد خطورة». بعد بضع دقائق: «المحتجون في ميدان التحرير [نصبوا] حاجزًا جديدًا يصل إلى المتحف المصري، الحشود المؤيدة لمبارك تهرول عبر شارع جانبي». تحدثت تقارير عن ناقلات جنود مدرعة تدور حول ميدان التحرير. أضاف هيل: «يبدو هذا المشهد من القرون الوسطى، الحشد المؤيد لمبارك شن هجمات عدّة ضد الزحف المتقدم من ميدان التحرير، لكنهم لم يتقدموا كثيرًا». وبعد بضع دقائق: «يبدو أن عدد المحتجين في المتحف يفوق عدد مؤيدي مبارك، لقد شكّلوا جدارًا متداخلًا من الدروع المعدنية». وبعد وقت قصير: «المحتجون فتحوا الحاجز؛ ليسمحوا للرجال المحتجين الذين يحملون الدروع المعدنية بالانقضاض على حشد المؤيدين لمبارك».

المتظاهرون تقدموا، وسرعان ما أصبحت لهم اليد العليا، ودحروا قوات مبارك في وقت لاحق سمعت القصة مباشرة من المشاركين، ولكن قراءتها على الهواء مباشرة على تويتر تهز المشاعر:

القاهرة المحتلة:

متظاهرو التحرير يحاولون التقدم ببطء بجدار دروعهم، وفتحت معركة جديدة بالحجارة والمولوتوف.

إيفان هيل:

الضربة القاضية: متظاهرو التحرير يندفعون بالكامل، ويدحرون حشد مبارك.

مصعب الشامي:

أجل! لقد أبعدناهم عن المتحف! إنهم يفرون مثل الفئران .#Jan25 # Tahrir

إيفان هيل:

متظاهرو مبارك في تقهقر كامل. هذا أمر لا يصدق المتاريس يجري تحريكها.

استمرت أعمال العنف في الليل، القناصة على أسطح البنايات المحيطة قتلوا ثمانية على الأقل من المتظاهرين في ميدان التحرير. منى سيف، ابنة أحمد سيف، غرّدت تقول: «صديقتي اتصلت بي من خط المواجهة، أطلقوا النار على متظاهر آخر، فقتلوه أمام عينيها». المتظاهر رامي رؤوف كرر الخبر نفسه. في وقت متأخر من الليل، اقتحمت قوات مبارك جسر 6 أكتوبر مجددًا، ولكن المتظاهرين صدوهم مرة أخرى. شقيق منى؛ علاء وصف ذلك في تغريدة: «لقد تطلب الأمر الاندفاع بشكل جماعي تحت وابل من النيران من فوقنا والذخيرة الحية من أمامنا».

بعد ساعات قليلة، اعتقل علاء شقيق منى وأبوها أحمد سيف مع عدد من باحثي حقوق الإنسان المصريين، إضافة إلى باحث هيومان رايتس ووتش دان ويليامز، وعدد من الصحفيين، من بينهم مديرة مكتب الواشنطن بوست ليلى فاضل، وطُعن الصحفي السويدي بيرت سنستروم في بطنه، وأدخل المستشفى، واعتقلت مراسلة صحيفة نيويورك تايمز سعاد مخنِّت مع صحفي آخر وسائق، واقتيدوا إلى مركز مباحث أمن الدولة في مدينة نصر.

كتبت سعاد في وقت لاحق في صحيفة نيويورك تايمز أنهم عصبوا عينيها، وهددوها بالتعذيب، وأنها سمعت صراخ المعتقلين الآخرين عندما كانت في المركز، ربما بسبب الضرب والتعذيب (وبعد بضعة أشهر في واشنطن قالت لي سعاد: إنهم أخبروها بأنها كانت على وشك أن تُعدم، ولكنها لم تذكر هذه الحقيقة في تقريرها).

أظهر علاء ومنى شجاعة غير عادية بعد اختفاء والدهما في السجن في 3 فبراير/ شباط «لست قلقة على أبي» كتب علاء في تغريدته من داخل ميدان التحرير «فقد قضى 5 سنوات في سجون مبارك من قبل، وتعرض للتعذيب، ويمكنه التعامل معهم».

حدثت لحظات عاطفية عظيمة خلال تلك الأيام، حيث تضامنت الأسر والأجيال، واتحدت في معارضتها لمبارك، كتبت متظاهرة معروفة باسم زنوبيا في تغريدتها قبل مظاهرة رئيسة في ميدان التحرير تقول: «أمي تقول: لن تذهبي إلى ميدان التحرير. أنا سوف أذهب وأنت ستظلين مع الجدة هذه المرة».

كتب علاء، في ليلة 2 فبراير/ شباط: «في مرحلة ما وجدت أستاذ الجامعة المسن يلقي بالحجارة بجواري، فاضطررت إلى جره بعيدًا بالقوة» وكتب حسام كيف أنه حتى المغتربين والمصرفيين الاستثماريين في القاهرة انضموا إلى المسيرات. المدرب البرتغالي لفريق كرة القدم المصري رفض مغادرة القاهرة حتى بعد أن رتبت البرتغال الإخلاء القانوني لمواطنيها.

كشف النظام نفسه تمامًا أنه بعيد كل البعد عن الواقع. كانت خطب مبارك التلفازية واهمة، وجعلت المحتجين أكثر تصميمًا، كان يقول أشياء مثل: «لم أسعَ يومًا لسلطة أو شعبية زائفة إن الأغلبية الكاسحة من أبناء الشعب يعرفون من هو حسني مبارك»، أو: «إنني لا أتحدث إليكم اليوم كرئيس للجمهورية فحسب، وإنما كمصري شاءت الأقدار أن يتحمل مسؤولية هذا الوطن». وفي أحد خطاباته المتلفزة قال: «لم أكن يومًا طالب سلطة أو جاه». وقد حاول عمر سليمان، رئيس المخابرات المصرية مدة طويلة وفي وقت لاحق نائب الرئيس مبارك، الذي كان قد طرح زعيمًا محتملًا في المرحلة الانتقالية في أيام مبارك الأخيرة، أيضًا وفي كثير من الأحيان التعلق بقشة، ففي مقابلة مع كريستين أمانبور في 3 فبراير/ شباط، نفى سليمان أن تكون القوة استخدمت ضد المتظاهرين، ووصف كيف أن الحكومة تعتزم (التحدث) إلى المحتجين وإقناعهم بالعودة إلى بيوتهم. وأضاف «أننا سوف ندعوهم»، ثم قال: «لن نستخدم أي عنف ضدهم، سنطلب منهم العودة إلى بيوتهم، وسنطلب من آبائهم أن يطلبوا منهم العودة إلى بيوتهم». أمانبور، فوجئت إلى حد ما بهذه اللغة الأبوية، وأشارت إلى أن كثيرًا من المتظاهرين كانوا في الشوارع مع والديهم، ولكن سليمان تمادى أكثر، فقال: «سندعو أجدادهم».

مرت أيضًا لحظات من المرح وسط تلك الدراما. أحد المحتجين أنشأ حسابًا ساخرًا على تويتر عن مبارك وعمر سليمان، وسخر من سخافات وسائل الإعلام، كما هو الحال عندما وصف صحفيون موظفي الحكومة الذين يرتدون ثيابًا مدنية بأنهم «محتجون موالون لمبارك» وتساءل: «مؤيدون لمبارك؟؟». «يا ناس! هؤلاء البلطجية يكلفون الكثير من المال والتدريب! حتى إنني منحتهم خطة معاشات تقاعدية!». كان هناك الكثير من الازدراء الهزلي على حساب CNN ووسائل الإعلام الأخرى في الولايات المتحدة. وتميزت قناة الجزيرة بتغطية متفوقة طوال الأحداث الرئيسة في الثورة، مع وجود مراسلين في ميدان التحرير ومدن أخرى، ولكن لم يكن التقاطها ممكنًا إلا في واشنطن عبر الإنترنت. أما محطة CNN في الولايات المتحدة فتوقفت عن تغطية الثورة،

وأخذت تبث الأخبار والاستطلاعات المحلية. شخصيًّا، نشرت على الفيسبوك في 28 يناير/ كانون الثاني: «في خضم ما قد يكون في نهاية المطاف واحدًا من أكثر الأيام التاريخية في تاريخ الشرق الأوسط الحديث، تبث CNN برنامجًا عن ماكياج الفتيات المراهقات». سام ظريفي رد بعد بضع دقائق: «الثورة عابرة، ندبات حب الشباب في سن المراهقة تدوم للأبد».

وبحلول مساء يوم 3 فبراير/ شباط ساد شعور بأن السلطة تفلت بالتأكيد من الرئيس مبارك، فجهازه الأمني الخاص لم ينظّم ردًّا مضادًّا على الثورة. تعرض ميدان التحرير لهجمات، ولكن المحتجين لا يزالون فيه. اعتقل الصحفيون، لكن نشرات الأخبار ظلت مستمرة. كثرت الشائعات بأن هجمات أخيرة كانت على وشك الحدوث، وأن النظام كان يستخدم التكنولوجيا للتشويش على الهواتف الخليوية، وأن المزيد من القناصة سيرسلون إلى المكان، لكن المتظاهرين داخل ميدان التحرير حافظوا على هدوئهم، وجاءت أفضل تغريدة للثورة ليلة 3 فبراير/ شباط:

القاهرة المحتلة

مهم، لا توجد كلاب ميكانيكية أو قناصة طيارين في ميدان التحرير، الجميع بخير، ويتحدون هذا النظام الفاشي.

لم يتعرض المتظاهرون لتهديد خطير مرة أخرى. ألقى مبارك خطابه الواهم النهائي في 10 فبراير/ شباط، وأعلن سليمان استقالة مبارك في اليوم الثاني.

كانت هذه إضاءة على الحركة، فبعد 10 فبراير/ شباط أخذت الأمور تصبح أكثر طبيعية، وتافهة، ومعقدة، ومن ثم مأساوية. شكّل الجيش مجلسًا لقيادة البلاد حتى الانتخابات لاختيار برلمان ورئيس جديدين، والإشراف على عملية صياغة الدستور الجديد. اعتقل مبارك؛ للانتهاكات التي ارتكبت خلال قمع المتظاهرين، لكن المجلس شارك في الوقت نفسه في ارتكاب انتهاكات جديدة - احتجاز المعارضين والمحتجين

وإغلاق المنظمات غير الحكومية التي قيل: إنها متورطة بإثارة الاضطرابات - وتلكأ في التخلي عن السلطة، وما خيب آمال المتظاهرين أكثر، هو أن المستفيد الرئيس من سقوط مبارك كان الإخوان المسلمين، الذين لم يشاركوا في تنظيم الحركة الأولية ليوم 25 يناير/ كانون الثاني، ولم ينضموا إلى الاحتجاجات في وقت مبكر، والذين ظهر من بينهم القادة الحريصون أكثر من اللازم على الوصول إلى السلطة، كانوا على استعداد أيضًا للتوصل إلى تنازلات مع الجيش المصري. مرشح الإخوان المسلمين، محمد مرسي، فاز في الانتخابات الرئاسية عام 2012م، ولكن الجيش أطاح به بعد الاحتجاجات الضخمة ضد الإخوان المسلمين عام 2013م. أعلن قائد الانقلاب، الجنرال عبدالفتاح السيسي، في وقت مطلع عام 2014م أنه سيرشح نفسه للرئاسة، ثم فاز بها.

بحلول الذكرى السنوية الثالثة للانتفاضة، كانت البلاد تعيش مرحلة انتكاسة ما بعد الثورة، ومع نهاية عام 2014م، كانت الثورة المضادة قد اكتملت: كان السيسي هو الرئيس، أطلق سراح مبارك من السجن، وعادت كثير من الملامح المميزة لأسوأ سنوات حكم مبارك: سجن المعارضين، ومزيد من القيود على وسائل الإعلام ومنظمات حقوق الإنسان، والتعذيب.

في ليبيا، الثورة المستوحاة من الأحداث في مصر تحولت إلى حرب أهلية، وكانت نهاية القذافي ممكنة فقط عن طريق التدخل العسكري. في مرحلة ما بعد القذافي، أصبحت أجزاء كثيرة من البلاد في أيدي الميليشيات المنتشرة مع اختلاف الولاء للحكومة الجديدة، وهو وضع مشابه لأفغانستان.

الأحداث في سوريا، بطبيعة الحال، تبشر بمصير أسوأ. مع ذلك، فعلى المستوى الأساسي، تغير كل شيء: فعلى الرغم من الانتكاسات، فقد تلقى حكم الرجل القوي في الشرق الأوسط ضربة خطيرة. وعلى الرغم من الإحباط الهائل والشك، إلا أن الشعور الجديد بالممكن يسود الأجواء.

بالنسبة إلى كثير من الناشطين في مجال حقوق الإنسان، كانت أحداث أوائل عام 2011م مذهلة وثقيلة، وأثارت السؤال: ما حجم دور عمل حقوق الإنسان – إعداد التقارير والدفاع – في إحداث الإصلاحات في مصر خلال حكم مبارك، أو في التسبب بسقوطه؟

من معظم وجهات النظر، فإن الجواب هو: ليس كبيرًا، فقد ظلت جماعات حقوق الإنسان لسنوات هي الشاهد، والناقد، والذي يصف الحكومة المصرية بما كانت عليه، وربما يكون إظهار التضامن قد شجع الموجودين في مصر على مواصلة القتال ضد النظام، ولكن هذا لم يسبب الثورة، وعندما جاءت الثورة، انتهى بها الأمر إلى انقلاب عسكري.

في ليبيا، حيث البلد الثاني الذي امتدت إليه الثورة كان الدور أكبر من ذلك: أدى المدافعون عن الحقوق دورًا في تشجيع إدارة أوباما والدول الأوروبية على التدخل وضمان سقوط القذافي. ولكن هل كان ذلك سببًا مناسبًا للاحتفال؟

في وقت متأخر من ولاية الرئيس أوباما الأولى، بعد سقوط القذافي، حضرت اجتماعًا في مقر مجلس الأمن القومي مع سامانثا باور، التي كانت عندها أحد كبار المستشارين لأوباما ورئيسة (مجلس منع الفظائع) المكلف بتقديم المشورة للرئيس عن حالات حقوق الإنسان الخطيرة. على رف الموقد في مكتبها وضع قفل مكسور من باب سجن أبوسليم سيئ السمعة في مدينة طرابلس؛ قفل رمادي باهت التقطه موظفو هيومان رايتس ووتش عندما تحرر السجن، وقدّمه لها زميلي توم مالينوفسكي، تذكارًا لسقوط القذافي ونهاية كل ما اقترفه من انتهاكات. عُيّن توم فيما بعد مسؤولًا كبيرًا في وزارة الخارجية في مجال حقوق الإنسان.

بدا (تحرير) أبوسليم والإفراج عن السجناء لحظة نهوض، وواحدة من أبرز التغييرات في ليبيا. لكن شيئًا في ذلك القفل أزعجني عندما رأيته أول مرة. يومها لم أسأل سامانثا عن الدوافع من وراء عرضه؟ لم يكن هذا شبيهًا باحتفاظ الرئيس جورج

بوش بمسدس صدام حسين المصادر، الذي قدّمه له أحد الأفراد العسكريين الذين أسروا الرئيس العراقي في ديسمبر/ كانون الأول من عام 2003م. مع ذلك، رأيت شبهًا بعيدًا: التذكاران يذكّران بسقوط طاغية، وحدث هذا في البلدين عن طريق العنف. يمكنني أن أفهم الدعوة إلى العنف لإنهاء الأعمال الوحشية، لكن الاحتفال بالعنف في صورة تذكار كان مثيرًا للقلق.

في الواقع، أنه لا الحكومات ولا جماعات حقوق الإنسان هي التي جاءت بالتغييرات في مصر، على الرغم من هشاشتها وقصر أجلها، ولا هما أيضًا من أحضرا التدخل العسكري في ليبيا. في الحقيقة أن الأحداث التاريخية هي التي أعطت الزخم لنفسها كما تفعل دائمًا: أعمال بشرية لا تعد ولا تحصى من الشجاعة في الوقوف في وجه القمع، وسلسلة متتابعة من الأسباب والنتائج التي جعلت حكم الطغاة لعقود طويلة ضعيفًا لا يمكن الدفاع عنه، إلى الحد الذي جعل بعض الكيانات العنيفة الأخرى تحول الأحداث لمصلحتها، كما هو متوقع. لذلك، ليس من المستغرب، أن كل ما حدث بعد ذلك لم يكن على ما يرام. مع ذلك، فإن نتائج الثورات العربية، على الرغم من إشكاليتها، جعلت مهمة جماعات حقوق الإنسان أكثر أهمية من ذي قبل، بعد أن انطلقت عمليات الثورة التي يمكن لجماعات الحقوق - ربما - التأثير فيها. إن مشاعر التعاطف يمكن تخديرها، فنحصل على القليل من العار. إن عنف الدولة الذي ناقشناه سابقًا ظل وقتًا طويلًا فوق القانون، ولا يمكن المساس به، لكنه بعد ذلك أصبح محكومًا بالكلمات والقوانين، وهذا تغيير بحد ذاته.

* * *